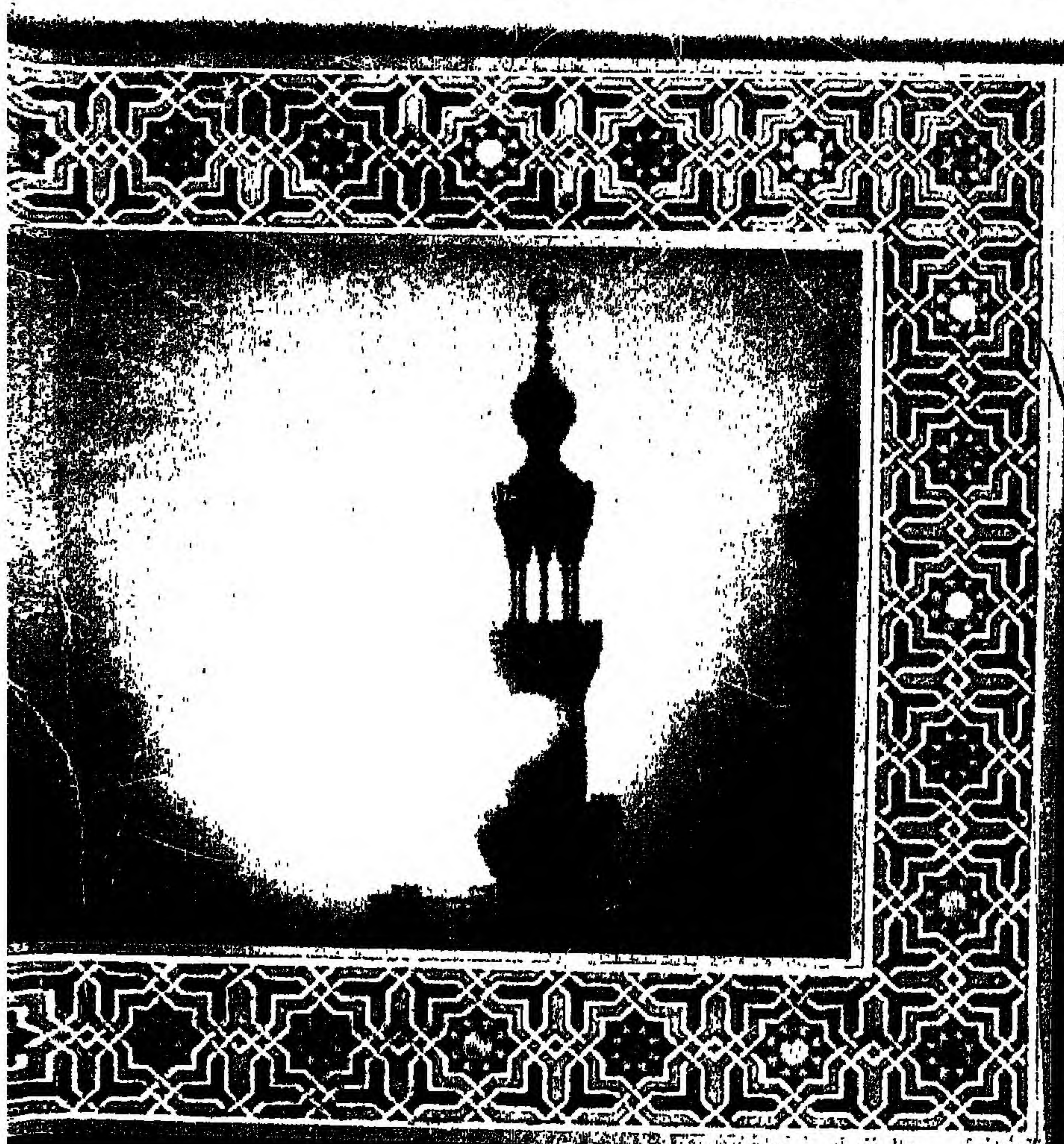
عمر في الإسلام

القرن الأول

الدكتور عبد الصبور شاهين

الأستاذة إصلاح عبد السلام الرفاعى





مصر فى الإسلام

مصر فى الإسلام

الدكتور
عبدالصبور شاهين

الأستاذة
إصلاح عبدالسلام الرفاعى

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــاب : مصر فى الإسلام

المـؤلـــــف : د. عبدالصبور شاهين/ إصلاح عبدالسلام

تـاريخ النشـر : ٢٠٠٠ م

النـــاشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبده غريب

شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

ف : ٢٤٧٤٠٣٨، ت: ٢٤٦٢٥٦٢

التـــوزيـــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

المطـــابـــع : مدينة العاشر من رمضان

المنطقة الصناعية (C1)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

رقـم الإيـداع : ٨٧٧٦ /٩٩

الترقيم الدولى : ISBN

977- 303 - 174 - 8

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

دعوة الإسلام هى الغاية العليا التى ينبغى أن يتغياها كل مؤمن بالإسلام، هكذا أراد الله لنبيه حين أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وهكذا ورّث الرسول ﷺ أصحابه عبء هذه الدعوة وألزمهم بها حتى حملوها إلى الدنيا، فى فتوحاتهم، لا يدفعهم إلا دافع هذه الدعوة، وقد تجردوا من كل دوافع الحياة؛ كتحقيق السلطان وتحصيل الثروات والبغى فى الأرض، وغير ذلك مما ساق الأباطرة والطغاة فى التاريخ ليفتحوا البلاد ويذلوا العباد.

أما أهل الإسلام بدءا بصحابة محمد ﷺ فلم يكن لهم من غاية سوى نشر هذه الدعوة وإدخال الناس فى دين الله أفواجا، فإذا فعلوا ذلك عصموا دماءهم وأموالهم (إلا بحقها) وحسابهم على الله.

وكتاب (مصر فى الإسلام)- القرن الأول الذى نُقدمه اليوم آية واضحة على صدق هذا الكلام، فقد حمل الفاتحون الأولون دعوتهم فى قلوبهم وجاءوا بهذه القلوب يفتحونها للشعوب، وينيرون بها حياتهم، ويبرزون للناس من أنفسهم القدوة الصالحة الصادقة ليسيروا على هداها، وليتحقق بهم المثل الأعلى فى السلام والحرية وفى المساواة والإخاء والعدل المطلق، وكأنما ساقهم القدر هذا المساق لكى يعوض بهم الشعوب المطحونة عما أصابها من ويلات الطغاة المستعمرين من فرس ويونان ورومان، وهو ما يفسر دخول الناس فى الإسلام، واعتناق الشعوب للدعوة المحمدية، اعتناقا تلقائياً، لا إكراه معه، ولا إذلال، ولا استعباد. وقد نذكر هنا كلمة عمر بن الخطاب التى صارت مثلا أعلى للسياسة الإسلامية فى الشعوب المفتوحة- عندما قال لعمرو بن العاص بمناسبة شكوى رجل مصرى من سوء معاملة ابن عمرو له قال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟

هذه الكلمة لم يعرفها التاريخ ولم تسمعها الدنيا إلا من فم عمر بن الخطاب الخليفة المسلم، وهو يضع بها دستور الحرية المطلقة والتكافؤ المطلق لحماية الشعوب المفتوحة من نزوات الأنفس الجاهلية التى لا تعرف دين الله الحق، وما كان عمر بن الخطاب فى كلمته هذه يخترع الحرية اختراعا، أو يأتى بشىء لم

يعرفه غيره من الصحابة؛ بل كانت الحقيقة التى عبر عنها مبدأ مقررا فى نفس كل جندى من جنود الفتح الإسلامى، ولكن فضل عمر هو فى صياغة المبدأ على هذا النحو الواضح المعجز.

ومازالت الإنسانية على اختلاف عصورها مقصرة عن تحقيق مبدأ عمر بن الخطاب، الذى التزمه المسلمون فى دولة حضارتهم، وانطلاقهم بدعوتهم وقد عانت الإنسانية من موجات الاستعمار والاستعباد فى عصرنا هذا أشد المعاناة، وذاقت من أهوال التفرقة العنصرية التى هى فى الحقيقة تعبير عن رغبة اللون الأبيض فى افتراس سائر الألوان واحتقارها- عانت ما تشهد به سجلات التاريخ الحديث وملامحه، ولو قدر لسلطان الإسلام أن يستمر على هذه الأرض لنعمت الإنسانية بدعوته، ولعاشت فى ظلال الأمن والسلام والعدالة الإلهية، ولكنها سنة الله فى خلقه أن يدفع بعض الناس ببعض ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا.

نقول هذا ونحن نقدم فى نهاية القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين هذا الكتاب عن الفتح الإسلامى فى مصر، ودخول مصر فى الإسلام، ونحسب أننا بهذا الكتاب نؤدى واجب الدعوة فى أعناقنا، ونفتح صفحة مضيئة مشرقة، احتجبت زمانا طويلا عن رؤية الناس. ونحن نؤمن بأن الهدف الذى توخيناه من تقديم هذا الكتاب ينبغى أن يكون هدفا لكل كاتب فى مجتمع الإسلام، ولكل قائل فى أمة الإسلام، فهو ميراث انتهى إلينا من يد محمد ﷺ عبر الأجيال، ونحن ندفع به من خلال هذا الكتاب إلى أيدى الأجيال القادمة نناشدها أن تتبنى دعوة الإسلام وأن تحرص عليها، وأن تجعلها غايتها المقدسة، من كل عمل تؤديه، أو خير تسديه، أو كتاب تقدمه، أو هدف تسعى إليه، أى أن يكون الله هو الغاية، والقرآن هو الدستور، وألا تخرج عن هذا الإطار أبدا، فهو المثل الأعلى، والمطلب الأسنى، وما عداه من يمين وشمال فهو زيغ وانحراف، ونذكر هنا قولة على رضى الله عنه : (اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هى الجادة، عليها باقى الكتاب وآثار النبوة، وإليها مصير العاقبة). وصدق علىّ فإن الكتاب هو الدستور الباقى لنا من عطاء أسلافنا، وما علينا إلا أن نحمل هذا الكتاب ونمضى على آثار النبوة مبلغين لدعوة الله، مبينين لآياته، فهذا هو سبيلنا، الذى لا سبيل غيره.

نقول هذا ونحن نستمع كثيرا إلى أصوات منكرة تنسب إلى الإسلام التطرف والعدوان، وتدعى أنه ما انتشر إلا بالسيف، كما أنه يتخذ الآن من سيف الإرهاب وسيلة لبقائه، ولو كان السيف يصلح وسيلة لنشر دعوة؛ فقد حمل أعداء الإسلام من معاصرين كما حمل السابقون عليه من الطغاة والظالمين سيوفهم ليذلوا أعناق الشعوب، فلم تحقق لهم السيوف شيئا، ولا أبقت لهم مجدا، ولا أرست لهم دولة، بل كان وجود تلك النظم الباغية قبل الإسلام وبعد الإسلام سرابا يتقشع أمام أضواء الهداية الإسلامية وأنوار النبوة المحمدية، واشعاع العدالة الإلهية فى تعاليم الإسلام ودعوته.

ومن الظلم للتاريخ أن تشيع فى الناس تلك الدعاوى السخيفة التى ألمحنا إلى مضمونها، وهى لا تعدو أن تكون تشويها لوجه الحق، وترويجا لدعاوى الباطل.

لقد انتشرت دعوة الإسلام لأنها كانت الخير كله والحق كله والعدل كله، ومازالت دعوة الإسلام هى الأمل فى إنقاذ البشرية من طغيان النظام العالمى الواحد القائم على البغى والعدوان، وهو النظام الذى يتفرد الآن بالجبروت، ويفرض أحكامه العسفية على الدول الضعيفة، والشعوب المغلوبة على أمرها، وآخر تمثيلياته الهزيلة والاجرامية معا اقدامه على إخلاء كوسوفو المسلمة من سكانها ليقيم فيها قاعدة عدوانية فى البلقان.

إن العالم الآن بحاجة إلى رعيل من الرجال المؤمنين المجاهدين لينقذه من طغيان النظام العالمى المستبد، كما أنقذ الرعيل الأول من صحابة محمد ﷺ الشعوب المغلوبة تحت وطأة الروم وغيرهم، فأقاموا للناس مملكة العدل، وقاعدة الحرية.

والكتاب الذى بين يدى القارئ الآن يقدم صورة إجمالية لما حدث منذ أربعة عشر قرنا[1] من الزمان على أرض مصر، وهو ما حدث أيضاً على أرض الشام والعراق وفارس والمغرب، وكل البلاد التى قصدها الإسلام وتوجهت إليها دعوته على أيدى الفاتحين الميامين.

---

(١) كتبت هذه المقدمة فى غرة المحرم سنة ١٤٢٠هـ، وتم فتح مصر كما هو معلوم فى غرة المحرم سنة ٢٠هـ فقد مضت فعلا أربعة عشر قرنا بالتمام والكمال.

وسيجد القارئ فى الكتاب سير الأمراء المسلمين فى القرن الأول، وهم يمثلون الدعوة التى يحملونها بين جوانحهم، وسيجد أننا لم نجامل أحدًا منهم فى تتبع ما له وما عليه، كما سيجد دراسة وافية لكل الصحابة الذين شاركوا فى الفتح فمنهم من اختار مصر وطنا له وهم جماعة اختطوا فيها منازلهم، وعاشوا فى أرجائها ينشرون الدعوة فى أريافها، وقراها، ومنهم من آثر أن يمضى فى مسيرة الجهاد غازيا فى سبيل الله فاتحاً أرض إفريقية، فشرقوا وغربوا، ومازالت آثارهم المباركة ماثلة فى الممالك التى أنشأوها، والشعوب التى قادوها بنور الاسلام، وقد أبقى الله عز وجل ذكر هؤلاء المجاهدين فى كل أرض توجهوا إليها، فمازالت قبورهم مزارات يحج إليها المسلمون فى بلادهم، وهى شاهدة لهم إلى يوم القيامة، بما بذلوا فى جهادهم من أجل الدعوة إلى الله.

وتبقى إشارة لابد منها أننا اقتصرنا على من شاركوا فى معارك الفتح الإسلامى لمصر سواء فى حصن بابليون أو فى الإسكندرية أو الفرما وبلبيس وعين شمس ومعارك الصعيد حتى وصلوا أرض السودان، فهؤلاء هم الذين عنينا بتتبع سيرهم فأما الصحابة الذين جاءوا بعد تمام الفتح وعاشوا فى أرض مصر فلم نعرض لهم فى قليل ولا كثير.

هذا وإنا لنرجو من الله عز وجل أن يجعل هذا الكتاب لسان صدق لدعوته، وإجابة حاسمة على كل ما يثيره العلمانيون والمرجفون من دعاوى كاذبة، وأقوال خاطئة يريدون بها أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره، والله ولى التوفيق.

غرة المحرم سنة ١٤٢٠هـ
١٧ من أبريل سنة ١٩٩٩م

عبدالصبور شاهين
إصلاح الرفاعى

الفصل الأول

الدين فى مصر قبل الإسلام



كانت مصر الفرعونية وثنية متعددة الآلهة، حتى دخلتها المسيحية أثناء حكم الرومان الذين استولوا عليها بعد أن هزموا الملكة كليوباترا السابعة عام ٣٠ قبل الميلاد، وكان دخول بعض المصريين فى المسيحية سبباً فى اضطهادهم من قبل أباطرة روما الوثنيين، قبل أن تصبح المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية بعد أكثر من ثلاثة قرون.

فمثلاً فى عهد دقلديانوس (٢٤٥: ٣١٣ للميلاد) قتل وعذب عدداً لا يحصى من القبط، يقول د. حسن إبراهيم: إن عددهم كان عظيماً، وإن الاضطهاد تناول جميع الطبقات، وقد بدأ الاضطهاد بالبلاد المصرية عام ٣٠١ للميلاد، وأظهر فيه دقلديانوس قسوة لا مثيل لها جرّت عليه كراهية المصريين وحنقهم، حتى ظلوا يرون فيه -إلى اليوم- مثالاً للظلم والاستبداد، وصاروا يؤرخون حوادثهم من سنة اعتلائه العرش عام ٢٨٤ للميلاد، ويسمى هذا التاريخ عندهم تاريخ الشهداء[1].

وعندما جاء (قسطنطين) إمبراطوراً لروما، ودخل النصرانية عام ٣٣٧ للميلاد، جعل الديانة المسيحية هى الديانة الرسمية لكل المصريين، وأجبر بقيتهم على اعتناقها، وترك آلهتهم المتعددة، غير أنه لم يفعل سوى أن استبدل بتعدد الآلهة عند المصريين تعدداً آخر عند المسيحيين.

وجاء بعد قسطنطين أباطرة حذوا حذوه فى إكراه هؤلاء المصريين على اعتناق النصرانية، وهى الدين الحق آنذاك - وتنصر أكثر المصريين وأجبروا على نسيان دياناتهم السابقة، فقد حاول أمراؤهم محو كل ما سبق فى عبادتهم.

يقول جوستاف لوبون: أمر القيصر تيودور[2] فى عام ٣٨٩ للميلاد بهدم جميع تماثيل الآلهة المصرية القديمة ومعابدها، وجميع ما يذكر الناس بها، واكتفى بتشويه كتابات المعابد المصرية التى كانت من المتانة بحيث لم يقدر على هدمها بسهولة[3]

---

(١) تاريخ عمرو بن العاص ٥٥.

(٢) أحد أباطرة الرومان اسمه (ثيودوسيوس) من عام ٣٤٦: ٣٩٥ للميلاد، دعا فى عهده لمجمع القسطنطينية الثانى.

(٣) حضارة العرب ٢٠٦.

وأصبحت مصر تدين بالمسيحية، لكن بمذهبين مختلفين: المذهب الملكانى: الذى يدين به حكام روما وأولو الأمر فى الإمبراطورية، والمذهب اليعقوبى: الذى تدين به بقية طوائف الشعب المصرى، والذى أسسه البطريق السكندرى (ديوسقوروس).

وأصل المذهب الملكانى قولهم بأن الكلمة اتحدت مع جسد المسيح وتدرعت بناسوته، والكلمة هى أقنوم العلم، وروح القدس هو أقنوم الحياة، والمسيح قديم أزلى، وولدت مريم إلهاً أزلياً، والقتل والصلب وقعا على الناسوت واللاهوت، فالله واحد ذو ثلاثة أقانيم هى: الوجود والعلم والحياة.

أما المذهب اليعقوبى فقد قال أصحابه بأن هذه الأقانيم الثلاثة انقلبت لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح بجسده، والمسيح جوهر واحد، ولكنه كان جوهرين، جوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المحدث، تركبا كما تركبت النفس والبدن فصارا جوهراً واحداً، ومريم فى رأى اليعاقبة لم تأخذ الكلمة منها شيئاً، كما يقول الشهرستانى: مرت الكلمة فى مريم كالماء فى الميزاب[(١)]

وقد شهد القرنان السادس والسابع للميلاد خلافاً شديداً، وصراعاً متصلاً بين المصريين والرومان من جراء اختلاف المذاهب، فمثلاً فى عهد القيصر بوستينوس[(٢)] بعث بطركاً إلى الإسكندرية، فجاهر الأهالى بالثورة على مذهبهم، ووقعت صراعات ومعارك دموية.

يقول د. حسن إبراهيم:...امتلأت الشوارع بأشلاء القتلى من الأهالى والجند، وأحرقت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الثالثة [(٣)].

وزادت حدة الخلاف اشتعالاً فى عهد الامبراطور جستنيان (٤٨٣: ٥٦٥ للميلاد)... يقول بتلر: فى الحق لم يكن فى بلاد الدولة الرومانية من هو أشقى حالاً من مصر، فقد سعى جستنيان[(٤)] ليجبر القبط الذين ليسوا على مذهب

---

(١) الملل والنحل ٢ / ٥٦.

(٢) المتوفى عام ٥٢٧ للميلاد.

(٣) تاريخ عمرو ٥٧، والعاصمة هى الإسكندرية، والأولى القسطنطينية، والثانية دمشق.

(٤) تولى الإمبراطورية من عام ٥٢٧: ٥٦٥ للميلاد.

الدولة (الأرثوذكسى)[1] فيدخلهم فى هذا المذهب، ولكن امرأته تيودورا عملت من جانب آخر فأفسدت بعض سعيه، إذ كانت تعطف على مذهب هؤلاء الأقباط عطفاً ظاهراً، وعاد الكفاح الشديد الذى ثار قديماً بين طائفتى (الملكانية) و(اليعاقبة)، وصار أشد سعيراً.

ولم يعد لقبط مصر همّ أكبر منه يملأ قلوبهم، ويملك عليهم آمالهم، فلم يكن عجباً أن يسمع صليل السلاح بين حين وحين فى مدينة الإسكندرية نفسها[2].

ولم يكن هذا الخلاف بين الروم والقبط من ناحية الدين والجنس فقط، وإنما كان هناك سبب اقتصادى هام، فقد اعتبر أباطرة روما مصر البقرة الحلوب ورغيف الخبز لكل الإمبراطورية، ولذلك كان هم حكام مصر من قبلهم جمع المال لخزائن بيزنطة، وحاشية إمبراطور بيزنطة، ولم يفكر هؤلاء الحكام فى حال الشعب المسكين الذى يزرع لتأكل روما، ويجوع ليشبع أباطرتها، أما القبط فلا أحد يفكر فى ترقية حالهم، أو إصلاح أمور أرزاقهم، أو توفير الرفاهية لهم، بل هو الضرب بيد من حديد لهذا الشعب المسكين.

قال د. حسن إبراهيم: استولى الرومان على مصر عام ٣٠ قبل الميلاد، فأصبحت كملك خاص للإمبراطورية، وفى عهدهم تحولت العناية إلى الزراعة، فكانت كمخزن غلال روما، تفى بحاجتها من الحبوب، فدرست آثارها، وانحطت درجة العلم التى كانت بها[3].

وقال ورل ديورانت: كانت مصادر الثروة المعدنية كلها ملكاً للدولة، وكان قطع الرخام، واستخراج الحجارة الكريمة امتيازاً خاصاً للحكومة[4].

كانت هذه حال البلاد المصرية بوجه عام، عدا الإسكندرية[5] عاصمة الحكم الرومانى، فقد كانت مختلفة عن بقية البلاد، فهى من أشدها مراساً وعنفاً، لكثرة

---

(١) ينقسم هذا المذهب الآن إلى: أورثوذوكسى: وهم الذين لا يعترفون برياسة بابا روما، أما الكاثوليك فيعترفون برياسته.

(٢) فتح العرب لمصر ٣.

(٣) تاريخ عمرو ٥٩.

(٤) قصة الحضارة ١١ / ٩٧.

(٥) مدينة كبيرة على شاطئ البحر الأبيض غربى فرع رشيد، قال بتلر: بناها الإسكندر المقدونى كما أوصاه أستاذه أرسطو، فجعل وراء الأسوار مياه النيل، وجعل لها أبواباً قوية. (فتح العرب لمصر ٦٤).

حصونها، ولوجود أخلاط من أجناس شتى: إغريق وقبط وسوريين ويهود وعرب وغرباء من بلاد شتى، جاء بعضهم لتلقى العلم، وبعضهم للتجارة، وبعضهم للسياحة وغيرها، ولذا كانت الاضطرابات فيها شديدة، والمنازعات دائمة، والخلافات مستعرة، أما عن أحوال المصريين الدينية فى السنوات الأخيرة من الحكم الرومانى فلا تتوفر أخبار دقيقة عنها.

يقول بتلر: فإذا نحن أردنا أن نعرف تاريخ مصر فى مدة الأعوام الثلاثين التى بين ولاية هرقل وبين الفتح العربى، فلا مناص من أن نلجأ على الأكثر إلى ما كتبه رجال الكنيسة، أو ما كتبه رجال لهم ميول دينية قوية تجعلهم غير أمناء فى رواياتهم(١).

وقد وضح صاحب (مختصر تاريخ الأمم) من أين جاءتنا الأخبار فى ذلك الوقت، فى قوله: المؤرخان ديودور الصقلى واسترابون وجدا فى القرن الأول قبل التاريخ المسيحى ومؤلفاتهما وصلت إلينا، غير أنهما لم يقفا على حقيقة تاريخها بسبب جهلهما بلغة أهلها (٢) وبذلك التزما أن يجمعا ما قصّ عليهما من القصص بدون فحص(٣).

وعلى كل حال فسوف نستعرض حال مصر من حكم هرقل حتى الفتح الإسلامى، محاولين إلقاء الضوء على الأوضاع الدينية، مع الإشارة إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية، ومع اعترافنا بأننا لا نستطيع أن نقدم صورة دقيقة - كما قلنا - عن تلك الحقبة نظراً إلى الغموض الذى يكتنفها فى تاريخ مصر.

ألبس هرقل تاج روما فى أكتوبر عام ٦١٠ للميلاد (الموافق عام ١٢ قبل الهجرة)، بعد صراع مع الإمبراطور فوكاس أحد رجال روما الأقوياء، وكان جيش هرقل الأخضر قد انتصر على جيش فوكاس الأزرق بعد أن دارت الحرب بينهما لوقت قصير، ثم قطعت رأس فوكاس، ولف جثمانه فى علمه الأزرق، وأشعلت فيه النيران.

---

(١) فتح العرب لمصر ٤١.
(٢) اللغة القبطية واللغة الهيروغليفية.
(٣) مختصر تاريخ الأمم ٣.

وبعد هذا الانتصار، خرج هرقل لزيارة الأقاليم التى ترفرف عليها راية الرومان، ومنها مصر التى كان أهلها يتعطشون لحكم لا يفرض عليهم غير مذهبهم الدينى، لكن للأسف حدث ما لم يكن فى حسبانهم، فكان أول عمل قام به هرقل هو تثبيت حاكم مصر المعين من قبل روما، وهو المسمى (نيقياس) أو (قيرس)، أو (المقوقس) كما أطلق عليه العرب، وهو جورج بن مينا، أو جريج كما سماه بعضهم، وقيرس هو اللفظ اليونانى الذى أطلق على حاكم الإسكندرية المدنى والدينى من قِبَل قيصر روما (هرقل).

وقد أجمع كتاب التاريخ العرب على أن المقوقس هو الذى صالح عمراً، وأنه حاكم الإسكندرية ومنفيس -منف-، وأنه عظيم القبط، ولكنهم اختلفوا فى هويته وتحديد وظيفته.

قال البلاذرى (٨٠٦: ٨٩٢ للميلاد) (١٩١: ٢٧٩ للهجرة): إن المقوقس صالح عَمْراً.

وقال الطبرى (٨٣٩: ٩٢٣ للميلاد) (٢٢٥: ٣١١ للهجرة): إن المقوقس كان عظيم القبط فى منفيس.

وقال سعيد بن البطريق (٨٧٦: ٩٤٠ للميلاد) (٢٦٣: ٣٢٩ للهجرة): إن المقوقس كان ملكانياً ويعقوبياً من الباطن، وكان عاملاً على أموال مصر.

وقال ساويرس الأشمونينى (أوائل القرن العاشر الميلادى): أرسل إلينا هرقل فى أرض مصر قيرس ليكون حاكماً وبطريقاً معاً، ثم وصفه بأنه الحاكم الكافر.

وقال ابن الأثير (١١٦٠: ١٢٣٣ للميلاد) (٥٧٠: ٦٣١ للهجرة): إن المقوقس كان يقود الجيش بنفسه فى حرب عمرو، فى وقعة عين شمس.

وقال أبو صالح المؤرخ المسيحى، حوالى عام ١٢٠٠ للميلاد (٥٩٧ للهجرة): إن محمداً ﷺ بعث حاطباً[١] إلى المقوقس حاكم الإسكندرية.. وإن هرقل كان قد استعمل على مصر جريج بن مينا المقوقس.

وقال ياقوت (١١٧٨: ١٢٢٨ للميلاد) (٥٧٤: ٦١٩ للهجرة): إن حصن بابليون كان حاكمه المندفور الذى اسمه الأعيرج نائباً عن المقوقس بن قرقب اليونانى، الذى كان يقيم فى الإسكندرية.

---

(١) هو حاطب بن أبى بلتعة.

وقال مكين عام ١٢٠٥ للميلاد (الموافق عام ٦٠٢ للهجرة): إن عامل هرقل هو المقوقس، وإنه هو وعظماء القبط صالحوا عمراً.

وقال ابن خلدون (١٣٣٢: ١٤٠٦ للميلاد) (٧٣٠: ٨٠٧ للهجرة): إن المقوقس كان قبطياً - أى مصرياً -.

وقال ابن دقماق (؟: ١٤٠٧ للميلاد) (؟: ٨١٠ للهجرة): إن المقوقس الرومى كان عامل هرقل.

وقال المقريزى (١٣٦٥: ١٤٤١ للميلاد) (٧٦٦: ٨٤٥ للهجرة): المقوقس الرومى كان والياً على مصر، وقد نقل عن ابن عبد الحكم المتوفى عام ٨٧٠ للميلاد (الموافق ٢٥٧ للهجرة).

وقال السيوطى (١٤٤٥: ١٥٠٥ للميلاد) (٨٥٠: ٩١٣ للهجرة): إن الحصن- بابليون- كان يقوده المسمى الأعيرج من قبل المقوقس بن قرقب الرومى[١].

والخلاصة أن حاكم مصر عند الفتح، وعند بعث رسول الله ﷺ لحاطب قبل ذلك، كان يطلق عليه (المقوقس)، ونحن مع بتلر فى اعتماده لقول ساويرس المؤرخ القبطى من أن قيرس هو المقوقس الذى جاء إلى مصر من قبل هرقل، واضطهد القبط اضطهاداً عظيماً، وكان كما قال ساويرس: الحاكم الكافر الذى كان حاكماً وبطريقاً للإسكندرية مدة حكم الروم- أى: عشر سنين.

وقال بتلر أيضاً: إن الأنبا الذى ظهر فى أوائل القرن الخامس للميلاد، قال فى نبوءة:.. سيظهر المسيخ الدجال، ويمثل بين يدى ملك الروم، فيجمع له ولاية الدين والدنيا، ويجيء إلى مصر، ويناصب فيها كبير الأساقفة العداء.

ويقرر بتلر - أخيراً أن المقوقس هو جورج بن مينا، وأن أحد أبويه كان قبطياً، والآخر رومياً، وكان فى خدمة إمبراطور روما، ومذهبه ملكانى، والمقوقس لقبه، وكان رئيس مذهب خلقيدونية [٢]، وأنه كان حاكم مصر حين أرسل له النبى ﷺ كتابه عام ٦٢٧ للميلاد (الموافق عام ٧ للهجرة).

(١) نقلاً عن ملحق كتاب فتح مصر لبتلر.

(٢) الخلقيدونية هى الملكانية أو المونوثيلية أو المارونية، وقد رأى بعض المؤرخين أن المقوقس كان يعقوبياً على مذهب القبط، ولكن لخوفه من الروم أخفى عقيدته وأظهر المارونية.

ولفظة "المقوقس" معناها: الحمامة المطوقة – فى المراجع العربية، أما فى المراجع اليونانية فمعناها: قطعة من النقود البرونزية، صغيرة مثقوبة،وقد يكون لقباً أطلق على قيرس على سبيل السخرية، لمراقبته الجزية والضرائب.

ومهما اختلفت الأقوال فى أصله وهويته فمن الضرورى أن نستعرض ما قام به بعد أن ثبته هرقل فى حكم مصر، لقد حاول كسب حب القبط، ليبين لهم الفرق بين فوكاس الإمبراطور السابق، وهرقل الإمبراطور الحالى، فرفع عنهم جباية المال ثلاثة أعوام، وأمّل القبط خيراً فى هذا الحاكم الجديد، وبدأوا فى بناء الكنائس والأديرة، مع تجديد ما تهدم منها أثناء الحرب بين الإمبراطورين، وصار للمطران المصرى سلطان ومكانة وأموال، حتى إن كنيسته كانت تملك أسطولاً من السفن التجارية التى تجوب البحار، وخاصة البحر المتوسط (بحر الروم)، وتعمل فى تجارة القمح التى كانت رائجة آنذاك بين الإسكندرية والقسطنطينية.

ولم يدم هذا الوضع المسعد للمصريين طويلا، فقد اتجه كسرى الفرس (بهرام)، حفيد أنوشروان، إلى بلاد الروم غازياً، واكتسح فى طريقه بلاد الشام وفلسطين ومصر، فى مدة ست سنوات، حاصر خلالها مدينة القدس المنيعة الأسوار، وانتهز اليهود الفرصة، فساعدوا العدو الفارسى المغير على هدم الأسوار، ودخول المدينة، وحدث نفس الشيء عند فتح الفرس لأنطاكية ومصر والإسكندرية، وسبب مؤازرة اليهود للعدو المغير هو عداوتهم للنصارى من زمن المسيح عليه السلام، ثم زاد من تأجج هذه العداوة ما حدث فى العام الأخير لحكم الإمبراطور البيزنطى (فوكاس) الذى أرسل قائده بونوسوس، فأنزل باليهود انتقاماً وبيلاً، اتسم بقسوة تقشعر من وصفها الأبدان، ومرت بضع سنين، وانقلبت الصورة، فهاهم أولاء اليهود يردون ما أصابهم من أباطرة الروم، حقداً ونكالاً على النصارى فى كل من مصر والشام.

قال بتلر: ولما جاء شاهين[1] (أوساين) فى سنة ٦١٥ للميلاد إلى قيصرية فى إقليم قيادونية، نزح المسيحيون هاربين، ولكن اليهود استسلموا، وخضعوا للفرس، وخضعت كل بلاد فلسطين فى ذلك الوقت لحكم ملك الفرس خضوعاً طائعاً، وثار

(١) القائد الفارسى من قبل كسرى.

الباقون من أبناء العبرانيين بالمسيحيين، ودفعهم حقدهم الموروث إلى أن ينكلوا بالمؤمنين تنكيلاً عظيماً، ثم لحقوا بالفرس، ونبتت بينهم مودة عميقة[1].

وما فعله اليهود بالشام، فعلوه بمصر، عندما دخلها الغازى الفارسى شاهين من قبل كسرى بهرام، وكان دخوله من بوابتها الشرقية، بدءاً بالعريش فالفرما فمنفيس (منف)، ثم ركب النيل إلى الإسكندرية ذات الحصون القوية، التى وقفت شامخة أمام جحافل الفرس، منذ قرابة مائة[2] عام، فلم يستطيعوا عبورها واقتحامها، ولكنهم فى هذه المرة دخلوها بعد أن عملت الخيانة على وقوعها فى يد الغزاة، فقد أشارت أصابع الاتهام إلى شاب جاء إلى مصر وإلى الإسكندرية بالذات من البحرين، طلباً للعلم، يقال له بطرس البحرينى، وكانت البحرين يسكنها اليهود والفرس.

يقول بتلر: ولعل بطرس البحرينى كان يهودياً، ولعله كان أداة خطة مكر بها اليهود للكيد لأعدائهم[3].

وخلاصة القول أن اليهود دللوا بتصرفاتهم هذه على أنهم كانوا يمقتون النصارى مقتاً شديداً لا يمحوه من قلوبهم هذا الخطر الفارسى الداهم، فإذا كانت المصائب توحد الناس، فإن اليهود صنف آخر غير سائر الناس.



(١) فتح العرب لمصر (هامش ٥٤).
(٢) عندما دخل قمبيز مصر سنة٥٢٥ ق.م وأخذ بسماتيك الفرعون أسيرا، وقتل العجل أبيس وخرب المعابد والهياكل.
(٣) فتح العرب لمصر ٦٥.

الإسكندرية تحت الحكم الفارسى

سقطت الإسكندرية فى يد الفرس، وبعث القائد الفارسى مفاتيح المدينة وكنوز الكنائس والأديرة[1] إلى كسرى فى أوائل عام ٦١٨ للميلاد (الموافق العام الأول للهجرة)، وفر حاكمها المقوقس إلى القسطنطينية.

وقد أكد المقريزى إلصاق تهمة تواطؤ اليهود مع الفرس حتى تم لهم النصر، قال :.. وأتى الفرس[2] إلى مصر فى طلب النصارى، فقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر، وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى، وتخريب كنائسهم.[3]

وقال المؤرخ فيورنيوس : اشترى اليهود كثيراً من أسرى النصارى - وكان عددهم حوالى خمسة وثلاثين ألفاً - ليمتعوا أنفسهم بتقتيلهم.. إن كل هذا لم يحدث فى سنة ولا شهر، بل فى بضعة أيام.[4]

وكانت طريقة الفرس فى قضائهم على القبط النصارى هى أنهم يتجهون رأساً إلى الأديرة والكنائس، ويقتلون من فيها من الرهبان، ويأخذون ما تصل إليه أيديهم، وهذا أحد القديسين فى القرن الخامس الميلادى، وهو الأنبا شنودة المتوفى عام ٤٥١ للميلاد يتنبأ بما حدث للمصريين على يد الفرس قبل مجيئهم بأكثر من قرن ونصف، يقول فى نبوءته : سيأتى الفرس إلى مصر، يسفكون فيها الدماء، ويسلبون أموال المصريين، ويسبون أبناءهم، يبيعونهم بالذهب، فإنهم قوم ظالمون معتدون، وستنزل المصائب على أيديهم بمصر، يغصبون الكنائس ما بها من آنية مقدسة، ويشربون الخمر فى المحراب، لا يبالون، ويهتكون أعراض النساء على مرأى من رجالهن، وسيبلغ الشر أعظمه، والشقاء قصاراه، وسيهلك ثلث من يبقى

(١) ذكر المؤرخون أنه كان بالإسكندرية وحدها ٦٠٠ دير.
(٢) حدد بتلر بعض التواريخ بعد استعراضه للحوادث التى وقعت فيها، قال : فتح الفرس بيت المقدس آخر مايو عام ٦١٥ للميلاد، سار الفرس إلى مصر فى خريف عام ٦١٦ للميلاد، فتح الفرس حصن بابليون فى ربيع عام ٦١٧ للميلاد، فتح الفرس الإسكندرية آخر عام ٦١٧ للميلاد، اخضاع مصر كلها للفرس فى عام ٦١٨ للميلاد. (فتح العرب لمصر ٤٣٩).
(٣) خطط المقريزى ١ / ٣٩٢.
(٤) فتح العرب لمصر ٥٥.

من الناس فى بؤس وعذاب، وسيبقى الفرس فى مصر حيناً من الدهر، ثم يخرجون منها[1].

وقد علق أحد البطاركة على هذا الغزو بأنه عقاب من الله، قال: لقد خذلنا الله لما نقترفه من الذنوب، وسلط علينا من الأمم من لا يرحمنا. وهو قولٌ أشبه بما جاء فى الأثر: **(إذا نسينى من يعرفنى، سلطت عليه من لا يعرفنى).**

والخير الوحيد الذى عاد على النصارى جراءَ الغزو الفارسى هو : توحيد الكنيستين القبطية والشامية، فصار مركزهما الإسكندرية، وكان ذلك نتيجة لهروب كثير من قسوس الشام ومطارنتها وبطاركتها إلى الإسكندرية؛ للاحتماء بها[2].

وأفاق الامبراطور هرقل، فوجد الفرس قد استولوا على مملكته كلها تقريباً، ففكر فى استرضائهم، والتزلف إليهم؛ ليتركوا بلاده، وبعث لهم بالرسل تلو الرسل يحملون الهدايا والتحف، ولكن رد كسرى دائماً كان رد المنتصر الغالب المتجبر القادر، رداً فيه صد واستعلاء وصلف، حتى كانت آخر رسالة من كسرى رداً على استرحام قيصر واستجدائه فيها إشارة دينية بأن يترك هرقل النصرانية إلى المجوسية، وقال لرسول قيصر : قل لمولاك، إن دولة الروم من أرضى، وما هو إلا عاص ثائر، وعبد آبق، ولن أمنحه سلاماً حتى يترك عبادة الصليب، ويعبد الشمس.

وشعر هرقل بالمهانة، وأحس بالصغار، وتأكد أن باقى ملكه المتمثل فى القسطنطينية وما حولها – صار فى خطر، فقرر حلاً أخيراً، هو: مناجزة الفرس، والتصدى لكسرى وجبروته، وجهز الجيش، وأخذ يحمس النصارى من روم وشوام ويونان على صد هذا السيل العَرِم من الفرس المجوس.

ولم تمض سنوات تسع على وجود الفرس، حتى خرج هرقل بجيشه المتحمس عام ٦٢٢ للميلاد فى غارات متتالية على جحافل الفرس، ومعارك ضروس وصلت إلى حدود بلاد فارس، وانتصر هرقل على كسرى بعد حرب استمرت ست سنوات، قضى فيها على الغزو الفارسى.

---

(١) فتح العرب لمصر ٧٩.

(٢) وما زالت الحال على ما كانت عليه فى ذلك العهد، فإن كنيسة الإسكندرية جامعة حتى الآن لكل كنائس الشرق.

وفى سبتمبر عام ٦٢٨ للميلاد أعاد الصليب المقدس من بابل إلى القسطنطينية، وفى العام التالى -عام ٦٢٩ للميلاد- أعاده إلى بيت المقدس فى حفل مهيب، وكان هذا قمة الانتصار.

وقد وردت قصة هذا الصراع كله فى القرآن الكريم فى مطلع سورة الروم، قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ[1] سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ﴾
[الروم: ٢-٥]

وقبل أن نسير مع هرقل فى انتصاراته على الفرس - نستعرض رأياً لبتلر أظهر فيه بعض عجائب التاريخ وعبره، فقد قارن بين النبى محمد ﷺ وهرقل مقارنة لطيفة، قال: وقد اتفق عندما بدأ هرقل عهد ولايته أمر الإمبراطورية، أن بدأ محمد ﷺ دعوته، وأخذ فى نشرها، وذلك عام ٦١٠ للميلاد[2] (الموافق عام ١٢ قبل الهجرة)، وقد كان مقدوراً أن تكون دعوة النبى أكبر ما يصدم هرقل، ويهدم ما بناه، وقد لاقى كل من هذين العظيمين فى أول حياته تخذيلاً عظيماً، وأخطاراً جمة صحبته نحواً من اثنتى عشرة سنة، ثم خرج كل منهما من هذه المحن وقد قويت نفسه، واستعدت للعمل العظيم الذى كانت مقبلة عليه، فى عام ٦٢٢ للميلاد سار هرقل فى سريته إلى قليقليا، فضرب أول ضربة فى سبيل استنقاذ الصليب المقدس، وإعادته إلى الدولة الرومانية من الفرس، وفى هذه السنة[3] عينها هاجر النبى من مكة إلى المدينة، وبدأ بذلك عهد الجهاد فى سبيل تخليص بيت الله الحرام، وفتح بلاد العرب لدعوة الإسلام، فكان هذا الحدث مبدأ التاريخ الإسلامى أبد الدهر...

وكان النبى يرقب بلهف حوادث القتال الطويل بين الفرس والروم، وكان قد آلمه نصر الفرس فى مبدأ الأمر فى عامى ٦١٤ و٦١٥ للميلاد ؛ لأن ذلك كان انتصاراً لعبدة الأوثان على قوم من أهل الكتاب، فلما رجع النصر إلى الروم - وما

---

(١) البضع : كناية عدد من ثلاثة لتسعة.

(٢) ولد النبى ﷺ عام ٥٧٠ للميلاد يوم ١٠ من أبريل، الموافق ١٢ من ربيع أول، على الأشهر، وبدأ فى دعوته للإسلام فى عام ٦١٠ للميلاد. أما هرقل فقد ولد حوالى عام ٥٧٣ للميلاد، وألبس تاج الإمبراطورية فى أكتوبر عام ٦١٠ للميلاد.

(٣) كانت الهجرة فى ٢٢ سبتمبر عام ٦٢٢ للميلاد.

أعجب ذلك - واستطاع هرقل أن يمحق سلطان الفرس بعد حرب ضروس استمرت ست سنوات، بعث ذلك فى النبى آمالاً كبيرة لغزو الطائفتين والتغلب عليهما، وقد تضعضعت قوة الغالب منهما والمغلوب، ورأى أن الله قد مهد بذلك للإسلام طريق النصر والفتح.[1]

لابد أن نلاحظ هنا أن النبى ﷺ قد أعلم أصحابه فى تلك الفترة أو زهاءها بأن مراكز السلطة فى كلتا الدولتين سوف تسقط فى أيدى المسلمين، وإلا فكيف نفسر إخباره صلى الله عليه وسلم بفتح القسطنطينية، وإخباره بفتح مصر، وإخباره بسقوط فارس، هذا فى الوقت الذى لم يكن للمسلمين دولة عظيمة، ولا جيش جرار، بل كانوا محاصرين فى المدينة يهاجمهم المشركون، ويتآمر عليهم اليهود، وما ذلك إلا لأن النبى ﷺ كان يقرأ أخبار المستقبل من كتاب الغيب الإلهى، وقد تحقق كل ما أخبر به على تفاوت السنين، ففارس وملكها آل إلى الفاتحين حملة الإسلام وكذلك مصر والشام والعراق، وتأخر فتح القسطنطينية تسعة قرون إلى أن تحققت نبوءة رسول الله ﷺ بسقوطها فى أيدى المسلمين بقيادة البطل السلطان (محمد الفاتح) عام ١٤٥٣ للميلاد (الموافق ٨٧٩ للهجرة).

وعود إلى الإمبراطور هرقل، فبعد انتصاره على الفرس فكر أول ما فكر فى تنظيم الدولة المترامية الأطراف، ثم فى توحيد الكنيسة المصرية، وبعث المقوقس فى خريف عام ٦٣١ للميلاد رئيساً لأساقفة الإسكندرية، ثم رئيساً عاماً - كما عرفنا من قبل- أى: رئيساً دينياً ومدنياً، وأمره أن يوحد المذاهب فى مصر، ويجعل المذهب الامبراطورى[2] هو السائد.

وكان أول عمل قام به المقوقس بعد عودته إلى مصر هو تشكيل مجمع فى الإسكندرية[3] الهدف منه توحيد المذاهب، ولكن هذا المجمع فشل فشلاً ذريعاً، وبعد شهرين على الأكثر من سقوط هذه المحاولة عاد المقوقس لسيرته الأولى فى اضطهاد رؤوس المذهب القبطى المعارض -اليعقوبى[4]-، ولم ينج من هذا

---

(١) فتح العرب لمصر ١٢٤.

(٢) هو المذهب المونوثيلى أو الملكانى أو المارونى أو الخلقيدونى.

(٣) قال بتلر : إن أكبر الظن أن مجمع الإسكندرية كان فى أكتوبر عام ٦٣١ للميلاد.

(٤) مؤسس المذهب اليعقوبى بطرك سكندرى اسمه (ديوسقوروس).

الاضطهاد أحد من البطارقة، حتى رئيسهم البطرك بنيامين الذى كان معقد آمال المصريين، والقريب إلى نفوسهم، وموضع إجلالهم واحترامهم - هذا البطرك لما وجد المقوقس مصراً على القضاء على مذهبه اليعقوبى بالقضاء على رؤسائه، لم يجد بداً من الفرار، ولكنه قبل مغادرته الكنيسة السكندرية، ألقى فى قساوسته ورعيته خطاباً، يحضهم فيه على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت، ثم رحل إلى وادى النطرون، ومنه إلى صعيد مصر فى (قوص)، ولاذ هناك بدير مختفياً، حتى ظهر الإسلام، ودعاه عمرو بن العاص إلى العودة مرة أخرى.

أما المقوقس فكانت طريقته فى اضطهاد النصارى الجلد والتعذيب والسجن حتى الموت.

قال بتلر نقلاً عن ساويرس: لقد كانت هذه السنون هى المدة التى حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر، وقد فتن فى أثنائها كثير من الناس لما نالهم من العسف والاضطهاد والظلم، ومن شدة العذاب الذى يوقعه هرقل بهم لكى يحولهم راغمين عن مذهبهم إلى مذهب خلقيدونية، فكان يعذب بعضهم ويعد آخرين أحسن الجزاء، ويمكر بالبعض ويخدعهم [1].

والعجيب أن هذا التعذيب لم يترك أحداً، حتى أخا بنيامين المسمى (مينا) لم ينج من اضطهاد هرقل والمقوقس.

يقول بتلر: وكذلك عذبوا أخا بنيامين، وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه على الأرض، ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه، فخلعت أسنانه، ثم وضع فى كيس مملوء من الرمل، وحمل فى البحر، حتى صار على قيد سبع غلوات [2] من الشاطئ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقره مجلس خلقيدونية، ففعلوا ذلك ثلاثاً، وهو يرفض فى كل مرة، فرموا به فى البحر، فمات غرقاً.

قال الكاتب الذى ترجم حياة بنيامين: ولكنهم بفعلهم هذا لم يقهروا ميناس الذى مات شهيداً، بل قد غلبهم هو بصبر الإيمان المسيحى [3].

---

(١) فتح العرب لمصر ١٦٣.
(٢) الغلوات : جمع غلوة، وهى : مقدار رمية للسهم، وهى ثلاثمائة إلى أربعمائة ذراع. (المعجم الوسيط) - الذراع ٧٠ سنتيمترًا.
(٣) فتح العرب لمصر ١٦٣.

وهناك قصة لقديس آخر هو الراهب صمويل القلمونى[1]، وقد كتبت ترجمته فى حياة المقوقس، تقول القصة كما نشرها أميلنو، وذكرها بتلر: جاء قيرس إلى الدير، فوجده خلاء ممن فيه إلا من خازنه، فقبض عليه وجلده، وأخذ يسأله، فقال الخازن: لقد جمع صمويل الزاهد رهبان الدير، وخطب فيهم فأطال، ووصفك بالكفر، وبأنك يهودى من أتباع خلقيدونية، ولا تؤمن بالله، وبأنك لست أهلاً لأن تقيم الصلاة، ولا أن يعاملك المؤمنون، فلما سمع الرهبان قوله هذا هربوا قبل مقدمك، فلما سمع الكافر الفاسق ما قاله الخازن، ثار ثائره، وعض شفتيه من الغيظ، وسب الخازن والدير والرهبان ومضى، قال كاتب الترجمة: ولم يعد للدير بعد ذلك إلى يومنا هذا.

فلما ذهب رجع الإخوان إلى ديرهم آمنين، أما المقوقس ذلك البطريق الدعىّ، فقد ذهب إلى الفيوم، والغيظ يأكل قلبه، ودعا هناك أصحابه وأتباعه وأمرهم أن يأتوا له بالعبد الآبق صمويل مكتوف اليدين من خلاف، وأن يضعوا فى عنقه طوقاً من الحديد، وأن يدفعوا به كما يدفع اللصوص، فذهبوا إلى الدير الذى كان فيه، وقبضوا عليه.

وذهب صمويل مستبشراً فى صحبة الله، وهو يقول: سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يسفك دمى فى سبيل المسيح، فلما رأى المقوقس ذلك الولى، أمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء، ثم قال له: صمويل، أيها الزاهد الشقى، من ذا أقامك رئيساً للدير، وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبونى ومذهبى؟، فقال له العابد الأب صمويل: إن البر فى طاعة الله وطاعة وليه البطريق بنيامين، وليس فى طاعتك، والدخول فى مذهبك الشيطانى، يا سلالة الطاغوت، ويأيها المسيخ الدجال.... ولما سمع المقوقس ذلك امتلأ قلبه بالغيظ على ذلك الولى، وأومأ إلى الجند أن يقتلوه...

وقد جاء مثل هذا الخبر فى الترجمة الأثيوبية لحياة الأب صمويل، جاء فيها ذكر رجل اسمه (مكسيمانوس) وأنع أتى إلى دير صمويل فى الصحراء، ومعه مائتا جندى، وأنه أعطاه كتاباً يؤمر فيه بالإيمان بمذهب خلقيدونية، فمزقه صمويل

(١) توفى صمويل عام ٦٣٩ للميلاد، وقلمون : التى نسب إليها، وفيها ديره تقع جنوب غربى مدينة الفيوم.

ورمى به من باب الكنيسة، وهو يقول: ليس لنا رئيس إلا بنيامين، ولعنة الله على مجمع خلقيدونية، وكل من آمن بها وأقرها. فضرب صمويل حتى ظن أنه مات...

وجاء فى مصدر آخر: لما أتت الأنباء إلى المقوقس عن طريقة معاملته للكتاب، دبر له مكيدة، وقبض عليه، وضربه ضرباً شديداً، وقال له: اعترف أن مجلس خلقيدونية على الحق حتى أطلق سراحك..[1]

وقد استمر هذا الاضطهاد للنصارى قرابة عشر سنين مما جعل بعض الأساقفة يدخلون فى المذهب الحاكم، أو يهربون إلى الصحراء، كما فعل رئيسهم بنيامين، أو يخادعون الروم، ويظهرون مذهبهم الملكانى، ويخفون المذهب الذى يدينون به، ولا يحيدون عنه، وكان من جراء كراهيتهم للمقوقس محاولة بعضهم قتله عدة مرات، ولكنها باءت جميعاً بالفشل، وعاش المقوقس حتى دخل الإسلام مصر، وتوفى عام ٦٤٢ للميلاد[2]، وهو على دينه.

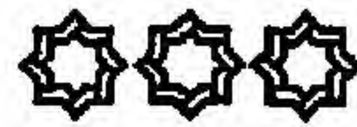
وكما كانت الحرب بين الروم والفرس فى العقدين السابقين لدخول الإسلام – تمهيداً للفتح الإسلامى وانتشاره فى كل من مصر والشام، كان سيف المقوقس الذى سلطه على رقاب نصارى مصر بأمر من هرقل لتوحيد المذهب الدينى – كان تمهيداً آخر لدخول أهل مصر فى دين الله أفواجاً، فقد كان اسم هرقل وواليه مفزعاً للقبط، كريهاً عندهم، وكان هذا السيف نفسه هو الذى قطع أواصر الود والولاء بين الإمبراطورية الرومانية وقبط مصر.

يقول بتلر: وذلك لكثرة ما لاقوه فى مدة السنوات العشر من الظلم الذى نزل بهم إلى حضيض الشقاء لا أمل معه، فرأوا مجئ المسلمين نازلة أرسلها الله لينتقم من ظالميهم.. فقد ظن هرقل أنه يستطيع بكلمة سحر يقولها أن يهدئ العواصف، ويحسم الخلاف فى المذاهب، فوجد أنه قد زاد العاصفة شدة.. فعزم على أن يسعى للسلام بخوض حرب دينية فى مصر والشام، فكان بعمله هذا يمهد السبيل فى القطرين لمطلع جنود الإسلام[3].

(١) فتح العرب لمصر ١٦٦.
(٢) بعد فتح مصر بعامين.
(٣) فتح العرب لمصر ١٧١.

ويقول كاتب معاصر هو الدكتور غالى شكرى: إن الأقباط عاشوا فى العصور الإسلامية المختلفة... مما يبرهن أن الإسلام قد حافظ فى النهاية على الوجود القبطى ضمن النسيج المصرى العام، وهو أمر كان من شأنه إغناء مكونات الوطنية المصرية[1].

إذن فقد كان ظلم الرومان لشعب مصر كفيلا بعزل الشعب عن مواجهة المسلمين كما سنرى فيما بعد، فلم يتصدوا للقادمين بقيادة عمرو بن العاص، وذلك فى رأينا يعتبر نجاحاً للجيش المسلم إلى منتصف الطريق، وبقى على الفاتحين أن يكملوا الطريق إلى قلوب الناس بالتزامهم بشرع الله، وإحسانهم إلى شعب مصر، واحترامهم لعقيدته، وحفاظهم على الأنفس والأموال والتقاليد الاجتماعية، فدخل المصريون فى دين الله بقلب مفتوح وإرادة طيعة.



(١) الأقباط فى وطن متغير ٨.

العرب فى مصر قبل الفتح الإسلامى

كانت مصر معروفة لعرب الجزيرة من عدنانيين وقحطانيين بثرائها الواسع، وخصوبة أرضها، وغنى أهلها[1]، وكان لهذه المعرفة بأرض مصر مصدران:

المصدر الأول : العرب الذين زاروا مصر بغرض التجارة، فقد كانوا يروحون ويجيئون صيفاً إلى الشام وما جاورها، وشتاءً إلى اليمن وما وراءها، يحملون بضائع الجنوب إلى الشمال، والعكس بالعكس، لقد كانوا حلقة الاتصال بين الهند واليمن من ناحية، والشام ومصر من ناحية أخرى، وهو ما سجله القرآن الكريم فى قوله فى سورة قريش: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ. إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[قريش:١-٤]

والمصدر الثانى: العرب الذين هاجروا إلى مصر، وآثروا الحياة فيها، والمعيشة وسط أهلها.

وبدراستنا للهجرات العربية إلى وادى النيل نجد أنها متعددة، وأن السبب الأول والأخير فى تعدد هذه الهجرات هو: السبب الاقتصادى، فالثروة والغنى فى مصر، والفقر والجدب فى الجزيرة العربية، وهذا ما دفع حكام مصر من فراعين ورومان وفرس ويونان إلى إقامة القلاع والحصون القوية المتتابعة على حدود الدلتا الشرقية.

يقول عباس عمار: كان برزخ السويس يسمى قديماً (شور) وهو لفظ سامى معناه: (سور) ويعنى غالباً منطقة الحواجز المنيعة من القلاع التى بناها الفراعنة عبر خليج السويس[2].

ولو تتبعنا الهجرات العربية إلى مصر، فسوف نجد أن من بينها هجرات تمت بعد حروب ومنازعات، وهجرات أخرى سلمية، كان المهاجرون يستأذنون

(١) علق جوستاف لوبون على علاقة العرب بمصر على اعتبارها جزءاً من أفريقيا، قال: كانت صلات العرب بأفريقية على جانب عظيم من الأهمية ، وكان العرب يعرفون جيداً أصقاع أفريقية الوسطى التى يصل إليها روادنا فى الوقت الحاضر بشق الأنفس، فيعد كل ارتياد لها حادثاً مهماً فى أوربة. (حضارة العرب ٥٥٦).

(٢) المدخل الشرقى لمصر ٩٢.

حاكم مصر فى الدخول إلى أرضها، ولا يسمح لهم بالعيش فى ربوعها إلا بعد موافقته.

يقول عباس عمار: ومثل تلك الهجرات السلمية البسيطة كانت تحدث باستمرار أيام قوة مصر وهيبة حكامها... ويعطى ماسبيرو[١] مثلاً لهذا صورة من مقابر بنى حسن، تمثل عدداً من هؤلاء البدو يقدمون لفرعون مصر القرابين؛ ليسمح لهم بالسكنى فى وادى النيل[٢].

ويلخص الأستاذ مبروك نافع تاريخ الهجرات السلمية قائلاً:.. إذا زاد عدد السكان زيادة لا تحتملها قدرة الأرض على إعالتهم ينبعث الناس فى هجرات على شكل تقاطر تدريجى، كما هى الحال فى الهجرات فى أيامنا هذه إلى البلاد المجاورة... وكانت الفترة بين الموجة الهجرية والتى تليها نحو ألف سنة، ويحددون منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، بدءاً لتلك الهجرات التى حفظها لنا التاريخ، والتى لابد أن تكون قد حدثت قبلها هجرات قبل عصر التاريخ: ففى عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد تقريباً حدثت هجرة سامية إلى الشمال الشرقى إلى وادى الفرات الأدنى، حيث بلاد بابل، وفى نفس الوقت تقريباً تحركت هجرة سامية أخرى إلى الشمال الغربى حيث بلاد مصر. وحوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد تحركت هجرة سامية أخرى إلى الشمال، وهى التى أحلت معها العموريين والكنعانيين والفينيقيين فى بلاد سورية وسواحل البحر الأبيض.

وحوالى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد تحركت هجرة إلى بلاد فلسطين.. وهى التى حملت معها الآراميين فى الأولى، والعبرانيين فى الثانية.

وفى عام ٥٠٠ قبل الميلاد كانت هجرة الأنباط إلى الشمال الشرقى من شبه جزيرة سيناء، وعاصمتهم بطرة أو (البتراء)[٣].

---

(١) هو جاستون ماسبيرو (١٨٤٦ - ١٩١٦ للميلاد)، عالم آثار فرنسى متخصص فى الآثار الفرعونية ، اختير مديراً لمصلحة الآثار المصرية أكثر من مرة ، له مؤلفات فى الحضارة والتاريخ.

(٢) المدخل الشرقى لمصر ٩٠.

(٣) عصر ما قبل الإسلام ١٥.

أما الهجرات العنيفة التى تمت بعد حروب ومنازعات على وادى النيل فتتمثل فى هجرتين.

أولاهما: هجرة أخذت صورة الغارة والغزو، وهى هجرة الهكسوس، حيث رحل هؤلاء البدو هرباً من المناطق المجدبة إلى مناطق الخصب والنماء حيث النيل العظيم، وواديه المفعم بالخير، وانتشروا داخل مصر الشمالية، وانتقلت حياتهم بعد ذلك بشكل تدريجى من حالة البداوة إلى حالة الزراعة شأن سكان البلاد الأصليين.

وقد اختلف المؤرخون فى كون الهكسوس عرباً أو غير عرب، وقد قال بعروبتهم بعض المؤرخين، ولكن بعض الدراسات لم تؤيد هذا القول تأييداً تاماً، مع أن لفظ الهكسوس معناه (ملوك الرعاة)، وقد شرح بعض المؤرخين لفظ (هكسوس)، قال: هى تعبير مصرى قديم، حرّفه اليونانيون، ومعناه الأصلى (حاكم الأراضى)[1].

أما تفصيل هذه الموجة الذى ذكره د.عبد المجيد عابدين، نقلاً عن د.حسين مؤنس، فهو:.. ومن الجائز أن يكونوا خليطاً من سلالات سامية وغير سامية، اندفعت من مكان أو أمكنة بعيدة، وتقدمت بجموعها المختلطة للإغارة على مصر السفلى، فعبرت طريق سيناء لكونه الطريق الميسور الوحيد للعبور فى هذه المنطقة، ويبدو أن الأبحاث الحديثة تميل إلى الربط بين دخول هؤلاء الرعاة مصر، وبين هجرة قبائل مغولية من قلب آسيا نحو الغرب، حيث تدافعت الشعوب التى كانت تسكن هضاب إيران وبلاد الرافدين ونواحى سورية غرباً فغرباً، مما أدى إلى الضغط على رعاة بوادى الشام، فنزلوا شبه جزيرة سيناء، وصحراء مصر الشرقية وأرض الدلتا، وكانت مصر إذ ذاك فى فترة ضعف داخلى فى نهاية الأسرة الثالثة عشرة[2]، ومما يدل على أن هؤلاء الرعاة قد تأثروا بالهجرات المغولية أن ما استخدمه الهكسوس من الخيل والعجلات كان من مؤثرات مغولية.[3]

---

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور ١٤١ .
(٢) حوالى عام ١٧٣٠ قبل الميلاد .
(٣) البيان والإعراب ٧٩ .

والهجرة الثانية: وكان لها الأثر فى المنطقة التى يطلق عليها الشرق الأدنى، وهى هجرة وقعت قبل ميلاد المسيح، وهى هجرة الأنباط، أو عرب البادية الإسماعيلية، وكان مكان دولتهم ما بين سورية شمالاً وبلاد العرب جنوباً، وبين الفرات شرقاً والبحر الأحمر غرباً، وكانت عاصمتهم البتراء التى تقع فى جنوب بلاد الأردن بين رأس خليج العقبة والبحر الميت.

يقول مبروك نافع شارحاً موقف الهجرة النبطية:... وكانت تهيمن على طرق القوافل الممتدة منها إلى غزة فى الغرب، وإلى بصرى ودمشق فى الشمال، وإلى أيلة العقبة فى الجنوب.[١]

وقد قوى وجود الأنباط فى مهجرهم الجديد، وصارت لهم دولة قوية منيعة يخشاها كل اليهود والرومان وبقية بلاد الشام.

يقول عباس عمار: ومن الطبيعى أن يدرك الأنباط عظمة الأهمية التجارية القديمة لموقع سيناء، وأن يحرصوا على أن يكونوا سادة على الطرق التجارية المتفرعة من البتراء إلى دمشق، وإلى رينوكولورا - العريش حالياً - حتى يضمنوا الزعامة التجارية فى تلك المنطقة، تلك الزعامة التى احتفظوا بها لعدة قرون، وكان طبيعياً أن يمتد نفوذهم لضمان هذه الطرق إلى معظم جهات سيناء[٢].

وقد تغلغل هؤلاء النبط فى مصر، فقد أثبتت الأبحاث الأثرية وجود نقوش نبطية شرقى الفرما[٣]، وفى أماكن متفرقة فى الصحراء الشرقية، وعلى الجانب الغربى من البحر الأحمر حتى صعيد مصر.

وهناك فى البتراء بالأردن آثار مازالت قائمة تجذب عدداً كبيراً من السياح، كما قال مبروك نافع.[٤]

ومن القبائل العربية التى نزحت إلى مصر قبل ظهور الإسلام عقب من أعقاب قبيلة سبأ، وهم أبناء قبيلة قضاعة، وأغلب الروايات تفيد بأن قضاعة تنتسب

---

(١) عصر ما قبل الإسلام ١٠٧ .
(٢) المدخل الشرقى لمصر ٩٥ .
(٣) مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، بالقرب من بورسعيد الحالية .
(٤) عصر ما قبل الإسلام ١١٠ .

إلى حِمْيَر بن سبأ، وقد انتقلوا من اليمن إلى شمال بلاد العرب، ومن بطونها ظهرت قبيلة بلىّ التى رحلت إلى شبه جزيرة سيناء فيما بعد.

ومن أعقاب سبأ أيضاً كهلان، وسبب هجرة كل من بلى وكهلان والأزد وخزاعة وغيرها، هو: تقلص ملك حمير فى الجنوب، وما أصاب أرضهم من بوار بعد انهيار سد مأرب[1]، فقد تصدع بمرور الزمن والإهمال، فلم يعد يحتمل السيول والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه، فانكسر، وفاضت مياهه على ما حوله من المزارع والقرى، فأتلفتها.

والمتتبع لهذه الهجرات العربية السلمية، وغير السلمية إلى مصر، يجد أن هناك أموراً مشتركة بينها:

أولاً : أن تسلل هؤلاء المهاجرين كان عن طريق واحدة، هى: باب سيناء، أى: الجهة الشرقية لمصر.

ثانياً: أغلب هذه القبائل المهاجرة لم تستقر فى مكان محدد، بل كانت مرتحلة دائماً، وكانت منحصرة فى منطقة الدلتا أو جزء منها، وكان بعضها يتوغل إلى صعيد مصر، متخذاً طريق البحر الأحمر.

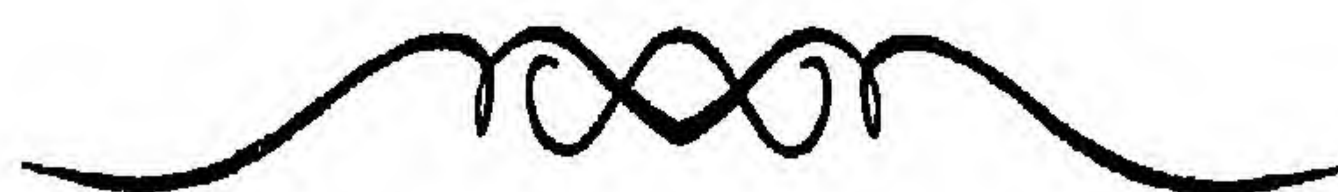
ثالثاً: هذه المجموعات المهاجرة كانت تمثل مرحلة تمهيدية لخلق مصر العربية بعد ذلك، صحيح أنها جماعات متفرقة فى النزعة السياسية والدينية، ومختلفة اللغة عن أهل البلاد المصريين، ولكنها وضعت الأسس للغة التى ستأتى غازية فيما بعد مع جيش الفاتح عمرو بن العاص عام ٢٠ للهجرة.



(١) انهار السد حوالى عام ١٥٠ قبل الميلاد .

الفصل الثانى

مصر فى القرآن الكريم



أكرم الله مصر، وفضلها على كثير من المواضع على ظهر الأرض، وتردد ذكر اسمها فى القرآن الكريم، وفى كل من العهدين القديم والجديد.

وقيل: إن الله عز وجل ذكرها فى كتابه العزيز فى أربعة وعشرين موضعاً، منها ما هو بصريح اللفظ، ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير.

وقد وضح العلماء المواضع التى ظهرت فيها كلمة (مصر) صراحة ومكناة.

فأما صريح اللفظ فمنه قوله تعالى مخبراً عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

وقوله تعالى على لسان فرعون: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تبصرون﴾ [الزخرف: ٥١].

وقوله تعالى موجها الأمر لموسى عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

وقوله تعالى لبنى إسرائيل: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة:٦١]، وربما كانت الإشارة هنا لديار مصر أو إلى أى مصر، أى: إلى أى مكان متحضر.

وأما ما دلت عليه القرائن عن مصر بلفظ (أرض) فى مواضع كثيرة، منها ما جاء فى قصة يوسف وإخوته، وقصة موسى وبنى إسرائيل، قال تعالى على لسان يوسف: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]

وفى قصة موسى، نرى حاشية فرعون يقولون له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

وإشارة موسى لقومه عن مصر فى لفظة الأرض فى قوله تعالى: ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وقوله تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص:٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:١٩].

وقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ [غافر: ٢٩].

وهناك إشارات كثيرة فى القرآن الكريم إلى البلاد المصرية، وتفهم من السياق، فقوله تعالى عن بنى إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣].

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٨]

وقوله تعالى عن قوم فرعون الذين كانوا فى مصر: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٥-٢٨].

وقد ورد فى القرآن الكريم عن مريم ابنة عمران ووليدها عيسى وهروبهما إلى مصر، قال تعالى: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون:٥٠]، يقول عبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وغيرهما: هذه الربوة هى مصر.

وفى كتاب فضائل مصر للكندى يؤكد أنهما لجآ إلى مصر، فيقول: قال بعض العلماء المصريين: هى البهنسا، وقبط مصر مجمعون على أن المسيح وأمه كانا بالبهنسا، وانتقلا منها إلى القدس[1].



(١) فضائل مصر للكندى ١٤٨ ، والبهنسا : مدينة فى الصعيد فى محافظة المنيا، غربى النيل .

مصر على لسان الأنبياء

ورد ذكر مصر على لسان النبى ﷺ مبشراً صحابته بفتحها، وموصياً بقبطها خيراً، وداعياً قادة المسلمين أن يتخذوا من المصريين جنداً كثيفاً، فهم خير الجند، وأصبر الناس على التحمل والجهاد، قال ﷺ: ستفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لهم ذمة ورحما.

قال ابن كثير : والمراد بالرحم أنهم أخوال إسماعيل عليه السلام بن إبراهيم الخليل عليه السلام، فأمه هاجر القبطية، وأخوال إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، فأمه مارية القبطية.

وقال عليه السلام كذلك : إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً، فذلك الجند خير أجناد الأرض، فقال له أبو بكر : ولم ذلك يا رسول الله ؟، فقال : لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة.

وقال ﷺ عندما ذكر له أهل مصر : ما كادهم أحد إلا كفاهم الله مئونته.

وقال ﷺ : مصر أطيب الأرضين ترابا.(١)

وقال ﷺ : قسمت البركة عشرة أجزاء، تسعة لمصر، وجزء بالأمصار كلها.

وقال ﷺ : مصر خزائن الله، والجيزة غيضة من غياض الجنة.(٢)

وروى المؤرخون أن أول من دعا لمصر هو آدم عليه السلام، دعا لها بالرحمة والخصب والبركة والخير، قال عبد الله بن عمرو : لما خلق الله آدم مثّل له الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها وعامرها وخرابها، ومن يسكنها من الأمم، ومن يملكها من الملوك، فلما رأى مصر، رآها أرضاً سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة، ورأى جبلاً(٣) من جبالها مكسواً نوراً،

---

(١) صبح الأعشى ٣ / ٢٧٩.
(٢) أخبار الأول ٩.
(٣) يقصد جبل المقطم، قال القلقشندى : به قبر يهوذا وروبيل من إخوة يوسف، وبه القرافة. (صبح الأعشى ٣ / ٢٨١).

لا يخلو من نظر الرب عز وجل إليه بالرحمة، فى سفحه أشجار مثمرة، فروعها فى الجنة، تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم للنيل بالبركة، ودعا لمصر بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات، قال : ياأيها الجبل المرحوم، سفحك جنة، وتربتك ممسكة، تدفن فيها عرائس الجنة، أرض حافظة رحيمة، لا خلتك يا مصر بركة، ولازال بك حفظة، ولازال منك ملك وعز، يا أرض مصر فيك الخبايا والكنوز، ولك البر والثروة، سال نهرك عسلاً، كثّر الله رزقك، ودرّ ضرعك، وزكا[1] نباتك، وعظمت بركتك وخصبت، ولازال فيك يا مصر خير ما لم تتجبّرى وتتكبّرى أو تخونى، فإذا فعلت ذلك عداك شر، ثم يغور[2] خيرك.[3]

ودعا نوح عليه السلام لمصر أيضاً، قال لابنه بيصر بن حام- وهو أبو مصر، الذى سميت مصر على اسمه - كما يقول بعض الرواة، قال: اللهم إنه أجاب دعوتى، فبارك فيه، وفى ذريته، وأسكنه الأرض الطيبة، التى هى أم البلاد.[4]

وعندما قسّم نوح الأرض على بنيه، جعل لحام : مصر وسواحلها والغرب وشاطئ النيل[5].

وحين قدم حام إلى مصر وبلغ حدودها عند العريش، دعا لها دعاء ذكره ابن تغرى بردى، قال : اللهم إن كانت هذه الأرض التى وعدتنا على لسان نبيك نوح، وجعلتها لنا منزلاً، فاصرف عنا وباها، وطيب لنا ثراها، واجمع ماءها، وأنبت كلأها، وبارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك.[6]

وقال ابن إياس : ومن فضائل مصر أن بها سجن يوسف عليه السلام، فى نواحى الجيزة، وكان الوحى ينزل عليه هناك، وصار الآن مسجداً.. وقيل: إن

(١) زكا : نما وترعرع.
(٢) يغور خيرك : يزول ويذهب خيرك.
(٣) النجوم الزاهرة ١ / ٣٠.
(٤) السابق ١ / ٤٠.
(٥) قال المسعودى : أجمع الناس على أن ملك مصر كان من حد رفح من أرض فلسطين من بلاد الشام، إلى بلاد أسوان من بلاد الصعيد طولاً، ومن أيلة -إيلات- وهى تخوم الحجاز إلى برقة عرضاً. (انظر كتابنا الدين والنبوة فى مصر).
(٦) النجوم الزاهرة ١ / ٤٠.

كافوراً الإخشيدى[1] سأل أهل مصر عن موضع معروف بإجابة الدعاء فيه؟، فقالوا له: سطح سجن يوسف عليه السلام، قال القضاعى : هو فى بوصير، من أعمال الجيزة – وبوصير قرب البدرشين.

وقال ابن إياس أيضاً : وبمصر أيضاً مسجد يعقوب عليه السلام فى الفيوم.[2]



(١) أبو المسك ملك مصر، كان عبداً حبشياً، اشتراه أبو الحسن علىّ الإخشيدى عام ٣١٢ للهجرة، فنسب إليه وأعتقه، وترقى حتى صار ملك مصر عام ٣٥٥ للهجرة، كان فطناً ذكياً حسن السياسة، حتى لقب بالأستاذ، كان يدعى له على منابر مكة ومصر والشام، ولما مات حمل تابوته إلى القدس، فدفن فيها. (الأعلام).

(٢) بدائع الزهور ١ / ٢٥.

مصر على لسان الصحابة

وعندما فتح الله مصر على يد عمرو بن العاص عام ٢٠ للهجرة، أراد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب معرفة كل شيء عن البلد المفتوح، فبعث إليه عمرو كتاباً فيه وصف دقيق لمصر، وهو وصف الخبير العالم بجغرافيتها واقتصادها، والدارس للعلاقات التى كانت تربط بين المصريين وحكامهم الأجانب الذين كانوا يستغلونهم، ويمتصون دماءهم، وهم يعملون بلا أمل، إلا أن يحصلوا على قوتهم الضرورى من محصلة أعمالهم، وثمرة جهودهم.

وعمرو الفاتح يبدو فى رسالته هذه وكأنه عاش فى مصر طول حياته، ويرصد أحوالها رصداً دقيقاً، ويكفى أن نلاحظ فى هذه الرسالة أيضاً برنامج الإصلاح الذى اقترحه عمرو بن العاص، وهو برنامج تنموى اقتصادى أخلاقى.

فهو يصف ما ينبغى عمله لإصلاح مصر من الناحية الأخلاقية بالقضاء على الوشاية والنميمة، التى يلجأ إليها الصغار فى حق الكبار، وهى عادة مرذولة، جوهرها تشجيع للسياسة القائمة على الوشاية، والدس الرخيص.

وهو يصف برنامج العدالة الاقتصادية، فيرى أنه لا يؤخذ خراج ثمرة إلا بعد جنيها، حتى يتعادل قدر الضريبة مع عائد المحصول، ثم هو بعد ذلك يريد أن تقوم سياسات الانفاق على أساس تدعيم البنية الأساسية، ومن أهمها بناء الجسور وحفر الترع، وبذلك تقوم الدولة بما يلزمها من تأمين المستقبل، حتى يتضاعف الدخل العام، ويزيد الخير، ويعم الرخاء.

ولنقرأ الرسالة :

ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، يسألنى عن مصر : اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر[1]، يكنفها جبل أغبر، ورمل أعفر، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات، ميمون الروحات، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان، يدر

(١) يقصد أن طولها ثلاثة أضعاف عرضها، أى إن الماشى يقطع طولها فى شهر، وعرضها فى عشرة أيام.

حلابه[١]، ويكثر فيه ذبابه[٢]، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اصلخم[٣] عجاجه، وتعظمت أمواجه، وفاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب، وخفاف القوارب، وزوارق كأنهن فى المخايل وُرْقُ[٤] الأصائل، فإذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته، وطما[٥] فى درته، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة، وذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض، ويبذرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم، فناله منهم بغير جدهم، فإذا أحدق[٦] الزرع وأشرق، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى، فبينما مصر - يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هى عنبرة سوداء، فإذا هى زمردة خضراء، فإذا هى ديباجة[٧] رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء.

والذى يصلح هذه البلاد وينميها، ويقرّ القاطنين فيها، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها، وألا يُستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها، فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع المال، والله يوفق فى المبدأ والمآل.

فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال : لله درك يا ابن العاص، لقد وصفت لى خبراً كأنى أشاهده.[٨]

وهناك تعليق للمستشرق الفرنسى (أوكتاف أوزان) على كتاب عمرو للخليفة فى وصف مصر نشرته جريدة الفيجارو، قال : إنه من أكبر آيات البلاغة فى كل لغات العالم، وإنه من الفرائد فى إيجازه وإعجازه، وأقترح وجوب تدريسه فى جميع مدارس المعمورة، حتى يعلموا منه صحة الحكم على الأشياء، وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار.[٩]

---

(١) الحلاب : اللبن، أى : يكثر الخير، يقصد أيام الفيضان.
(٢) كناية عن وفرة الثمار.
(٣) اشتد.
(٤) كأنهن حمائم على صفحة النهر ساعة الأصيل.
(٥) تغطى وارتفع.
(٦) اخضر وتلوّن.
(٧) الديباج : ضرب من الثياب لحمته وسداه حرير.
(٨) النجوم الزاهرة ١ / ٣٢.
(٩) عمرو بن العاص لعبد الخالق أبو رابية ٣٧٨.

ومن شدة حب عمرو بن العاص لمصر وولايتها، اعتبرها فى الميزان كأنها كل ولايات الخلافة الإسلامية مجتمعة، ذكر القلقشندى قوله فى مصر : ولاية مصر جامعة تعدل خلافة.(١)

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص يصف المصريين : أهل مصر أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم يداً، وأفضلهم عنصراً، وأقربهم رحماً للعرب عامة، لقريش خاصةً.(٢)

وقال : من أراد أن ينظر إلى الفردوس، أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا، فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها، أو تنمو ثمارها. (٣)

وقال كعب الأحبار(٤): لولا رغبتى فى بيت المقدس لما سكنت إلا مصر، فقيل له: لم ؟، قال : لأنها معفاة من الفتن، ومن أراد بها سوءاً كبّه الله على وجهه، وهو بلد مبارك لأهله فيه.

وقال : كلم الله تعالى موسى من الطور إلى طوى.(٥)

وقال : من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا زخرفت. وفى رواية : إذا ازدهرت.

وقال : فى التوراة مكتوب : مصر خزائن الأرض كلها، فمن أراد بها سوءاً قصمه الله.(٦)

وقال أحمد بن المدبر : كشفت مصر فوجدت غامرها أضعاف عامرها، ولو عمرها السلطان لوفّت له بخراج الدنيا.(٧)

---

(١) عمرو بن العاص ٣٧٨.
(٢) النجوم الزاهرة ١ / ٢٩.
(٣) من ولى مصر من الولاة ٩.
(٤) هو كعب بن ماتع بن ذى هجن الحميرى، تابعى، كان فى الجاهلية من كبار علماء اليهود، أسلم فى زمن أبى بكر رضى الله عنه، قدم المدينة فى زمن عمر رضى الله عنه، أخذ عنه الصحابة كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو عنهم الكتاب والسنة، عاش فى حمص، وتوفى فيها عام ٣٢ للهجرة، عن مائة سنة وأربع سنوات.
(٥) الطور وطوى واديان مغروسان، وكلا المكانين فى شبه جزيرة سيناء.
(٦) النجوم الزاهرة ١ / ٣١.
(٧) السابق.

وقبل أن نختم هذا الموضوع نذكر ما أورده المسعودى عن بعض الحكماء قال عن مصر : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، وثلاثة أشهر مسكة سوداء، وثلاثة أشهر زمردة خضراء، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء.

أما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر فى شهر أبيب -تموز[1]-، ومسرى -آب[2]-، وتوت -أيلول[3]- يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء، وضياعها على رواب وتلال مثل الكواكب، قد أحاطت المياه بها من كل وجه، فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض إلا بالزوارق.

وأما المسكة السوداء فإنه فى شهر بابة -تشرين الأول[4] -، وهاتور- تشرين الثانى[5] -، وكيهك -كانون الأول[6] - ينكشف عنها الماء، وينضب عن أراضيها، فتصير أرضاً سوداء، وفيها تقع الزراعات، وللأرض روائح طيبة تشبه المسك.

وأما الزمردة الخضراء فإنه فى شهر طوبة وهو -كانون الثانى[7] -، وأمشير -شباط [8] -، وبرمهات -آزار[9] - تلمع بكثرة عشبها ونباتها فتصير الدنيا خضراء كالزمردة الخضراء.

وأما السبيكة الحمراء فإن شهر برمودة -نيسان[10] -، وبشنس- أيار[11]، وبؤونة -حزيران[12]- يبيض الزرع، ويتورد العشب، فهو كسبيكة الذهب منظراً.[13]

---

(١) تموز : يوليو.
(٢) آب : أغسطس.
(٣) أيلول : سبتمبر.
(٤) تشرين أول : أكتوبر.
(٥) تشرين ثان : نوفمبر.
(٦) كانون أول : ديسمبر.
(٧) كانون ثانى : يناير.
(٨) شباط : فبراير.
(٩) آزار : مارس.
(١٠) نيسان : أبريل
(١١) أيار : مايو.
(١٢) حزيران : يونيو.
(١٣) مروج الذهب ١ / ٣٣٩.

وهذا الوصف المفصل لحال مصر كان أيام مجئ الفيضان كل عام، وقبل بناء السد العالى جنوبى مدينة أسوان عام ١٩٦٣ للميلاد.

وكان المصريون يقيسون زيادة النيل أو نقصانه من أوائل شهر بؤونة (يونيو) وبعد حسابات قرابة الشهرين عندما يستقر المقياس على ستة عشر ذراعاً، أو أكثر تبدأ الاحتفالات والبشارات بوفاء النيل، وذلك فى شهر مسرى (أغسطس) فتفتح الخلجان والترع لتستقبل الفيضان بالفرح والاحتفال، ويستمر فى زيادته حتى الثامن من بابة (أكتوبر) حين يبدأ فى الانخفاض.

ومقياس النيل كانت له أماكن كثيرة على جانبيه، من أسوان إلى الدلتا، أما بعد الفتح الإسلامى فقد حدد عمرو مقاييس للنيل على طوله من الصعيد حتى منف.

يقول القلقشندى : جاء الإسلام، وفتحت مصر، والمقياس بمنف، ثم بنى عمرو مقياساً بأسوان، ثم بنى مقياساً بدندرة[١] ثم بنى فى أيام معاوية مقياساً بأنصنا[٢].

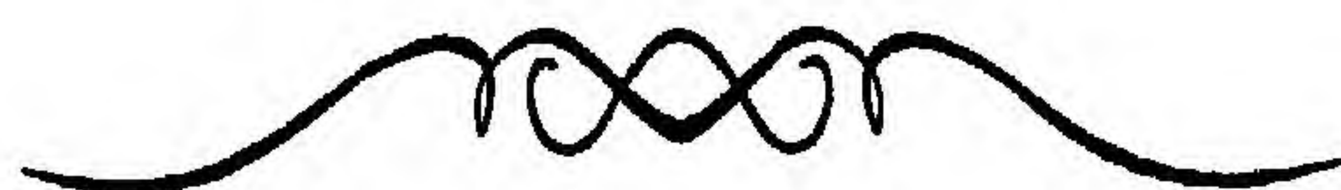


(١) دندرة : ويقال : أندرا بليدة على غربى النيل من نواحى الصعيد دون قوص (معجم البلدان).

(٢) أنصنا من قرى المنيا، كانت بلد مارية القبطية. (صبح الأعشى ٣ / ٢٩٥).

الفصل الثالث

رسالة الإسلام إلى مصر



قبل أن نستطرد فى هذا الموضوع، نحب أن نشير إلى تقسيم ذكره جورجى زيدان وضح فيه تاريخ مصر، وجعله ثلاثة أدوار، قال:

١- **الدور الجاهلى:** يبتدئ عند أول دخولها فى الممالك (عام ٥٦٢٦ - ٥٠٠٤ قبل الميلاد)، وينتهى (عام ٢٤١ قبل الميلاد - ٣٨٦ للميلاد)، وذلك عندما نهى الإمبراطور (ثيودوسيوس) عن عبادة النصب والتماثيل وأمر باتباع الدين المسيحى.

٢- **الدور المسيحى:** ويبتدئ عند شيوع سنّة (ثيودوسيوس)، وينتهى عند فتوح الإسلام عام ١٨ للهجرة (عام ٦٤٠ للميلاد).

٣- **الدور الإسلامى:** يبتدئ عند فتح الإسلام إلى الآن.[١]

وعود إلى موضوعنا فلا جدال فى عموم رسالة الإسلام إلى الإنسانية كلها، لا فرق بين عربى وغير عربى، قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾** [سبأ: ٢٨]، وقال: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيمِيت﴾** [الأعراف: ١٥٨].

غير أن هذا العموم لم يتحقق إلا عبر قنوات للاتصال، بدأت إرسالها فى موعدها المقدور، فى السنة السادسة للهجرة، وبعد عودة النبى ﷺ من الحديبية إلى المدينة، حينئذ بدأ فى استقبال الوفود من جميع القبائل فى الجزيرة العربية، ليعرض عليهم الإسلام، وشرع فى إرسال الرسل إلى خارج الجزيرة العربية، وذلك لنشر الدعوة فى العالم، وإعلام الناس من ملوك ورعايا بما جاء به الدين الجديد من تعاليم، فبعث عليه السلام إلى ملوك الأرض وزعمائها كتباً، بعد أن اتخذ خاتماً[٢] من فضة نقشه: (**محمد رسول الله**)[٣]، وختم به الكتب، التى كانت أكثر من

---

(١) تاريخ مصر الحديث ١ /٩. والعام الصحيح لفتح الإسلام هو سنة ٢٠هـ.

(٢) كان هذا الخاتم فى يد النبى ﷺ حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، ثم كان فى يد أبى بكر الصديق حتى قبض، فاتخذه عمر خاتماً، وجاء عثمان ولبسه ست سنوات، ثم سقط من إصبعه فى بئر أريس، فالتمسه الناس ثلاثة أيام فلم يجدوه.

(٣) مكتوبة على ثلاثة أسطر.

مائة[1]، خرج بستة منها فى يوم واحد ستة نفر إلى ملوك وزعماء العالم فى شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة[2]، وبعد غزوة خيبر.

وكان النبى ﷺ حريصاً أن يختار حملة كتبه ممن يجيدون لغات الأقوام المرسل إليهم، ويتقنون التحدث بلسانهم.

وكان أول المبعوثين هؤلاء الستة: عمرو بن أمية الضمرى[3] إلى النجاشى ملك الحبشة، ودحية بن خليفة الكلبى[4] إلى هرقل قيصر الروم، وعبد الله بن حذافة السهمى[5] إلى كسرى فارس، وسليط بن عمرو العامرى[6] إلى هوذة بن على من بنى حنيفة، وشجاع بن وهب الأسدى[7] إلى الحارث بن أبى شَمِّر ملك الغساسنة.

وسادس الكتب حمله حاطب بن أبى بلتعة اللخمى[8] إلى المقوقس - جريج ابن مينا - صاحب الإسكندرية وعظيم القبط - يدعوه وقومه المصريين إلى الإسلام، وتتابعت الكتب بعد ذلك إلى بقاع الأرض.

والمعروف أن كتب النبى ﷺ كانت تكتب بالعربية، أما حاملها فهو العارف بلغة المرسل إليه حتى يكون كالمترجم والشارح والمفسر لما فيها.

---

(١) ذكر ابن سعد - صاحب الطبقات - الكتب جميعها بالتفصيل، وعدها بمائة رسالة ورسالة. (الطبقات ١/٢٥٨: ٢٩١).

(٢) فى شهر مايو، عام ٦٢٨ للميلاد.

(٣) صحابى شجاع، أسلم بعد أحد، وأسر فى بئر معونة، شهد وقائع كثيرة زمن الخلفاء الراشدين، توفى بالمدينة عام ٥٥ للهجرة.

(٤) صحابى حضر كثيراً من الوقائع، كان يضرب به المثل فى جمال الصورة، نزل جبريل عليه السلام في هيئته، توفى عام ٤٥ للهجرة.

(٥) أسلم قديماً، وهاجر إلى الحبشة، شهد فتح مصر (سنتحدث عنه باستفاضة فى باب الصحابة الذين فتحوا مصر) إن شاء الله.

(٦) من أمراء السرايا، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، قتل يوم اليمامة عام ١٢ للهجرة.

(٧) من مهاجرى الحبشة، وشهد بدراً وما بعدها، استشهد فى اليمامة عام ١٢ للهجرة.

(٨) من قحطان اليمن، ولد عام ٥٣ قبل الهجرة، وفد مع قومه على النبى ﷺ، فقال لهم: من أنتم؟. قالوا: بنو خالفة. قال: بل أنتم بنو راشدة. شهد حاطب بدراً وأحداً وما بعدهما، كان من الفرسان الرماة، ومن شعراء العرب فى الجاهلية، توفى فى المدينة عام ٣٠ للهجرة.

وكان حاطب عليماً باللغة القبطية، فحمل الكتاب، وسار براً حتى وصل إلى مصر، ثم ركب النيل إلى الإسكندرية حيث كان المقوقس مقيماً على شاطئ البحر، والتقى به وسلمه الرسالة(1)، التى كان نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، فإنى أدعوك بدعاء الإسلام، أسلم تسلم، ويؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مسلمون﴾ [آل عمران: ٦٤].

والرسالة كما نرى موجهة صراحة للمقوقس زعيم القبط وللمصريين أيضاً، على أن يشرح لهم رئيسهم المقوقس مضمون الإسلام، ولهم أن يختاروا، وقد كان رسول الله ﷺ بعث لقيصر الروم كتاباً آخر، فلم يشأ هنا أن يشير إلى الروم المستعمرين من قريب أو من بعيد، وإنما كان الكتاب صراحة للمصريين وزعيمهم، لقد كان النبى ﷺ يدرك قدر مصر، ووزنها الحضارى الثقيل فأرسل إلى عظيمها، دون ما وراءه من الروم.

ويبدو أن المقوقس عندما قرأ الكتاب، وفكر فى مضمونه – أدرك أن محمداً هو النبى الذى بشر به السيد المسيح فى الإنجيل، فمال إلى الإسلام لولا خشيته من الروم المحتلين، وخوفه من أن يسلب منه ملك مصر –لو أسلم– ولذا كان رده على رسول الله ﷺ شديد الحذر، ليس فيه قبول أو رفض، وإنما ظاهره سياسة ومداهنة وتلطف، فقال لحاطب حامل الرسالة: لقد أمرت لك بمائة دينار وخمسة أثواب، فارحل عنى، ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً.

وقوله: (لا تسمع منك القبط حرفاً واحداً)، يدلنا على خوف المقوقس من أن يميل أحد المصريين للدين الجديد، والحرب مازالت بينه وبين القبط على اختلاف المذهب.

ثم كتب الرد إلى النبى ﷺ، ونصه: سلام عليك، أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وتدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقى، وكنت أظنه يخرج

(1) ذكر المؤرخون أن المقوقس بعد أن قرأ الكتاب وضعه فى حق من عاج وختم عليه.

بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك جاريتين لهما مكان عظيم فى القبط وأهديت لك بغلة تركبها، وبعض خيرات مصر، وبعثت لك بطبيب، والسلام عليك.

وفصّل ابن سيد الناس هذه الهدايا، وقال: كانت ألف مثقال ذهباً، وعشرين ثوباً[1] ليناً من قَبَاطىّ مصر، وبغلة وحمارا، وعبدا يدعى (مأبور)، وعسلاً من بنها.[2]

وقد زاد ابن إياس فى الهدية، وقال:.. وجاريتين هما (مارية) و(سيرين) أختها، قال الواقدى: وجارية أخرى يقال لها (حسنة).[3]

فأعجب النبى ﷺ العسل ودعا لعسل بنها بالبركة.

أما ابن الزبير فقد فصّل أكثر فى وصف الهدايا، وقال: إن الرسول ﷺ سمى البغلة (دلدل)، وسمى الحمار (يعفور)، وسمى فرساً فى الهدية (لزازا)، وربعة اسكندرانية، وقدحاً من قوارير.[4]

ومعلوم أن النبى ﷺ تزوج إحدى الجاريتين، واسمها (مارية)[5] التى صارت أم ولد، وأعتقها ابنها إبراهيم ابن النبى ﷺ.

والجارية الثانية – ويقال: أختها – اسمها سيرين، وهبها النبى ﷺ لشاعره حسان بن ثابت، فكانت أم ولده عبد الرحمن.

وعود إلى المقوقس الذى أراد أن يعرف كل شيء عن ذلك النبى، فجاء بحاطب – قبل رحيله إلى المدينة – وأخذ يحاوره ويسأله عن صفات هذا النبى، وشكله وخلقه، ليستشف من إجاباته حقيقة ذلك النبى، ومدى مطابقتها لصفات النبى

---

(١) قيل إن بعض هذه الأثواب كفن فيها النبى ﷺ، عن ابن مسعود قال: قلنا: يا رسول الله فيم نكفنك ؟. قال: فى ثيابى هذه أو فى ثياب مصر. (فتوح مصر ٥٢).

(٢) عيون الأثر ٣١١/٢. وبنها: مدينة فى وسط الدلتا، عاصمة محافظة القليوبية الآن.

(٣) بدائع الزهور ٩١/١. وقال: أما حسنة فقد وهبها ﷺ لأبى جهم بن حذيفة العبدى.

(٤) الذخائر والتحف ٨. والربعة: صندوق كان النبى ﷺ يضع فيه أشياءه. والقوارير: الزجاج.

(٥) كانت مارية من قرية اسمها حفن، من كورة أنصنا، وهى مدينة أثرية من نواحى الصعيد فى محافظة المنيا، غربى النيل، توفيت رضى الله عنها عام ١٥ للهجرة، ودفنت فى البقيع.

التى قرأ عنها فى كتب السابقين، والتى ذكرت أن نبياً آت، وهو خاتم الأنبياء(1)، وقد اختصرنا الحوار الذى دار بينهما مما أورده ابن عبد الحكم:

قال المقوقس: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو علىّ فيسلط علىّ؟، قال له حاطب: ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يُفْعَلَ به ويُفْعَلَ... إنه كان هناك قبلك رجل(2) زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يُعتبر بك، وإن لك ديناً لا تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافى اللهُ به فقْد ما سواه، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به.(3)

وسأل المقوقس حاطباً: ألا تخبرنى عن أمور أسألك عنها ؟ فإنى أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك. قال: لا تسلنى عن شيء إلا صدقتك.

قال: إلام يدعو محمد ؟. قال: إلى أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، ونخلع ما سواه، ويأمر بالصلاة.

قال: فكم تصلون ؟. قال: خمس صلوات فى اليوم والليلة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت، والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة والدم.

قال: من اتباعه ؟. قال: الفتيان من قومه وغيرهم.

قال: فهل يقاتل قومه ؟. قال: نعم.

قال: صفه لى. قال حاطب: فوصفته..

قال المقوقس: قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها، فى عينيه حمرة قل ما تفارقه، وبين كتفيه خاتم النبوة، يركب الحمار، ويلبس الشملة، ويجتزئ بالتمرات والكسر، ولايبالى من لاقى من عم ولا ابن عم. قال حاطب: هذه صفته.

قال: قد كنت أعلم أن نبياً قد بقى، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج فى العرب فى أرض جهد وبؤس،

(1) انظر كتابنا (الدين والنبوة فى مصر).
(2) يقصد فرعون موسى.
(3) فتوح مصر ٤٧.

والقبط لا تطاوعنى فى اتباعه، ولا أحب أن يعلموا بمحاورتى إياك، وسيظهر على البلاد، وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما هاهنا، وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفاً، فارجع لصاحبك.(١)

ثم قال له وهو يودعه: وسوف أرسل معك مبذرقة(٢) يبذرقونك إلى مأمنك.(٣)

والأغلب أن المقوقس كان يعرف من كتب السابقين كيف سيدخل الإسلام مصر، وكيف سيظهر فى إفريقية بعد ذلك بسنوات، ولذلك أمر حاطباً أن يكتم الأمر عن القبط، حتى لا يثير بلبلة، ولم يئن الأوان بعد.

ولم يتصل حاطب بأحد، أو يبلغ قبطياً ما جاء من أجله، ألا وهو توصيل كتاب محمد ﷺ إلى المقوقس، فالحراسة التى كانت عليه لم تكن لتأمين طريقه فقط، وإنما لتمنعه من الاتصال بأى قبطى، ولذا خرج حاطب من الحدود المصرية ولم يلتق إلا بالمقوقس وحاشيته، ثم أخذ الهدية التى بها ثلاثة من القبط، وأخذ يتحدث معهم فى الإسلام، فمال قلب مارية وأختها سيرين إلى الدخول فيه، وتم إسلامهما فى المدينة.

يقول ابن عبد الحكم:.. فلما نظر النبى ﷺ إلى مارية وأختها أعجبتاه، وكره أن يجمع بينهما، وكانت إحداهما تشبه الأخرى، فقال: اللهم اختر لنبيك، فاختار الله مارية له، وذلك أنه قال لهما: قولا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فبدرت مارية، فتشهدت، وآمنت قبل أختها، ومكثت أختها ساعة ثم تشهدت وآمنت.(٤)

أما ثالث المصريين فى الهدية فهو العبد (مأبور)، الذى تباطأ فى إسلامه، ودخل فيه بعد ذلك، كما تقول أغلب الروايات.

---

(١) فتوح مصر ٤٧.
(٢) المبذرقة: الحرس يتقدمون القافلة.
(٣) فتوح مصر ٤٧.
(٤) فتوح مصر ٤٩.

هذا هو الاتصال الوحيد بين النبى ﷺ وقبط مصر، ولا خلاف بين الرواة والمصادر التى رجعنا إليها فى صحة كتاب النبى ﷺ إلى المقوقس، إلا أن بعض الوثائق فى دير سانت كاترين بسيناء تذكر أن هناك اتصالاً جرى بين النصارى فى مصر وبين رسول الله ﷺ، وفى ذلك الدير وثيقة تقول إن رهبان الدير(١) أرسلوا فى العام الثالث الهجرى (عام ٦٢٥ للميلاد) إلى النبى ﷺ يطلبون منه حماية المدينة، ويذكرون فى هذا الصدد رسالة مازالوا يحتفظون بها وضعت عليها بصمة كف، يقولون إنها كف النبى ﷺ.

واحتوت الوثيقة على عهد أمان لهم يعتزون به ويذكرونه فى معرض الفخر باستقلالهم فى ديرهم عن جهات الحكم والإدارة فى مصر.

ولم نعثر بدورنا فيما بين أيدينا من المراجع على ما يؤكد صحة هذه الوثيقة، فضلاً عن أن يكون النبى ﷺ قد زار هذا الدير كما يزعمون، غير أننا نشير إلى هذا الخبر مجرد إشارة حتى لا يكون قد فاتنا شيء مما يقال فى هذا المعرض.

يضاف إلى ذلك أن نوعية الخط الذى كتبت به هذه الوثيقة ينفى ثبوت علاقة من هذه الزاوية بين الرسالة وعصر الرسول ﷺ، كما أن وجود بصمة الكف أسفل الرسالة أمر لم يقل بحدوثه أحد ممن تحدثوا عن مكاتبات النبى ﷺ إلى الملوك والأمراء والأقيال، فضلاً عن أن الدعوة لم تكن آنذاك - العام الثالث الهجرى - قد تحركت خارج الجزيرة العربية بشكل أو بآخر، والله أعلم.

لقد كانت رسالة النبى ﷺ إلى المقوقس خير تمهيد لدخول الإسلام إلى مصر، فمازالت أصداؤها تدوى فى نفس المقوقس ومن حوله، ولاسيما إذا كان الإيمان بالرسالة الجديدة ينهى الخلاف المذهبى بين جناحى المسيحية المتقاتلين فى مصر.

وإذا صح ما ذكرناه من حوار المقوقس مع حاطب - ولا شيء يمنع من أن يكون صحيحاً - فإن موقف المقوقس فيه يقترب من موقف هرقل عظيم الروم فى

---

(١) دير طور سيناء، وصورة العهد معلقة على أحد حيطانه.

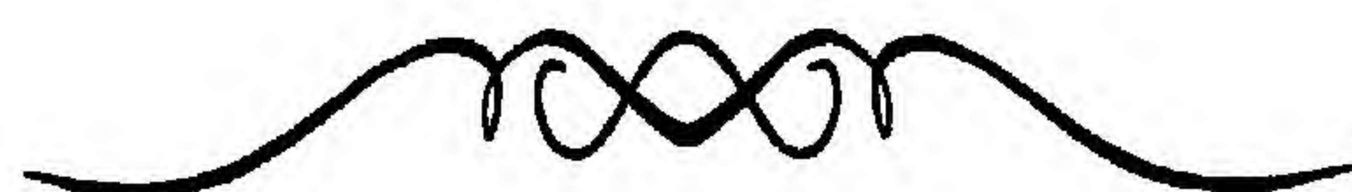
حواره مع أبى سفيان، وتقصيه عن أحوال النبى ﷺ وأوصافه، وهو حوار مذكور فى صحيح البخارى.

فالموقفان لا يختلفان، والدافع وراءهما واحد، وهو ما ثبت فى كتب النصارى من تبشير المسيح عيسى بن مريم ببعث نبى آخر الزمان، وبزوغ فجر الرسالة المحمدية الخاتمة.



الفصل الرابع

فتح الإسلام لمصر



بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى فى ١٣ من ربيع أول عام ١١ للهجرة (الموافق ٨ من يونية عام ٦٣٢ للميلاد) - ارتدت بعض قبائل العرب فى الجزيرة، فمنهم من ادعى النبوة، ومنهم من خرج من الإسلام، ومنهم من امتنع عن دفع الزكاة، فسيّر الخليفة الصديق أبو بكر إحدى عشرة كتيبة لحرب هؤلاء المرتدين ومانعى الزكاة، وبعد حروب ومساجلات هدأت هذه الفتنة، واستقر أمر الإسلام فى جزيرة العرب، وعندئذ قرر أبو بكر نشر الإسلام خارج الجزيرة، فبدأ بحملة لخالد بن الوليد[(١)]، وبعثه إلى العراق.

واكتسح سيف الله المسلول ديار مجوس الفرس حتى وصل إلى حدود الشام، فى دومة الجندل، وسمع هرقل فى القسطنطينية بهذه الفتوحات الإسلامية، فجمع جيوشه وقواته على حدود فلسطين خوفاً من المد الإسلامى العارم الذى اكتسح أمامه الجانب الغربى من فارس، وعلم الخليفة فى المدينة بخبر الجيش الرومى، فكان رد فعله سريعاً، وجهز - قبل وفاته بقليل - عدة جيوش لمواجهة الروم، فكانت ثلاثة جيوش، قرابة عشرة آلاف رجل من متطوعة المسلمين، وجعل على الجيش الأول عمرو بن العاص[(٢)] وبعثه إلى فلسطين، وعلى الثانى يزيد بن أبى سفيان[(٣)] ووجهه إلى الشام، وعلى الثالث شرحبيل بن حسنة[(٤)] ووجهه إلى وادى

---

(١) لقبه رسول الله ﷺ بسيف الله المسلول، أسلم مع عمرو بن العاص قبل الفتح، وخالد من مخزوم من قريش حارب المرتدين وفتح العراق ثم اتجه إلى الشام وانتصر فى معركة اليرموك توفى سنة٢٢هـ - سنة٦٤٣م.

(٢) سنتحدث عنه بالتفصيل فى باب (أمراء مصر فى القرن الأول) إن شاء الله.

(٣) ابن أبى سفيان بن حرب الأموى، أمير شجاع أسلم يوم فتح مكة، استعمله النبى ﷺ على الصدقات، سيره أبو بكر إلى الشام، ثم تولى دمشق وخراجها بعد الفتح، له وقائع كثيرة، توفى فى طاعون عمواس، ودفن فى دمشق عام ١٨ للهجرة، تولى معاوية أخوه إمارة الشام من بعده.

(٤) شرحبيل بن عبد الله الكندى، وحسنة أمه، هاجر إلى الحبشة، وغزا مع رسول الله ﷺ، وفتح الأردن فى عهد أبى بكر، وتولى إمارة إحدى مدنها، حتى جاء عمر بن الخطاب الجابية فعزله، فقال له : أعن سخط عزلتنى يا أمير المؤمنين؟. قال: لا، ولكنى أريد رجلاً أقوى من رجل. توفى فى طاعون عمواس عام ١٨ للهجرة، وله من العمر ٦٨ عاماً.

الأردن، ثم جعل القيادة العامة لهذه الجيوش الثلاثة لأبى عبيدة بن الجراح [1].

وفتح الله على المسلمين بلاد الشام، إما بوقائع حربية كبيرة مثل: أجنادين واليرموك، أو بصلح مثل: دمشق وحلب، أو باستسلام مثل: بعلبك وحمص وحماة، وكل ذلك خلال ثلاث سنوات، ما بين عامى ١٣ و١٦ للهجرة.

وجاء دور أولى القبلتين (بيت المقدس) التى طال حصار المسلمين لها، بقيادة أبى عبيدة بن الجراح، وأيقن أهلها أنه لا نجاة من طول الحصار، فطلبوا من المسلمين المصالحة كما صالحهم أهل دمشق، فوافق أبو عبيدة، ولكن النصارى شرطوا شرطاً: أن يكون المتولى لعقد الصلح هو خليفة المسلمين نفسه.

وكان خليفة المسلمين عمر بن الخطاب الذى تولى الخلافة بعد وفاة الصديق فى جمادى الآخرة عام ١٣ للهجرة (الموافق ٢٢ من أغسطس عام ٦٣٤ للميلاد)، وبلغته رغبة أهل بيت المقدس فى الصلح المشروط، فشد الرحال إلى بيت المقدس، وعاهد أهلها، وأقام الصلاة خارج كنيسة القيامة، حيث مسجد عمر الآن.

ثم كتب عهد الأمان، يقول الشيخ الخضرى :.. وعلى ما فى الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية.

وشهد بذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان.[2]

وأقام عمر بن الخطاب فى قرية من أعمال دمشق ناحية الجولان، قرب مرج الصُّفَّر شمالى حوران، اسمها (الجابية)[3]، وعقد مؤتمرا حضره كبار

---

(١) أمين الأمة، وأحد المبشرين بالجنة، القائد أبو عبيدة الفهرى القرشى، أحد السابقين إلى الإسلام، شهد مع الرسول ﷺ المشاهد كلها، وفى أحد انتزع نصلاً من جبهة النبى ﷺ بفيه، فهتم وصار أثرم الثنيتين، تعلقت به الناس لرفقه وأناته وتواضعه، توفى فى طاعون عمواس عام ١٨ للهجرة، ودفن فى بيسان.

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية ٢ / ٦.

(٣) قال محمد حسونة: واختار للمؤتمر مكانا كان قواد العرب قد اتخذوا منه مقرا لقيادتهم العليا بالشام وهو (الجابية) لوقوعها على الأرض المرتفعة القائمة إلى الشرق من بحر الجليل (بحيرة طبرية) بحيث تستطيع جنودهم أن تسير على الطرق الرومانية القديمة إلى دمشق فى الشمال وإلى الأردن وفلسطين فى الجنوب.. وهى تحيط بها المروج الخضراء ويكثر بها الكلأ الذى لا تستغنى عنه إبل العرب وخيلهم (الجغرافيا التاريخية الاسلامية ٤٤)

القوادوذوو الرأى ووضع الأسس والنظم للدولة الجديدة فى الشام، ثم عاد إلى المدينة.

ومرت سنتان كان المسلمون قد فتحوا الشام كله تقريباً، حتى وصلوا إلى حدود البلاد الرومية، وجاء عمر بن الخطاب إلى الجابية مرة أخرى عام ١٨ للهجرة، وفى هذه المرة دخل عليه أحد كبار الفاتحين: عمرو بن العاص، وأسر إليه حديثاً هامساً، وأخذ الخليفة يراجعه مع نفسه، ويستعرض كل الاحتمالات، ثم كان أمره فى النهاية: على بركة الله.

كان هذا الحديث الهامس هو دعوة أمير المؤمنين أن يأذن لعمرو بن العاص بفتح مصر، وقد حاول عمرو أن يوضح للخليفة ضرورة هذا الفتح، وأن المسلمين فى الشام لن يحسوا بالاستقرار طالما كان هناك جيش رومى بالقرب منهم فى مصر، وشرح له أن الزحف إلى مصر أمر طبيعى، فمصر درة الشرق، وصاحبة الأرض الخصبة التى ينساب فيها النيل بالخير، وهى التى هاجر إليها أكثر الأنبياء وفتحها ضمان وأمان للإسلام فى الشام، ثم قال له فى نهاية حديثه ليشجعه على الموافقة على الفتح: (يا أمير المؤمنين إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم، وهى أكثر الأرض أموالاً، وأعجزها عن القتال والحرب).

وهذا الرأى الذى عبر عنه عمرو بن العاص يدل على معرفة عميقة بشئون مصر، فقد زارها خلال رحلاته التجارية، ولمس ما كان يباعد بين شعب مصر وحكامها الرومان والمتعاونين معهم من الطبقة الحاكمة من القبط، وقد استطاع عمرو أن يقنع أمير المؤمنين بأن شعب مصر لا إرادة له فى الحكم القائم فى البلاد، بحيث توقع أن يقف الشعب من القوة الجديدة التى تحاول أن تفتح مصر موقفاً سلبياً فى أدنى أحواله، إن لم يكن موقفاً مؤيداً لهؤلاء الفاتحين الجدد.

ولم ينس عمرو وهو يشجع الخليفة على الموافقة أن يذكره بحاكم بيت المقدس الرومى (أريطيون) الذى هرب إلى مصر إثر تسليمها للمسلمين، وبدهى أن هذا القائد لن يسكت، وإنما سيحاول جمع شتات جيشه ليكون قوة ضاربة ضد المسلمين بعد ذلك.

أما وضع مصر السياسى - فقد كانت مستعمرة رومانية تحت حكم الإمبراطور هرقل، وأميرها هو جريج بن مينا المقوقس من قبل الروم، وكان

المشرف على قصر الحكم المسمى حصن بابليون - كان رجلاً رومياً اسـ الأعيرج.

وكان أمير المؤمنين عندما وافق على فتح مصر علق على هذا الأمر - كـ قالت بعض الروايات - بأنه سيبعث لعمرو بن العاص لدى عودته إلى المدينـ المنورة كتابا، وشرط شرطاً قال فيه:.. فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصرا عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإن دخلتها قبل أن يأتيـ كتابى فامض لوجهك، واستعن بالله واستنصره.(١)

وانتهز عمرو موافقة أمير المؤمنين، فأسرع فى تجهيز الجيش، وخرج بـ من قيسارية(٢) فعسقلان فغزة فرفح، وكان قوام الجيش أربعة آلاف رجل أكثر من اليمن، وخاصة قبيلة (عك)، وقال الكندى: إن ثلث الناس كانوا من قبيلـ (غافق).

وقال ابن دقماق: إنه كان فى جيش العرب ممن أسلم من الروم وجماعة مـ الفرس الذين كانوا باليمن.

إذن فقد كان الجيش الذى خرج مع عمرو من فلسطين مكوناً من عناصـ عربية إلى جانب عناصر أخرى من الفرس والروم، تجمعهم راية واحدة هى رايـ الإسلام، وهدف واحد هو نشر دين الله فى أقطار الأرض.

وقد اختلفت الروايات فى هل خرج عمرو إلى مصر والخليفة فى الشام أ فى المدينة ؟

قال بعض الرواة: إنه خرج والخليفة فى الشام، لكن الأغلب أنه أعطـ الضوء الأخضر، ثم رحل إلى المدينة، وبدأ عمرو فى الاستعداد حتى جاءه شريك ابن عبده بموافقة الخليفة على الغزو، ويأمره أن يخرج بجنوده ويسير سيراً هيناً.

وكان الخليفة قد استشار بعض الصحابة، فكان هناك رأى لعثمان بن عفان جعل الخليفة يتردد فيبعث إلى عمرو خوفاً من أن يكون قد دخل حدود مصر، قال

(١) فتوح مصر ٥٦.
(٢) من أعمال فلسطين على شاطىء البحر الأبيض.

عثمان: إن عمراً لَمُجَرّأ، وفيه إقدام وحب للإمارة، فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا.

وأسرع الخليفة بالكتابة إلى عمرو قائلاً: إن أدركك كتابى قبل أن تدخل مصر، فارجع إلى موضعك[1]، وإن كنت دخلت فامض لوجهك على بركة الله. ووعده أن يبعث له بالإمداد.

وركب الرسول متجهاً إلى حدود مصر وفلسطين، فى نفس الوقت الذى كان فيه عمرو متجهاً إلى حدود مصر الشرقية، وتقابل الرسول وجيش عمرو عند رفح.

وعلم عمرو بوجود الرسول، فأخذ يسرع الخُطَا حتى يصل لمكان لا يختلف فيه اثنان أنه من مصر، لخوفه أن يكون الخليفة قد تراجع فى الإذن بفتح مصر، لأنه لو كان قد دخل الحدود ورجع فقد تكون سبة فى جبين العرب وخذلاناً لجيش المسلمين، أن يدخلوا حدود بلد، ثم يرجعوا عنها دون أن يقاومهم أحد، ولذلك أخذ عمرو يدافع الرسول حامل الكتاب، ويمتنع عن لقائه حتى دخل قرية بين رفح والعريش[2]، وتأكد أنها من مصر، فدعا الرسول، وجمع كبار الصحابة والقادة فى الجيش، وقبل أن يقرأ عليهم رسالة الخليفة، سألهم مؤكداً: ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟. أجابوا: بلى. فقرأ عليهم الرسالة وما فيها من أمر الخليفة بالتوكل على الله، والتقدم لفتح مصر.

وعلق بتلر على ذلك قائلاً: أما عمرو فقد بدأ أمره، ولم يكن بالرجل الذى ينقض ما بدأ فيه، وعرف أن ذلك الكتاب الذى لحق به لم يأته بالرضا عما هو فيه، ولهذا لم يأخذه من الرسول حتى مهبط السيل الذى ربما كان الحد بين أرض مصر وفلسطين، وبلغ بسيره الوادى الصغير الذى عند العريش.[3]

---

(١) فى قيسارية فى فلسطين.

(٢) كان اسمها (رينوقولورا)، كانت مدينة ذات حصون، وكان السور العظيم الذى بناه سيزوستريس (سنوسرت الأول) يبدأ من عندها، وينتهى عند الجندل الأول على النيل.

(٣) فتح العرب لمصر ١٧٤.

وهناك روايات ذكرت أموراً غريبة عن خروج جيش المسلمين الفاتح، فهذه رواية تقول إن عمراً خرج بدون إذن الخليفة، حتى إن السيوطى قال: فسار عمرو من جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس.(١)

وبعضها قال إن عمراً غرر بجنده فى قيسارية مع ما بها من أجناد المسلمين، وخرج بليل وعمر بن الخطاب فى الجابية، ولما افتقده أمراء الجيوش الأخرى استنكروا فعلته، وشكوه لأمير المؤمنين لتغريره بالمسلمين، وخروجه بهم إلى مصر.

وهذا كلام لا يجيزه عقل، فكيف خرج جيش من أربعة آلاف مقاتل ما بين راكب وراجل، ومعهم معداتهم وعتادهم وماشيتهم وخيولهم وأقواتهم، دون أن يحس بهم أحد، حتى يفتقدهم أمراء الجيوش الأخرى فيشكون لأمير المؤمنين أن عمرًا غرر بالجند، وكأنهم بضع عشرات.

والأمر الأقرب للعقل والحقيقة أن عمر بن الخطاب نفسه هو الذى أذن لعمرو بالخروج، وحدد له من سيخرج معه من المسلمين، ووضع له خطة السير، وألزمه فقط بالشرط الذى ذكرناه آنفاً، مع يقين عمر بأن النبى ﷺ قد بشر المسلمين بفتح مصر.

ويجب أن نلاحظ أن خروج عمرو بهذه القوة لفتح مصر لم يكن عملاً يتسم بالمغامرة، فلا يصح أن نتصور أنه خرج بهذه القوة على حساب ما كان يلزم من تأمين الوجود الإسلامى فى فلسطين بخاصة، وفى بلاد الشام بعامة، فمن المؤكد أن الوجود الإسلامى فى الشام وفلسطين كان قد استقر تماماً فى هذه الأراضى، إضافة إلى أن هذا الوجود كانت تحميه قوة تقارب المائة ألف مقاتل مسلم، وخروج عمرو بجيشه المكون من أربعة آلاف لا يمثل إخلالاً بقوة الوجود الإسلامى فى المنطقة، بل إنه كان يستهدف من الجانب الآخر تأمين الجناح الغربى للوجود الإسلامى فى بلاد الشام، وضرب القوة الرومانية التى كان عمرو يتوقع أن تتحرك لاسترداد هذه البلاد المفتوحة بالإسلام.

---

(١) حسن المحاضرة ٢٧.

وقبل أن نسير مع عمرو فى طريق الفتح، نورد مقولة لبعض المؤرخين اليونانيين، تقول: إن المقوقس اشترى العرب بجزية وعدهم بها، وإنه دفع لهم هذه الجزية لمدة عشر سنين، وذلك قبل دخولهم العريش!!!

وهذا خلط فى ترتيب الأوراق، وتشويه للأحداث، فالمعاهدة التى كانت بين العرب والقبط لم تتم إلا بعد فتح حصن بابليون، كما سنرى فى حينه إن شاء الله.

خرج عمرو بجيشه من قيسارية فى فلسطين، يقول د. حسين مؤنس: سار عمرو لفتح مصر من قيسارية إلى عسقلان، فغزة فرفح، ثم مر بالعريش، وبئر المساعيد ورؤوس الأوراب، وبئر العبد وقعيا، ثم انتهى إلى الفرما.[1]

وبينما كان فى العريش أدركه عيد النحر عام ١٨ للهجرة (الموافق ١٢ من ديسمبر عام ٦٣٩ للميلاد)، فضحى عن أصحابه بكبش. واستأنف المسير بعد أن التقط الجند أنفاسهم، وتهيأوا لرحلة الفتح المبين.



(١) أطلس تاريخ الإسلام ١٣٣.

أول المعارك المصرية

دخل عمرو حدود مصر فى الأيام الأخيرة من عام ١٨ للهجرة، وسار حتى وصل الفرما[١]، بعد أن ترك بساتين النخيل فى العريش، وقد سار فى نفس الطريق التى سار فيها من قبل إبراهيم ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وقمبيز والإسكندر، والمسيح وأمه عليهما السلام، ثم سار فيها الفرس ثانية من وقت قريب، وهى نفس الطريق التى كان يسلكها التجار وحجاج بيت المقدس، من مصر وإليها.

وفى الفرما وجد عمرو بن العاص أول مقاومة رومية فى شكل حامية كبيرة، قيل إن المقوقس هو الذى أرسلها للقاء عمرو، ولكن الأغلب أنه كان هناك حامية فعلاً، وربما بعث المقوقس بمدد لتقويتها عند سماعه باتجاه العرب إلى مصر، وتم فتح الفرما بعد قتال عنيف شرس.

يقول الدكتور شلبى: ولعب المصريون دوراً هاماً فى مساعدة المسلمين ضد الروم حتى سقطت الفرما فى يد المسلمين.[٢]

وهذا القول نفسه قال به المقريزى من قبل، ولكن هناك رأياً معارضاً لمؤرخ قبطى قريب العهد من الحوادث، هو: حنا النقيوسى، قال: إن القبط لم يساعدوا المسلمين إلا بعد أن استولوا على الفيوم وإقليمها.

قال بتلر:.. ولسنا ندرى على التحقيق فى أى وقت كان هذا، ولكن من الجلى أنه لم يكن إلا بعد فتح حصن بابليون، ولم تكن تلك المساعدة إلا مساعدات قليلة لا تعدو بعض الأمور.[٣]

---

(١) الفرما: أو بلوز أو برمون، كانت حصناً على البحر الأبيض، كان يحمل إليها ماء النيل بالمراكب من دمياط، وهى واقعة على بعد ٣٥ كم جنوب شرق بورسعيد، أحرقها الصليبيون عام ١١٦٣ للميلاد (الموافق عام ٤٩٦ للهجرة)، وأكمل إحراقها الوزير شاور وزير العاضد الفاطمى بسبب النزاع بينه وبين ضرغام اللخمى، ومن تلك السنة أصبحت الفرما خراباً لم تعمر بعد ذلك، وأطلالها عبارة عن تلال حمراء تظهر عن بعد شرقى قناة السويس. قال نعوم شقير: بها قبر جالنيوس الحكيم، وهاجر أم إسماعيل منها، وقالوا: هى أول مدن مصر من جهة الشمال، وبينها وبين البحر الأخضر (الأبيض) ثلاثة أميال. (تاريخ سيناء ١٨٤).

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى ١ / ٥٩٠.

(٣) فتح العرب ١٨٧.

وبفتح الفرما وحصنها[1] فى أول محرم عام ١٩ للهجرة (الموافق ٢ يناير عام ٦٤٠ للميلاد)، أصبح الطريق إلى قلب مصر مفتوحاً، والعجيب أن الروم فى داخل البلاد وخارجها لم يتحركوا أثناء حصار المسلمين الفرما، ولمدة شهر كامل، ولا نعرف لذلك سبباً إلا ما ذكره بتلر: أنه ربما كان خيانة من المقوقس لدولته العظمى، ليفصل بين بطرقة الإسكندرية وشقها فى القسطنطينية... ربما.



(١) أول مسلم اقتحم الحصن هو: السميفع بن وعلة السبائى.

عمرو فى بلبيس[1]

وتقدم الفاتح المسلم ناحية الجنوب الغربى، ولم نجد أدق من بتلر فى تحديد سير الحملة الإسلامية، فقد قال: إن سير عمرو بجيشه من الفرما إلى أرض تليها اسمها (مجدول)[2].

ثم سار إلى موضع القنطرة الآن، ثم سار إلى مكان الصالحية، وهى طريق مخالفة عمن سار قبله من الفاتحين، فقمبيز مثلاً سار من الفرما إلى تل بسطة (الزقازيق حالياً)، وقد سار عمرو بعد القنطرة إلى الصالحية أو القصاصين، ومنها سار جنوباً حيث تلال وادى الطميلات (التل الكبير)، وكان لا يدافع إلا بالأمر الخفيف – كما قال ابن عبد الحكم.

ثم اقترب من مدينة كبيرة بها الروم مجتمعون فى حامية هى مدينة بلبيس، وعلى رأس الحامية (أرطيون[3])، الذى فر من بيت المقدس، وتحصن هنا فى بلبيس، وأخذ يجمع جنود الروم، وقد دار قتال طويل بين المسلمين خارج الحصون والروم من داخلها، وقد دام الحصار شهراً، حتى فتح الله على المسلمين، ودخلوها بعد أن قضوا على قوة الروم، وبعد أن استشهد منهم عدد غير قليل، وخسر الروم ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير.

وتقول القصص والروايات إن (أرمانوسة) ابنة المقوقس كانت فى بلبيس، وكانت فى الطريق لزفافها على ابن هرقل الأمير (قسطنطين)، وعندما استولى عمرو على المدينة – بلبيس – أرسلها معززة مكرمة إلى أبيها حاكم مصر فى (حصن بابليون) مع قيس بن أبى العاص السهمى، فسر المقوقس بقدومها، كما قال المقريزى[4].

---

(١) بلبيس: مدينة فى محافظة الشرقية الآن، شرقى فرع دمياط.

(٢) قال د. حسين مؤنس فى أطلس تاريخ الإسلام صفحة ١٣٤: اتجه جنوباً بغرب حتى مر بقرية (مجدل).

(٣) وصحة اسمه (أريطيون)، بعد هروبه من بيت المقدس صمم على محاربة المسلمين، وكان له معهم مساجلات حتى فتحت الإسكندرية، كما سنرى.

(٤) خطط المقريزى ١ / ١٨٤.

وقد ألف القس (ش. هـ. بوتشر) رواية تاريخية باسم (أرمانوسة المصرية)، كما كتب جورجي زيدان رواية بنفس الاسم، ولا ندرى شيئاً عن العلاقة ما بين الروايتين، و(أرمانوسة) هى الاسم القديم المصرى لمدينة (أرمنت).

وخرج الفاتح عمرو متوجهاً إلى قصر الحكم، وعاصمة البلاد (منف)، وسار حتى وصل إلى قرية (أم دنين)[1] فى جمادى عام ١٩ للهجرة (الموافق أبريل عام ٦٤٠ للميلاد)، وكان للروم حامية قوية فى قلعة حصينة، فناجزهم عمرو بمن معه من الجند، ولكن طالت المناجزة، فبعث عمرو إلى الخليفة يطلب مدداً، وكانت الإجابة سريعة، ففى التاسع من جمادى الثانية، وصل أربعة آلاف جندى من المدينة، ومعهم كتاب من الخليفة عمر يقول فيه:

((قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل[2] مقام ألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو (أو ابن الأسود)، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد)). قال بعض المؤرخين: لم يذكر مسلمة، وإنما قال خارجة بن حذافة.

وكان عمر بن الخطاب قد عد الأربعة بأربعة آلاف، ولذلك زاد فى الخطاب قائلاً: ((.. اعلم أن معك اثنى عشر ألفاً، ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة.))

وعلق الليث بن سعد[3] على هذا التعداد من الخليفة، قال: بلغنى عن كسرى، أنه كان له رجال إذا بعث أحدهم فى جيش، وضع فى عدة الجيش الذى كان فيه ألفاً مكانه، لإجزاء ذلك الرجل فى الحرب، وإذا احتاج إلى أحدهم، فكان فى جيش، فحبسه لحاجته إليه، زادهم ألف رجل.[4]

---

(١) هى قرية المقس، كانت على النيل، ومكانها حديقة الأزبكية وباب الحديد ووسط المدينة، جاء فى هامش حسن المحاضرة: سماها الروم تنيدوادس أو تندونياس، وحدود هذه القرية التى كانت تقع على النيل وقت فتح مصر – هى المنطقة التى تحد اليوم من الغرب ميدان باب الحديد فشارع رمسيس فشارع عماد الدين، ومن الجنوب قنطرة الدكة وشارع القبيلة، ومن الشرق شارع الدرى الواسع وسكة شق الثعبان وحارة الحضرة، ومن الشمال شارع بين الحارات.

(٢) سنتحدث بالتفصيل عن كل منهم إن شاء الله فى فصل قادم.

(٣) إمام أهل مصر، ولد فى قلقشندة من محافظة القليوبية فى عام ٩٤ للهجرة، قال عنه الشافعى: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به، توفى عام ١٧٥ للهجرة.

(٤) فتوح مصر ٦١.

وهكذا فعل عمر رضى الله عنه، إذ اعتبر هؤلاء الصحابة أربعة آلاف رجل.

وكانت المناوشات دائرة بين الجيش المسلم والجيش الرومى، حتى وصل المدد، فزادت حدة الحرب، وانتصر المسلمون بعد حصار لهذه القرية دام أكثر من شهر.

وبعد هذا الانتصار، صار للمسلمين قيادة على النيل فى (أم دنين)[1]، وخاصة بعد أن غنموا كثيراً من السفن التى يستطيعون بها اجتياز النهر إلى العاصمة عند حصن بابليون.



(١) كانت أم دنين على النيل قبل أن يردم الخليج (شارع بورسعيد الآن).

معركة عين شمس[1]

أثناء انتظار عمرو بن العاص للمدد[2]، فكر فى طريقة يحاصر بها العاصمة، فسار ببعض جيشه جنوباً بعد عبوره النيل، ووصل قرب منف على الشاطئ الغربى للنيل، وقيل: وصل بسيره حتى (البهنسا)، ثم استدار راجعاً مرة ثانية.

وبعد انتصاره فى (أم دنين)، سار حتى وصل إلى حامية (عين شمس)، وكان بها جيش رومى كبير قوامه عشرون ألفاً، وعليه قائد من أكابر قوادهم اسمه: (تيودور)، وجرت معركة حامية بين المسلمين والروم، وكان النصر المؤزر فيها للمسلمين فى رجب عام ١٩ للهجرة (الموافق يونيو عام ٦٤٠ للميلاد).

يقول الدكتور شلبى: وقد هزم فى المعركة جيش الروم هزيمة منكرة، بسبب التقسيم الرائع الذى اقترحه عمرو، إذ قسم الجيش ثلاثة أقسام كبيرة، قابل الروم بقسم منها، وفى أثناء المعركة هجم القسم الثانى من جهة، وهجم القسم الثالث من الجهة المقابلة، فحوصر جيش الروم واختل نظامه، وكثرت الضحايا، وفر منه من فر إلى حصن بابليون.[3]

---

(١) كان اسمها (أون)، وتردد اسمها كثيراً أثناء وجود بنى إسرائيل فى مصر، سماها اليونانيون (هليوبوليس)، وغلب على اسمها (المطرية) بعد مجيء المسيح وأمه إلى مصر، واستراحا تحت شجرة فيها أطلق عليها بعد ذلك: شجرة العذراء، ومازال السياح يزورونها ويتبركون بها، وقال البعض: بل هى موضع (تل اليهودية) بجوار قرية (شبين القناطر)، بها آثار قديمة منها مسلة، قال ابن دقماق: كانت عين شمس فى الزمن الماضى مدينة عظيمة متسعة متصلة بمصر القديمة التى فى موضع الفسطاط فى الوقت الحاضر. وقال ياقوت: بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وكان يسكن بها عزيز مصر أيام يوسف عليه السلام. (والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ١٦٠٠ متراً، فالمسافة تساوى ١٤,٤٠ كم).

(٢) ذكر المؤرخون أسماء بعض الصحابة الذين جاءوا فى هذا المدد، منهم: الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبد الله بن عمر وخارجة بن حذافة وعبد الله بن سعد بن أبى السرح ونافع بن عبد قيس الفهرى وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ وعبد الرحمن وربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة وأبو أيوب الأنصارى وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت، وغيرهم، وسنذكر ترجمتهم بالتفصيل إن شاء الله.

(٣) التاريخ الإسلامى ١ / ٥٩١.

ولابد أن نعرف أن عمراً جعل عين شمس هى منطلقه إلى العاصمة، ففيها ماء كثير، وخير عميم، يستطيع أن يمد الجيش بالمؤونة، وكانت كذلك تقع على ربوة، يمكنه من فوقها أن يعرف ما يدور بالقرب من حصن بابليون، ذلك الحصن الذى كان عمرو حريصاً على محاربة الروم وهم بعيدون عنه، حتى يستكمل قوته وعدته، ثم يضرب ضربته، ولذلك استدرج تيودور ليناجزه فى السهل البعيد عن الحصن، ويطبق عليه بالكمينين(١)، كما ذكرت كل الروايات تقريباً.

وبعد هزيمة الروم، فر أميرهم تيودور إلى الحصن، ومعه شرذمة من الجند، ليجمع جيشه، ويكر على المسلمين ثانية.

وقد حدد بتلر مكان معركة عين شمس، قال:.. وحدث اللقاء بعد ذلك، ولعله فى مكان وسط بين معسكرى الروم والعرب، عند الموضع الذى اسمه اليوم (العباسية).(٢)

وتم للمسلمين النصر فى عين شمس، فصار شمال شرقى مصر كلها فى قبضتهم، ولذلك أصدر عمرو أوامره بنقل المعسكر المسلم إلى ناحية حصن بابليون، حيث القوة العظمى للروم، وعسكر المسلمون فى جهة الشرق والشمال منه، وهو نفس المكان الذى حمل اسم الفسطاط - فيما بعد -.

وأثناء انتشار الجيش المسلم حول الحصن سمع أمير منطقة الفيوم الرومانى (دومنتيانوس) بهذه الانتصارات فلم ينتظر، بل أسرع بالفرار ليلاً إلى جنوب الوادى تاركاً الفيوم بدون مدافع، وعرف عمرو بن العاص بهرب القائد الرومانى، فبعث بكتيبة (٣) من جنده ضمت الفيوم وما حولها فى مدة وجيزة، ورفرف عليها علم الإسلام من ساعتها.

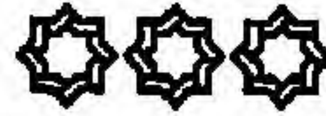
يقول بتلر: وقضى العرب فى فتح الفيوم نحو أسبوعين.(٤)

(١) كان خارجة بن حذافة على أحد الكمينين.
(٢) فتح العرب لمصر ٢٠٧.
(٣) بقيادة ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفى.
(٤) فتح العرب لمصر ٢٠٧.

وذهب بعض المؤرخين إلى غير هذا المذهب، ومنهم ابن الأثير وابن خلدون – فهما يقرران أن عمرو بن العاص قد فتح الفيوم وبقية مدن مصر بعد فتح حصن بابليون، والصواب ما قلناه : أن الفيوم فتحت قبل فتح الحصن.

وهناك رواية غريبة قال بها بعض المؤرخين، ومنهم المقريزى وهى: أن عمراً بعث سرية من عين شمس لفتح الإسكندرية، ويرد بتلر على هذه الرواية قائلا:.. إن هذا يعتبر عملاً غاية فى الحمق من الجهة العسكرية.(١)

والأغلب والأعقل أن عمراً لم يفكر فى فتح عاصمة مصر (الإسكندرية) – إلا عندما صارت له سيطرة على ما حول حصن بابليون.



(١) فتح العرب لمصر ٢٠٧.

حصن بابليون[1]

استعد عمرو بن العاص لحصار الحصن فى وقت الفيضان، فى سبتمبر عام ٦٤٠ للميلاد (أى : شعبان عام ١٩ للهجرة)، وقبل أن نستعرض سير المعركة الفاتحة نلقى نظرة على الحصن من الداخل، فرئيسه المفوض من الإمبراطور هرقل هو زعيم القبط المقوقس[2]، وقائد الحصن العسكرى جورج أو المندفور أو الأعيرج[3]– كما أطلقت عليه العرب –، وثالث الشخصيات الرئيسة فى الحصن : تيودور القائد الرومانى وأمير الجيش فى مصر، الذى هرب عند انتصار العرب فى عين شمس.

أما الكنائس داخل الحصن فكانت تدين بالمذهب الخلقيدونى أو الملكانى، ولم يسمح لأحد داخله أن يتعبد بالمذهب اليعقوبى الذى يدين به أغلب المصريين، وطبعاً لم يكن هناك فى الحصن أى جندى من القبط، وإنما كانت إقامة القبط فى الحصن للقيام بأعمال أخرى غير الحرب والضرب، وكان مذهبهم هو الملكانى، دخلوا فيه مضطرين مجبرين.

---

(١) أول من بناه الفرس، قيل : بُخْتَنَصَّرْ أول غاز فارسى، وقيل : قمبيز، وجاء الإمبراطور الرومانى (تراجان) عام ١٠٠ للميلاد ليخمد ثورة لليهود فى الإسكندرية، وبنى قلعة مكان الحصن على مرتفع، وبداخل الحصن عدد كبير من الكنائس يصل إلى عشره، وبيعة يهودية كانت كنيسة مسيحية قبل الفتح، هدمها اليهود بعد شرائها من النصارى، وأقاموا مكانها معبداً لهم، وكان للحصن باب حديدى كبير على المرسى قبالة جزيرة الروضة التى كان بها هى الأخرى حصون قوية مثل بابليون، وكان شرقى الحصن وشماله المزارع الفسيحة والحدائق الغناء والأرض الفضاء التى صارت بعد الفتح مدينة الفسطاط، وكان حول الحصن خندق قديم، أعاد المقوقس حفره عندما سمع بدخول العرب مصر، وجعل فوقه قنطرة متحركة يرفعها وقتما يشاء.

(٢) كان المقوقس يعيش فى قصر منيف منيع تحيط به مياه النيل، ويصله بجزيرة الروضة جسر، وجزيرة الروضة جزيرة ما بين الفسطاط والجيزة، سميت بهذا الاسم فى عهد الأفضل أمير جيوش الأيوبيين.

(٣) قال بول نيل : أرطبون هو الأعيرج أو الأعرج، وسمى ابن قرقب، وهو أحد قواد الروم، وقيل هو أريطيون، كان حاكماً للقدس قبل هروبه إلى مصر.

وبدأ عمرو حصاره بأن صفّ قواته فى مواجهة الحصن، حول الخندق الذى حفره الروم ليصدوا به العرب، وكان الحصار من الجهات الثلاث الشرقية والشمالية والجنوبية، أما الجهة الغربية فهى ناحية نهر النيل، التى كانت فى يد الروم لصلتها بالروضة.

وبدأ الحصار على أغلب الأقوال فى شعبان عام ١٩ للهجرة (الموافق سبتمبر ٦٤٠ للميلاد)، ومر شهر والمناوشات صباح مساء، والمسلمون ثابتون جادون حريصون على الفتح، ولذلك حاول المقوقس إخافة العرب بإظهار الروم بأنهم قوة كبيرة فى الحصن.

قالت أغلب المصادر إنه جعل على الأسوار النساء والأطفال وأمرهم أن يتجهوا بوجوههم إلى داخل الحصن، وأن يجعل الرجال وجوههم نحو المسلمين، ولكن عمراً لم تهمه هذه اللعبة، واستمر فى مناوشة الروم، فاضطر المقوقس إلى الاجتماع بمستشاريه من الجنود ومن أساقفة الحصن، بعد أن عبروا النيل إلى جزيرة الروضة، ثم قطعوا الجسر بينها وبين بابليون، وتشاوروا فى الأمر، واتفقوا على أن يبعثوا لعمرو بن العاص ومن معه يعرضون عليهم الصلح، على أن يدفعوا لهم شيئاً من المال، ويرجعوا بعدها إلى ديارهم.

وذهبت الرسل إلى القائد المسلم، ومعهم كتاب من المقوقس فيه :.. إنكم قوم ولجتم بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم فى أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلتكم الروم، وجهزوا لكم، ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم، فابعث إلينا رجالاً من أصحابك نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء.(١)

وقرأ القائد المسلم الكتاب، ولم يرد عليه بسرعة، إنما احتجز الرسل عنده يومين، حتى قلق المقوقس، وتوجس خيفة، لكن من حوله طمأنوه، فليس قتل الرسل

---

(١) نقلاً عن ابن عبد الحكم، فتوح مصر ٦٥.

أو اغتيالهم من شيم المسلمين الفاتحين، وكان عمرو قد حبسهم لأمر فى نفسه، وهو أن يطلعهم على حال المسلمين، بعد أن يتجولوا وسط العسكر المسلم، ويروا ما فيه، حتى إذا عادوا إلى قادتهم نقلوا لهم صورة عن المعسكر الإسلامى.

وفى اليوم الثالث عاد الرسل إلى قصر[1] المقوقس فى الروضة، ومعهم رد أمير جيش المسلمين صريحاً :

ليس بيننا وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إن دخلتم فى الإسلام، فكنتم إخواننا، وكان لكم ما لنا، وعليكم ما علينا، وإن أبيتم، فأعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، أما الثالثة فهى جهادكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين.

ثلاثة اختيارات : الإسلام أو الجزية أو الحرب.

وأراد المقوقس قبل أن يحسم الأمر - أن يعرف كل شىء عن هؤلاء الغزاة، فجمع الرسل وسألهم عما شاهدوه فى هذه الأيام الثلاثة، فقالوا :.. رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليه من الرفعة، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون فى صلاتهم.

وواضح من هذا الوصف أنه سجل ما كان عليه المسلمون من تكافؤ وانضباط وتأهب للقاء الله، ولا يمكن بسهولة مقاومة هذا الجيش الذى تتوفر فيه هذه المقومات، ولذلك أخذ المقوقس يسترجع حال دولته فى الشام، وما صاروا إليه من الهزيمة على يد هؤلاء الفاتحين، وهو يرى قوة المسلمين التى تتراءى له حول الحصن، وقال لمن حوله : والذى يحلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد.

(١) كان القصر وسط قلاع الروضة وحصونها، سماه ابن إياس : الهودج، وإن كانت هذه التسمية لم ترد إلا فى العصر الفاطمى فى عهد الخليفة القاهر.

ثم وضح لمستشاريه ضرورة اغتنام الفرصة بمصالحة المسلمين، واتفقوا على أن يبعث لعمرو بن العاص يطلب رسلاً للمباحثات والمشاورات، وكان الرد سريعاً: عشرة رجال معهم عبادة بن الصامت[1]، على أن يكون هو المتكلم، ولا يتعدى الثلاث خصال : الإسلام - الجزية - الحرب.

وركب الرسل المسلمون المراكب، وعبروا إلى جزيرة الروضة.

ودار حوار بين عبادة ومن معه وبين المقوقس عظيم القبط، ذكرته كل كتب السيرة والتاريخ، وسوف نستعرضه[2] كله لأنه يعتبر فى نظرنا تعبيراً واضحاً ومحدداً عن الحقائق الماثلة فى الموقف، وفيه أيضاً يتجلى إيمان المؤمنين ووضوح رسالة الإسلام الفاتح المنتصر، واضطراب الرؤية لدى الرومان والقبط على السواء.

واجتمع المتحاورون، وتقدم عبادة ليكون ممثلاً للجانب المسلم، وقبل أن يتكلم أحد، أمر المقوقس من حوله أن ينحوا عبادة[3]، ويقدموا غيره، فرد الرسل المسلمون : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا المقدم علينا، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله.

قال المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما ينبغى أن يكون هو دونكم ؟. قالوا : كلا، إنه وإن كان أسود كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعاً، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً، وليس ينكر السواد فينا.

قال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود، كلمنى برفق، فإنى أهاب سوادك، وإن اشتد علىّ ازددت لك هيبة.

فتقدم إليه عبادة، فقال : قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود، كلهم أشد منى سواداً، وأفظع منظراً، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك

---

(١) جاء فى بعض الروايات القليلة أنه المقداد بن الأسود، وليس عبادة، وسنتحدث عن كليهما بالتفصيل - إن شاء الله - فى حينه.
(٢) منقول بتصرف من المقريزى (الخطط).
(٣) كان عبادة أسود شديد السواد، فارعاً طوالاً، وكانت سنه آنذاك ٥٨ عاماً.

لى، وأنا قد وليت، وأدبر شبابى، وإنى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً، وكذلك أصحابى، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا : الجهاد فى الله، واتباع رضوانه، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلب للاستكثار منها، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً، ما يبالى أحدنا إن كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهماً، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره، وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله،واقتصر على هذا الذى بيده ويبلغه ما كان فى الدنيا، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا فى الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه.

فلما سمع المقوقس ذلك منه، قال لمن حوله : هل سمعتم مثل هذا الكلام قط؟، لقد هبت منظر هذا الرجل، وإن قوله لأهيب عندى من منظره، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض، ما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها.

ثم أقبل المقوقس على عبادة، فقال له : أيها الرجل الصالح، سمعت مقالتك، وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة، ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهراً(١) وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به.

---

(١) كان هذا اللقاء فى الشهر الخامس من الحصار.

حينئذ رد عليه عبادة رداً مفحماً دقيقاً، رد صحابى تخرج فى مدرسة رسول الله ﷺ، وتأدب على يديه، قال : يا هذا، لا تغرنك نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفنا به من جموع الروم وعددهم وكثرتهم وأنّا لا نقوى عليهم، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به، ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم، وأشد لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته، وماشىء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، ولأنها أحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا.

وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]

وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة، وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هم فيما خلفه، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا.

وأما قولك : إنا فى ضيق وشدة فى معاشنا وحالنا فنحن فى أوسع السعة، ولو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا لأنفسنا منها أكثر مما نحن فيه، فانظر الذى تريده فبيّنه لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت، ولا تطمع نفسك فى الباطل، بذلك أمرنى الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا، أما إن أجبتم إلى الإسلام الذى هو الدين القيم الذى لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا، وكان أخانا فى دين الله، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم، وإن أبيتم إلا الجزية(١)، فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وأن نعاملك على شىء نرضى به نحن وأنتم فى كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم،

(١) الجزية : مبلغ من المال يدفعه كل رجل حر عاقل بالغ صحيح البدن، قادر على الدفع، من غير المسلمين، ومن أهل الكتاب، وتسقط عنهم بالإسلام، وتدفع فى وقت معين من السنة.

وعرض لكم فى شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم وأحوالكم، ونقوم بذلك عنكم إن كنتم فى ذمتنا، وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم.

هذا ديننا الذى ندين الله تعالى به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم(١).

وبعد هذا العرض المستفيض من عبادة، انتظر الإجابة من المقوقس، التى كانت الرفض لهذه الخصال الثلاث، ولكنه طلب مهلة للتشاور، وخرج عبادة ومن معه ليترك القوم يتشاورون مع أنفسهم على اختيار واحدة من الثلاث.

وتشاور الروم مع المقوقس، وأشار عليهم بالثانية (الجزية) على أن يبقوا على دينهم، ولكن تحت حكم المسلمين، كما حدث فى مدن الشام، ورفض الرومان وأصروا على الحرب، وأسرعوا فقطعوا الجسر الموصل بين حصن بابليون والروضة، استعداداً للقتال.

أما المعسكر الإسلامى فلم يضيعوا الفرصة، وخاصة أن الخليفة استبطأ الفتح، فبعث إلى عمرو بقوله :.. وليكن الهجوم ساعة الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ووقت الإجابة. فما كان من الزبير بن العوام إلا أن قال : إنى أهب نفسى لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، ثم وضع سلماً إلى جانب الحصن، وصعد بعد أن طلب من المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً، وصعد الزبير على رأس الحصن، وكبّر، ونظر المسلمون فرأوه على سور الحصن ومعه السيف، فارتفعت أصواتهم بالتكبير، حتى ظن من بداخل الحصن أن المسلمين قد دخلوه، فهربوا، وفتح الزبير ومن معه باب الحصن، ودارت معركة حامية واستشهد مسلمون كثيرون، وقتل من الروم عدد غير قليل، وأسر الباقون، وقد دفن عمرو بن العاص الشهداء فى أصل الحصن من الخارج.

أما المقوقس فإنه عندما رأى نتيجة الصدام حول الحصن وداخله، واستيلاء المسلمين على أكثره لم يجد بداً من أن يتخذ قراره بالاستسلام والتنازل عن السلطة للمسلمين، والالتزام بدفع الجزية على ما حدده عبادة بن الصامت فى المفاوضات،

(١) المواعظ والاعتبار ١ / ٢٩٢.

وكانت دينارين دينارين، يتساوى فى ذلك الشريف والوضيع، مادام ليس بشيخ فانٍ، ولا صغير غير بالغ، واتفق كذلك المقوقس على أن يخرج جند الروم من الحصن فى خلال ثلاثة أيام، ويتركوا كل الذخائر وآلات الحرب للمسلمين.

وقد حددت جميع المراجع تاريخ النصر وكتابة العهد فى يوم الجمعة الموافق ٢٢ ديسمبر عام ٦٤٠ للميلاد (الموافق غرة المحرم عام ٢٠ للهجرة)[١]، ولكن الطبرى يقول: إن الفتح تم فى عام ١٦ للهجرة، وقد دام الحصار حول الحصن قرابة الستة أشهر، فيها أيام حرب وأكثرها أيام هدنة بين الطرفين حتى تم الاستسلام والعهد.

وقبل أن نذكر نص العهد بين عمرو والمقوقس نعرض لقصة رواها ابن الأثير، قال فيها : وفى عين شمس نادى عمرو بأصحاب النبى ﷺ، فأجابوه، فقال: تقدموا، فبكم ينصر الله المسلمين. فتقدموا وفيهم أبو بردة وأبو برزة[٢]، وتبعهم الناس وفتح الله على المسلمين، وظفروا وهزموا المشركين، فارتقى الزبير بن العوام سورها فلما أحسوه، فتحوا الباب لعمرو، وخرجوا إليه مصالحين، فقبل منهم[٣].

والواقع أن خلطاً قد حدث بين وقائع معركة عين شمس التى جرت أحداثها قبل ذلك بحوالى ثمانية أشهر، وبين معركة حصن بابليون التى شهدت نهاية مقاومة القوات الرومية لقوات الفتح الإسلامى، وتمت فى المحرم عام ٢٠ للهجرة، ومن المؤكد أن عين شمس لم يكن بها حصن كبابليون، وإنما كانت المعركة فيها مرحلة من مراحل فتح المسلمين لمصر.

وقد اتفق الجانبان على عهد الصلح الذى ذكرته لنا كتب التاريخ، وموجزه : بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلبهم وبرّهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شىء من ذلك، ولا ينتقص... ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو

(١) قال بتلر : إن النصر تم فى أبريل عام ٦٤١ للميلاد. والأقرب إلى الصواب ما قلناه.
(٢) ربما قصد ابن الأثير أبا بصرة، لأنه لم يرد أبو برزة فيمن دخلوا مصر فاتحين.
(٣) الكامل ٢ / ٢٠٦.

يخرج من سلطاننا... وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح.

وكتب العهد وردان مولى عمرو بن العاص، وشهد عليه الزبير بن العوام وعبد الله ومحمد ابنا عمرو.

وكان هناك شرط هام فى عهد الصلح، هو أن يرسل نص العهد إلى هرقل ليقول رأيه، على أن تبقى جيوش الروم كما هى حتى يأتى رد القيصر، وكانت إرادة الله أسرع من رد القيصر، ففى صباح يوم سمع الناس تكبيراً فى معسكر المسلمين، وعرف الروم أن المسلمين قد بلغهم موت هرقل فى ١١ من فبراير عام ٦٤١ للميلاد[١]، فكسر الله الروم بموته - كما قال المؤرخون.

وقد كان همُّ هرقلَ جمعُ الجيوش لمحاربة المسلمين فى مصر بعامة، وفى الإسكندرية بخاصة، وكان يقول دائماً : لئن ظهرت العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم، ولذلك عاد جمع كبير من الروم إلى القسطنطينية بعد سماعهم بخبره، وكانوا فى طريقهم إلى مصر.

قال بتلر واصفاً هذا الصلح : ولكن الصلح الذى أبرم عند بابليون لم يكن إلا عهداً حربياً، ولم يكن عهداً سياسياً، فقد رضى عمرو بأن يشترى الحصن، ويدفع ثمناً له تأمين من كانوا فيه، وخروجهم منه بغير أن يسلموا أو يدفعوا الجزية، وإنما يدفع الجزية من بقى من أهل المدينة[٢].

وقد اختلفت المصادر العربية والغربية فى تحديد عدد المصريين الذين شملهم العهد، وعليهم الجزية، فقالت المراجع الأجنبية إنهم كانوا ستة آلاف أو ثمانية آلاف، فى حين قدرت المراجع العربية عددهم بستة آلاف ألف، أى : ستة ملايين، وهذا عدد كبير وغير مقبول، وخاصة إذا أضفنا إلى هذا الرقم عدد النساء والأطفال والشيوخ لصار عدداً ضخماً، مع العلم بأنهم ليسوا كل سكان مصر، إنما نصف مصر تقريباً، من الفرما حتى حصن بابليون، مع إضافة الفيوم وما حولها.

ونحن مع مؤرخى الغرب القائلين بأن عدد القبط الذين وجبت عليهم الجزية ما بين ستة وثمانية آلاف فقط، والله أعلم.

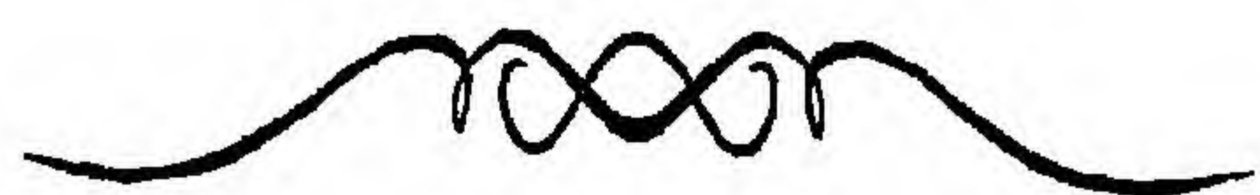
---

(١) قال بعضهم : مات فى مارس عام ٦٤١ للميلاد.

(٢) فتح العرب لمصر ٢٤١.

الفصل الخامس

فتح الإسكندرية



كانت الإسكندرية[1] هى العاصمة الرسمية للحكم الرومانى لمصر، وإن كان لحصن بابليون ومدينة منف الأهمية الكبرى أيضاً، لقد كان الحصن باب الصعيد، أو مصر العليا، فمن تحكم فيه فكأنه تحكم فى بلاد الصعيد وجزء من بلاد الشمال فى الدلتا، وكذلك مدينة منف فهى العاصمة الفرعونية من مئات السنين، وهكذا وجدنا عَمْراً قد جمع فى يده زمام وادى النيل حيث كان أول عمل قام به بعد فتح الحصن إقامة جسر من السفن فى النهر ما بين الحصن والروضة ومنف والجيزة، وبذلك استطاع أن يتحكم فى السفن والبضائع السائرة من الشمال إلى الجنوب، وبالعكس.

وكتب عمرو إلى الخليفة عمر شارحاً له تطورات الفتح، وأنه عزم على الاتجاه شمالاً لفتح آخر معقل للروم فى مصر، وهو مدينة الإسكندرية، وفى أول يونية عام ٦٤١ للميلاد (الموافق جمادى الأولى عام ٢٠ للهجرة)، استعان بالله وشد الرحال إلى الشمال محاذياً الجانب الغربى لفرع النيل، بعد أن عين خارجة بن حذافة نائباً عنه فى الحصن، وترك فوق فسطاطه يمامة آمنة على بيضها، عششت فوقه، وقيل: إنه ترك حارساً للفسطاط بمنع عن تلك اليمامة أى أذى.

وقبل أن نسير مع عمرو فى طريق الفتح، يجب أن نعرف أن تيودور القائد الرومانى الهارب من الشام إلى عين شمس، ثم هرب ثانياً إلى الحصن ثم إلى الدلتا – قد جمع بعض فلول الجنود الروم فى منطقة حصينة اسمها (نقيوس)[2]، ليست فى طريق الجيش المباشر إلى الإسكندرية، ولذا قرر عمرو العبور إليها، وما إن شاهده تيودور حتى فر هارباً للمرة الرابعة إلى الإسكندرية، وانتهز المسلمون الفرصة وانقضوا على الروم حتى لم يبق منهم إلا النزر القليل الذى هرب إلى الإسكندرية، ولحق بالقائد الهارب.

---

(١) بنى الاسكندر المقدونى ١٣ مدينة باسم الإسكندرية فى كل البلاد التى فتحها، ومنها هذه المدينة العظيمة التى بنيت قبل الميلاد بثلاثة قرون ونصف تقريباً على ساحل البحر الأبيض مكان قرية كانت تسمى (راقودة)، صارت أعظم عاصمة إقليمية فى الإمبراطورية الرومانية من عام ٣٠ قبل الميلاد.

(٢) هى مدينة (زاوية رزين) أو شبشير وباليونانية (فيكيون)، تقع شرقى فرع رشيد بالقرب من منوف التى كانت تحت حكم المسلمين آنذاك، قال بتلر : فتحها المسلمون فى ١٣ مايو عام ٦٤١ للميلاد.

يقول بتلر معلقاً على هذه المعركة : فلم يمض زمن حتى عمت الفوضى، واندلع لهيب الحرب الأهلية بين أهل مصر.. فانقسمت مصر السفلى (الدلتا) إلى حزبين : حزب مع الروم، وحزب يريد أن يتفق مع العرب.. وقد أصبح من الأمور المعتادة فى ذلك النضال بين الحزبين أن يتقاتل الناس وينهب بعضهم بعضاً أو يحرقوا البلاد، فى حين كان العرب ينظرون إلى كلا الحزبين نظرة الازدراء، ولا يأمنون لكليهما، ولا يتعاهدون مع أحد منهما.[١]

أما عمرو فإنه لم يترك (نقيوس) إلا بعد أن بعث فى أثر القوم المدحورين صحابياً هو : شريك بن سمى الغطيفى، ومعه فرقة من الجيش، فلاحقهم حتى انتصر عليهم فى موضع سمى بعد ذلك (كوم شريك).

وقد أضاف د. حسين مؤنس أن موقعة (نقيوس) سبقتها معركة هى (طرنوط).

وسار عمرو بمن معه متجهاً إلى الشمال الغربى حتى بلغ (الدلنجات)[٢] دون أن يلقى مقاومة، فضمها إلى البلاد المفتوحة، ثم سار شمالاً حتى اعترضته كتيبة رومية عند بلدة (سنطيس)[٣]، وتقابل الجيشان فى وقعة شديدة انهزم فيها الروم، وتدافعوا ناحية الإسكندرية للاختباء فى حصونها، ولم يحاولوا الدفاع عن مدينة (دمنهور) التى دخلها عمرو بسهولة، ثم تتبع القوات الرومانية الفارة، وسار فى نفس الطريق المؤدى إلى حدود الإسكندرية حتى وصل مدينة (كريون)[٤]، حيث وقف القائد تيودور وقفته الأخيرة فى مواجهة المسلمين وعلى جانبه الترعة[٥]،

---

(١) فتح العرب ٢٤٩.
(٢) إحدى مراكز محافظة البحيرة الآن.
(٣) فى بعض المراجع (سلطيس)، وهى مدينة بين كوم شريك وكريون فى حدود الإسكندرية، على بعد حوالى ١٠ كيلو متر جنوبى دمنهور.
(٤) تقع على الترعة العذبة التى تسقى الإسكندرية، وتبعد عنها ٣٢ كيلومتراً، فيها حصن هو آخر الحصون الرومانية بين بابليون والإسكندرية.
(٥) هى الترعة التى حفرتها كليوباترا السابعة، حكمت مصر من عام ٥١ قبل الميلاد إلى عام ٣٠ قبل الميلاد.

ومن خلفه الطريق الممتد إلى الإسكندرية، وكان تيودور قد جمع الجنود الروم من المدائن المحيطة بالإسكندرية مثل (سخا)(١) و(بلهيب)(٢) و(مطوبس).

وتقابل الجيشان، واستعر القتال، وطالت أيامه حتى زادت على عشرة أيام، من الصباح حتى المساء، كان عمرو يصلى فيها صلاة الخوف، حتى منّ الله عليه بالنصر، ولكن بعد خسارة كبيرة، واستشهاد عدد غير قليل(٣) من المسلمين، وقتل عدد كبير جداً من الروم، وبفتح (كريون) فتح الطريق إلى الإسكندرية، واستراح عمرو بجنوده قليلاً، ثم تقدم إلى الإسكندرية باسم الله.

ومن الواضح أن عمراً اختار أن يصل إلى الإسكندرية عبر الصحراء حتى لا يواجه كثافة سكانية يتوقع منها المقاومة، ولما انتهى من الإسكندرية استدار لمدن الدلتا، على ما سنتابع من خطة الفتح.

وسنذكر طرفة أثناء معركة كريون، وقبل دخول الإسكندرية، ذكرها بتلر، قال: وحدث فى وقت من أوقات القتال أن (وردان) مولى عمرو المعروف كان يحمل لواء المسلمين، فأصابت عبد الله بن عمرو جراحة شديدة، وكان إلى جانبه، فأجهضته شدة القتال، فسأله أن يرتد قليلاً يطلب الرَّوْحَ، فقال له وردان : الروْحَ

---

(١) من قرى محافظة الغربية الآن، صالحها عمرو على الخراج وهو فى طريقه إلى الإسكندرية، ولكن أهلها وأهل سلطيس وسخا أعانوا الروم على المسلمين، فلما فتحت الإسكندرية سبى أهل تلك البلاد، وسنتحدث بالتفصيل عن هذه الحادثة إن شاء الله.

(٢) سخا: قال ياقوت كورة من أعمال الغربية، كان خارجة بن حذافة أثناء حصار الحصن – قد فتحها، تبعد ٣٥ كيلومتراً شمال طنطا.

(٣) قال لوبون فى كتابه (حضارة العرب : ٢١٢) : قتل أثناء حصار الإسكندرية الذى دام ١٤ شهراً ٢٣ ألفاً من العرب. وهى فى نظرنا مبالغة لا تسندها وقائع تاريخية، فإن عدد العرب الذين جاءوا إلى الفتح مضافاً إليهم المدد الذى أرسله الخليفة عمر بن الخطاب على مراحل تالية لا يزيد على خمسة عشر ألفاً، اللهم إلا إذا كان بعض العرب الذين كانوا يعيشون بمصر قد التحقوا بجيش الفتح، إضافة إلى جماعات من الذين بهرهم انتصار المسلمين فانضموا إليهم، من الأقباط، ودخلوا فى الإسلام وقاتلوا فى صفوف المسلمين، خصوصاً من أولئك الذين كانوا يخالفون فى مسيحيتهم مذهب الدولة الرومانية، وكانوا يرون ضرورة قتالها من الناحية الدينية.

تريد؟ الروح أمامك وليس خلفك، ثم أقبلا على القتال، فلما سمع عمرو بما أصاب ابنه، بعث إليه من يسأل عن حاله، فتمثل عبد الله بأبيات من الشعر يطمئن بها والده قال :

أبتْ لى عِفَّتى وأبى بلائى ... وأخْذى الحمدَ بالثمن الربيح
وإجْشَامى على المكروه نفسى ... وضربى هامةَ البطل المُشِيح
وقَوْلى كلما جَشَأَتْ وجاشَتْ ... مكانَكِ تَحْمَدِى أو تستريحَى
لأدفَعَ عن مآثِر صالحاتٍ ... وأحْمِى بَعْدُ عن عِرض صحيح[1]

فلما سمع عمرو بذلك، قال : إنه ابنى حقاً.[2]



(١) قصيدة لعمرو بن الإطنابة الأنصارى – شرح حماسة أبى تمام للأعلم الشنتمرى – المجلد الأول ١٧٣-١٧٤ – تحقيق الدكتور على المفضل حمودان.
(٢) فتح العرب ٢٥٣.

عمرو فى الإسكندرية

كان عمرو قد عرف الإسكندرية فى الجاهلية، جاءها تاجراً، فدرس طرقها ودروبها ومعالمها، ولم ينس شيئاً منها، حتى إذا دخل الإسلام، أخذ يحلم باليوم الذى ترفرف فيه راية الإسلام على حصونها وربوعها، هذه المدينة كانت أجمل مدائن العالم وأبهاها فى ذلك الوقت[1]، بها الحصون والأسوار المنيعة حول القلاع الحصينة والقباب والمسلات[2] والمعابد[3] والقصور والكنائس[4]، ثم إن بها منارة[5] فاروس[6] إحدى عجائب الدنيا السبع القديمة، وفوق ذلك الأسطول الهائل الذى يصل بينها وبين العاصمة الرومانية (القسطنطينية)، كل ذلك جعل من الإسكندرية درة فى جبين الإمبراطورية الرومانية، ومحط أمل الفاتح المسلم.

وكان هدف عمرو أن يدخلها من الجهة الجنوبية الشرقية، لأن المدينة كانت محمية من جميع الجهات تقريباً، فشمالها البحر الأبيض (بحر الروم)، وجنوبها الترعة وبحيرة مريوط، أما من ناحية الغرب فترعة اسمها ترعة الثعبان وبحيرة إدكو، ولم يبق إلا الشرق أو جزء منه جنوبها الشرقى، وكان أيضاً محمياً بالقلاع

---

(١) قال جستاف لوبون : كان طول الإسكندرية ٥٠٠٠ متراً وعرضها ١٨٠٠ متراً. (حضارة العرب ٢١٣).

(٢) كان بالإسكندرية مسلتان متماثلتان أطلق عليهما (إبرة كليوباترا) شيدتا عام ١٥٠٠ قبل الميلاد فى الأسرة الثامنة عشرة، ونقلتا حديثاً إلى أمريكا وانجلترا، وضعت الأولى فى قلب نيويورك، والثانية فى قلب لندن على نهر التايمز.

(٣) من أهم المعابد فى الإسكندرية معبد السرابيوم الذى بناه بطليموس الأول، وكان به مكتبة الإسكندرية الشهيرة، وعليه عمود دقلديانوس أو عمود السوارى.

(٤) كانت كنيسة القديس مرقص من أعظم الكنائس فى الإسكندرية وفى العالم آنذاك.

(٥) هى إحدى عجائب الدنيا السبع القديمة، كانت من الرخام الناصع البياض، كانوا يحرقون النار بها فترشد السفن ليلاً بالوهج، ونهاراً بالدخان، أما مراياها فقد كسرت فى زلزال عام ١٣٧٥ للميلاد.. أى : حوالى ٧٧٤ للهجرة، ولم يبق إلا الطبقة السفلى من البرج كما قال بتلر. (فتح العرب ٣٤٥). قال الذهبى فى العبر ١ / ٢٧٥: وقعت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس منارة الإسكندرية عام ١٨٠ للهجرة.. أى: عام ٧٩٦ للميلاد.

(٦) قال جستاف لوبون فى حضارة العرب ٢١٥ : كانت تصل تلك الجزيرة بالبر بطريق معبدة طولها ١٢٠٠ متراً.

والحصون، وهذا هو المكان الذى اختاره عمرو لاقتحامه، واقترب عمرو بجنوده من أسوار الحصون، ولمحهم الروم يعسكرون فأخذوا يرمونهم بالنبال والمنجنيق من أعلى الحصن والأسوار، فتراجع المسلمون، ونصبوا معسكرهم أبعد من مرمى نبال الروم، واستمر الوضع ساكناً لمدة شهر، وكان هدف عمرو هو تضييق الحصار على الروم فيبرزوا للقتال، وهو الوضع الأمثل فى تلك الظروف، غير أن عمراً كان ينفذ فى نفس الوقت خطة أخرى، فلم يترك الوقت يضيع سدى، إلى أن يحين خروجهم من الحصون، وقد قام بعمليتين هامتين :

أولاهما : الاستيلاء على قصور الروم التى كانت حول الإسكندرية، وتركها أصحابها خوفاً من جيش المسلمين، وفروا هاربين إلى داخل حصون الإسكندرية، ثم هدم هذه القصور، ونقل خشبها إلى حصن بابليون عن طريق النيل، ليقيم جسراً يعبرون به إلى الجيزة، وما حولها.

ثانيتهما : بعد شهرين من الحصار أخذ عمرو سرية واتجه إلى مصر السفلى داخل الدلتا، فسار جنوباً إلى كريون ثم دمنهور، واتجه شرقاً حتى بلغ مدينة (سخا)، ولكنه لم يفلح فى فتحها، كذلك سار إلى مدينتين أخريين هما طوخ(١) ودمسيس(٢)، ولم يوفق فى فتحهما أيضاً، فأخذ يغزو بعض القرى المحيطة، وقد أراد بذلك تأمين ظهر الجيش المحاصر للإسكندرية، كذلك كان هدفه من هذه العمليات السريعة القضاء على أى نفوذ محتمل للروم فى قلب الدلتا، بحيث تكون مواجهته القادمة للروم فى الإسكندرية مواجهة خالصة وحاسمة.

---

(١) قال ياقوت فى معجم البلدان ٤/٤٦: طوخ قرية بصعيد مصر فى غربى النيل، يقال لها طوخ يمون، وهناك طوخ الخيل قرية أخرى فى الصعيد، وهناك قرية بالحوف الغربى – فرع رشيد – يقال لها طوخ مزيد.
أما بتلر فقال فى فتح العرب : هامش ٢٥٩ : هناك على الأقل ستة مواضع فى مصر السفلى، وواحدة فى مصر العليا باسم طوخ، أما فى مصر السفلى فهى طوخ دلكة وطوخ بلفطه وطوخ طنبشا فى المنوفية، وطوخ الملك فى القليوبية، وطوخ الاكلام فى الدقهلية، وطوخ مزيد فى الغربية. وربما كانت هى المقصودة لقربها من دمسيس، فهى على بعد ١٥ كيلومترا منها.

(٢) اسمها ميت دمسيس شرقى طوخ مزيد، على الجانب الشرقى لفرع دمياط، جاء فى بعض المراجع : ميت رمسيس، وهذا خطأ.

وعاد عمرو إلى الجيش المرابط على حدود المدينة، وتابع الحصار حتى استبطأ الخليفة عمر فى المدينة الفتح، فبعث إلى عمرو قائلاً :.. قد عجبت لإبطائكم فى الفتح.. وقد كنت وجهت إليك أربعة[١] نفر أعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكونوا غيّرهم ما غيّر غيرهم، فإذا أتاك كتابى هذا فاخطب فى الناس أن يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة، ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم.[٢]

وعندما وصل كتاب الخليفة كان حصار المسلمين للإسكندرية قد اقترب من الشهر التاسع، فأسرع عمرو بجمع معاونيه ومستشاريه من صحابة رسول الله ﷺ، وتشاوروا وتحاوروا، ثم أخذ كل مكانه حتى يصدر القائد أمره، وجلس عمرو يفكر فى طريقة للفتح، وأخذ يستشير كل صحابى على حدة، وأعجبه رأى الصحابى مسلمة بن مخلد فى أن يعقد إمارة الجيش لأحد الصحابة المعروفين بين الناس، المحبوبين لهم.

وقد سجل المقريزى الحوار الذى دار بين عمرو ومسلمة، قال : استشار عمرو مسلمة، فقال عمرو : أشر علىّ فى قتال هؤلاء، فقال له مسلمة : أرى أن تنظر إلى أى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب الرسول ﷺ فتعقد له على الناس، فيكون هو الذى يباشر القتال ويكفيكه.

فقال عمرو : ومن ذلك ؟ قال : عبادة بن الصامت.

فدعاه عمرو، فأتاه وهو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول، فقال له عمرو: عزمت عليك أن نزلت[٣]، ناولنى سنان رمحك. فناوله إياه فنزع عمرو عمامته عن رأسه، وعقد له وولاه قتال الروم، فتقدم عبادة مكانه، فصادف الروم وقاتلهم، ففتح الله على يديه الإسكندرية.[٤]

---

(١) هم : الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد، وكانوا فى المدد الذى جاء إلى عين شمس من المدينة أوائل الفتح.

(٢) خطط المقريزى ١٦٥/١.

(٣)المقصود من هذا التعبير : الاعتراض على النزول، وسياقه : إنى أعبر عن إصرارى ألا تنزل، والتركيب من التراكيب المسكوكة التى تفيد بجملتها دون اعتبار الحرفية.

(٤) خطط المقريزى ١٦٥/١.

أما رواية ابن عبد الحكم، فاعتبرت الرأى فى اختيار عبادة للقيادة من تدبير عمرو نفسه، قال : لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية، استلقى على ظهره، ثم جلس، فقال : إنى فكرت فى هذا الأمر، فإذا هو لا يُصلِحُ آخرَه إلا من أصلحَ أولَه - يريد الأنصار - فدعا عبادة بن الصامت، فعقد له، ففتح الله على يديه الإسكندرية فى يومه ذلك.(١)

وواضح أن القوة المؤثرة فى هذا الموقف كانت مجموعة العناصر التى توفرت للجيش المسلم، **وأولها** : الإيمان بضرورة تغيير القيادة لتحقيق النصر، **وثانيها** : أن القائد الأعلى للجيش لم يكن مستبداً برأيه، بل كان يستشير معاونيه وذوى الرأى من جنوده، **وثالثها** : الاعتماد على تأثير المدد الروحى، حين يكون متمثلاً فى حضور شخصية كعبادة بن الصامت، وهو من كبار الأنصار الذين يعرف الناس لهم قدرهم فى الجهاد وسبقهم إلى الإسلام، وصدقهم فى العزيمة.

كل هذا وغيره هو الذى حسم المعركة فى الإسكندرية، ومن المؤكد أن تغيير الوجوه المقاتلة، ولاسيما وجه القائد، قد يشعر الأعداء بأن مدداً جديداً قد وصل من المدينة إلى الإسكندرية، فيدب فى قلوبهم الرعب.

ولاشك أن هذا الموقف ليس موقفاً يتيماً يشهد لعمرو بذكائه واقتداره، ولكنه يعبر عن الروح التى كان عمرو يعمل بها فى قيادته لجيش المسلمين فى فتح مصر، وغيرها من البلدان.

ولو عدنا ونظرنا نظرة شاملة للوضع فى المعسكرين المسلم والرومى، مع ضرورة ألا نأخذ الأمر مأخذ الاستسهال، فذلك تبسيط مخل لأمور هى فى الحقيقة أشد تعقيداً - لرأينا المسلمين يحاصرون الروم منذ تسعة أشهر تقريباً.

وعلى الرغم من أن الحصار كان من ناحية واحدة، فلا ريب أنه كان حصاراً مجهداً لأن المسلمين كانوا يسيطرون على المجالات الحيوية فى قلب الدلتا، وقد استطاعوا أن يطهروا أرجاءها من مراكز المقاومة الرومية، ومعنى ذلك أن قيادة الروم واجهت أمراً عصيباً لأن منفذ تموين الإسكندرية قد نضب بحكم سيطرة

---

(١) فتوح مصر ٨٠.

المسلمين، كل هذا فتّ فى عضد الروم، وأوقفهم أمام حائط اليأس فى حين تحرك المسلمون بدافع من رسالة أمير المؤمنين عمر، كان ذلك لحظة بلغ اليأس مبلغه من العدو، وبلغ فيها الحماس قمته فى نفوس المسلمين، وخاصة إذا أضفنا إلى ذلك جو الخلاف والصراع بعد موت هرقل، وتولية قسطنطين الذى حكم مائة يوم فقط، ومات بعد مرض سريع، ولا يعرف هل مات ميتة طبيعية أم أغتيل؟

وجاء إمبراطور آخر هو هرقل الثانى، كان لا رأى له، وتسيره أمه الإمبراطورة (مرتينة)، إذ كان رأى هذا الإمبراطور وأمه هو مصالحة العرب، وبهذه المصالحة حدث خلاف فى البلاط الإمبراطورى فى القسطنطينية، ونتج عن هذا الخلاف فتنة فى الإسكندرية، فكبار الروم بها تفرقوا أحزاباً، منها حزبان كبيران : الحزب الأخضر والحزب الأزرق، نفس أسماء الأحزاب المتصارعة من ثلاثين سنة، أيام الصراع بين الإمبراطور فوكاس وهرقل الإمبراطور فيما بعد، حيث انتصر على فوكاس عام ٦١٠ للميلاد - كما ذكرنا.

ولسنا نعرف تماماً سبب هذه الخلافات، فهذا حنا النقيوسى المؤرخ والقريب العهد من الأحداث يقول :.. على أن بعض الناس يذهبون إلى أن اشتداد ذلك الصراع، واستعار لهبه إنما يرجع إلى اختلاف المذاهب الدينية، ولكنه لا يوضح الأمر، ولا يجلو الظلمة عن حقيقة ذلك، فلا ندرى أكان بين (المونوفيسيين) و (الملكانيين) أم كان بين (الملكانيين) و (المونوثيليين) أم بين اليهود والمسيحيين.(١)

ونخرج من هذا التعليق بأن خلافاً شديداً وقع بين أطراف كثيرة فى الإسكندرية قبيل دخول الجيش المسلم، كل ذلك والمقوقس فى عاصمة الإمبراطورية ليعرض أمر الصلح على الإمبراطور، ولما رجع أعاد الهدوء شيئاً ما إلى أهل الإسكندرية، وإن كان هو نفسه لم ينس ما كان من رأيه فى ديانة القبط اليعاقبة.

قال بتلر واصفاً حاله آنذاك : فكان يرضى بالإذعان للعدو وإسلام البلاد له ومصالحة من لا يؤمنون بدين المسيح، ولكنه ما كان ليرضى بأن يسالم القبط ويعفو عنهم.(٢)

---

(١) فتح العرب ٢٧٣.
(٢) فتح العرب ٢٧٣.

ولذلك عاد سيرته الأولى فى إذلال القبط وتعذيبهم وقهرهم، هذا هو الجو الداخلى للإسكندرية، صراع وتقاتل وخلافات، جعلت الفرصة مهيأة لدخول جيش الإسلام، ولكن محاولة الصلح كانت أسرع، فقد جاء المقوقس من القسطنطينية، ومعه عقد الإذعان والتسليم، فرحب به عمرو وأكرم وفادته، وقال له : لقد أحسنت فى الشخوص إلينا، فقال المقوقس : إن الناس – أى كبار الروم – قد عولوا على دفع الجزية كيما تقف رحى الحرب، ثم قال : إن الله أعطاكم هذه الأرض فلا تدخلوا بعد اليوم فى حرب مع الروم.

يقول بتلر معلقاً على طول مدة المفاوضات بين العرب والروم : ولعل المفاوضة والمشاورة قد استطالت مدة أيام كعادة أهل الشرق فى مفاوضاتهم، ثم انتهى أمرها إلى صلح اتفق فيه الجانبان على شروطه جميعاً، وكتب بها عقد [١] فى الثامن من شهر نوفمبر عام ٦٤١ للميلاد [٢]، ولنسم هذا الصلح (صلح الإسكندرية) كى نميز بينه وبين الصلح السابق الذى عقد فى بابليون، فإن هذا الصلح الجديد إنما كان خاصاً فى معظم شروطه بالإسكندرية وتسليمها.[٣]

ولسنا مع بتلر فى أن سبب التأخير هو عادة أهل الشرق، وإنما هى الكتب المتداولة بين الأمير والخليفة، فإن عمراً لم يرد عندما عرض المقوقس الصلح والجزية، وإنما قال: إن ورائى أميراً لا أستطيع أن أصنع شيئاً دونه، فإن شئت أن أمسك عنك، وتمسك عنى، حتى أكتب إليه بالذى عرضت علىّ، فإن هو قبل ذلك منك قبلت، وإن أمرنى بغير ذلك مضيت لأمره؟

وقبل المقوقس، وكتب عمرو إلى الخليفة وجاءه الرد :

أما بعد فإنه جاءنى كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه[٤]، ولعمرى لجزية قائمة تكون

---

(١) بعد تسعة أشهر من الحصار، وقال بعضهم : بل ثلاثة. والأصوب أنها ستة أشهر.

(٢) قال د. حسين مؤنس فى الأطلس الإسلامى ١٣٤ : وقع عمرو معاهدة الإسكندرية فى ١٦ شوال عام ٢١ للهجرة (الموافق ١٧ سبتمبر عام ٦٤٢ للميلاد).

(٣) فتح العرب ٢٧٦.

(٤) تشير هذه العبارة إلى أن حرباً قامت، وأخذ المسلمون فيها سبايا، ويبدو أن المسلمين كادوا أن يحكموا قبضتهم على الإسكندرية لولا تدخل المقوقس بالصلح.

لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحبّ إلىّ من فئ[1] يقسم ثم كأنه لم يكن، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه فضع عليه من الجزية ما يوضع عليه من أهل دينه.[2]

وعلى أساس كتاب الخليفة صاغ عمرو بن العاص عقد الصلح، وقد أوردت كتب التاريخ نصوص هذا العقد، التى أصر عمرو على عرض بنودها على الخليفة أيضاً وبيان ما اتفق عليه الطرفان فيه، وشروطه هى :

الشرط الأول :

أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد. ومعروف أن الجزية ديناران ديناران، على كل ذكر بالغ عاقل، فلا يدفع الطفل ولا المرأة جزية، وإذا دخل قبطى فى الإسلام رفعت عنه الجزية، وصار عليه ما على المسلمين من زكاة، وفى الجزية ضمان للقبط على أموالهم وكنائسهم وأنفسهم ولهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية، فهم أهل ذمة لهم ما للمسلمين من حقوق، وقد تفرع عن هذا الشرط ستة شروط، هى :

١- لا يخرج القبط من ديارهم.
٢- لا يفرق بينهم وبين أزواجهم.
٣- لا يطردون من قراهم.
٤- لا تؤخذ أرضهم.
٥- لا تزاد قيمة الجزية عن دينارين.
٦- على المسلمين حماية ظهر القبط من عدوهم.

الشرط الثانى :

أن تعقد هدنة حوالى أحد عشر شهراً، تنتهى فى أول بابة القبطى الموافق ٢٨ سبتمبر عام ٦٤٢ للميلاد، وقد جاءت مدة الهدنة عند ابن الأثير أقل من ذلك، والهدف منها هو مكاتبة الخليفة فى المدينة عما اتفق عليه الطرفان وانتظار الرد، فهذه سياسة عمرو، لا يقدم على أمر فى حكم مصر إلا بعد استشارة الخليفة.

(١) الفيء : الغنيمة والنفل يأخذه الجيش المنتصر، ويقسم على أفراد الجيش.
(٢) رسائل الخلفاء الراشدين ٣٠٦.

الشرط الثالث :

ألا يترك العرب ما فتحوه من مدن وقرى، ولا يسعوا إلى قتال، وأن يكف روم الإسكندرية عن قتالهم.

الشرط الرابع :

أن يرحل جنود الروم بحراً من الإسكندرية، ومعهم متاعهم.

الشرط الخامس :

ألا يأخذ المسلمون أى كنيسة من المسيحيين، ولا يتدخلوا فى أمورهم الدينية.

الشرط السادس :

السماح لليهود المقيمين فى الإسكندرية باستمرار إقامتهم فيها إذا شاءوا، وكان عددهم – كما قالت أغلب الروايات – سبعين ألف يهودى، أكثرهم من يهود الشام الذين هربوا إلى الإسكندرية من الغزو الفارسى واليونانى والرومانى.

الشرط السابع :

أن يبعث الروم رهائن من قبلهم : مائة وخمسين من جنودهم، وخمسين من غير الجند ضماناً لإنفاذ العقد.

الشرط الأخير :

ألا يعود جيش الروم إلى مصر أو يسعى لردها.(١)

ولكن هذا الشرط ما لبث أن نقضه الروم مرات محاولين استرجاع الإسكندرية، لكن المسلمين فى كل مرة كانوا لهم بالمرصاد، وسنتحدث عن هذه المحاولات بالتفصيل – إن شاء الله.

هذه هى نصوص العقد المبرم بين الإمبراطورية الرومانية والجيش المسلم، أما المقوقس عظيم القبط فقد كان له شروط خاصة، ذكرها ابن عبد الحكم : قال المقوقس لعمرو: لا تنقض بالقبط وألزمنى ما لزمهم، وقد اجتمعت كلمتى وكلمتهم على ما عاهدتك عليه، فهم متمون لك على ما تحب، وأما الثانية إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً، فإنهم أهل لذلك، لأنى

---

(١) هذه الشروط مجملة من كتاب فتح مصر لبتلر.

نصحتهم فاستغشونى، ونظرت لهم فاتهمونى، وأما الثالثة فإنى أطلب إليك إذا أنا مت أن تأمرهم أن يدفنونى فى أبى يُحنّس بالإسكندرية، قال عمرو : هذه أهونهن علينا.(١)

ومن الواضح أن حالة من الانفصال كانت تسيطر على الموقف بين المقوقس والقوة الرومية، مع أن الروم هم الذين اختاروا المقوقس لحكم مصر، ويبدو أن هذه الحالة من التباعد والانفصال بين الفريقين نتجت عن تخلى الروم عن إمداد المقوقس بما يكفيه من القوة لمواجهة جيش الفاتحين، وإحساسه بأنهم غير صادقين فى صلحهم، وأنهم لابد وأن ينقضوا هذا الصلح، ولذلك فهو يدعو عمراً إلى عدم مصالحتهم مرة أخرى، وهو احتمال يشير إليه قوله: (فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً...)، ولاشك أن المقوقس الذى كان يعانى فى أعماقه من خيبة أمله فى قومه كان ينظر إلى جيش المسلمين نظرة استعظام وقدرة على إنزال الهزيمة بالروم وتحويلهم إلى فىء وغنيمة.

ونقطة أخرى هامة هى إحساس المقوقس بأن الأمر مادام قد صار فى يد المسلمين فلابد أن يتقرب إليهم حتى يبقوا على منصبه الدينى على الأقل، وهو ما حدث فعلاً، فقد أبقاه عمرو زعيماً للقبط حتى توفى فى ١٧ مارس عام ٦٤٢ للميلاد.

وعودٌ إلى عهد الاتفاق، فبعده مباشرة نقض بعض الروم شروط الصلح، وهجموا على حامية مسلمة، وقتلوا من فيها على غرة، ولم يتباطأ عمرو، وتقدم لاسترداد الإسكندرية بمن معه من الصحابة، وهرب الروم الرافضون فتابعهم عمرو حتى قضى عليهم، واسترد الإسكندرية من هؤلاء الرافضين للصلح، وهذا الخبر هو الذى يعتمد عليه المؤرخون القائلون : إن الإسكندرية فتحت عنوة، وبغير عهد أو عقد.

وهناك مؤرخون يقولون إن الإسكندرية فتحت صلحاً معتمدين على بعض من شهد الفتح.

يقول ابن عبد الحكم : سأل الليث بن سعد(٢) شيخاً كبيراً عن فتح مصر، فقال: هاجرنا إلى المدينة أيام عمر بن الخطاب، وأنا محتلم، فشهدت فتح مصر،

(١) فتوح مصر ٧٢، وأبو يحنس : كنيسة بالإسكندرية.
(٢) أحد كبار التابعين.

فسئل: وإن كان أناس يذكرون أنه لم يكن لهم عهد، فقال الشيخ : ما يبالى ألا يصلى من قال إنه ليس لهم عهد[1]، فسئل : فهل كان لهم كتاب ؟، فقال : نعم.[2] وقد حدد الشيخ الكتب إلى إخنا ورشيد والمنزلة.

وعلى كل الأحوال فسنحاول بقدر الإمكان ترتيب أحداث فتح الإسكندرية تاريخياً: خرج عمرو من حصن بابليون متجهاً إلى الإسكندرية فى أواخر أبريل عام ٦٤١ للميلاد (الموافق ربيع أول عام ٢٠ للهجرة)، وعسكر حول الإسكندرية فى يونية، وحاول فتحها حتى رجع المقوقس من القسطنطينية ومعه عهد الصلح فى ١٤ سبتمبر ٦٤١ للميلاد (الموافق رمضان عام ٢٠ للهجرة)، وتم الصلح ودخل المسلمون الإسكندرية، وبدئ فى كتابة شروط الصلح بعد عدة مراسلات، وأراد عمرو أن يطمئن الخليفة على نتيجة الفتح، فبعث بمعاوية بن خديج ليكون بشيراً بالفتح.

يقول ابن عبد الحكم : فقال معاوية لعمرو: ألا تكتب معى؟، فقال له عمرو: وما أصنع بالكتاب ؟ ألست رجلاً عربياً تبلغ الرسالة وما رأيت وحضرت ؟. فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية، فخرّ عمر ساجداً، وقال : الحمد لله.[3]

ولما نقض الروم العهد وكرّ عليهم عمرو وقاتلهم، بعث بكتاب إلى الخليفة بعد أن أمر الروم بإخلاء الإسكندرية فى ١٦ شوال عام ٢١ للهجرة (الموافق ١٧ سبتمبر عام ٦٤٢ للميلاد) وتسلمها المسلمون بعد خروج جند الروم منها عن طريق البحر، وبذلك صارت إسلامية، وطويت صفحة من تاريخ الاستعمار فى مصر، وانتهى عهد الرومان الذى دام أكثر من ستة قرون، وبعد تمام الفتح بعث الخليفة عمر إلى الأمير عمرو بن العاص مرسوماً بولاية مصر، وذلك فى نوفمبر عام ٦٤٢ للميلاد (الموافق ذى الحجة عام ٢١ للهجرة).

أما كتاب عمرو للخليفة فكان شاملاً دقيقاً، لم يترك صغيرة ولا كبيرة فى وصف الإسكندرية إلا ذكرها، قال عمرو :... وإن الله فتح علينا الإسكندرية عنوة بغير عهد ولا عقد، وهى مدينة لا أقدر أن أصف لك ما فيها، وهى ثلاث مدائن

---

(١) يقصد : لن تنفعه صلاته.
(٢) فتوح مصر ٨٥. وكتاب هو : عهد مكتوب.
(٣) فتوح مصر ٨١.

بعضها فوق بعض، تختطف الأبصار من شدة بياض حيطانها، وفيها من الأعمدة الرخام ما لا يحصى، وبها منار من جملة عجائب الدنيا، وليس فى سائر الدنيا أعجوبة تشاكله، وبها عمود يقال له عمود السوارى، ارتفاعه سبعون ذراعاً، وقطره خمسة أذرع، وله قاعدتان طول كل واحدة اثنا عشر ذراعاً..

ووجدت بالمدينة أربعة آلاف دار محكمة البناء مفروشة بالرخام الملون، وفى كل دار منها حمام يختص بها، ووجدت بها أربعمائة ملهى برسم الملوك، ووجدت بها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر من بعد العصر إلى العشاء، ووجدت بها مائة ألف مركب من مراكب الروم الكبار، ووجدت بها أربعين ألف يهودى وجبت عليهم الجزية، ومن الروم والقبط ستمائة ألف إنسان سوى النساء والصبيان، ووجدت على المدينة ثلاثة أسوار مانعة، فأعان الله تعالى، وفتحت هذه المدينة على أيدى المسلمين.

ومن الواضح أن وصف عمرو للإسكندرية قد توخى الدقة البالغة التى تقدم قائمة بكل موجودات المدينة، حتى عد البقالين والمراكب، ووصف عمود السوارى والمنارة، والدور والحمامات والملاهى... إلخ..

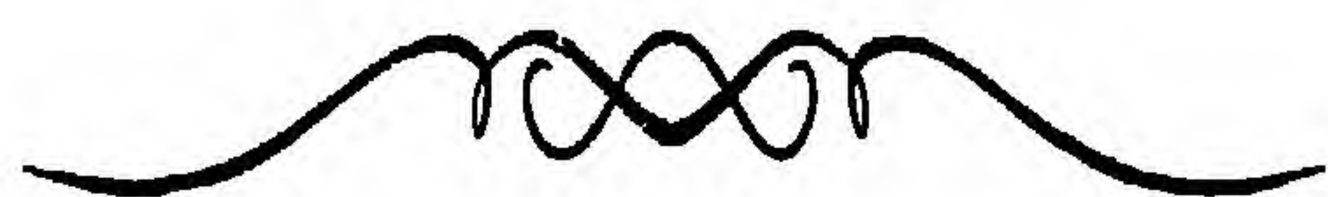
ولو كان فى الإسكندرية آنذاك شىء غير ذلك لأفاض عمرو فى وصفه، فقد كان حريصاً على نقل الصورة الأمينة إلى أمير المؤمنين فى المدينة..

ولسوف تفيدنا هذه الرسالة عند الحديث عن (مكتبة الإسكندرية) بعد قليل.



الفصل السادس

فتوحات ما بعد الإسكندرية



بعد أن فتح عمرو العاصمتين بابليون والإسكندرية، كانت هناك بعض الجيوب التى يجب السيطرة عليها حتى تصير مصر كاملة فى حوزة الإسلام، ولذا فقد أرسل عدة سرايا منها سرية عليها (عبد الله بن حذافة السهمى) إلى عين شمس مرة أخرى ففتحها وصالح أهل القرى المجاورة لها، ثم وجه (خارجة بن حذافة العدوى) إلى الفيوم والأشمونين[١] وأخميم[٢] وبعض قرى الصعيد الأخرى، ثم وجه (عمير بن وهب الجمحى) إلى تنيس[٣] وتونة[٤] ودميرة[٥] وشطا[٦] ودقهلة[٧] وبنا[٨] وبوصير، ووجه (عقبة بن عامر الجهنى) وكذلك (وردان) إلى بقية القرى فى مصر السفلى، وبعد نجاح هذه السرايا كان الصلح على ما كان عليه صلح بابليون والإسكندرية.

أما دمياط[٩] فقد أرسل عمرو بن العاص إليها (المقداد بن الأسود) فحاصر أهلها بمن معه من العساكر حتى فتحها، وكان ملكها خال المقوقس اسمه (الهاموك)، وكان لهذا الملك ابن اسمه (شطا) رأى رسول الله ﷺ فى المنام، وفى الصباح أعلن إسلامه، وحارب فى صفوف المسلمين حتى استشهد، ودفنه المقداد خارج حدود دمياط.

---

(١) الأشمونين : مدينة قديمة من مدن الصعيد غربى النيل فى محافظة المنيا حالياً، تجاهها على البر الشرقى للنيل مدينة أنصنا التى منها السيدة مارية زوج النبى صلى الله عليه وسلم.

(٢) أخميم : مدينة من مدن الصعيد شرقى النيل، فى محافظة سوهاج الآن.

(٣) تنيس : جزيرة صغيرة فى بحيرة تنيس (المنزلة).

(٤) تونة : جزيرة فى بحيرة المنزلة.

(٥) دميرة : قرية كبيرة تقع غربى فرع دمياط.

(٦) شطا : بلد قديم على شاطئ البحر الأبيض على رأس فرع دمياط، تنسب إليها الثياب الشطوية، كانت تصنع بها كسوة الكعبة.

(٧) دقهلة : قال على مبارك : قرية قديمة من مديرية الدقهلية مركز فرسكور، سميت المحافظة باسمها.

(٨) بنا : قال ياقوت : بينها وبين سمنود ميلان، وفى أطلس د. مؤنس موضعان على فرع دمياط باسم أبوصير بنا، والموضع الآخر باسم بنا بوصير.

(٩) دمياط : أول مدينة على رأس فرع دمياط ناحية الشرق بينه وبين جزيرة تنيس (المنزلة).

قال ابن إياس : وكان قتله فى ليلة الجمعة نصف شعبان، وتجتمع إليه النـاس من سائر النواحى، ويقصدون زيارة شطا رحمة الله عليه إلى يومنا هذا.(١)

قال بتلر : وهو نفسه يوم الجمعة يوم ١٩ من يونية عام ٦٤٢ للميلاد.(٢)

وبعد هذه الجهود صارت مصر إسلامية، ولكن بقيت نقطة خلاف : هل فتحت مصر عنوة أو صلحاً ؟؟ ولو رجعنا لمقولة عبد الله بن عمرو ملخصاً قصة فتح مصر لعرفنا أنها فتحت عنوة ثم صلحاً.

قال عبد الله: إن أبى قَدِمَها فقاتله أهل اليونة(٣)، ففتحها قهراً، وأدخلها المسلمين، وكان الزبير أول من علا حصنها.. فقال صاحبها(٤) لأبى : إنه قد بلغنا فعلكم بالشام ووضعكم الجزية على النصارى واليهود وإقراركم الأرض فى أيدى أهلها يعمرونها ويؤدون خراجها، فإن فعلتم بنا مثل ذلك كان أرد عليكم من قتلنا وسبينا وإجلائنا، قال عبد الله : فاستشار أبى المسلمين فأشاروا عليه أن يقسم الأرض بينهم.(٥)

إذن فقد كان الصلح بحسب مشورة أغلب المسلمين، ثم أقره بعد ذلك أمير المؤمنين فى المدينة، كما سنبين فى – فصل نظام الحكم الإسلامى – ولم يقم بتقسيم الأرض على المسلمين، وإنما رأى أن تترك لأصحابها على أن يدفعوا خراجها، وقد اتفق على كل ذلك بعد حادثة القرى التى خرجت على المسلمين.

وقصة هذا الخروج أن بعض قرى مصر السفلى، وهى : بلهيب والخيس(٦) وسلطيس وسخا خرجت ضد المسلمين وسارت مع الروم، فما كان من عمرو إلا أن ضرب أهلها وانتصر عليهم وأخذ منهم سبياً، واستحلهم المسلمون، وقالوا : هذا لنا فىء... ثم أرادوا تقسيمهم عليهم، لكن عمراً قال : لا أقدر على ذلك حتى أكتب

---

(١) بدائع الزهور ٢ / ٢٥.
(٢) فتح العرب ٣١٥.
(٣) اليونة : يقصد حصن بابليون.
(٤) هو المقوقس، والأغلب أن هذا الكلام قيل بعد فتح الإسكندرية وعودة المقوقس من القسطنطينية.
(٥) فتوح البلدان ٢١٢.
(٦) كلها قرى فى الدلتا.

لأمير المؤمنين، وبعث مع الاستشارة ببعض السبى إلى المدينة، فردهم عمر إلى مصر ومعهم هذا الرد:

((.. من كان منهم فى أيديكم فخيروه بين الإسلام، فإن أسلم فهو من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وإن اختار دينه فخلوا بينه وبين قريته..)).

ثم وضع أمير المؤمنين القاعدة التى يسير عليها عمرو فى معاملته لأهل هذه القرى ومعهم أهل الإسكندرية لأنهم خرجوا مثلهم ثم عادوا إلى حظيرة الإسلام.

قال عمر : اجعل الإسكندرية وهذه الثلاث قريات ذمة للمسلمين يضربون عليهم الخراج، ويكون خراجهم وما صالح عليه[(1)] القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلون فيئاً ولا عبيداً.[(2)]

ومن الجلى أن عمر رضى الله عنه لم يكن من رأيه فى كل أحواله أن يُستعبد الناس للفاتحين، لقد كان يعتنق مبدأ، هو: (أن الأصل هو الحرية، وأن الإنسان لا يستعبد ما دام قد ولد حراً)، وإذا كانت هذه الرؤية قد غابت عن بعض من المسلمين، ممن كانوا يتصورون أن الفتوحات طريق إلى الثراء والمغانم، فإن المبدأ الأساسى الذى ألزم به عمر جنوده هو المبدأ الذى تقرر فى كتاب الله، فى قوله تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ومادام المصريون قد خضعوا لسلطان الإسلام فمن حقهم أن ينالوا البر والقسط – كما أمر الله، وبذلك لم يستعبد مصرى فى ظل الإسلام، بعكس ما كان المصريون يلاقون على أيدى اليونان والرومان، وغيرهم من الشعوب التى غزت مصر، وأذاقت أهلها القهر والذل والهوان.

لقد كان هذا هو الموقف العمرى؛ تجاه الإنسان لا يستعبد، وتجاه الأرض لا تستملك للفاتحين، بل يبقى فيها أهلوها، ويدفعون خراجها. كان ذلك الموقف نقطة التحول فى نظرة المصريين إلى الإسلام، فدخلوا فى دين الله أفواجاً، وصارت مصر بعد ذلك، حصن الإسلام المنيع.

(١) يقصد الصلح السابق فى بابليون.
(٢) فتوح مصر ٨٣.

وقد رافق فتحَ الإسكندرية ومصر جملةٌ من الأخبار يمكن أن تحمل على محمل الأساطير، إذ لا سبيل إلى تحقيق ما جاء فيها، وقد اخترنا منها خبرين :

الخبر الأول : ذكره ابن إياس، وهو يتعلق بفتح حصن بابليون.

يقول الخبر : كان على باب قصر الشمع - حصن بابليون - صنم من نحاس أصفر على خلقة الجمل، وعليه شخص راكب وهو فى زى العرب، وعلى رأسه عمامة، وفى رجليه نعلان من جلد، فكانت القبط والروم إذا تظالموا واعتدى بعضهم على بعض يقفون بين يدى ذلك الصنم، ويقول المظلوم للظالم: إذا لم تنصفنى قبل أن يجيء هذا الرجل العربى فيأخذ حقى لى منك، إن رضيت أو لم ترض. ويعنون بالراكب على الجمل النبى ﷺ، فلما فتح عمرو بن العاص مصر أخفت القبط ذلك الصنم لئلا يكون حجة عليهم.(١)

وأما **الخبر الثانى** فيتعلق بفتح الإسكندرية. قال ابن عبد الحكم : كان بالإسكندرية باب لا يزال مغلقاً دائماً وعليه أربعة وعشرون قفلاً، فعزم المقوقس على فتحه، فنهوه(٢) عن ذلك القساوسة والرهبان، وقالوا له : لا تفتح هذا الباب واجعل عليه قفلاً كما فعل من تقدمك من ملوك القبط(٣)، فلم ينته عن فتحه، فقال له الرهبان : نحن نعطيك من المال ما خطر ببالك.. ولا تفتحه. فلم يسمع لهم شيئاً وفتحه، فلما دخل فيه لم يجد شيئاً من المال، ورأى على صدر الحائط منقوشاً هيئة تصاوير: العرب وهم على خيولهم بعمائمهم، وسيوفهم فى أوساطهم، وهم على الخيل والإبل، ورأى تحت هذه الصور كتابة بالقلم القديم فأحضر من قرأ ذلك الخط، فإذا معناه : إذا فتح هذا المكان فى آخر الزمان، فتملك العرب المدينة فى السنة التى يفتح فيها.(٤)

---

(١) بدائع الزهور ١ / ١٠٦.

(٢) الصواب : فنهاه.

(٣) دخلت النصرانية مصر على يد الإمبراطور قسطنطين الأول عام ٣٣٧ للميلاد.

(٤) فتوح مصر ١٠٨.

يقول ابن إياس معلقاً على هذا الخبر : وكان الأمر كذلك وملكوا[1] العرب المدينة فى تلك السنة، وكان كل من ملك الإسكندرية يجعل على ذلك الباب قفلاً، وهذه الأقفال بعدد من ملك الإسكندرية من الملوك.[2]

ومضمون هذين الخبرين يمكن أن يكون جزءاً من تنبؤات الكهنة والعرافين، إن لم يكن مما انتشر بعد الفتح من حكايات وأقاصيص على ألسنة البسطاء، ثم سجلته مراجع التاريخ كما نقلنا.



(١) الصواب (ملك).

(٢) بدائع الزهور ١ / ١٠٦.

نقض الروم عهد الإسكندرية

بعد تمام الفتح الإسلامى لمصر والإسكندرية حاول الروم فى القسطنطينية نقض العهد بينهم وبين المسلمين مرتين:

المرة الأولى: فى السنة الخامسة والعشرين للهجرة، حين جهز الروم جيشاً بقيادة عمنويل الخصى، الذى جاء إلى الإسكندرية بجيش جرار به سفن كثيرة وعتاد كبير، وكان الروم قد كاتبوا حلفاءهم من روم وقبط فى الإسكندرية قبل رحيلهم، ليقفوا معهم ضد العرب، فاستجاب لهم بعض الروم، أما القبط فلم يرد أنهم تجاوبوا معهم، وكان الأمير على الجيش المسلم آنذاك عبد الله بن أبى السرح[1]، الذى تسلم الإمارة لتوه من عمرو بن العاص حيث عزله الخليفة الجديد عثمان بن عفان، وأسرع الأقباط من أهل مصر يطلبون من الخليفة إعادة عمرو قائداً للجيش المسلم الذى سيواجه الروم، فهو أدرى بفنون الحرب ضد الروم، وهم أكثر هيبة له من غيره من القواد.

قال د. إدوار غالى الذهبى: عندما أغار البيزنطيون على الإسكندرية عام ٢٥ للهجرة (الموافق عام ٦٤٥ للميلاد) لطرد العرب من مصر نجد أهل مصر يسألون الخليفة عثمان بن عفان أن يرسل عمرو بن العاص لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحروبهم... وأهل مصر ليس الجند العرب فى مصر، وإنما القبط.[2]

ويبدو أن عمراً لم يكن قد غادر مصر بعد عزله، وأغلب الظن أن الروم لم يفكروا فى المجئ إلى الإسكندرية لاستردادها من المسلمين إلا بعد عزل عمرو، وظنهم أن المسلمين مختلفون، وأن قيادتهم متفرقة، وأن القائد المغوار ابن العاص قد اعتزل الجهاد.

ولكن عثمان سرعان ما كتب إلى عمرو، فاستجاب عمرو لأمر الخليفة، وأسرع فى وضع خطة الدفاع، وكان الروم قد جمعوا بعض من خرج على المسلمين من الروم دون القبط الذين التزموا بالمعاهدة مع بطاركتهم.

---

(١) كان أخاً لعثمان بن عفان فى الرضاعة.

(٢) معاملة غير المسلمين ١٤٢.

وعندما وصل الجيش الرومى الإسكندرية اتجه ناحية الجيش المسلم للهجوم عليه مرة واحدة، ولكن كانت خطة عمرو التحرك تجاه الجنوب على أن يتتبعهم الروم، وحينئذ يلتفتون إليهم ويأخذونهم على غرة.

واختلف بعض الصحابة مع عمرو على هذه الخطة، ودار حوار بين أحدهم والقائد عمرو، ذكره ابن عبد الحكم، قال:.. قال خارجة بن حذافة لعمرو: ناهضهم قبل أن يكثر مددهم، ولا آمن أن تنتقض مصر كلها. ورد عمرو: لا ولكن أدعهم حتى يسيروا إلىّ، فإنهم يصيبون من مروا به، فيخزى الله بعضهم ببعض.(١)

وكان ما تصوره عمرو، فقد خرج الجيش الرومانى خلف الجيش المسلم فى قلب الدلتا، وجعل الجنود الرومان ينزلون كل قرية فيأكلون طعام أهلها ويشربون خمورهم، وينهبون كل ما يعرض أمامهم حتى وصلوا إلى الجيش المسلم عند نقيوس(٢)، وتقابل الجيشان.

ووصف ابن عبد الحكم المعركة، قال: فلقوهم فى البر والبحر(٣)، فبدأت الروم والقبط(٤) فرموا بالنشاب فى الماء رمياً مباشراً حتى أصابت النشاب يومئذ فرس عمرو فى لبنه(٥) وهو فى البر فعُقر، فنزل عنه عمرو، ثم خرجوا – أى: الروم – من البحر فاجتمعوا هم والذين فى البر فنضحوا المسلمين بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم شيئاً، وحملوا على المسلمين حملة ولى المسلمون منها، وانهزم شريك ابن سمى(٦) فى خيله.

وكانت الروم قد جعلت صفوفاً خلف صفوف، وبرز يومئذ بطريق ممن جاء من أرض الروم على فرس له عليه سلاح مذهب، فدعا إلى البراز، فبرز إليه رجل

---

(١) فتوح مصر ١٧٥.
(٢) زاوية رزين قرب مدينة منوف.
(٣) يقصد فرع رشيد.
(٤) ذكرت بعض المصادر أن عدداً قليلاً من سكان مصر من القبط شاركوا الروم فى هذه المعركة.
(٥) لبنه: صدره، وهو اللبان أيضاً.
(٦) كان قائد الخيالة.

من زبيد يقال له: حومل، ويكنى أبا مذحج، فاقتتلا طويلاً برمحين يتطاردان، ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف، وألقى حومل رمحه وأخذ سيفه، وكان يعرف بالنجدة، وجعل عمرو يصيح: أبا مذحج، فيجيبه: لبيك، والناس على شاطئ النيل فى البر على تعبئتهم وصفوفهم، فتجادلا ساعة بالسيفين ثم حمل عليه البطريق فاحتمله فكان نحيفاً، ويخترط حومل خنجراً من منطقته أو فى ذراعه فضرب به العلج فى ترقوته فأثبته، ووقع عليه فأخذ سلبه، ثم مات حومل بعد ذلك بأيام[(١)] رحمة الله عليه، فرئى عمرو وهو يحمل سريره بين عمودى نعشه، حتى دفنه بالمقطم.

ثم شد المسلمون عليهم فكانت هزيمتهم، فطلبهم المسلمون حتى ألحقوهم بالإسكندرية، ففتح الله عليهم وقتل عمنويل الخصى.[(٢)]

ولم يكتف عمرو بالانتصار عليهم وقتل قائدهم، وإنما طاردهم فى داخل مدينة الإسكندرية وأشبعهم تقتيلاً، حتى كلمه بعض من معه من الجند فى ذلك فوقف عن قتالهم فى مكان بنى عليه مسجد بعد ذلك سمى (مسجد الرحمة)[(٣)]، كما قال ابن عبد الحكم.

ولاشك أن استمرار عمرو فى مطاردة فلول الروم إنما كان ليحول بينهم وبين أن يجتمعوا مرة أخرى، ويعاودوا قتال المسلمين، فلما تبين له أنهم انتهوا إلى غير رجعة أمسك عن مطاردة فلولهم، ولم ترد أخبار بأن عمراً أخذهم أسرى، وقد كان بوسعه بعد أن حقق انتصاره الساحق عليهم أن يجمعهم وهم فى أضعف أحوالهم، ولكن لم يكن فى أسرهم فى تقديرنا - أية ميزة سياسية، لأن الأسير إنما يؤخذ للمساومة على فكاك أسير مثله لدى الأعداء، وهو مالا وجود له فى هذا المجال.

---

(١) يبدو أن المقصود بكلمة أيام هنا ما يكفى لعودة حومل من مجال المعركة التى خاضها وجرح فيها - عودته إلى الفسطاط ومحاولته علاج جراحاته إلى أن انتهى المسلمون من مطاردة الروم فى الإسكندرية، وتمكنوا من المدينة، ثم عاد عمرو وأصحابه إلى الفسطاط، وهنا مات حومل، فرئى عمرو يحمله إلى مثواه الأخير فى المقطم، فدفن حيث مات.

(٢) فتوح مصر ١٧٦.

(٣) قالت د. سعاد ماهر: إن عمرو بن العاص هو الذى وضع أساس هذا المسجد.

وعاد الأمر كما كان من قبل مجئ حملة عمنويل، وأخذ الروم فى الإسكندرية مع القبط واليهود يدفعون الجزية والخراج لأمير مصر.

ولما علم الخليفة عثمان بخبر الانتصار على الروم للمرة الثانية بقيادة عمرو ابن العاص، أراد أن يكافئه بأن يجعل منه شريكاً لعبد الله بن أبى السرح فى حكم مصر، على أن يتولى هو الإمارة والحرب، ويتولى ابن أبى السرح الخراج، فرفض عمرو، وقال قولة مأثورة: (أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها، وآخر يحلبها).

وهنا تستوقفنا عبارة عمرو لنتساءل عن المغزى الذى كان يقصده بهذا التمثيل؟ أكان يعبر عن مذهب له فى الحكم ؟ يرى أن يجمع به كل خيوط السلطة بين يديه سواء منها السياسية والعسكرية والمالية والإدارية ؟ أم كان يكره أن يعود إلى ولايته مع خضوعه لرقابة ابن أبى السرح وهو فى موقفه ممثل لأمير المؤمنين عثمان ؟

ويبدو لنا أن الاحتمال الأول هو الراجح، لا لأنه تعبير عن أنانية عمرو أو ميله للاستئثار بالسلطة، ولكن لأن هذا كان اتجاه الحكومة المركزية فى المدينة فى ذلك الوقت، حيث كانت تعتبر الوالى مسئولاً عن كل شىء، وبذلك نرى عمراً رفض تغيير المبدأ الأساسى دون أن يكون لهذا التغيير مبرر، ومع ذلك فقد امتثل عمرو لأمر الخليفة عثمان، وخرج من مصر بعد انتصاراته الهائلة، واتجه إلى فلسطين بعد أن عاش فى المدينة مدة قصيرة، وهناك اعتزل كل شىء، حتى قدر الله له العودة إلى مصر مرة ثانية بعد اثنتى عشرة سنة.

ومرة أخرى ينقض الروم العهد:

معركة ذات الصوارى أو فينيكوس:

مازالت الإسكندرية ومصر حلم الروم الغارب، فقد راودهم هذا الحلم مرات ومرات، وكل مرة يتذكرون العهد مع المسلمين، ولكنهم أجمعوا أمرهم أخيراً على نقض العهد ومحاولة استرداد الإسكندرية مرة ثانية.

ولابد أن نتساءل عن السر الذىدفع الرومان إلى محاولة استرداد مصر، والذى وقف بهم عن هذه المحاولة بالنسبة إلى الشام؟

ولعل النظرة الأولى تجيبنا عن هذا التساؤل، فمن الناحية الجغرافية يعتبر الشام بالنسبة إليهم مجهلاً مغلقاً ليس له امتداد جغرافى فى القارة، أما مصر فهى مفتاح إفريقية، وقد كانت للرومان جيوب ومراكز استعمارية على طول الشاطئ الشمالى لإفريقية، ومن الناحية الاستراتيجية يستطيع من يملك مصر أن يحاصر الشام ويسترده فى أى صدام قادم، كما أنه يستطيع أن يستخدم المصريين وقوداً لمعاركه فى الشرق والغرب، دون حاجة إلى ركوب البحر وحمل الجند على ظهور السفن بما يمثله ذلك من مخاطر تتعرض لها القوة المهاجمة.. غير أنهم واجهوا فى هذه المعركة مفاجأة لم يتوقعوها، وهى تقدم المسلمين فى أساليب القتال فى البحر وصناعة السفن، التى ظهر تفوقها على أضعاف أعدادها من سفن الرومان، كما سيتضح من متابعة سير المعركة.

وكان الأمل هو الذى دعا الإمبراطور[1] الرومانى ومن معه إلى الإقدام على هذه المغامرة - مغامرة استرجاع الإسكندرية، ودار حوار فى القسطنطينية بين الإمبراطور وكبار مستشاريه، وأخذوا يتلاومون فى تركهم مصر والإسكندرية فى يد المسلمين، ثم أجمعوا أمرهم على إعداد أسطول كبير قوامه ألف سفينة، ويتوجهون به إلى الإسكندرية، وكان القائد الإمبراطور نفسه الذى أمر بعدم تخلف أحد من كبار القادة وقال: ما بقاء الروم بعد الإسكندرية ؟؟

وهذا هو اللقاء الثالث بين جيوش الروم والمسلمين فى مصر، وذلك فى عام ٣٤ للهجرة (الموافق عام ٦٥٥ للميلاد)، والخليفة عثمان بن عفان ووالى مصر من قبله عبد الله بن أبى السرح، وكان لما سمع باستعداد الروم واتجاههم إلى الإسكندرية أعد عدته، وخرج للقاء الروم فى مائتى سفينة، وتقابل الجيشان.[2]

وبدأ القتال أولاً بالنبال والنشاب، ثم تشابك المتحاربون بالسيوف والخناجر، ولكثرة السفن المتحاربة سميت المعركة (ذات الصوارى)، وفيها هزم الله جيش الروم، وارتد الإمبراطور قسطنطين[3] هارباً إلى بلاده بعد انكساره، وعند جزيرة

---

(١) هو قسطنطين بن هرقل.
(٢) قيل: خرج معاوية بن أبى سفيان بجيش من الشام واشترك فى هذه المعركة.
(٣) هو كونستانز الثانى ابن هرقل، ولد عام ٦٣٠ للميلاد، وتولى الإمبراطورية عام ٦٥٢ للميلاد.

صقلية قامت عاصفة شديدة كادت تودى بالبقية الباقية من السفن لولا رسوها على شاطئها.

ويذكر ابن عبد الحكم ما حدث له بعد ذلك، يقول:.. ونجا قسطنطين بمركبه، فألقته الريح بصقلية، فسألوه عن أمره، فأخبرهم، فقالوا: شَمَّتَّ أعداء النصرانية وأفنيت رجالها، لو دخل العرب علينا لم نجد من يردهم. فقال: خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا، فصنعوا له الحمام ودخلوا عليه، فقال: ويلكم تذهب رجالكم وتقتلون ملككم؟ قالوا: كأنه غرق معهم، ثم قتلوه وخلوا من كان معه فى المركب.(١)

أما بتلر فيعلق على نتيجة هذه المعركة موضحاً موقف الروم من مصر ومن بقية البلاد المفتوحة، ومبيناً أثر هذه الهزيمة على الجيوش البيزنطية، يقول: وأصابت أسطول الروم بعد خيبته فى القتال عاصفة شديدة حتى لم تبق منه إلا حطاماً بعدما كان من عظيم شأنه، وكانت بقاياه لعبة للأمواج تعبث بها، وتشتتها، ومنذ ذلك الحين لم يخش المسلمون شيئاً، اللهم إلا غزوات مفردة... وقد أسرع الانحلال إلى الحضارة الرومانية الإغريقية التى كانت مهيمنة بالبلاد، وحلت محلها حضارة جديدة عربية تسير بخطى وئيدة.(٢)

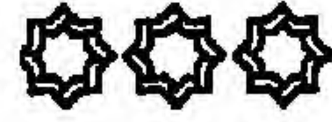
فعلاً لقد باءت محاولات أباطرة الروم لاسترداد مصر بالفشل، وأراد الله لمصر أن تبقى عربية مسلمة إلى آخر الزمان - إن شاء الله.

وحتى لا يتكرر غدر الروم، فقد وضع عمرو فى ولايته الثانية لمصر قانوناً حربياً، بأن جعل ربع من معه من الجنود رباطاً فى الإسكندرية وحدها، يتغيرون كل ستة أشهر، وحذا حذوه الولاة من بعده، فلم يغفلوا عنها، ولم يأمنوا الروم عليها، فهى باب مصر الشمالى، ومفتاحها ناحية البحر الأبيض، ولذلك كان الجند لا يبرحونها.

قال السيوطى: كان بالإسكندرية وحدها سبعة وعشرون ألف مرابط.

(١) فتوح مصر ١٩١.
(٢) فتح العرب لمصر ٤٢٩.

ولابد أن نذكر هنا أن الإسكندرية لم يكن بها خطط وتقسيمات، وإنما كل من وضع رمحه فى مكان فهو له ينزل فيه حتى تنتهى مدة رباطه، ولذلك قيل: لا يحل كراؤها أو بيعها أو إرثها، وإنما هى سكن فقط، وهذه الدور التى سكنها الفاتحون لم تكن ملكاً لأحد، إنما هى منازل الروم التى هجروها بعد الفتح، ورحلوا إلى القسطنطينية، ولم يذكر من الفاتحين أحد اختط وبنى بها إلا الزبير بن العوام فيما بعد.



الفصل السابع

مكتبة الإسكندرية



ويجرنا الحديث عن فتح مصر والإسكندرية إلى قضية هامة ومثيرة، طالما تناولها المؤرخون القدامى والمحدثون، عرباً وأوربيين: قضية مكتبة الإسكندرية الشهيرة، التى كانت إحدى المؤسسات الحضارية الضخمة، أنشأها الإمبراطور بطليموس الأول، (عام ٣٠٠ قبل الميلاد)، بعد أن تسلم حكم مصر خلفاً للإسكندر المقدونى، وكان هدف بطليموس من بناء هذه المكتبة نقل الفنون والآداب والعلوم اليونانية إلى مصر.

وقد اتسعت هذه المكتبة ونمت فى عهد كل من بطليموس الثانى والثالث، حتى قيل: إن عدد كتبها بلغ حوالى ٤٠٠,٠٠٠ لفافة منوعة، ونحو ٩٠,٠٠٠ لفافة مفردة، وكانت هذه اللفافات عبارة عن جلد أو أوراق من نبات البردى مدون عليها كل علوم البشر آنذاك.

وسبب حديثنا عن مكتبة الإسكندرية أن هناك من يقول: إن الفاتح العظيم عمرو بن العاص هو الذى أحرق هذه المكتبة، أو أنه تلقى أمراً من الخليفة عمر بأن يحرقها، فأحرقها، وهو قول باطل لا يحتاج إلى دليل بطلانه، فما كان الفاتحون المسلمون إلا حملة كتاب، انطلقوا بتعاليمه فى أرجاء الأرض يعلمون الإنسانية ويزكونها، فليسوا هم الذين يمكن أن يعتدوا على كتب المعرفة الإنسانية، ولاشك أن البلاد الكثيرة التى فتحها المسلمون كانت تملك أيضاً تراثاً مدوناً بلغاتها، مخزوناً فى مكتباتها، كبرت أو صغرت، ولم يرو التاريخ أية واقعة أحرق فيها كتاب أثناء هذه الفتوحات الكثيرة، فى الشرق أو فى الغرب، لأن المسلمين كانوا يعتقدون أن كتابهم الذى جاءهم به نبيهم كان مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة، فهم لا يحملون فى قلوبهم عدواناً، أو إرادة عدوان، على تراث السابقين عليهم، وقد حفظوا عن نبيهم ﷺ قوله فى شأن أهل الكتاب: (اتركوهم وما يدينون).

ولذلك تعتبر دعوى إحراق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية -إبان الفتح- فرية لا تحتاج إلى دحض، ويكفى أن نرجع إلى أقوال بعض مؤرخى الغرب المعتدلين وإلى الموسوعات الموثقة لنؤكد براءة ساحة المسلمين من هذا الاتهام الخطير، ونكشف عن وجه الحق فى هذا الاتهام، ونحدد مرتكبى هذه الجريمة الحضارية.

وأول من كتب هذه الفرية - فيما وقع لنا حتى الآن - ثلاثة مؤرخين شرقيين عرب، ومن الصدفة العجيبة أن ثلاثتهم كتبوا ماكتبوه فى القرن السابع الهجرى، والثالث عشر الميلادى، أى: بعد الفتح الإسلامى لمصر بأكثر من ستة قرون.

وأول هؤلاء المدعين المؤرخ عبد اللطيف البغدادى[1] الذى عاش أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى، وقد أورد اتهامه لعمرو بن العاص فى كتابه (**الإفادة والاعتبار بما فى أرض مصر من أخبار**)، وذكر ذلك الاتهام دون سند أو مرجع.

أما الثانى فهو ابن القفطى[2] الذى عاش فى زمن البغداى وبعده بقليل، ونقل الاتهام عن رواية لأسقف نصرانى اسمه يوحنا النحوى، الذى توفى إبان الفتح، ونقل عن ابن القفطى هذا الاتهام كل من أبو الفدا والمقريزى.

أما ثالثهم وهو من نفس العصر - القرن السابع الهجرى - فهو أبو الفرج العبرى[3]، إلا أنه ذكرها بالتفصيل المؤكد لصحتها وليس كسابقَيْه اللذين ذكرا القصة تلميحاً، لا كتأكيد أبى الفرج.

---

(١) عاش ومات فى بغداد، ولد عام ٥٥٧ للهجرة (الموافق ١١٦٢ للميلاد)، وتوفى عام ٦٢٩ للهجرة (الموافق ١٢٣١ للميلاد)، ويعتبر من كبار الفلاسفة والمؤرخين المسلمين، له تصانيف كثيرة فى الحكمة وعلم النفس والتاريخ والطب والأدب، من كتبه: (الإفادة والاعتبار بما فى مصر من أخبار) كتبه عندما زار مصر، وذكر فيه حكاية احراق مكتبة الإسكندرية.

(٢) هو على بن يوسف بن إبراهيم الشيبانى القفطى، وزير مؤرخ، ولد بقفط بصعيد مصر بمحافظة أسيوط، ثم انتقل إلى حلب وسكنها وولاه الملك الظاهر بيبرس القضاء بها، ولد القفطى عام ٥٦٨ للهجرة (الموافق ١١٧٢ للميلاد)، وتوفى عام ٦٤٦ للهجرة (الموافق ١٢٤٨ للميلاد)، ذكر قصته عن حريق مكتبة الإسكندرية فى كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء).

(٣) اسمه جريجوريوس يوحنا بن أهارون بن توما الملطى، ولد عام ٦٢٣ للهجرة (الموافق ١٢٢٦ للميلاد)، وتوفى عام ٦٨٠ للهجرة (الموافق ١٢٧٧ للميلاد)، وهو مؤرخ سريانى مستعرب من نصارى اليعاقبة (المارون) فرَّ مع أبيه من مالطة إلى أنطاكية، وتعلم العربية واشتغل بالفلسفة واللاهوت، وتنقل فى البلدان، ثم انقطع فى بعض الأديرة حتى نصب أسقفاً فى ملطية عام ٦٥٣ للهجرة، وارتقى لرتبة جاثليق على كرسى المشرق، ودفن فى دير مارمرقس فى الموصل، كان عالماً باللغات الفارسية واليونانية والسريانية.

قال بتلر: إن القصة فيها عنصر من عدم الثقة، وقد ناقشها جبون بشىء من الإيجاز ثم رفضها، ولم يترجم إلا المختصر العربى لأبى فرج، وقيل: إن القصة ليست فى الأصل السريانى ولعلها أدخلت فيما بعد.(١)

وهذا الدكتور حسن إبراهيم يتهم البغدادى وحده فيقول: فالتبعة واقعة إذن على عبد اللطيف البغدادى، لا على ابن القفطى وأبى الفرج، إذا فرض أن عبد اللطيف هو أول من ذكر هذه المسألة.(٢)

وسنورد ما قاله أبو الفرج العبرى (نقلاً عن كتاب فتح مصر)، قال: قد كان فى ذلك الوقت رجل اشتهر بين المسلمين اسمه حنا الأجرومى، وكان من أهل الإسكندرية، وظاهر من وصفه أنه من قسوس مصر، ولكنه أخرج من عمله، إذ نسب إليه زيغ فى عقيدته، وكان عزله على يد مجمع من الأساقفة انعقد فى حصن بابليون.

وقد أدرك ذلك الرجل فتح مصر والإسكندرية، واتصل بعمرو، فلقى عنده حظوة لما توسم فيه من صفاء الذهن، وقوة العقل والذكاء، وعجب مما وجد عنده من غزارة العلم.

فلما أنس الرجل من عمرو ذلك الإقبال، قال له يوماً: لقد رأيت المدينة كلها، وختمت على ما فيها من التحف، ولست أطلب إليك شيئاً مما تنتفع به، بل شيئاً لا نفع له عندك، وهو عندنا نافع. فقال له عمرو: وماذا تعنى بقولك ؟. فقال: أعنى بقولى ما فى خزائن الروم من كتب الحكمة. فقال له عمرو: إن ذلك أمر ليس لى أن أقتطع فيه رأياً دون إذن الخليفة.

ثم أرسل كتاباً إلى عمر يسأله فى الأمر، فأجابه عمر -زعموا- قائلاً: أما ما ذكرت من أمر الكتب، فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا به، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه وأَحْرِقْهاَ ... (كذا).

(١) هامش فتح مصر ٣٤٨.
(٢) تاريخ الإسلام ١ / ٢٤٢.

فلما جاء الكتاب إلى عمرو أمر بالكتب، فوزعت على حمامات الإسكندرية لتوقد بها، فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر، ثم قال ابن العبرى: فاسمع واعجب.(١)

يطلب العجب من الكمية الهائلة للكتب، ونحن بدورنا نعجب من الخبر ككل، فالحكاية لم تذكر كما علمنا - إلا بعد قرابة ستة قرون من دخول المسلمين الإسكندرية، وكأنها كانت فى طيِّ النسيان، حتى جاء الراوى ونفض عنها التراب، وأماط عنها اللثام، وهنا سؤال: كيف يأمر الخليفة واليه أمراً بحرق الكتب فيوزعها الوالى على أصحاب الحمامات، ولم يحرقها فى مكانها فوق ربوة القلعة عند بناء المكتبة بدلاً من تكلف مشقة حمل الكتب من مكانها إلى الحمامات، ناهيك عن احتمال بيعها أو إخفائها عن طريق هؤلاء الحمامين.

يقول بتلر: وكان من الممكن لحنا فيلبونوس استنقاذ عدد عظيم من الكتب بثمن بخس فى تلك الشهور الستة التى قيل إنها جعلت وقوداً للحمامات فيها.

وبعد، فما لاشك فيه أن كثيراً من الكتب فى مصر فى القرن السابع كانت من الرق - الجلد - وهو لا يصلح للوقود، وما كان أمر الخليفة يجعله يصلح لذلك.(٢)

ويقول: إن هذه القصة وإن كانت متداولة بين الناس، يمكن أن تكون قد أُخِذَتْ عن كتَّابِ العصور الوسطى.(٣)

وكاتب آخر كتب هذه القصة هو: المقريزى فى كتابه (**المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار**) قال تلميحاً أثناء حديثه عن معبد السرابيوم: ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطوطاليس الذى كان يدرس به الحكمة، وأنه كان دار علم، وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص بإشارة من عمر بن الخطاب رضى الله عنه.(٤)

---

(١) فتح مصر ٣٤٥.
(٢) فتح مصر ٣٤٥.
(٣) السابق.
(٤) خطط المقريزى ١ / ٢٥٩.

وقد وقف بعض المؤرخين المعاصرين ممن لا يتصفون بحياد الموقف، أو بنزاهة الرؤية، أو بموضوعية المعالجة - وقفوا أمام هذا الخبر العجيب، وكأنما عثروا على لُقَطَةٍ، فطاروا بها كل مطار، وأخذوا يعلقون عليها وصفاً وتفسيراً، وغمزاً ولمزاً، قصداً إلى تشويه صورة الفتح الإسلامى لمصر، بتشويه صورة الفاتح العظيم عمرو بن العاص، ومن هؤلاء القصاص المتأرخ جورجى زيدان، قال فى كتابه **(تاريخ التمدن الإسلامى)**: إن المسلمين هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية. ويدلل على ذلك بأن المسلمين كانوا يرون القرآن صفوة العلوم، ولم يجدوا حاجة لسواه.(١)

وقال فى موضع آخر من كتابه **(تاريخ مصر الحديث)**:.. على أن بعض الكتبة ينزهون الإمام عمر بن الخطاب عن تلك الفعلة، وكنا قد جاريناهم فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب، ثم تبين لنا بالبحث ترجيح صحتها.(٢)

وعلى الجانب الآخر نجد من نهض يدفع هذه الفرية، دفاعاً عن التاريخ الإسلامى: جاء فى **(الموسوعة العربية الميسرة)**: كان بالإسكندرية فى العهدين اليونانى والرومانى مكتبتان: الأولى: المكتبة الكبرى، وكانت بالبروكيوم من أحياء الإسكندرية، والثانية المكتبة الصغرى، وكانت بمعبد السرابيوم، وتلك أنشأها بطليموس، وقد بلغت مجموعاتها حوالى ٤٣,٠٠٠ من لفائف البردى.

ولما وصل يوليوس قيصر عام ٤٣ قبل الميلاد نشبت معركة بحرية، واشتعل حريق هائل أتلف دار صناعة السفن، وما جاورها من المبانى وفيها مكتبة الإسكندرية العظمى، وذهب المؤرخ (بلوتارك)(٣) إلى أن مقدار ما التهمته النيران فى تلك الحادثة بلغ ٤٠٠,٠٠٠ مجلد، وبذلك فقدت الحضارة تراثاً لا يمكن أن يعوض، ورأى يوليوس قيصر أن يعوض مصر عن هذه الخسارة العلمية، فأهدى كليوباترا ما يقرب من ٢٠٠,٠٠٠ مجلد غنمها من مكتبات برماجون(٤)، وقد

(١) من مقالة (من أحرق الإسكندرية) مجلة الوعى الإسلامى ٣٥٨.
(٢) تاريخ مصر الحديث ٨٩/١.
(٣) مؤرخ وناقد يونانى زار مصر وإيطاليا وأثينا، توفى عام ١٢٠ للميلاد.
(٤) مدينة قديمة شمال غرب آسيا الصغرى، حكمتها أسرة إغريقية منذ حوالى عام ٣٠٠ قبل الميلاد، سماها بتلر: برجاموس.

أودعت هذه المجموعة أحد المعابد، والمعروف أن هذا المعبد [1] ومكتبته قد دمرا فى أثناء الثورات التى وقعت فى عام ٣٦٦ للميلاد، أما مكتبة معبد السرابيوم[2] فقد امتدت يد التدمير إليها فى القرن الرابع للميلاد، فنقل بعض كتبها إلى القسطنطينية، وتشتت الباقى حوالى عام ٣٩١ للميلاد.[3]

ولابد أن نشير إلى دفاع بعض مؤرخى الغرب وتعليقهم، فهذا د. جستاف لوبون يقول: وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم فمن الأعمال الهمجية التى تأباها عادات العرب، والتى تجعل المرء يسأل: كيف جازت القصة على بعض العلماء الأعلام زمناً ؟ وهذه القصة دحضت فى زماننا، فلا نرى أن نعود إلى الحديث فيها، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين فى الإسكندرية قبل الفتح العربى بعناية كالتى هدموا بها التماثيل، ولم يبق منها ما يحرق... وأما ما نجا منها وهو قليل فقد نقل إلى مكتبات آسيا الصغرى وأوربا ليحكّه الرهبان - بعد أن ندر وجود الرقوق وارتفعت أثمانها - ويبدلوا بما فيها من كتابات المؤلفين اليونان والرومان مواعظهم الدينية، ولولا العرب لضاع أكثر الكتب الرائعة القديمة التى زُعم أنها حفظت فى أروقة الأديار باعتناء.[4]

وقد ورد فى الخطط التوفيقية قول المؤلف على باشا مبارك:.. فى الندوة السنوية لمجلس اللانستِتْسُيون أى: المجلس التعليمى، من ضمن ما قيل فى جلسة أغسطس عام ١٨٧٤ للميلاد - إن بولص أوروز، من تلامذة ماراى أوجستان،

(١) قال بتلر: وخربه القيصر ونهبه عام ٣٦٦ للميلاد، فى أثناء نضال دينى، وأغلب الظن أن المكتبة التى كانت فيه قد ذهبت ضحية فى ذلك النضال. (فتح العرب ٣٥٨).

(٢) قال بتلر: وكان السيرابيوم بلا شك حصن الوثنية وملاذها، وظل الوثنيون مدة يغيرون من هناك على المدينة، فثار المسيحيون بأن حاصروا قلعة (الأكروبولس)... ثم اتفق الجانبان على تحكيم الإمبراطور فقضى تيودوسيوس للمسيحيين.. فهرب عبدة الأوثان المصرية القديمة، وأهوى المسيحيون إلى المعبد العظيم، وعلى رأسهم (نيوفيلوس) وجعلوا يهدمونه ويخربون ما فيه، وكان ذلك عام ٣٩١ للميلاد، ولا يختلف فيه اثنان.. فإذا نحن آمنا بأن المكتبة كانت ملحقة بالمعبد، وبأن المعبد قد خرب ودمر، فكيف يمكن إن نقول أن المكتبة قد نجت. (فتح العرب ٣٦٢).

(٣) الموسوعة العربية الميسرة ١٧٣٤.

(٤) حضارة العرب ٢١٣ و ٤٨١.

ومارى جيزوم – لم يجد شيئاً من الكتبخانة حين مروره بالإسكندرية عام ٤١٤ للميلاد، يعنى قبل دخول سيدنا عمرو بلاد مصر بمائة وثلاثين سنة.(١)

فالظاهر أن القول بأن إحراق كتبخانة الإسكندرية كان بأمر سيدنا عمرو – محض إفتراء اختلقته قسوس النصارى، فإنه قد حصل إحراقها مراراً قبل دخول الإسلام، والكتب القديمة الموروثة عن الأعصر الخالية قد محتها أيدى النصارى.

وهذا تعليق آخر للمؤرخ د. بتلر، فقد أفرد باباً كاملاً فى كتابه (فتح العرب) عن مكتبة الإسكندرية، وفى آخر الباب، قال:.. ولعلنا لا نكون مخطئين إذا نحن أجملنا فيما يلى أدلة حجتنا، فإن قصدنا حقيقة أن نعرف أمر مكتبة الإسكندرية ومقدار نصيب قصة إحراق العرب لها من الصحة أو الكذب، وقد بينّا فيما سلف الأمور الآتية:

١- أن قصة إحراق العرب لها لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة.(٢)

٢- أننا فحصنا القصة وحللنا ما جاء فيها فألفيناه سخافات مستبعدة ينكرها العقل.

٣- أن الرجل الذى تذكر القصة أنه أكبر عامل فيها مات قبل غزوة العرب بزمن طويل – والرجل هو حنا فيلبس –النحوى الأجرومى–، قال بتلر: كان يكتب عام ٥٤٠ للميلاد، أى: قبل الغزو بأكثر من مائة عام.

٤- أن القصة قد تشير إلى واحدة من مكتبتين: الأولى مكتبة المتحف، وهذه ضاعت فى الحريق الكبير الذى أحدثه قيصر – دقلديانوس(٣) – وإن لم تتلف عند ذلك كان ضياعها فيما بعد فى وقت لا يقل عن ٤٠٠ عام قبل الفتح الإسلامى.

وأما الثانية وهى: مكتبة السرابيوم، فإما أن يكون قد نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ للميلاد، وإما أن تكون قد هلكت أو تفرقت كتبها وضاعت قبل الفتح الإسلامى، فتكون على أى حال اختفت قبل الفتح العربى بقرنين ونصف قرن.

---

(١) الخطط التوفيقية ٧/١١٥.

(٢) لم يذكر سعيد بن البطريق المؤرخ المسيحى المصرى، الذى ولد بالفسطاط عام ٢٦٣ للهجرة (الموافق ٨٧٦ للميلاد) هذه القصة مع كتاباته الدقيقة عن مصر.

(٣) حكم الإمبراطورية الرومانية عام ٢٨٤ للميلاد، بداية تاريخ الشهداء.

٥- أن كتاب القرنين الخامس والسادس لا يذكرون شيئاً عن وجودهما، وكذلك كتاب أوائل القرن السابع الميلادى.

٦- أن هذه المكتبة لوكانت لا تزال باقية عندما عقد قيرس (المقوقس) صلحاً مع العرب على تسليم الإسكندرية -لكان من المؤكد أن تنقل هذه الكتب، وقد أبيح ذلك فى شرط الصلح الذى يسمح بنقل المتاع والأموال فى مدة الهدنة التى بين عقد الصلح ودخول العرب فى المدينة، وقدر ذلك أحد عشر شهراً.

٧- لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة لما أغفل ذلك كاتب من أهل العلم كان قريب العهد من الفتح مثل (حنا النقيوسى) ولما مرّ على ذلك بغير أن يكتب حرفاً عنه، ولايمكن أن يبقى شك فى الأمر بعد ذلك، فإن الأدلة قاطعة أن رواية أبى الفرج - صاحب القصة التى يتهم فيها العرب - لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس فى التاريخ.

ثم يختم بتلر دفاعه قائلاً: إن العرب لم تدخل الإسكندرية إلا بعد استيلائهم عليها بعد أحد عشر شهراً، وقد ذكر عهد الصلح أنه يجوز للروم أن يحملوا إلى بلادهم كل أمتعتهم، وفى غضون هذه المدة كان البحر مفتوحاً، ولم تكن أمامهم أية صعوبة لحملها إلى بلادهم، وما كان يصعب على أحد أن يقتنى هذه الكتب قبل أن تقع الإسكندرية نهائياً فى أيدى العرب.(١)

وقد ناقش د. حسن إبراهيم قصة المكتبة، وأورد جميع الآراء الشرقية والغربية فى ذلك، قال: وقد طرحت المسألة على بساط البحث فى المجلة العلمية الفرنساوية، فقال مسيو (لكلرك).. إن من المحقق أن هذه المكتبة لم تكن موجودة فى ذلك الوقت، أى: وقت الفتح الإسلامى.

وذكرت دائرة المعارف الفرنساوية (الجزء الثالث، صفحة ٦٤٨) أن كثيرين قرروا أن المكتبة الملكية، وكذلك مكتبة السيرابيوم كلتاهما لم تكن تنتظر غزو العرب لقصد إفنائها... فإن مجموع المؤلفات التى كانت بالسيرابيوم قد أحرقها النصارى فى القرن الرابع الميلادى.

---

(١) فتح العرب ٣٧٠.

وقال د. حسن إبراهيم أيضاً: وأكد ذلك أيضاً (أورازيوس) الذى زار الإسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى، أى قبل دخول العرب الإسكندرية بنحو قرن ونصف قرن، وقال: إنه وجد رفوف مكتبة الإسكندرية خالية من الكتب، وما ذلك إلا لأن المسيحيين كانوا أتلفوها فى نهاية القرن الرابع الميلادى.(١)

وقالت المستشرقة الألمانية د. زيجريد هونكه فى كتابها (**شمس الله تسطع على الغرب**): عندما دخل العرب الإسكندرية لم يكن هناك منذ زمن طويل مكتبات عامة كبيرة، وأما ما اتهم به قائدهم عمرو بن العاص من إحراقه لمكتبة الإسكندرية، والذى يعبر به اليوم عن صورة مفزعة للبربرية والوحشية، فقد ثبت فى أكثر من مناسبة –وبعد أبحاث مستفيضة– أنه مجرد اختلاق لا أساس له من الصحة، إن عَمْراً فاتح الإسكندرية هو نفسه عمرو الذى ضرب المثل بتسامحه طوال فتوحاته، وحرم النهب والسلب والتخريب على جنوده، وعمل ما كان غريباً عن فهم الشرقيين القدماء والمسيحيين على السواء. لقد ضمن صراحة للمغلوبين حرية ممارسة شعائرهم الدينية المتوارثة.(٢)

إن إلصاق تهمة إحراق مكتبة الإسكندرية بالفتح الإسلامى كذب يدل على إفلاس أصحابه، وفجورهم فى نفس الوقت، فلم يكن الإسلام حين جاء إلى مصر يحمل أدنى أثارة من حقد على مصر أو المصريين، بل كان طالب وصل، وحامل دعوة يتوسل إلى تبليغها بكل أساليب الحب، والتقرب من الجماهير والشعوب، وهذا هو سر نجاحه فى كل بلد توجه إليه، بل إن هذا هو سر التأثير العميق الذى حققه فى نفسية الشعوب المفتوحة، حتى تأسلمت عقيدتها، وتعربت ألسنتها، وليس من المعقول أن تكون هذه أهداف الفتح الإسلامى لمصر ثم يرتكب الفاتحون المتحضرون جريمة حضارية هى إحراق مكتبة عالمية تمثل فى ميزان الحضارة تراثاً لا يعرف قدره إلا المسلمون، كيف يحدث هذا ؟؟ وفى مصر وحدها من دون بلاد العالمين؟؟

---

(١) تاريخ عمرو ١١١.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب ٣٦٣ – الترجمة العربية.

أسئلة لا يستطيع أن يجيب عنها المفلسون الفجرة، ممن أرادوا أن يصموا الإسلام بعقدهم النفسية والعقلية والحضارية.

إن مصر لم تعرف الاستقرار والأمان إلا فى ظل الإسلام، فأما ما سبق الفتح الإسلامى فهى أحداث هائلة وصراعات مذهبية بين النصارى، أو بين الغزاة اليونانيين والرومان والفرس، وكانت الإسكندرية كما نعلم باباً يدخل منه الغزاة دائماً، ومن الطبيعى أن يستخدم هؤلاء الغزاة كل وسائل التدمير لإرهاب المدافعين عن المدينة، ولابد أن بعض المتصارعين من الغزاة، أو بعض المتنازعين من النصارى قد أقدم على هذه الفعلة البربرية ضمن مخططه لاحتلال المدينة، أو إرهاب المدافعين عنها.

فأما الفتح الإسلامى فإنه لم يأت عن طريق البحر أو الإسكندرية، بل جاء عَبْرَ سيناء، ومر بالمناطق الشرقية من مصر، وحسم المعركة عند حصن بابليون فيما يعرف الآن بمصر القديمة، واستتب الأمر للمسلمين فى هذه المنطقة، وسلم المقوقس السلطة للفاتح عمرو بن العاص، وأصحابه، ولم تكن الإسكندرية بعد توقيع عهد الصلح سوى جيب من جيوب المقاومة الرومانية، محكوم عليه بالتصفية، إن عاجلاً، أو آجلاً، وقد استطاع المسلمون أن يصفوا هذا الجيب، ويطردوا الغزاة نهائياً، خلال عدة معارك، لم تكن الإسكندرية طرفاً فيها، بل الغزاة القادمون عبر البحر هم الذين يحاولون العودة إلى البلاد من باب الإسكندرية، ولذلك كان المسلمون فى موقفهم آنذاك يقومون بواجب الدفاع عن مصر طبقاً للمعاهدة المبرمة فى بابليون - وليس بمعقول أن يقوم المدافعون بإحراق المدينة وهم يحاولون استنقاذها.



الفصل الثامن

بناء العاصمة : الفسطاط



بعد أن فتحت مصر، وجاء الأمر من الخليفة بتولى عمرو بن العاص إمارتها، كان لابد من بناء مركز للحكم وإدارة البلاد، وتلفت عمرو فى أبنية الإسكندرية وجمالها وخلوها من ساكنيها الذين هجروها، فأسرع بالكتابة إلى الخليفة فى المدينة يستأذنه فى جعل الإسكندرية عاصمة لمصر الإسلامية، كما كانت عاصمة لمصر الرومية[١]، وخاصة أن بيوتها وأبنيتها مشيدة، ودور الحكم ومراكزه خاوية بعد جلاء الروم عنها.

ووصل الرسول إلى عمر بن الخطاب، وكان أول استفسار منه هو : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟ وأجاب الرسول : نعم يا أمير المؤمنين إذا جاء الفيضان وجرى النيل.

ورد الخليفة على أمير مصر : إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف، متى أردت أن أركب راحلتى إليكم حتى أقدم عليكم قدمت.[٢]

ولعلها كانت أمنية لأمير المؤمنين أن يقوم برحلة إلى الأقاليم المفتوحة، كما حدث فى زيارته لبيت المقدس، يتفقد أحوال المدن، والولاة، والناس، وقد كان عمر وهو بالمدينة يشعر بمسئوليته عن (عثرة بغلة بالعراق)، ولكن هذه الأمنية لم تتحقق فى حياته كلها، رضى الله عنه وأرضاه.

وشاور عمرو صحابته فى مكان العاصمة، واتفقوا على المكان حول الفسطاط[٣] الخاص بعمرو الذى تركوه بجوار حصن بابليون.

---

(١) أورد ياقوت الحموى ستة أوجه لضبط كلمة (فسطاط)، قال : الفَسطاط - الفِسطاط - الفُسّاط - الفِسّاط - الفُستاط - الفستاط. وأشهرها (فُسطاط).

(٢) كان أمر الخليفة هذا لسعد بن أبى وقاص أيضاً، عندما فتح فارس والعراق، ورغب فى أن يجعل مدائن كسرى عاصمة للدولة الإسلامية الجديدة، ورفض عمر، فبنى سعد مدينة الكوفة غربى الفرات.

(٣) عرفنا قصة اليمامة التى تركها عمرو على فسطاطه وهى راقدة على بيضها، وبها سميت المدينة الجديدة، ويؤكد بتلر ذلك قائلاً : إن علاقة ذلك الاسم بفسطاط عمرو وبقصة اليمامة فيها شىء من الصحة، فإن لفظ (فسطاط) يرجع إلى اللفظ البيزنطى (فُساطن)، وهو اللفظ الرومانى (فُساطم)، وكان وقت الفتح لفظاً شائعاً على العسكر أو المدينة الحصينة. (فتح العرب لمصر ٢٥٠).

يقول د. جمال حمدان : فاختار عمرو موضع الفسطاط بدلاً من الإسكندرية، ومن الجيزة، كما كان البعض قد اقترح عليه.(١)

وكان أول عمل يُبدأ به فى أى عاصمة إسلامية، فى أى مصرٍ من الأمصار المفتوحة هو بناء المسجد الجامع، وبهذا أمرهم الخليفة، وأن يجعل الوالى لكل قبيلة مسجدها الخاص، حتى إذا جاء يوم الجمعة انضموا إلى المسجد الجامع.

قال القضاعى : لم تكن الجمعة تقام فى زمن عمرو بشىء من أرض مصر إلا بهذا الجامع.(٢)

واختار الفاتحون مكان المسجد الجامع، وكان جناناً وحدائق قد حازها أحد جنود المسلمين.

قال على مبارك : إن قيسية بن كلثوم التجيبى، أحد بنى سوم، سار من الشام إلى مصر مع عمرو بن العاص، فدخلها فى مائة راحلة وخمسين عبداً وثلاثين فرساً، فنظر قيسية، فرأى جناناً تقرب من الحصن، فعرج إليها وأقام فيها، ثم خرج مع عمرو وخلف أهله فيها، ثم بعد الإسكندرية عاد قيسية إلى منزله.... وتشاور المسلمون أين يقع المسجد الجامع، فرأوا أن يكون منزل قيسية، فسأله عمرو فيه، فقال : إنى حزت هذا المنزل، وإنى أتصدق به على المسلمين، وارتحل منه، فبنى المسجد.(٣)

ولابد أن نشير هنا – قبل الحديث عن بناء الفسطاط العاصمة أو بناء الجامع الكبير – إلى أن سلوك الفاتحين الأولين حيال القبط وممتلكاتهم كان محكوماً بشرع الله، وما نص عليه عهد عمرو مع المقوقس، كما كان خاضعاً لتوجيه الخليفة عمر، ومن ثم فإن ما نفذه عمرو بن العاص من أعمال تتصل بإقامة الخطط أو إنشاء المدينة العاصمة، وبناء المساجد والجامع الكبير، لم يكن ذلك فى أرض مما يمتلكه أحد من القبط، بل كان فى الجهات الخالية من السكان التى يمكن أن نقول عنها إنها تخضع للملكية العامة، ونرى أن هذا يصدق على كل الخطط التى أقيمت فى عهد عمرو بن العاص فى الفسطاط أو الجيزة أو غيرها فى أنحاء البلاد.

---

(١) القاهرة ١٠.

(٢) الخطط التوفيقية ٤ / ١٤.

(٣) السابق ٤ / ١٢. وقال د. حسن إبراهيم : هو : قيسبة (بالباء).

لقد كان اختيار موقع الفسطاط لإقامة العاصمة الجديدة اختياراً موفقاً، فمكان العاصمة الإسلامية الجديدة موقع استراتيجى دقيق، فهو على رأس الدلتا، ويشرف على الوجهين القبلى والبحرى، وهو كذلك يشرف على مداخل مصر الصحراوية سواء من ناحية الشرق أو الغرب.

يقول د. إبراهيم العدوى : لم يكن الاختيار اعتباطاً، وإنما توافر لهذا المكان جميع الشروط التى اشترطها عمر بن الخطاب على قادته عند تأسيس الأمصار، وأهمها : القرب من الصحراء، وسهولة الاتصال بالسلطات المركزية فى شبه الجزيرة العربية.[1]

ويعجب المرء حين يتأمل تصرفات هؤلاء الفاتحين فى هذه المشكلة الحضارية، فإن اختيارهم يدل على عمق إحساسهم، بل وإدراكهم للمفهوم المدنى لإقامة العاصمة، وقد بقى اختيارهم - كما نرى - المحدد النهائى لعاصمة مصر بصورة نهائية بعد ذلك، وإلى أن ينتهى الزمان إن شاء الله.

(١) نهر التاريخ الإسلامى ١٩٥.

المسجد الجامع

هو أول مسجد بنى فى مصر خاصة وفى قارة إفريقيـة عامـة، وهـو خـامس مساجد الإسلام بعد المسجد الحرام، ومسجد قباء، ومسجد الرسول ﷺ فـى المدينـة، ومسجد الكوفة.

سمى تاج الجوامع، والمسجد العتيق، ومسجد أهل الراية(١).

قال ابن دقماق : هو إمام المساجد، ومقدم المعـابد، وقطـب سماء الجوامـع، ومطلع الأنوار اللوامع، موطن أولياء الله وحزبه.(٢)

بدأ الصحابة فى بناء جامع الفسطاط بعد عودتهم مباشرة من الإسكندرية، وبعد أن تسلموا الأرض من قيسية(٣)، وقد أجمع المؤرخون على أن ثمانين صحابياً من صحابة رسول الله ﷺ وقفوا على بناء المسجد وإقامة قبلته، منهم : الزبـير بـن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، وأبـو الدرداء، وعقبـة بـن عـامر، وفضالة بن عبيد، وعمرو بن العاص، وابناه محمد وعبـد اللـه، ومسلمة بـن مخلـد، وغيرهم رضى الله عنهم، ومازالو قائمين حتى حددوا القبلة، وأتموا بناء المسجد.

والمكان الدقيق لحدود المسجد عند بنائه - الذى لا يختلف عليه المؤرخـون- هو حول المنبر والمحراب الحاليين، أما مساحته فكـانت ٦٦٣ مـتراً، بطـول تسـعة وثلاثين متراً وعرض سبعة عشر متراً، وجانبه الغربى جهة نهر النيـل، والجنوبـى

---

(١) أهل الراية هم من وقفوا تحت رايةعمرو فى فتح مصر، وسموا بذلك لأنهم لـم يكونـوا بـالعدد الكبير الذى يكون لهم راية، وكرهوا الوقوف تحت راية قبائل أخرى، فقـال لهم عمـرو : أنـا أجعل راية لا أنسبها إلى أحد تقفون تحتها، فرضوا، وأكثرهم من قريش والأنصـار. وقـال د. العدوى : يرجح أن أهل الراية هم الرؤساء.

(٢) عمرو بن العاص ٢٣٦.

(٣) قال الليث بن سعد : كان مسجدنا هذا حدائق وأعنابا، وقيل كان فيه شجرة (زنزلخت) أصلهـا من بلاد فارس قالوا إنها من عهد موسى عليـه السلام، قطعـت عـام ٧٩٩ للميـلاد. (الخطـط التوفيقية ٤/٢).

– القبلى – تجاه حصن بابليون، أما الشرقى والشمالى فيطلان على أرض فضاء خلاء بنيت فيها مدينة الفسطاط، ثم تلتها العسكر[1] والقطائع[2] والقاهرة[3] بعد ذلك.

وقد بنى المسجد بالطين وجذوع النخل والطوب اللبن، وجدرانه عارية من البياض والزخرف، ولم يدخل فى بنائه أية أعمدة، خلافاً لما يدعيه بعض المؤرخين: من أن عمراً قد هدم بعض الكنائس وأخذ أعمدتها لبناء مسجده.

كما ادعى جورجى زيدان أن المسجد طلى بالذهب كتابة، قال : وأتى عمرو بحجارة الجامع من بقايا منف العظيمة بينها أعمدة كبيرة من الجرانيت، وقطع هائلة من الرخام أقيمت بها جدرانه، وقد قيل إن القرآن كله كان منقوشاً عليها بالذهب.[4]

وما يذكره جورجى زيدان فى هذا الصدد هراء فى هراء، وهو مولع دائما بذكر السخافات التى يقصد بها الإساءة إلى المسلمين. وينسى أنه لو حدث فعلا واستخدم المسلمون الذهب فى بناء المسجد لهدمه عمر بن الخطاب على رءوسهم، فلم يفعل المسلمون ذلك، – آنئذ – فى مسجد الرسول!!.. وسيأتى موقف عمر من إقامة منبر من الخشب للجامع. ولكن جورجى حريص على إلصاق تهمة الاختلاس والسرقة بالمسلمين فقد سطوا فيما تصور على الكنائس والمعابد، واستولوا على الرخام والجرانيت والذهب، مع أن ثقافة المسلمين المعمارية كانت متواضعة أشد التواضع.

وفرش المسجد بالحصباء، أما سقفه فكان منخفضاً، ولذلك كان المسلمون يصلون خارجه فى الصيف من جهاته الثلاث.

وكان للمسجد ستة أبواب : بابان من الجهة الشمالية، وبابان من الجهة الغربية، وبابان من الجهة الشرقية تجاه دار عمرو بن العاص.

---

(١) بنيت العسكر عام ١٣٣ للهجرة (الموافق ٧٥٠ للميلاد) بناها العباسيون.

(٢) أنشئت القطائع عام ٢٦٠ للهجرة (الموافق ٨٧٣ للميلاد) تقريباً، بناها أحمد بن طولون.

(٣) بنى جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى، القاهرة عام ٣٥٨ للهجرة (الموافق ٩٦٨ للميلاد).

(٤) تاريخ مصر الحديث ١ / ٩٤.

منبر الجامع

وفكر عمرو فى بناء منبر ليعتلى عليه الخطيب يوم الجمعة، وسمع أمير المؤمنين بخبر بناء المنبر، فبعث إلى عمرو :.. أعزم عليك أن تكسره، أما بحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عقبيك ؟ وكسره عمرو بن العاص.

وعندما تولى عبد الله بن أبى السرح إمارة مصر عام ٢٦ للهجرة أهدى له ملك النوبة (زكريا بن يوقنى) منبراً لجامع عمرو، وبعث معه نجاره الخاص حتى ركبه.

يقول على مبارك :.. واسم هذا النجار (بقطر) من أهل دندرة، ولم يزل هذا المنبر فى المسجد حتى زاد قرة بن شريك فى المسجد فنصب منبراً سواه.(١)

وقد تتابعت إقامة المنابر فى المسجد من عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى حتى أوائل السبعينيات حيث نصب منبر جديد، وأهدى منبر مراد بك إلى الصومال، وفى الثمانينيات نصب منبر فاخر من خشب الأرو، وقام على صنعه وإقامته خطيب الجامع د. عبد الصبور شاهين.(٢)

إن التعريف بالمسجد الجامع أمر فى غاية الأهمية، لأنه الأثر الباقى حتى الآن من أحداث الفتح الإسلامى لمصر.

ومازال ذلكم المسجد رمزاً لتلك المرحلة التاريخية الحاسمة، التى قررت مصير مصر، بل مصير العرب، بل مصير الإسلام إلى آخر الزمان، مهما تعرض للإهمال والتخريب فى بعض حقب التاريخ وظروفها السياسية، فمازال هو قطب الرحا، ومحور الاهتمام، ومازال يعتبر حرماً للمسلمين من أهل مصر، وممن يفدون إلى مصر من أبناء العالم الإسلامى، ولذلك سوف نتتبع تاريخه عبر الزمان حتى عصرنا هذا.



(١) الخطط التوفيقية ٤ / ١٥.

(٢) تولى الدكتور عبد الصبور شاهين خطبة الجمعة فى الجامع العتيق عام ١٩٨٥ للميلاد، وبقى فيه حتى إبريل عام ١٩٩٥.

تاريخ الجامع من بنائه إلى الآن

وقد تتبعنا عمليات الإصلاح والترميم والتوسيع التى نالت المسجد الجامع من تاريخ بنائه فى عام ٢١ للهجرة (الموافق ٦٤٢ للميلاد) حتى الآن عام ١٤٢٠ للهجرة (الموافق ١٩٩٩ للميلاد)، ووجدناها حوالى أربعين ما بين بناء وقياس وإصلاح وترميم وبياض، وسوف نقدم ما وقع لنا من نوعية هذه الإصلاحات وتواريخها- بقدر الإمكان:

١- فى عهد الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان فى عام ٦٣ للهجرة (الموافق ٦٨٤ للميلاد) كان أول عمل فى المسجد، وأمير مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى، فقد زاد فى الجامع من الناحية الشمالية، ولم يغير فى البناء القديم من النواحى الأخرى، ثم فرشه بالحصر بعد أن دهنه، وأقام أربعة صوامع فى أركانه الأربعة.

جاء فى كتاب مساجد مصر: وكانت هذه الصوامع نواة للمآذن التى أنشئت بمصر بعد ذلك وهى على نمط الأبراج التى كانت بأركان المعبد القديم بدمشق.(١)

وقالت د. سعاد ماهر: وأمر معاوية بابتناء منار المسجد وأمر المؤذنين أن يؤذنوا فى وقت واحد.(٢)

واستجاب مسلمة للأمر، فكان المؤذنون الأربعة يؤذنون معاً للفجر بعد منتصف الليل، وعندما يسمعهم مؤذنو مساجد القبائل فى الفسطاط يرددون جميعاً الآذان فى وقت واحد فيكون لهم دوى شديد.

٢- فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان فى عام ٧٩ للهجرة (الموافق عام ٦٩٩ للميلاد) هدم أمير مصر عبد العزيز بن مروان البناء القديم للجامع، وأعاد بناءه وزاد فيه من جميع الجهات.

٣- فى خلافة الوليد بن عبد الملك عام ٨٩ للهجرة (الموافق ٧٠٨ للميلاد) أمر أخاه عبد الله أمير مصر برفع سقف الجامع.

---

(١) مساجد مصر ٤.

(٢) أهم مساجد مصر ٤٦.

٤- فى خلافة الوليد بن عبد الملك عام ٩٢ للهجرة (الموافق ٧١١ للميلاد) قام أمير مصر قرة بن شريك بهدم الجامع وأعاد بناءه بعد أن أدخل فيه الطريق الشرقى وكذلك دار عمرو بن العاص، وجعل له المحراب المجوف، وهو المحراب المعروف بمحراب (عمر).

جاء فى كتاب مساجد مصر: والمحراب المجوف أحدثه قرة بن شريك والى مصر... مقتدياً بالمحراب المجوف الذى أحدثه عمر بن عبد العزيز بمسجد المدينة المنورة فى عام ٨٨ للهجرة (الموافق ٧٠٦ للميلاد).(١)

وفى البناء الجديد زاد قرة عدد الأبواب فصارت أحد عشر باباً، ثلاثة من الجهة الشمالية وأربعة فى كل من الجهتين الأخريين، وفى عام ٩٤ للهجرة قام قرة بنصب منبر جديد، وقالت د. سعاد ماهر: وذهب تيجان الأعمدة الأربعة التى تتقدم المحراب.(٢)

٥- فى خلافة سليمان بن عبد الملك الأموى عام ٩٧ للهجرة (الموافق عام ٧١٦ للميلاد)، أمر أميرها عبد الله بن رفاعة متولى الخراج ببناء بيت المال فى وسط الجامع، أعلى الفوارة.

٦- بعد سقوط الدولة الأموية، وتولى الخليفة السفاح العباسى الخلافة أمر والى مصر من قبله صالح بن على بن عبد الله بن عباس- بزيادة مساحة الجامع، فزاده، وأدخل فيه دار الزبير بن العوام، وذلك عام ١٣٣ للهجرة (الموافق ٧٥٠ للميلاد).

٧- فى عهد المهدى عام ١٦١ للهجرة (الموافق ٧٨٧ للميلاد) أمر بنزع المقصورة التى بناها معاوية عام ٤٤ للهجرة، ثم أمر بتقصير المنبر حتى يصل إلى طول منبر رسول الله ﷺ فى المدينة.

٨- فى خلافة الرشيد، وفى عام ١٧٥ للهجرة (الموافق ٧٩١ للميلاد) زاد موسى ابن عيسى العباسى أمير مصر الرحبة التى فى آخر الجامع جهة الشمال، المعروفة باسم رحبة أبى أيوب.

---

(١) مساجد مصر ٤.

(٢) أهم مساجد مصر ٦٥.

٩- وفى خلافة المأمون العباسى عام ٢١١ للهجرة (الموافق ٨٢٧ للميلاد) أمر واليه على مصر عبد الله بن طاهر بن الحسين بتوسعة الجامع، فزاد مساحته من الناحية الغربية(١)، فتضاعفت رقعته، وأصبحت ١١٢ × ٢٠٠ متراً تقريباً(٢).

١٠- وفى عام ٢١٢ للهجرة (الموافق ٨٢٩ للميلاد) أتم أمير مصر الجديد من قبل المأمون- عيسى بن يزيد الجلودى بقية الزيادة التى بدأت فى العام السابق.

وقد ورد فى كتاب مساجد مصر القول: وإن أهم ما يسترعى النظر فى رواق القبلة طبال خشبية تعلو بعض تيجان الأعمدة محفور عليها زخارف بارزة يرجع عهدها إلى عمارة عبد الله بن طاهر عام ٢١٢ للهجرة.

١١- وفى عام ٢٥٨ للهجرة (الموافق ٨٢٩ للميلاد) أمر أحمد بن طولون وزيره أبا أيوب بن أحمد بن محمد بن شجاع بتوسعة المسجد، فزاد فى الرحبة.

١٢- وفى ٩ من صفر عام ٢٧٥ للهجرة (الموافق ٢٤ يونيو عام ٨٨٨ للميلاد) وقع حريق فى الجامع، فأتى على أكثره، فأمر أمير مصر الطولونى خمارويه بعمارته، فأعيد على ما كان عليه حاله من قبل، وكتب اسم خمارويه فى دائرة الرواق عند اللوح الأخضر، وأنفق فى ذلك ستة آلاف وأربعمائة دينار.

ولكن ابن إياس يقول إنه ترك محروقاً مهدماً حتى العصر الفاطمى.

١٣- فى عام ٣٣٦ للهجرة (الموافق ٩٤٧ للميلاد) فى عهد الخليفة المستكفى العباسى وأمير مصر أنجور الإخشيدى زاد متولى قضاء مصر أبو حفص العباسى فى الجامع، وبنى على سطحه غرفة للمؤذنين، وزخرف الجامع، ونقشه من الداخل.

---

(١) من المحتمل أن يكون قد حدث انحسار فى مجرى النيل ترتب عليه انكشاف جزء من الشاطئ فى صورة طرح للنهر فابتعد النيل بذلك عن المسجد، وأمكن توسيعه من الناحية الغربية.

(٢) جاء فى كتاب حوليات الإسلام أن مساحة المسجد صارت ١٥٠ ذراعا × ٩٠ ذراعاً. وقالت د. سعاد ماهر: ١٢٠,٥ × ١١٢,٥ متراً.

تقول د. سعاد ماهر: حتى إذا جاء منتصف القرن الرابع الهجرى كان المسجد بالغاً حده فى الزخرفة من تذهيب ونقش وتطويق للعمد.[١]

١٤- فى عام ٣٥٧ للهجرة (المواف عام ٩٦٨ للميلاد) فى عهد كافور الإخشيدى زاد الخازن أبو بكر محمد بن عبد الله رواقاً واحداً مقداره تسعة أذرع.

١٥- فى عهد العزيز بالله الفاطمى، وفى عام ٣٧٨ للهجرة (الموافق ٩٨٨ للميلاد) زاد الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس[٢] الفوارة التى تحت قبة بيت المال.

١٦- وفى عام ٣٨٧ للهجرة (الموافق ٩٩٧ للميلاد)، وفى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى، جدد الوزير يعقوب بن كلس بياض المسجد، وقلع شيئاً من الفسيفساء من أروقته وبيض مواضعه، ونقشت خمسة ألواح وذهّبت ونصبت على أبوابه الخمسة الشرقية، وكان ذلك على يد برجوان[٣] الخادم، الذى ثبت اسمه على الألواح، ثم نزع الاسم بعد مقتله.

وقد خلع ابن كلس منبر جامع عمرو وجعل مكانه منبراً مذهباً، ثم أخرج هذا المنبر إلى الإسكندرية، وجعل فى جامع عمرو بها.

١٧- فى شعبان عام ٤٠٦ للهجرة (الموافق يناير عام ١٠١٦ للميلاد) أمر الحاكم بأمر الله الفاطمى بعمل رواقين فى صحن المسجد الجامع، وزخرفه وزينه، وجعل فيه تنور[٤] فضة، وزنة ثلاثة قناطير من الفضة ما قيمته مائة ألف درهم، وأمر بزيادة بابين فصار للمسجد ثلاثة عشر باباً، وبعث الحاكم من قصره إلى المسجد الجامع بالفسطاط بألف ومائتين وثمانية وتسعين مصحفاً ما بين ختمات وربعات، فيها ما هو مكتوب كله بالذهب، ومكن الناس من القراءة فيها.

---

(١) أهم مساجد مصر ٦٦، وتطويق العمد أى: جعل الأطواق الفضية حول الأعمدة.

(٢) كان يهودياً من البصرة أسلم على يد كافور الإخشيدى الذى وعده بالوزارة إن أسلم، ثم هرب من مصر إلى المغرب حيث رجع إليها فى معية المعز لدين الله الذى استوزره، ولما توفى استوزره العزيز ثم الحاكم من بعده.

(٣) كان مدبر دولة العزيز قتله الحاكم بأمر الله فى ٢٦ ربيع ثان عام ٣٩٠ للهجرة بعد أن ثقل نفوذه فتخلص منه بالقتل، وإليه تنسب حارة برجوان بالقاهرة.

(٤) التنور: النجفة. قال على مبارك فى خططه ١٨/٤: فاجتمع الناس وعلق فى الجامع بعد أن قلعت عتبتا الباب حتى أدخل به.

وبمناسبة المصاحف الحاكمية، نذكر أول مصحف وضع فـى مسـجد عمـرو، كان مصحف عبد العزيز بن مروان، وكان وضع مصحفاً للقراءة فـى الجـامع، كل يوم جمعة، ثم يحفظ فى داره.

يقول على مبارك: وأول من قرأ فيه عبد الرحمن الخولانى، لأنه كان يتولـى القصص والقضاء يومئذ، وذلك عام ٨٦ للهجرة، ولمـا مـات عبد العزيـز بيـع هـذا المصحف فى ميراثه فاشتراه ابنه أبو بكر بألف دينار، ثم توفى فاشترته أسماء بنـت أبى بكر بن عبد العزيـز، فـأمكنت النـاس منـه، وشـهّرته فنسـب إليهـا، فلمـا توفيـت أسماء اشتراه أخوها الحكم من ميراثها بخمسمائة دينار، وجعله فـى الجـامع، وذلـك عام ١١٨ للهجرة، وأجرى على الذى يقرأ فيه ثلاثة دنانير فى كل شهر.[١]

١٨- فـى عـام ٤٣٨ للهجـرة (الموافـق عـام ١٠٤٦ للميـلاد) أمـر المسـتنصر باللـه الفاطمى بعمل منطقة من الفضة فى صدر المحـراب الكبيـر أثبـت عليهـا اسـمه، وجعل لعمودى المحراب أطواقاً[٢] من الفضة، وزاد فى المقصورة مـن الشـرق والغرب.

١٩- فى عام ٤٤٢ للهجرة (الموافق عام ١٠٥٠ للميـلاد) زمـن المسـتنصر عملـت للإمام مقصورة من الخشب، ومحراب من الساج الهندى المنقوش، بـه عمـودان من خشب الصندل الطيب الرائحة، وتقلع هذه المقصـورة فـى الشـتاء إذا صلـى الإمام فى المقصـورة الكبيرة.

وعمّر القاضى أبو عبد الله أحمد بن محمد غرفة المؤذنين بالسطح، وحسنها، وجعل لها روشناً[٣] على صحن الجـامع، وجعـل بعدهـا ممـراً ينـزل منـه إلـى بيـت المال وجعل للسطح مطلعاً من الخزانة المستجدة فى ظهر المحراب الكبير وجعل له مطلعاً آخر من الديوان.

(١) الخطط التوفيقية ٤ / ٢٢.
(٢) بقيت الأطواق حتى زمن صلاح الدين فقلعها منه عام ٥٦٧ للهجرة أثناء تجديد المسجد.
(٣)الروشن : الشرفة

٢٠- فى عام ٤٤٤ للهجرة (الموافق عام ١٠٥٢ للميلاد) زمن المستنصر أيضاً زيد فى الخزانة مجلس من دار الضرب [١]، وزخرف هذا المجلس، وجعل فيه محراب، ورخّم برخام اقتلعوه من المحراب الكبير.

٢١- فى عام ٤٤٥ للهجرة (الموافق عام ١٠٥٣ للميلاد) فى عهد المستنصر الفاطمى بنيت المئذنة الثالثة، وموضعها بين مئذنة غرفة المؤذنين والمئذنة الكبيرة.

وقد شهد الجامع كما نرى - لمدة قرابة قرنين من الزمان، من أول العصر الفاطمى حتى قرب نهايته، شهد عهداً من الاهتمام والرعاية، وسنوات من المجد والازدهار، ومبالغة فى الحرص على إعلاء شأنه مع وجود جامع الفاطميين الأول: الجامع الأزهر.

ويكفى أن نعرف أنه اختص دون غيره من الجوامع بأنه الجامع الوحيد الذى كان الخلفاء والسلاطين والولاة والأمراء يصلون فيه الجمعة اليتيمة فى آخر شهر رمضان.

وقد نشأ هذا التقليد منذ عهد الدولة الفاطمية، كما تقول د. سعاد ماهر:.. فقد كان الخليفة الفاطمى يركب للاحتفال برؤيا شهر رمضان، ثم يستريح أول جمعة منه، فإذا كانت الجمعة الثانية أداها فى الجامع الحاكم، فإذا كانت الجمعة الثالثة أداها فى الجامع الأزهر، فإذا كانت الجمعة الرابعة صدرت الأوامر بأدائها فى جامع عمرو بن العاص، فيقوم الأهالى بعمل الزينات حتى جامع عمرو..[٢]

٢٢- فى عام ٥٦٤ للهجرة (الموافق عام ١١٧١ للميلاد) دخل الصليبيون مصر، وخاف شاور[٣] أحد وزيرى العاضد الفاطمى من تسربهم إلى داخل البلاد فأحرق مدينة الفسطاط، قالوا: أخرج لها عشرين ألف قارورة نفط، وعشرة آلاف مشعل مضرمة بالنار، وفرقت فيها، واستمرت النيران ٥٤ يوماً، وأحرقت مدينة الفسطاط، وأتت النار على أغلب المسجد الجامع.

(١) كانت دار ضرب النقود تابعة لمبانى المسجد.
(٢) أهم مساجد مصر ١ / ٧٣.
(٣) الوزير الآخر هو ضرغام الذى اتفق مع العدو.

وهى نتيجة طبيعية للتناقضات المذهبية فى المجتمع المصرى، وتضارب القوى السياسية فيه آنذاك، وتحالفها مع الشيطان الصليبى، والطائفى.

وقد رحل ملك الروم بجنده من القاهرة التى عسكر فيها- عندما بلغه قدوم أسد الدين شيركوه بعسكر من جهة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام، وكان رحيله فى ٧ من ربيع آخر من عام ٥٦٤ للهجرة.

٢٣- تولى صلاح الدين الأيوبى إمارة مصر ما بين عامى ٥٦٤ و ٥٨٩ للهجرة (الموافق عام ١١٦٩: ١١٩٣ للميلاد) وبعد أن استقر أمره جدد بناء الجامع، وذلك فى عام ٥٦٨ للهجرة، وأعاد صدر الجامع والمحراب الكبير ورخمه كله، وكتب عليه اسمه.

٢٤- فى عام ٦٦٤ للهجرة (الموافق عام ١٢٧٣ للميلاد) فى زمن الظاهر بيبرس البندقدارى أمر بإقامة سوره البحرى (الشمالى) بعد أن مال، وسد نافذتين فيه، وهدم كل الغرف، وترك غرفتين للمؤذنين، وأمر بإبطال جريان الماء من النيل إلى فوارة الفسقية لما فيها من ضرر على جدر الجامع.

٢٥- فى عام ٦٦٦ للهجرة (الموافق عام ١٢٧٥ للميلاد) زمن بيبرس أيضاً هدم الجدار المذكور، البحرى الذى فيه اللوح الأخضر وأزيلت العمد والقواصر العشر ثم عمر الجدار المذكور وأعيدت العمد والقواصر العشر كما كانت، وزيد فى العمد أربعة، وجليت كلها، وبيض الجامع بأسره.

٢٦- فى عام ٦٨٧ للهجرة (الموافق عام ١٢٩٩ للميلاد) زمن السلطان المنصور قلاوون، شكا له قاضى القضاة سوء حال مسجد عمرو فى الفسطاط، فأمر السلطان بإصلاح حاله وتبييضه وتجريد عمده، فجرد نصف العمد، أى: صار نصف العمود الأسفل أبيض، وبقيته بحاله، ثم أجرى الماء من البئر إلى الفسقية، ورمى ما كان به من أتربة.

٢٧- فى عام ٦٩٦ للهجرة (الموافق عام ١٢٩٨؟ للميلاد) اشترى الصاحب تاج الدين داراً وهدمها وجعل مكانها سقاية كبيرة، ورفعها إلى محاذاة سطح

الجامع، وجعل لها ممشى يتوصل إليها من سطح الجامع، وعمل فى أعلاها أربعة بيوت يرتفق بها فى الخلاء (كما جاء فى المقريزى).

وكان هذا العمل أول ميضأة فى جامع عمرو، وجعل كذلك مكاناً لأزيار الماء العذب وهدم سقاية الغرفة التى تحت المئذنة المعروفة بالمنظرة، وبناها برجاً كبيراً من الأرض إلى العلو.

٢٨- فى زمن الناصر محمد بن قلاوون، وفى عام ٧٠٢ للهجرة (الموافق عام ١٣٠٤ للميلاد) حدث زلزال فى مصر فأثر على الجامع، فتولى الأمير سلار وزير الناصر إصلاح الجامع، فأعاد بناء السور البحرى، وعمل بابين جديدين وأضاف لكل عمود فى الصف البحرى عموداً آخر، ثم جدد العمد كلها وبيض الجامع بعد زيادة رواقين فيه.

جاء فى كتاب أهم مساجد مصر:.. كما يوجد بالوجهة البحرية والوجهة الغربية بعض شبابيك يرجع عهدها إلى عمارة الأمير سلار لهذا الجامع عام ٧٠٣ للهجرة (الموافق عام ١٣٠٤ للميلاد)، وقد شملت هذه العمارة ذلك المحراب الجصى الجميل الذى لايزال موجوداً إلى الآن بالوجهة البحرية.(١)

وقد أورد القلقشندى وصفاً دقيقاً للجامع عام ٧١٣ للهجرة (الموافق عام ١٣١٥ للميلاد)، قال: إن ذرعه ٢٨ ألف ذراع(٢)، مقدمه ٨٩٥٠ ذراعاً، ومؤخره ٨٩٥٠، وصحنه خمسة آلاف ذراع، جانبه الشرقى ألفا ذراع و٥٥٠ ذراعاً، وجانبه الغربى كذلك، وأبوابه ثلاثة عشر بابا لكل باب اسم يخصه، فى جانبه القبلى باب واحد، وبه ٢٤ رواقاً... وفيه ٣٦٨ عموداً... وبه ثلاثة محاريب.. وفيه خمس صوامع.(٣)

٢٩- فى عام ٨٠٠ للهجرة (الموافق عام ١٣٩٨ للميلاد) كان سلطان مصر الملك فرج بن برقوق فى شغل ولهو، فجاء كبير تجار مصر إبراهيم بن على المحلى(٤) فهدم صدره كله، وأزال اللوح الأخضر وأعاد البناء كما كان أولاً،

(١) أهم مساجد مصر ١ / ١٠.
(٢) الذراع: ٧٥ سنتيمتر.
(٣) صبح الأعشى ٢ / ٣٣٩.
(٤) قال عنه المقريزى: ينتهى نسبه إلى طلحة بن عبيد الله، ولقبه برهان الدين.

وجدد لوحاً أخضر بدل الأول ونصبه مكانه، وجرد العمد وتتبع جدر الجامع، فرم شعثها وأصلح من رخام الصحن ما فسد، ومن السقوف ما وهى، وبيضه كله فصار كما كان وعاد جديداً، وانتهى من عمارته وإصلاحه فى أربع سنوات لم تتعطل صلاة جمعة ولا جماعة فيه أثناءها.

٣٠- فى عهد الأشرف أبو النصر قايتباى (٨٧٢: ٩٠١ للهجرة، الموافق ١٤٦٨: ١٤٩٥ للميلاد) جدد فى أوقات متفرقة بعض جهات الجامع وعمّره وأصلح فيه ما احتاج لإصلاح.

ومرت على الجامع ثلاثة قرون من البلاء والانهيار والضياع وصفها الجبرتى قائلاً:.. ضرب الجامع بخراب مدينة الفسطاط، وبقيت تلالاً وكيماناً، وخصوصاً ما قرب من الجامع ولم يبق بها بعض العمار.. أما الجامع العتيق فلا يصل إليه أحد لبعده وحصوله بين الأتربة والكيمان.. وكان ما أدركنا الناس يصلون به آخر جمعة فى رمضان فتجتمع به الناس على سبيل التسلى من القاهرة ومصر وبولاق.. ويجتمع بصحنه أرباب الملاهى من الحواة والقرداتية وأهل الملاعيب والنساء الراقصات المعروفات بالغوازى، فبطل ذلك من ثلاثين سنة لهدمه وخراب ما حوله وسقوط سقفه وأعمدته وميل شقه الأيمن، بل وسقوطه بعد ذلك. (أحداث عام ١٢١٢ للهجرة).[١]

٣١- فى عام ١٢١٢ للهجرة (الموافق عام ١٧٩٨ للميلاد) رأى الأمير مراد بك[٢] ما أصاب جامع عمرو من خراب، ففكر فى تجديده، وقد حسّن له الفقهاء والعلماء ذلك، فأقام أركانه وشيد بنيانه ونصب أعمدته، ولكن فى غير مكانها الأول، وبنى منارتين- هما الباقيتان للآن- وجدد جميع سقفه بالخشب النقى، وبيض كل الجامع، وفرشه بالحصر الفيومى، وعلق به القناديل، وصليت به الجمعة الأخيرة من رمضان عام ١٢١٢ للهجرة.

(١) عجائب الآثار ٥ / ٢٥٤.
(٢) كانت مصر تحت الحكم العثمانى بأمراء من استنبول، وعلى رأسهم آنذاك مراد بك وإبراهيم بك.

قال الجبرتى:.. وحضر الأمراء والأعيان والفقهاء، وبعد الصلاة عقد الشيخ عبد الله الشرقاوى مجلسه وأملى حديث: "من بنى مسجداً" وتفسير: "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر".(١)

وكتبت أبيات من الشعر على ألواح رخام بجوار القبلة، وعلى الأبواب منها:

أحيا لنا ربنا بيتا لطاعته   وكان من قبل مصباحا بها فطفى
ونشـــوة السعد قد قالت مؤرخة   يسمو العزيز مراد جامع الشرف

وعلى القبلة أبيات منها:

انظر لمسجد عمرو بعدما درست   رسومه صار يحكى الكوكب الزاهى
لاح القبول عليه حين أرخه   هــذا البناء على مراد الله(٢)

وعلى باب آخر مكتوب أبيات منها:

ونشوة السعد قد قالت مؤرخة   أنشأت حمداً مراد الحى مسجده

٣٢- فى فترة الحملة الفرنسية (عام ١٢١٣: ١٢١٥ للهجرة، الموافق ١٧٩٨: ١٨٠١ للميلاد) اهتم العلماء الفرنسيون بجامع الفسطاط من ناحية كونه أول أثر إسلامى فى مصر، فرسموه من جميع الجهات، وحددوا ما حوله من منشآت، ثم قاسوا أركانه - كما فعلوا فى كل أبنية مصر الأثرية - وسجلوا أنه مربع الشكل تقريباً كل ضلع ١٢٠ متراً.

وإن كانت حال الجامع قد ارتدت كما كانت من السوء والإهمال.

قال الجبرتى: (من أحداث ١٢١٢ للهجرة) ولما حضرت الفرنساوية العام القابل جرى على الجامع ما جرى على غيره من الهدم والتخريب، وأخذ أخشابه حتى أصبح بلقعاً أشوه مما كان قبل هذه العمارة.

٣٢- فى عام ١٢٩٠ للهجرة (الموافق عام ١٨٧١ للميلاد) زمن الخديوى إسماعيل تم قياس الجامع مرة ثانية، فكان كالآتى:

---

(١) عجائب الآثار ٥ / ٢٥٤.
(٢) مازالت هذه الأبيات موجودة فى الجامع.

الناحية الشرقية ٣/١ ١٠٩ متراً، الناحية القبلية (الجنوبية) ٢/١ ١١٧ متراً، الناحية الغربية ١٠٤ متراً، الناحية البحرية (الشمالية) ١٢٠ متراً.[١]

٣٤- فى عصر الخديوى توفيق، وفى عام ١٣٠٠ للهجرة (الموافق ١٨٨٣ للميلاد) أجريت للجامع بعض الترميمات، بعد أن سقط إيواناه الشرقى والغربى.

وقد وصف على باشا مبارك الجامع وصفاً دقيقاً فى كتابه (الخطط التوفيقية)، وكان هذا الوصف حوالى عام ١٢٩٧ للهجرة (الموافق عام ١٨٨٠ للميلاد)، نقتطف منه قوله: وللجامع صحن غير مسقوف طول ضلعه الأكبر ٧٩ متراً، وطول الأصغر ٧١ متراً، وجميع الجامع مبنى من الطوب المضروب المحرق، وليس به الآن من البناء القديم إلا جزء يسير من الجانب الشرقى والقبلى (الجنوبى).

وسمك ذلك البناء القديم متر وثلثا متر، والموجود به الآن من الأعمدة الرخام الصحيحة [٢] ٢١٥ عموداً، منها ملقى على الأرض خمسة وثلاثون عموداً... وبالجامع مصحف كبير مكتوب بالخط الكوفى[٣] على رق غزال فقد منه بعضه، وكمّله محمد على باشا، بخط عربى عام ١٢٤٦ للهجرة، ومصحف آخر داخل صندوق من وقف المرحوم مراد بك.

وفى صحن الجامع حنفية للوضوء عليها قبة وبداخلها بئر، وبه أيضاً شجرة ونخلة، وحواليه مساكن موقوفة عليه يصرف ريعها، وجملة ما يتحصل من الإيراد كل سنة ثلاثة آلاف قرش ومئتان وثلاثة وثمانون قرشاً ونصف قرش عملة ميرية، عدة كل مائة قرش جنيه مصرى، يصرف من ذلك على خدمته كل سنة ألف وأربعمائة وسبعة وسبعون قرشاً وثمانية أنصاف فضة، والباقى تحت يد ناظره السيد محمد الليثى.[٤]

---

(١) ربما كان الفرق فى هذا المقياس ومقياس الفرنسيين يرجع إلى ردم بعض أجزائه واختفائها تحت الردم والأتربة.

(٢) ذكر القلقشندى عدد الأعمدة (٣٦٨) عموداً، وذلك عام ٧١٣ للهجرة (الموافق عام ١٣١٥ للميلاد)، أى: من قرابة خمسة قرون ضاع واندثر (١٥٣) عموداً.

(٣) هو مصحف أسماء حفيدة عبد العزيز بن مروان، كان يقرأ فيه يوم الجمعة، وفى عهد المتوكل العباسى زادوا فى قراءة المصحف فكان يقرأ فيه يوم الإثنين والخميس والجمعة.

(٤) الخطط التوفيقية ٤ / ٢٨.

٣٥- فى عام ١٣١٧ للهجرة (الموافق عام ١٨٩٩ للميلاد) زمن الخديوى عباس الثانى جدد سقف الإيوان القبلى وبعض أجزاء الإيوان البحرى.

٣٦- فى عام ١٣٢٣ للهجرة (الموافق عام ١٩٠٦ للميلاد) زمن الخديوى عباس الثانى أيضاً تشكلت لجنة حفظ آثار مصر، ومن مهمتها العناية بالمساجد الأثرية، وفى مقدمتها جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط، فأجريت عدة حفريات فى أرضه وصلت إلى حوائطه القديمة على مر العصور، وأزيلت بعض المبانى العشوائية من حوله.

٣٧- فى عهد الملك فؤاد الأول عام ١٣٤٨ للهجرة (الموافق عام ١٩٣٠ للميلاد) أصلح الديوان الكبير، وقويت بعض جدر الجامع.

٣٨- ظل الجامع مهملاً إلا فى شهر رمضان، حيث يصلى الملك أو رئيس الوزراء الجمعة الأخيرة من رمضان (الجمعة اليتيمة) فيه، فيهتم به ويدهن وينظف ويرصف الطريق المؤدى إليه، وعندما قامت الثورة لم يلتفت إلى الجامع البتة.

٣٩- فى عام ١٣٧٨ للهجرة (الموافق عام ١٩٥٨ للميلاد) اجتمع أهل الحى وتناقشوا فى حال الجامع المتردية، وقرروا جمع المال لتوصيل الكهرباء للجامع، وبعد توصيلها اشتروا مكبر الصوت.

٤٠- واستكمالاً لهذه الجهود، وحين تولى الشيخ محمد الغزالى خطبة الجمعة فيه أوائل السبعينات بدأ الاهتمام بالجامع فى عهد محافظ القاهرة الأسبق حمدى عاشور، فخطط الميدان، وزود المسجد بمنبر جديد. وكان مجلس إدارة المسجد برياسة الدكتور إبراهيم بدران.

٤١- وحين تولى خطبة الجمعة الدكتور عبد الصبور شاهين، أوائل عام ١٩٨٥ ـ نشطت الجهات الرسمية فى العناية بالمسجد ، ونفذت خطة شاملة من الترميم والتعديل، وتعاونت جهود كثيرة على تهيئة المسجد، حتى اكتمل العمل، وتو بتبرع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز بفرش المسج بالسجاد، وكان ذلك تلبية لدعوة وجهها إليه الدكتور عبد الصبور شاهين وتولى (النساجون الشرقيون) توريد السجاد، وصار الجامع منارة رائعة

وكعبة مقصودة لمئـات الألـوف المصلين كل جمعـة. وقد استطاعت الجهود الذاتية فى نفس المرحلة شراء نظام صوتـى لإذاعـة الخطبـة، كما ازدهرت جهود الخير من خلال لجنة الزكاة، حتى بلغ الإنفاق أحيانا مئـات الألـوف من الجنيهات للمحتاجين.

٤٢- وفـى أوائل عام ١٩٩٥ بدأت (عملية ترميم شاملة، وحين أوشكت علـى الانتهاء امتدت يد التخريب إلـى الإيوان الكبير الشرقى فقوّضته، وهدمت أعمدته، لأسباب مجهولة، والله أعلم.

ونظرة كلية إلى المسجد الجامع من الناحية المعمارية من أول بنائه حتى نهاية القرن العشرين الميلادى نراه قد فقد كل معالمه الأولى، ولم يبق إلا المكان الذى أنشئ عليه فى العهد الأول.

أما بالنسبة إلى القرن الأول الذى نحن بصدد الحديث عنه فإن المسجد الجامع قد حدث فى عمارته ظاهرتان معماريتان على جانب كبير من الأهمية، ذكرتهما د. سعاد ماهر، قالت: الظاهرة الأولى: هى الأربع الصوامع التى أمر معاوية واليه على مصر مسلمة بن مخلد بإنشائها.. وكانت هذه الصوامع - فى الواقع - نواة للمآذن التى أنشئت بمصر بعد ذلك.... والظاهرة الثانية: المحراب المجوف الذى أحدثه قرة بن شريك والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك فى عام ٩٣ للهجرة، مقتدياً فى ذلك بعمر بن عبد العزيز، الذى أنشأ محراباً مجوفاً فى مسجد المدينة عام ٨٨ للهجرة.(١)

ولأهمية جامع عمرو، فقد ظل الجامع الوحيد فى الفسطاط زمن الخلفاء الراشدين، وزمن بنى أمية، حتى اتسعت رقعة منازل المسلمين، وجاء الخلفاء العباسيون عام ١٣٢ للهجرة، فبنيت مدينة العسكر وبها جامعها، ثم تولى أحمد بن طولون عام ٢٦٠ للهجرة، وبنى القطائع وأسس مسجده الجامع فيها، وأنشئت مدينة القاهرة عام ٣٥٨ للهجرة، ووضع أساس جامعها الأزهر.

---

(١) مساجد مصر وأولياؤها ١ / ٧٢.

ولم يكن جامع الفسطاط من ساعة بنائه مقتصراً على أداء الصلوات الجامعة فيه وحسب، وإنما كان جامعة ومدرسة تعقد فى أرجائه حلقات الدروس على يد كبار العلماء والفقهاء على مر العصور، فقد سبق الجامع الأزهر بأربعة قرون فى وظيفة التعليم والتدريس، وسوف نتعرض لذكر أهم من درس وخطب فى الجامع العتيق على مر القرون.

أهم من درس فى المسجد، وأشهر من خطب

- التابعى الجليل الليث بن سعد إمام أهل مصر حديثاً وفقهاً، كان كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها فى عصره، ولد فى قلقشندة عام ٩٤ للهجرة (الموافق عام ٧١٣ للميلاد)، وتوفى فى الفسطاط عام ١٧٥ للهجرة (الموافق عام ٧٩١ للميلاد).
- الإمام عبد الله بن وهب بن مسلم الفهرى المصرى بالولاء من أصحاب الإمام مالك، ولد عام ١٢٥ للهجرة (الموافق عام ٧٤٣ للميلاد)، وتوفى عام ١٩٧ للهجرة (الموافق عام ٨١٣ للميلاد).
- الإمام محمد بن إدريس الشافعى الهاشمى، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد فى غزة عام ١٥٠ للهجرة (الموافق عام ٧٦٧ للميلاد)، وتوفى بمصر عام ٢٠٤ للهجرة (الموافق عام ٨٢٠ للميلاد).
- سلطان العلماء العز بن عبد السلام، تولى بمصر القضاء والخطابة فى جامع عمرو، ثم اعتزل، وتفرغ للتأليف، ولد عام ٥٧٧ للهجرة (الموافق عام ١١٨١ للميلاد)، وتوفى عام ٦٦٠ للهجرة (الموافق عام ١٢٦٢ للميلاد)، ودفن فى قرافة المقطم.
- المقريزى مؤرخ الديار المصرية، ولى فى مصر الحسبة والخطابة والإمامة مرات، له مؤلفات عدة، ولد عام ٧٦٦ للهجرة (الموافق عام ١٣٦٥ للميلاد)، وتوفى عام ٨٤٥ للهجرة (الموافق عام ١٤٤١ للميلاد).
- ابن حجر العسقلانى من أئمة العلم والتاريخ، تصانيفه كثيرة وجليلة فى السير والتاريخ والقضاء والأعلام، ولى قضاء مصر مرات، ولد عام ٧٧٣ للهجرة (الموافق عام ١٣٧٢ للميلاد)، وتوفى ودفن فى مصر عام ٨٥٢ للهجرة (الموافق عام ١٤٤٩ للميلاد).

وقد أشارت د. سعاد ماهر إلى فروق بين التدريس فى كل من جامع عمرو والجامع الأزهر، قالت: كانت الدروس فى جامع عمرو تعطى تطوعاً وحسبة لوجه

الله، وكانت الدروس بالجامع الأزهر بتكليف من الدولة، ولذلك فهى تؤجر عليها العلماء والمدرسين، وذلك أشبه بالمدارس والمعاهد النظامية اليوم.

والفرق الثانى نجده متمثلاً فى مكان الدرس، فإنه يطلق على أماكن الدرس فى جامع عمرو اسم زاوية، وتعرف فى الجامع الأزهر باسم حلقة، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن القائمين على التدريس بجامع عمرو من الأئمة المتصوفين وكبار الفقهاء الذين يتخذون ركناً معيناً فيجتمع التلاميذ والمريدون من حولهم، فى حين يقوم بالتدريس فى الأزهر مدرسون مأجورون يجعلون أعمدة الأروقة مركزاً لجلوسهم، ويلتف الطلبة فى حلقة حول العمود، ومن هنا جاء اسم (حلقات الدرس).(١)

ولو أردنا معرفة حال الزوايا فى جامع عمرو لوجدناها كثيرة، حددها المقريزى وسماها، وذكر أنها بلغت فى النصف الثانى من القرن الرابع مائة وعشر زاويا، يتصدرها أئمة الفقهاء والقراء وأهل الأدب والحكمة.

ولم يكن دور جامع عمرو مقصوراً على تعليم الرجال فقط، وإنما كان للمرأة مكان فى التعليم والتثقيف فى جامع عمرو، فهذا المقرّى نقلاً عن ابن الفرات يقول إنه أدرك بالجامع حلقات دروس ووعظ للسيدات، تصدرتها فى الدولة الفاطمية واعظة زمانها أم الخير الحجازية.(٢)

ولم يكن جامع عمرو للعبادة والتعليم فحسب، وإنما كان للقضاء أيضاً، فقد كان فيه مكان لجلوس القاضى لحل النزاعات، وفض الإشكالات وإعطاء الحقوق لأصحابها، وقد حدد المقريزى مكان انعقاد المحكمة وزمانه، وقال: كان جلوس قاضى القضاة به مرتين كل أسبوع.

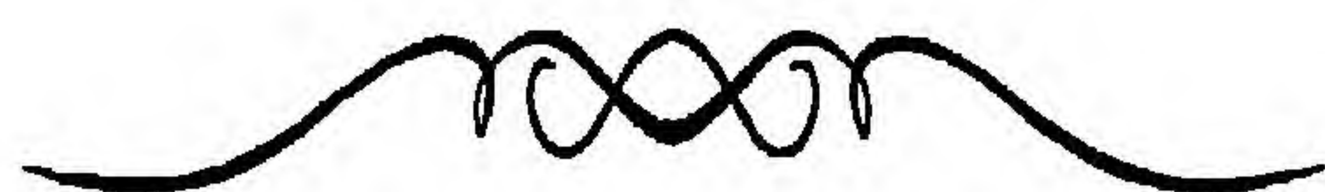
ووظيفة رابعة للجامع العتيق، وهى: احتواؤه على بيت المال، وكان على شكل قبة عليها أبواب من حديد، يأتى الناس من المدن والقرى لدفع خراجهم وزكاتهم لمتولى الخراج فى صحن جامع عمرو.



(١) أهم مساجد مصر ١ / ٤.
(٢) السابق ١ / ٧٣.

الفصل التاسع

مدينة الفسطاط



مدينة الفسطاط

بعد أن وضع أساس الجامع الكبير الذى كان بمثابة نواة يلتف حولها المسلمون، وبعد أن استقر رأى الصحابة مع أميرهم عمرو على بناء عاصمة الديار المصرية، وبعد أن أشار الخليفة عمر عليهم بمواصفات موقع العاصمة، وبعد أن فطن عمرو إلى أن العاصمة لابد أن تكون فى موضع يشرف على مصر كلها السفلى؛ منها والعليا - شرع هو ومن معه فى بناء أول عاصمة إسلامية فى إفريقية (الفسطاط).

كانت مساحتها عند بناء المنازل وتحديد الخطط حوالى خمسين ألف متر، وحدودها من الجنوب دير الطين أو دير ماريوحنا أو دار السلام حالياً، ومن الشمال أحد جبال المقطم المسمى بجبل يشكر الذى بنى عليه ابن طولون جامعه فيما بعد - وحتى قنطرة السد، وبصورة أدق من قناطر السباع (السيدة زينب الآن) إلى قلعة الجبل.

وقد وصف المقريزى عام ٨٢٠ للهجرة (الموافق عام ١٤١٧ للميلاد) الحد الشرقى، قال: من قلعة الجبل وأنت آخذ إلى باب القرافة، فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر إلى كوم الجارح حتى تنتهى إلى بركة الحبش تحت الرصد.

وبركة الحبش هى بالتحديد عين الصيرة.

أما حدود الفسطاط الغربية فهى نهر النيل، وبتتابع السنين كان هذا الحد يتغير بتحرك جسر النهر نحو الغرب.

كان بناء المدينة بعد بناء الجامع، اقتداء برسول الله ﷺ عندما بنى مسجده فى المدينة المنورة، ثم بنى الدور بعد ذلك، وتنافس الفاتحون على المواضع وعلى أقربها إلى الجامع، ومنعاً للخلاف اختار عمرو بن العاص أربعة من الرجال الموثوق بهم وأمرهم بتحديد الخطط[1] والأحياء والمواضع لإسكان المسلمين،

---

(١) قال المقريزى: المقصود بالخطط الحارات، وهى الآن بمعنى الأحياء.

وهؤلاء الأربعة هم: معاوية بن خديج التجيبى، وشريك بن سمى العطيفى، وعمرو ابن مخزوم الخولانى، وحيويل بن ناشرة المغفارى[1]، وقام هؤلاء الأربعة برسم الخطط وتحديدها ورسم الشوارع وإعطاء كل رجل نصيبه ليبنى داره ومسكنه، ولم ينسوا أن يتركوا فراغاً ومساحات بينهم وبين النيل من جهة، وبينهم وبين حصن بابليون من جهة أخرى، وكانت هذه المساحات للدواب ولتدريبات العسكر.

يقول السيوطى: فلم يزل الأمر كذلك حتى ولى معاوية بن أبى سفيان فأقطع فى الفضاء، وبنيت به الدور.[2]

وبعد البناء جعل عمرو لكل قبيلة مشرفاً وحارساً، وحدد له مكان الحراسة.

قال د. العدوى: كان لكل جماعة عريف مسئول عما يتعلق بشأن من شئون جماعته، ويساعده (المحرس) وهم رجال يتولون حراسة الخطة، وهم أشبه بالخفراء اليوم، ولكل قبيلة مسجد خاص.[3]

وكان عدد خطط الفسطاط أربعاً وعشرين خطة.

وكانت الدور التى بناها المسلمون بسيطة ذات طابق واحد، بنيت بالطوب النىء والطين، فلم يكن فيها إسراف ولا تبذير فهم ملزمون بالاقتصاد، وخاصة أنهم خرجوا من بلادهم للجهاد والفتح وليس للتفاخر والزينة، فعندما فكر أحد الصحابة وهو خارجة بن حذافة فى بناء غرفة فوق داره - أى دور ثان - وبلغ ذلك أمير المؤمنين فى المدينة - أسرع بالكتابة للأمير عمرو، قائلاً: أما بعد فإنه بلغنى أن خارجة بنى غرفة، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه.

قال ابن دقماق: ثم أمره أن أن يدخلها وبنصب فيها سريراً، ويقيم عليه رجلاً ليس بالطويل وليس بالقصير، فإن اطلع من كواها هدمها، ففعل عمرو، ولم يبلغ الكوى، فأقرها، وهى أول غرفة بنيت فى الفسطاط.[4]

---

(١) ربما كان (جبريل).
(٢) حسن المحاضرة ٤٥.
(٣) نهر التاريخ الإسلامى ١٩٥.
(٤) عمرو بن العاص بين يدى التاريخ ٢٣٢. ويقصد بالغرفة: الدور العلوى.

وأطلقت أسماء على الخطط الخاصة بكل قبيلة أو جماعة دنت دورها وتقاربت مساكنها، ومن تلك الخطط: خطة أهل الراية، وهم الجماعة من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وعبس وجرش من بنى كنانة وليث بن بكر، وكانت خطتهم محيطة بالجامع.

وخطة تجيب وهم من كندة، وهم بجوار خطة مهرة من قضاعة وخطتهم على سفح جبل يشكر.

وخطة لخم وخطة غافق وخطة حضر موت، وهكذا.

وقد فصل المؤرخ ابن عبد الحكم، ومن بعده المقريزى فى خططه أسماء القبائل ومكان كل قبيلة، مع أسماء البيوت التى احتوتها الخطط، ثم ما آل إليه كل بيت وكل مكان حتى زمانهما.

أما المسلمون الفاتحون من أصل فارسى أو رومى فقد فرق بينهم عمرو عند التخطيط.

يقول ابن زولاق:.. وجعلهم فى طرفى البلد، فأسكن الروم الحمراوات، وأسكن الفرس بنى وائل وراشدة.

والحمراوات أو الحمراء هى قناطر السباع أو السيدة زينب الآن، وجزء من زين العابدين (أو زينهم) وهؤلاء الروم جاءوا مع عمرو من مسلمى قيسارية، وفى هذا المكان بنى العباسيون العسكر فيما بعد عام ١٣٢ للهجرة.

أما الفرس فهم من صنعاء أصلاً، وقد أسكنهم عمرو جنوب شرق مدينة الفسطاط.

قالت د. سعاد ماهر: هم بقايا جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام، وأسلموا ورغبوا فى الجهاد، فنفروا مع عمرو بن العاص إلى مصر واختلطوا بها.. ولهم إلى اليوم مسجد يعرف بمسجد الفارسيين أو مسجد سيدى العجمى بدير الطين.(١)

---

(١) أهم مساجد مصر ٢ / ١٩٦.

أما دار الأمير فقد بنيت شرقى المسجد الجامع، وجعل أمامها أرض فضاء لموقف دواب الجند، وجعل الباب فى زقاق أطلق عليه زقاق القناديل.

يقول الكندى: قيل له زقاق القناديل لأنه كان برسمه قنديل يوقد على باب عمرو.[١]

وكانت هذه الدار لسكن الأمير عمرو لإدارة الولاية، وبقيت الحال كذلك، ينزل كل أمير فى داره يصرف منها شئون الدولة حتى استتب الأمر لمعاوية، فبنيت دار خاصة لأعمال الأمير سميت (دار الإمارة).

وذكر بعض المؤرخين أن عمراً ابتنى داراً خصصها للإمارة، وسماها دار الرمل، وربما كانت هذه الدار ملحقة بداره.

أما الزبير بن العوام[٢]، فقد اتخذ داراً إلى غربى دار عمرو ووضع فيها السلم الذى صعد عليه عند اقتحام حصن بابليون.

واتخذ الصحابى عبد الله بن عمرو داراً ملاصقة لدار أبيه من جهة الشمال، قيل إنه دفن[٣] فيها لتعذر دفنه إبان ثورة المصريين أول عهد مروان بن الحكم، وضمت الدار إلى المسجد فى التوسعات المختلفة – عبر السنين – التى أشرنا إليها من قبل، ومازال هناك فى الركن الشمالى الشرقى بالمسجد مقام يقال: إنه قبر الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو، والله أعلم.[٤]

وقد أورد القلقشندى أسماء دور الصحابة التى تكونت منها خطة أهل الراية، منهم: دار عمرو بن العاص، ودار الزبير بن العوام، ودار قيس بن سعد بن عبادة: ودار مسلمة بن مخلد، ودار عبد الرحمن بن عديس البلوى، ودار وهب بن عمير

(١) فضائل مصر من كتاب عمرو بن العاص ٤٢٩.
(٢) قتل عام ٣٦ للهجرة، ودفن قرب البصرة.
(٣) توفى عام ٦٥ للهجرة.
(٤) ربما كان هذا موقع القبر فعلاً، ولكن حدث عندما وقع أحد السيول أن حاول العمال نزح المياه من المكان، واستتبع هذا حفر المكان، فلم يصل الحفر إلى شىء يدل على وجود قبر رغم عمقه، ولعل الأرض أكلت الجسد، ولم تبق منه على أثر.

الجمحى، ودار نافع بن عبد القيس الفهرى، ودار سعد بن أبى وقاص، ودار عقبة ابن عامر الجهنى، ودار القاسم وعمرو ابنى قيس بن عمرو، ودار عبد الله بن أبى السرح، وغيرهم.(١)

وأثناء تخطيط مدينة الفسطاط أمر عمرو بن العاص ببناء دار للخليفة عمر، وبعث له قائلاً: إنّا قد اختططنا لك داراً عند المسجد وسميناها دار أمير المؤمنين.

فكتب إليه عمر بن الخطاب: بلغنى أنك ابتنيت لى داراً، وإنى لرجل من الحجاز أفيكون لى دار بمصر ؟ فعزمت عليك بالله إلا جعلتها سوقاً للمسلمين.

وامتثل عمرو وجعلها سوقاً لبيع الدقيق، وسميت: دار البركة، وقد اقتطع عبد الله بن عمر منها جزءاً، كان ينزل فيه عندما يجئ إلى مصر.

وقال د. حسن حسنى: هى دار البِرْكة، فجعلها سوقاً كان يباع فيه الرقيق، ولذلك كانت تعرف ببِرْكة الحبش أى: الرقيق.(٢)

وقد اهتم عمرو بن العاص بتوفير الخدمات اللازمة لاستمرار حياة الجنود وأسرهم فى هذا المجتمع الناشئ، وهى الخدمات التى تفرضها مسئولية الحاكم عن صيانة أحوال الرعية، وذلك كبناء الحمامات العامة وتنظيم الأسواق، والإشراف على رعاية أربطة الخيل وتدبير مخازن المؤن، وتحديد ساحات التدريب المستمر للكبار والصغار ليكونوا على استعداد لأية مفاجأة.

---

(١) صبح الأعشى ٢ / ٣٣٠.
(٢) ورقات من الحضارة العربية ١ / ٥٩.

منازل المسلمين بالجيزة

كان على عمرو بعد أن انتهى من معركة الإسكندرية، وعاد إلى الفسطاط أن يرتب وجود المسلمين فى المنطقة بحيث يضمن لقواته سرعة الحركة، وفى نفس الوقت يحميها من المباغتة، ونظر إلى غربى موقعه حيث يمتد النيل تحت قدميه، فبعد أن استقر الأمر فى الفسطاط بعث إلى الجند من القبائل ليلحقوا ببقية المسلمين، ويختطوا لهم خططاً بجوارهم، ولكنهم أبوا، وقالوا له: مقدم قدمناه فى سبيل الله وأقمنا به، وما كنا لنرغب عن مكان نحن فيه من أشهر.

فكتب عمرو إلى الخليفة يستشيره فى هؤلاء، وقال: إن همدان ويافعاً و.... ومن كان معهم أحبوا المقام فى الجيزة، فكتب إليه عمر: كيف رضيت أن تفرق عنك أصحابك ؟ وتجعل بينك وبينهم بحراً ؟ لا تدرى ما يفاجئهم، فلعلك لا تقدر على غياثهم، فاجمعهم إليك ولا تفرقهم، فإن أبوا وأعجبهم مكانهم بالجيزة، فابن عليهم من فىء المسلمين حصناً.

وجمع عمرو كبراءهم، وقرأ عليهم الكتاب، فأبوا ترك الجيزة، فأمر عمرو ببناء الحصن عليهم، وكان اختيار المكان المخصص أرض يافع بن زيد، وقد بدئ فى بنائه عام ٢١ للهجرة، وانتهى عام ٢٢ للهجرة، وعندما أحس المسلمون أنهم سيعيشون داخل الحصن رفضوا وقالوا لعمرو: لا حصن لنا إلا سيوفنا.

ومع حرص الخليفة والأمير على سلامتهم ببناء الحصن، إلا أنهم كانوا - فى واقع الأمر - يشعرون بالأمان مادامت سيوفهم موصولة بأيديهم، ولعلهم أحسوا ثقل الحياة داخل أسوار الحصن، فآثروا أن يعيشوا متحررين من هذا القيد الذى يشبه الحصار.

وفى الأرض الفضاء غربى النيل، بدأ الفاتحون يرسمون خططهم، ويبنون منازلهم كما فعل إخوانهم شرقى النيل فى الفسطاط، وبمرور الوقت وزيادة عدد العرب المقيمين فى الجيزة بلغت بناياتهم وخططهم قريباً من أرض الحرث والزرع الخاصة بالقبط.

يقول السيوطى: وكان بين القبائل فضاء من القبيل إلى القبيل.. وكثر النـاس، ووسع كل قوم لبنى أبيهم، حتى كثر البنيان والتأم خطط الجيزة.(١)

على أن الجيزة لم تنفصل عن الفسطاط، إنما هى امتداد لها.

يقول د. جمال حمدان واصفاً الجيزة وعلاقتها بالعاصمة (الفسطاط): وبدأت الجيزة تلعب دور رأس الجسر أمام الفسطاط.. أى همزة الوصل بين العاصمة والصعيد.. وكانت جزيرة الروضة أشبه بنصف جسر طبيعى بين الجيزة والفسطاط يكمله عادة نصف آخر معلق من السفن الثابتة.(٢)

وقد سكن المسلمون الفاتحون ما بين الفسطاط والجيزة، عدا أفراد متناثرين فى القرى المختلفة المفتوحة، وفى الإسكندرية، ولكنهم كانوا على شكل رباط، أى: يتغيرون كل مدة معينة.

وبعد الفتح وفد عرب من الجزيرة على مصر، فانتشروا فى ربوعها وقد تزايد عددهم حتى زاد عن الأربعين ألفاً فى عهد معاوية بن أبى سفيان.

وقد حدد المقريزى فى خططه أسماء هؤلاء الوافدين وأسماء قبائلهم، وأسماء البلاد التى استوطنوها من شمال مصر حتى جنوبها. وكان لذلك أثره فى انتشار اللغة العربية على ما سيأتى إن شاء الله.

---

(١) حسن المحاضرة ٦٥.

(٢) القاهرة ١١.

قبور المسلمين

كانت طبيعة الأرض أن النيل يسير بمحاذاة جبل المقطم الذى يشرف على مساكن المسلمين من الناحية الشرقية، وهو جبل يمتد من بلاد الحبشة وأسوان جنوباً على شاطئ النيل، حتى ينقطع عند الفسطاط، وقد سمى كل موضع منه باسم كما قال ياقوت.

وهو جبل لا ماء فيه ولا مرعى، ومن ذلك اشتقوا اسمه (المقطم)، أى: من القطم أو القطع؛ لانقطاع الشجر فيه.

ويتراوح ارتفاعه ما بين ٢٤٠ متراً إلى ٣٧٥ متراً، كما أن به أودية كثيرة، ذكرت د. سعاد ماهر بعضاً منها، قالت: وإلى الجنوب من مدينة القاهرة يوجد كثير من الوديان بجبل المقطم أهمها وادى التيه، ووادى دجلة بالقرب من المعادى، ووادى أبو سالى، ووادى رشيد، ووادى حوف بمنطقة حلوان.[(١)]

سار عمرو بن العاص مع المقوقس يوماً بجوار المقطم، وسأله: مالجبلكم أقرع، وليس به نبات ولا شجر كجبال الشام ؟

قال المقوقس: ما أدرى، ولكن الله تعالى أغنى أهل مصر[(٢)] بهذا النيل يزرعون عليه، ولكنا نرى فى كتبنا ما هو خير من ذلك. قال عمرو: ما هو؟

قال المقوقس: ليدفن تحته قوم يبعثهم الله تعالى يوم القيامة لا حساب عليهم. فقال عمرو: اللهم اجعلنى منهم.

وقال ابن عبد الحكم: عن الليث بن سعد: سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار، فعجب عمرو من ذلك، وقال: أكتب فى ذلك إلى أمير المؤمنين، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: سله لم أعطاك به ما أعطاك وهى لا زرع ولا يستنبط بها ماء ولا ينتفع بها ؟ فسأله فقال: إنا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: إن

(١) أهم مساجد مصر ١ / ٤٨.
(٢) يقصد أنهم غير محتاجين لزراعة الجبل.

لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين، فاقبر بها من مات من المسلمين قبلك، ولا تبعه بشيء.[1]

وكان أول من قبر فى سفحه رجل من المعافر يقال له عامر.

وتحول سفح جبل المقطم تجاه الفسطاط مقبرة للمسلمين، دفن فيها عدة من الصحابة منهم عمرو بن العاص وعبد الله بن الحارث الزبيدى وعبد الله بن حذافة وعقبة بن عامر الجهنى وأبو بصرة الغفارى ومسلمة بن مخلد وغيرهم.

وصار هذا المكان بعد ذلك مستراداً للصالحين ضم أجداث كثير منهم، وبمرور الوقت أصبح غربى المقطم مدافن المسلمين حتى يومنا هذا.

ولم يخذل عمرو بن العاص المقوقس إنما أعطاه جزءاً من الأرض ليدفن فيه من مات من قبط مصر النصارى.

تقول د. سعاد ماهر نقلاً عن الكندى: لما أخبر عمرو بن العاص المقوقس برد الخليفة عمر بن الخطاب بالاحتفاظ بجبل المقطم وعدم بيعه، قال له المقوقس: ما على هذا صالحتنى. فقطع له عمرو قطيعاً نحو بركة الحبش، يدفن فيها النصارى.[2]

وبركة الحبش هى ما يعرف بعين الصيرة أو هى منطقة البساتين الآن.



(١) معجم البلدان ٥ / ١٧٦.
(٢) أهم مساجد مصر ١ / ٥٠.

خليج أمير المؤمنين

واسمه خليج مصر، وخليج اللؤلؤة، وخليج القاهرة، وقصة حفره أنه بينما المسلمون يبنون الفسطاط أصابت الحجاز ضائقة[1] وجهد شديدان، بعد أن عز المطر وجفت الأرض، فكتب عمر بن الخطاب لواليه عمرو بن العاص، قائلاً: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاص بن العاص، سلام أما بعد، فلعمرى يا عمرو ما تبالى إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى، فياغوثاه ثم يا غوثاه.[2]

فكتب إليه عمرو بن العاص: لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، أما بعد، فيالبيك ثم يا لبيك، قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى، والسلام عليك ورحمة الله.[3]

ووصلت قوافل الخير المدينة، وفكر عمر فى طريقة يختصر بها سير العير والقوافل من مصر إلى الحجاز، وسأل نفسه: لماذا لا يكون هناك طريق مائى بدلاً من الطريق البرى الطويل الذى تسير فيه الجمال عبر سيناء، وأسرع فى استدعاء عمرو ومعه جماعة من أهل مصر، ولما قدموا، قال لعمرو: يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر، وهى كثيرة الخير والطعام، وقد ألقى فى روعى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر، وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين - أن أحفر خليجاً فى نيلها حتى يسيل فى البحر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإن حمله على الظهر يبعد، ولا نبلغ منه ما نريد، فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل رأيكم.

هذا قول، وهناك قول آخر يرى أن صاحب فكرة حفر خليج موصل للبحر هو عمرو نفسه.

---

(١) قالت بعض المصادر إنها ضائقة عام الرمادة، وهذا خطأ، لأن عام الرمادة كان فى عام ١٨ للهجرة أى قبل فتح مصر.

(٢) فتوح مصر ١٠٣.

(٣) فتوح مصر ١٠٤.

قال ابن عبد الحكم: قال عمر بن الخطاب لعمرو حين لقيه فى المدينة: يا عمرو إن العرب قد تشاءمت بى، وكادت أن تهلك على رجلى، وقد عرفت الذى أصابها، وليس جند من الأجناد أرجى عندى أن يغيث الله بهم أهل الحجاز من جندك، فإن استطعت أن تحتال لهم الحيلة يغيثهم الله.(١)

وفكر عمرو بن العاص فى طريقة تيسر الطريق على القوافل إلى الحجاز، وقال للخليفة: ما شئت يا أمير المؤمنين قد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الإسلام، فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج، واندّ، وتركته التجار، فإن شئت أن نحفره، فننشئ فيه سفناً يحمل فيه الطعام إلى الحجاز فعلته. فقال له عمر: نعم وأعزم عليك إلا حفرته، وهكذا أمره بعمل هذا الخليج.

وتقول بعض الروايات إن عمراً تباطأ فى الحفر بناء على مشورة بعض أصحابه المصريين، وأرسل إلى الخليفة يتعلل بصعوبة هذا العمل، وأنه عسر لا يلتئم، فبعث إليه عمر كتاباً عنيفاً، قال فيه: إلى العاص بن العاص، فقد بلغنى كتابك تعتل فى الذى كتبت إلىّ به من أمر البحر، وأيم الله لتفعلنّ أو لأقلعنّك بأذنك أو لأبعثن من يفعل ذلك. ثم حدد له وقتاً للحفر، وقال: لا يأت عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله.

ثم عاجله بكتاب آخر فيه: لا تدع بمصر شيئاً من طعامها وكسوتها وبصلها وعدسها وخلها إلا بعثت إلينا منه.(٢)

وقد أكدت كل المصادر التاريخية أن الخليج حفر فى عام واحد، وإن كان بعض المؤرخين يذهب إلى أنه انتهى منه فى ستة أشهر فقط، المهم أن الخليج حفر فى حياة عمر بن الخطاب حتى إنه قيل إن عمر رأى مكان رسو السفن الآتية من مصر على الميناء القريب من المدينة (الجار)(٣)، وهو فى طريقه إلى الحج، والغالب أنه قد انتهى منه عام ٢٢ للهجرة (الموافق ٦٤٢ للميلاد).

---

(١) فتوح مصر ١٠٤.
(٢) فتوح مصر ١٠٤.
(٣) مدينة على البحر الأحمر – القلزم– بينها وبين المدينة يوم وليلة، ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين والهند. (معجم البلدان).

وكان مسار الخليج شمال حصن بابليون فعين شمس وينحرف شرقاً حتى القلزم عند السويس.

وقبل أن ندقق فى مساره لابد أن نرجع إلى قصة حفره من أيام الفراعنة، فالتفكير فى وصل البحر الأحمر (القلزم) بالنيل قديم من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، حيث حفره سنوسرت الثالث (سيزوستريس)[1] فى الأسرة الثانية عشرة، وتولى حكم مصر (من عام ١٨٧٨: إلى عام ١٨٤٩ قبل الميلاد)، وسمى ما حفره قناة سيزوستريس.

وبعد أكثر من ١٢ قرناً، حاول فرعون مصر نيخاو الثانى من الأسرة السادسة والعشرين إتمام الحفر ووصل النيل بالبحر، وكان ذلك ما بين (عام ٦١٠: إلى عام ٥٩٥ قبل الميلاد)، ولكن نيخاو لم يتمه.

ومر قرن من الزمان، وجاء دارا الفارسى (من عام ٥٢٢: إلى عام ٤٨٦ قبل الميلاد) وأتم حفر الخليج.

قال هيرودوت[2]: إنه رأى هذا الخليج ووصفه بأنه كان من السعة بحيث يتسع لمرور سفينتين.

وبمرور الوقت لم يهتم الحكام بالخليج، حتى ردمته الرمال، ودخل الإسكندر المقدونى مصر.

وفى عهد بطليموس الثانى (من عام ٢٨٤: إلى عام ٢٤٦ قبل الميلاد) أعاد فتح هذا الخليج مرة أخرى، وسارت فيه السفن، ولكنه غيَّر قليلاً من مساره، فبدلاً من خروج القناة من النيل عند الزقازيق الحالية، جعلها تنفصل من عند فاقوس الحالية.

ومازال الخليج مستعملاً حتى كان عهد آخر ملكات البطالمة كليوباترا السابعة تولت حكم مصر (من عام ٥٠: إلى عام ٣١ قبل الميلاد) وتصارعت مع الرومان، ولكنها فشلت، فحاولت الهروب عن طريق الخليج ناحية الشرق.

---

(١) اسم أطلقه عليه اليونانيون.

(٢) زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد.

يقول المؤرخ بلوتارك فى قصة محاولتها الهرب هذه: بعد معركة أكتيوم حاولت كليوباترا أن تنقذ البقية الباقية من أسطولها، فأمرت بمرور سفنه فى القناة إلى البحر الأحمر، ولكن انخفاض النيل أعاقها عن إتمام ذلك.(١)

ودخلت مصر تحت الحكم الرومانى بعد هزيمة كليوباترا، وأهمل الخليج مرة أخرى، حتى عهد الإمبراطور البيزنطى (ترّاجان) (من عام :٩٨ إلى عام ١١٥ للميلاد)، فأعاد حفره، وكان الخليج لا يستعمل إلا فى وقت الفيضان، ثم ترك حتى جاءه عمرو بن العاص، وحفره بناء على رغبة أمير المؤمنين فى فتح طريق مائى بين مصر والحجاز.

قال ياقوت :

"ولم يزل تحمل فيه الولاة المؤن والبضائع، إلى أن حمل فيه عمر بن عبدالعزيز، ثم أضاعته الولاة بعد ذلك إهمالا، وسفت عليه الرمال، فانقطع وصار منتهاه إلى ذنب التسماح (بحيرة التمساح) من ناحية بحر القلزم، وأمر أبوجعفر المنصور (عام ١٤٤ هـ) بسد الخليج حين خرج عليه محمد بن عبدالله بن حسن بن على بن أبى طالب بالمدينة ليقطع عنه المسيرة فسد إلى الآن(٢).

وقد تتابعت عوامل الزمن على هذا الخليج، حتى ردم الجزء الواقع منه داخل مدينة القاهرة، وكان مكان شارع الخليج المصرى (شارع بورسعيد حالياً).

قال الأستاذ أحمد حسين: فى أول فبراير عام ١٨٩٧ للميلاد (الموافق عام ١٢١٥ للهجرة)، صدر أمر عال بردم الخليج المصرى، وتحويله إلى طريق عمومى مراعاة للصحة العامة من ناحية، وتيسيراً للمواصلات فى القاهرة من ناحية ثانية، إذ تعهدت شركة الترام أن تقوم بنفقات ردمه، ومد خطوط الترام فيه.(٣)

(١) عمرو بن العاص ٢٤٠.
(٢) معجم البلدان ٣٨٦/٢.
(٣) موسوعة تاريخ مصر ٣ / ١١٨٣.

وهناك وصف محدد لطريق الخليج الذى احتفره عمرو أورده صاحب كتاب (عمرو بن العاص) عن عالم الآثار محمد رمزى، قال: إن فم الخليج وقت فتح العرب لمصر كان واقعاً بشارع الخليج المصرى فى حذاء مدخل شارع بنى الأزرق بأرض جنينة لاظ، الواقعة فى الجهة الغربية من جامع السيدة زينب، لأن النيل فى ذلك الوقت كان يجرى فى المكان الذى فيه اليوم شارع بنى الأزرق، وما فى امتداده شمالاً إلى قرية أم دنين[1]، ثم يسير الخليج قليلاً إلى الشرق ثم ينعطف إلى الشمال حتى نهاية المدينة، ثم يمر فى الأراضى الزراعية إلى أن يلتقى بالترعة الإسماعيلية عند العباسة بمحافظة الشرقية، ثم يسير الخليج شرقاً ثم إلى مدينة الإسماعيلية، ومنها إلى السويس حيث البحر الأحمر.[2]

وقال المؤرخون: كان طول الخليج من فم الخليج حتى البحر الأحمر تسعون ميلاً أى حوالى ١٤٠ كيلومتراً.

والوصف الذى ذكره عالم الأثار يبين لنا أن البحيرات المرة كانت على اتصال بالبحر الأحمر زمن الفتح، أى: إن هذه الوصلة كانت ضمن الحفر.

ونذكر هنا قناة السويس التى حفرت فى القرن التاسع عشر الميلادى (الثالث عشر الهجرى) وتربط بين البحرين الأبيض والأحمر، هذه القناة فكر فى حفرها عمرو بن العاص فى القرن الأول الهجرى، وذلك بأن يصل بحيرة التمساح والبحيرات المرة بالبحر الأبيض، وعرض ذلك على أمير المؤمنين، ولكن الخليفة رفض وأنكر، وقال: إنه يمكن الروم من السير إلى البحر الأحمر، وقطع السبيل على من أراد الحج.

كذلك فكر فى هذا الوصل الخليفة هارون الرشيد، لكن وزيره يحيى البرمكى قال: إذا يخطف الروم الناس من المسجد الحرام والطواف... فامتنع عن ذلك.

قال جورجى زيدان: وربما فكر فيه غيره من ملوك المسلمين، ولم يخرجوه إلى حيز الفعل.[3]

---

(١) اسمها المقس، وهى مكان الأزبكية وباب الحديد حالياً.

(٢) عمرو بن العاص ٢٤٥.

(٣) تاريخ مصر الحديث ٢ / ٢١٠.

والذى خاف منه خلفاء المسلمين هو ما حدث تقريباً بعد ثلاثة عشر قرناً، وبعد حفر قناة السويس، فقد دخل الإنجليز لاحتلال مصر عن طريق القناة، بعد أن طلب أحمد عرابى من ديليسبس ردمها، ولكن المهندس الفرنسى طمأنه ووعده بعدم دخول أى جندى القناة من ناحية بورسعيد، ولكن الخطة الاستعمارية رأت ضرورة تسرب الجيوش الإنجليزية عن طريق القنال ووصولها إلى التل الكبير حيث يعسكر الجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى، وكانت بداية الاستعمار عام ١٨٨٢ للميلاد.

لله درك يا عمر فكأنك كنت تستشف الغيب من مئات السنين، أكثر من ثلاثة عشر قرناً، وكذلك وزير الرشيد يحيى البرمكى.

إن ذلك يدل على عمق الرؤية الاستراتيجية لدى هؤلاء القادة، الذين لم يدرسوا فى كليات أركان الحرب، ولا تخصصوا فى دراسة معارك التاريخ. لقد أدركوا ذلك بثاقب نظرهم، وصادق حدسهم، فوقوا الأمة كثيرا من الأخطار التى وقع فيها من بعدهم، حين لم يتعلموا دروس التاريخ وعبره.



الفصل العاشر

نظام الحكم الإسلامى فى مصر



الجزية والخراج

بعد أن استقر الأمر للمسلمين فى مصر، وبعد أن خطط عمرو بن العاص مدينتى الفسطاط والجيزة بدأ فى إدارة هذه الدولة الجديدة التى دخلت حوزة الإسلام، وكان نظام الخلافة أو الحكومة المركزية هو النظام العام، أما النظام المتبع فى كل قطر على حدة فقد كان على نظم الدول المغلوبة من ناحية الإدارة والولايات، كما قال صاحب كتاب الحضارة الإسلامية.(١)

ودرس عمرو بن العاص نظام الرومان فى إدارتهم لمصر، ووجد أنهم قسموا مصر إقليمين: مصر العليا وهى الصعيد جنوباً حتى النوبة والسودان، ومصر السفلى وهى الدلتا حتى ساحل البحر الأبيض، ثم قسمت بعد ذلك إلى أجزاء أصغر.

يقول د. العدوى: فقسم عمرو – مصر تقسيماً إدارياً إلى أقسام تسهل للأهالى عملهم، وهى الأقسام التى أطلق عليها الكور بدلاً من الكلمة البيزنطية (باجارشى)... فكانت هذه الكور أشبه بالمحافظات فى الوقت الحاضر، وكان لكل إقليم حاكم حمل لقب (صاحب الكورة) ومهمته تنظيم العلاقات بين الأهالى والإدارة المركزية.(٢)

أما د. حسين مؤنس فقد وضح بالتفصيل النظام الإسلامى المحلى الجديد، وما طرأ عليه من تغيير بالنسبة إلى الحكومات السابقة، يقول: لما استولى العرب على مصر أطلقوا (أسفل الأرض) على الوجه البحرى، واسم (الصعيد) على الوجه القبلى، ثم أبدلوا اسم (أوجستامنك)(٣) إلى اسم الحوف، وأطلقوا على إقليم مصر(٤) اسم الريف، وجعلوا الحوف ١٤ كورة، بدلاً من ١٣ قسماً كانت فى عهد الرومان، كما جعلوا الريف ٣١ كورة، بدلاً من العشرين قسماً، فكان المجموع ٤٥ كورة فى

---

(١) صفحة ٤١٧.

(٢) نهر التاريخ ١٧١.

(٣) أوجستامنيك: قسم إدارى يشمل ما يلى: فرع دمياط شرقاً، وفرع رشيد غرباً، وهو أحد قسمى الوجه البحرى.

(٤) بقية الدلتا، وهو القسم الثانى للوجه البحرى.

الوجه البحرى، أما الصعيد فجعلوه ٣٠ كورة، أى: مجموع الكور فى الوجهين كان ٧٥ كورة، وكانت هذه الكور مكونة من عدد كبير من القرى، كما يقول الدكتور حسين مؤنس.(١)

ولكن الشيخ عبد الله الشرقاوى يقول: كان فى مصر زمن عمرو بن العاص أربعون كورة، وعدد قراها ألفان وثلاثمائة وخمس وسبعون قرية.(٢)

وبناء على هذا النظام كان عمرو بن العاص فى الفسطاط ومعه عبد الله بن أبى سرح مشرفاً على مصر العليا، وكان يدير البلاد إدارة دقيقة، وقد عمل على تنظيم مصر بحكمة ودراية مع مشورة أمير المؤمنين من حين لآخر، وعامل الفلاحين القبط معاملة لم يعرفوها من قبل، فالعدل والإنصاف واحترام نظمهم وعاداتهم ومعتقداتهم هو الأساس الأول فى المعاملة، ثم ترك حرية العبادة لهم واختيار البطاركة والقساوسة والشمامسة.

يقول حنا النقيوسى - الذى كان بعد الفتح بخمسين سنة: قد تشدد عمرو فى جباية الضرائب التى وقع الاتفاق عليها، ولكنه لم يضع يده على شىء من ملك الكنائس، ولم يرتكب شيئاً من النهب أو الغصب، بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة حياته.(٣)

وقال جورجى زيدان: قسم عمرو مصر إلى كور أو أعمال يرأس كلا منها حاكم قبطى تأتيه القضايا، فينظر فيها، ويصدر أحكامه إلى من هم تحت حكمه رأساً، فحصل الأهلون على راحة لم يكونوا رأوها منذ أزمان، وساد الأمن فى بلادهم.(٤)

وسمح عمرو كذلك ببناء الكنائس والأديرة، حتى إننا وجدنا تاريخ بناء كنائس كثيرة كان فى القرن السابع الميلادى، ولم يتدخل عمرو فى شئون الكنيسة بطائفتيها من يعاقبة وملكانية، بل ترك كل فرد يعبد الله على هواه : (لكم دينكم ولى دين).

---

(١) أطلس الإسلام ٣٢٢.
(٢) تحفة الناظرين ٦٩.
(٣) فتح مصر ٣٨٧.
(٤) تاريخ مصر الحديث ١ / ١٩١.

ووجد القبط أخيراً جواً من الحرية، وتنفسوا الصعداء، فلا خوف من مذهب الرومان، ولا تعسف بطارقتهم، وزاد على ذلك أنه لم يقف فى طريق بنائهم لكنائس جديدة فى المدن الجديدة.

يقول جستاف لوبون: وسار عمرو بن العاص فى مصر على غرار ما فعل عمر بن الخطاب فى القدس، فشمل الديانة النصرانية بحمايته، وسمح للأقباط بأن يستمروا على اختيار بطريق لهم كما كان فى الماضى، ومن تسامحه أنه أذن للنصارى فى إنشاء الكنائس فى المدينة الإسلامية التى أسسها.(١)

وفى هذا الجو الجديد أمر عمرو بن العاص بإعادة البطريق بنيامين الذى فر من ظلم المقوقس، ودعاه إلى مزاولة عمله فى كنيسة الإسكندرية بعد أن اختفى طريداً يضرب فى أنحاء الصعيد، ويهيم على وجهه، لا يعرف له مكان، مدة ثلاثة عشر عاماً، وكتب عمرو من أجله كتاب الأمان الذى ذكره بتلر، ونصه: أينما كان بطريق القبط بنيامين، نعده بالحماية والأمان وعهد الله، فليأت الشيخ البطريق آمناً على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر، والذين فى سواها، لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة، فليأت ليلى أمر ديانته، ويرعى آل ملته.(٢)

ولم يلبث عهد الأمان أن وصل بنيامين، فعاد من مخبئه ودخل الإسكندرية، وتقول المصادر: إنه قابل عمراً ولقيه الأخير بكل ترحاب وتكريم، وجعل له ولاية أمر النصرانية فى مصر.

يقول د. إدوار نقلا عن (كتاب السينكسار) وهو الكتاب الذى يسجل يوميات القديسين، ويقرأ أثناء الصلوات بالكنيسة.

جاء به أنه فى اليوم التاسع من شهر طوبة (١٧ يناير) تحتفل الكنيسة بذكرى البابا بنيامين، ويروى (السنكسار) أن العرب جاءوا إلى مصر، وفتحوها بقيادة عمرو بن العاص، ثم يقول: وقرب عمرو رؤساء القبط منه وأحسن معاملتهم.

فاتجه الأقباط إلى إصلاح شئون الكنيسة التى كان قد اختل نظامها، وتفرق شملها، فقدموا إلى ابن العاص، وأعلموه بخبر اختفاء البابا بنيامين، طالبين عودته إلى كرسيه، فاستدعاه ومنحه الحرية الدينية، وأعاد له الكنائس التى كانت قد

---

(١) حضارة العرب ٢١٦.

(٢) فتح العرب ٣٨٢.

اغتصبها البطريق الملكانى (البيزنطى)، وأمر أن يتصرف فى أمورها كما يريد، فاستطابت لذلك قلوب المسيحيين، وشكروا حسن صنيع عمرو إليهم.(١)

وليس معنى إعطاء الحرية الكاملة لليعاقبة القضاء على المذهب الملكانى، وإنما بقى المذهبان متعايشين جنباً إلى جنب فى مصر، ينعم أتباعهما بالحماية والرعاية والطمأنينة فى ظل الإسلام الفاتح.

وعود إلى نظام الإدارة فى مصر، فمن المعلوم أن العرب لم يكن لهم عهد بنظم إدارية، فقد خرجوا من جزيرتهم للفتح ونشر دعوة الإسلام فى أقطار الأرض، راجين ثواب الله، ولذلك لم يتهافتوا على الاشتغال بالزراعة أو الصناعة أو العمالة بوجه عام.

وقابلت عمراً مشكلة خلو الوظائف بخروج أصحابها من الروم، وعودتهم إلى بلادهم بعد رفضهم أن يكونوا رعايا دولة إسلامية، وحاول عمرو رأب هذا الصدع فى الدولة الجديدة، فأسرع فى سد هذا الخلل بعمال من قبط مصر، حتى صار كل جامعى الضرائب ومسجلى الدواوين والحسبة - تقريباً من النصارى، وكلهم تحت نظام مضبوط فى يد القائد العام للدولة المسلمة الجديدة الأمير عمرو.

يقول د. العربى:.. سُنّة الإسلام فى معالجة كل مجال من مجالات الحياة أن يعبئ تعاليمه الخلقية والاقتصادية والحكومية فى جبهة متراصة.(٢)

هذا بالنسبة إلى الإدارة وشئون الحكم والاقتصاد والديوان، أما بالنسبة إلى زراعة الأرض فقد تركت كلية فى أيدى أصحابها من القبط، لأنهم تملكوها فى ظل الإسلام، فقد كان هؤلاء الزراع أجراء فى هذه الأرض إلى عهد قريب تحت الحكم الرومانى، أما الآن فقد أصبحت الأرض فى أيديهم، ما داموا يزرعونها، وما داموا يدفعون الخراج الذى حددت قيمته، ثم أمر عمرو بأن تحدد فى كل قرية وكل كورة قطعة من الأرض يخصص ريعها لإصلاح الأبنية العامة وصيانتها والإنفاق عليها، مثل: المساجد والكنائس والحمامات وأماكن العلاج والخانات وسكن العجزة واليتامى.

---

(١) النموذج المصرى للوحدة الوطنية صفحة ٣٦، عن كتاب الصادق الأمين المستعمل بكنائس الكرازة المرقصية، نشره الايغومانس فيلوثاوس المقارى والقس ميخائيل المقارى ١ / ٢٨١.
(٢) محاضرات فى النظم الإسلامية ١٣٣.

وبدهى أن يستشير عمرو الحاكم الجديد من لهم قدر من الخبرة والدراية، فربما كان لديهم ما يشيرون به لسياسة الدولة الجديدة، ولإصلاح شئونها وتخصيب أرضها وتكثير ثمرها، وقد أوردت المراجع مشورتين كانتا بين عمرو وكل من المقوقس وبنيامين البطريق، وعجيب أن يكونا بهذه المثابة مع الفاتح الذى هزمهما منذ قريب، قال عمرو للمقوقس: يا مقوقس[1] لقد وليت مصر إحدى وثلاثين سنة، فأخبرنى بما يكون فيه عمارة أراضى مصر؟ قال: إنى رأيت الذى يقوم بعمارة أرض مصر: حفر خلجانها، وإصلاح جسورها، وسد ترعها، ولا يؤخذ من خراجها إلا من غلالها، ويُحجّر على عمالها المطل[2]، ويمنعهم من أخذ الرشاء، وترفع عن أهلها المعاون والهدايا ليكون ذلك قوة للمزارعين على وزن الخراج.

وقد طلب الخليفة عمر من الأمير عمرو أن يستشير أيضاً البطرك بنيامين[3] بعد أن عاد إلى منصبه، فسأله عمرو عن خير وسيلة لحكم البلاد وجباية أموالها، فأشار عليه البطريق بأمور قريبة مما ذكره المقوقس، وسنعرض ما ذكره بتلر نقلاً عن ابن عبد الحكم من هذه المشورة قال لعمرو:

١- أن يستخرج خراج مصر فى أوان واحد عند فراغ الناس من زروعهم.

٢- أن يدفع الخراج فى أوان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم - يعنى بعد جنى الثمار.

٣- أن تحفر خلجانها كل عام.

٤- أن تصلح جسورها وتسد ترعها.

٥- ألا يختار عامل ظالم ليلى أمور الناس.[4]

وقد زاد المقريزى فى بنود الاستشارة التى حدد فيها بنيامين شروط الحكومة الناجحة، قال:

١- أن يجبى الخراج من غلة الأرض.

---

(١) تولى حكم مصر من قبل هرقل عام ٦١٠ للميلاد.

(٢) المطل: التأخير في دفع الجزية والخراج.

(٣) بقى بنيامين مختفياً لمدة ١٣ عاماً قبل الفتح الإسلامى، وأمنه عمرو، وأعاده.

(٤) فتح العرب ٣٩٦.

٢- أن يعطى العمال أرزاقهم بغير انقطاع.
٣- ألا يباح مطل أهلها لئلا يرتشوا.

وقد سار عمرو بن العاص فى حكمه لمصر سيرة الحاكم المسلم العادل المقتصد الرءوف بأهل البلاد، الصادق المخلص الحريص على سكان مصر من قبط وغيرهم، وقد سار فى معاملة الفلاحين بما أشار عليه كل من المقوقس عظيم القبط، وبنيامين البطريق، فلم يجمع الخراج إلا من غلة الأرض.

وقبل أن نستطرد لابد أن نفسر الفرق بين الجزية والخراج، وكيف قنن عمرو حسابهما فى أول الفتح ؟

ونشير إلى نقطة مهمة هى أن نظام الخراج والجزية لم يكن موحداً فى جميع البلاد الإسلامية المفتوحة، فكل بلد له وضعه وله نظمه.

يقول صاحب كتاب (الدولة العربية) : فقد أقر عمر بن الخطاب النظم المالية الساسانية فى العراق وفارس، فى حين أقر النظم البيزنطية فى الشام ومصر.(١)

وكان أول نظام متبع فى حكم مصر الاقتصادى فى العهد الإسلامى أن كتب عمرو للمصريين كتاباً - كما قال البلاذرى - وشرط لهم إذا وفوا بذلك ألا تباع نساؤهم وأبناؤهم، ولا يُسبَوْا، وأن تقر أموالهم وكنوزهم فى أيديهم، فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فأجازه، وصارت الأرض أرض خراج.

ولنذكر هنا تعريف كل من الجزية والخراج:

فالجزية: مبلغ يدفعه كل رجل حر عاقل صحيح البدن قادر على الدفع من غير المسلمين من أهل الكتاب، وتسقط عنهم بالدخول فى الإسلام، وتدفع فى وقت معين من السنة.

أما الخراج: فهو أجرة الأرض والإتاوة والغلة والحصة من المال تدفع سنوياً من غلة الأرض، على اعتبار أن الأرض ملكية عامة للأمة الإسلامية، وإذا انتقلت الأرض من أيدى أهل الذمة إلى أيدى المسلمين أو أسلم صاحب الأرض، فيجب عليه - مادامت الأرض فى يده - دفع الخراج لأنه مؤبد مع الأرض، فهو حقها، وقيل : إن كلمة الخراج كلمة يونانية معناها ضريبة.

(١) التاريخ السياسى للدولة العربية ٢/٢٥٥. والساسانية: الفارسية.

وقد ذكر عبد الله بن عمرو ما كان ملزماً به القبط من جزية وخراج، قال: فوضع أبى على كل حالم[1] دينارين جزية، إلا أن يكون فقيراً[2]، وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة وقسطى زيت، وقسطى خل، وقسطى عسل رزقاً للمسلمين تجمع فى دار الرزق، وتقسم فيهم، وأحصى المسلمين فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنساً أو عمامة وسراويل فى كل عام أو عدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً.[3]

وبعد فترة أعيد تقييم الجزية والخراج فى ضوء المتغيرات البيئية، وللتيسير على أصحاب الأراضى الخراجية، ولتغطية نفقات المجاهدين المرابطين على الحدود، والمحافظين على أمن البلاد، فتم الاتفاق على رفع الجزية إلى ما يقارب الضعف.

قال ابن عبد الحكم:.. وجزية أهل مصر أربعون درهماً على أهل الوَرِق[4] منهم، وأربعة دنانير على أهل الذهب، كذلك ترتب الخراج بصورة عملية أكثر فاقتصر على القمح والشعير، واختفت القباطى والبرانس، وما إلى ذلك، قال ابن عبد الحكم: أما الفدان فعليه أردب قمح وويبتان[5] من شعير.[6]

ولا نشك فى أن هذا التغيير كان انعكاساً لنوع من المرونة فى العلاقات بين الجانبين، وتبعاً لحال السوق من ارتفاع الأسعار أو انخفاضها، وهو ما عبر عنه عمرو بن العاص عندما جاءه صاحب إخنا، فقال له: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر لها، فقال له عمرو معبراً عن غموض الموقف، وأنه لا يملك أن يتنبأ بما سيحدث: لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك إنما أنتم خزانة لنا إن كُثِّر علينا كثّرنا عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم.[7]

---

(١) الحالم: من بلغ الحلم، قال عنه عمر: من جرت عليه المواسى.
(٢) إذا كان فقيراً أعانه بيت المال على دفع الجزية.
(٣) فتوح البلدان ٢١٢.
(٤) الوَرِق: الفضة.
(٥) الويبة: ستة عشر قدحاً، والأردب المصرى ست ويبات. (الذخائر والتحف ٢١٠)
(٦) فتوح مصر ١٥٤. وإخنا: كورة قرب رشيد ناحية الإسكندرية.
(٧) فتوح مصر ١٥٤.

ومعنى ذلك أن الأمر متوقف على الظروف التى تفرض أحكامها على الجميع، وبذلك ينتفى عن موقف عمرو إرادة التعسف والإجحاف بحقوق الناس.

وهناك نقطة كانت تتبع الخراج والجزية ويلزم بها القبط، وهى ما ذكره ابن عبد الحكم: ويضيفون من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاث ليال.[1]

وعبارة (يضيفون) هنا إشارة إلى ما أقره الإسلام فى نظم المجتمع العربى من ضرورة أن يتحمل المضيف نفقة الضيافة لمن ينزل به من الضيفان ثلاثة أيام، وهو حق واجب الأداء، وقد كان عمرو يوفر من خلال هذا الشرط مئونة الجنود الفاتحين الذين يجوبون البلاد طولاً وعرضاً لحماية حدودها، والقيام على مسئولية الأمن فى أنحائها.

تقول د. سيدة الكاشف معلقة على هذه الضيافة: يذكر الماوردى واجب ضيافة المسلمين على أهل الذمة باعتبار أن الضيافة نوع من أنواع الجزية، ويشترط فى الضيافة المدة.. قال الماوردى: وإذا صولحوا على ضيافة من مر بهم من المسلمين قدرت عليهم ثلاثة أيام، وأخذوا بها، لا يزدادون عليها كما صالح عمر النصارى فى الشام على ضيافة من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون، ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة، وتبييت دوابهم من غير شعير، وجعل ذلك على أهل السواد دون المدن.[2]

وينبغى ملاحظة أن واجب الضيافة مكفول أساساً فى أخلاق العرب قبل الإسلام، ثم هو صلة من أخلاق البر بابن السبيل والمنقطع، فإذا فرض المسلمون هذا الحق على القبط تجاه من يمر بهم من المدافعين عن القرى والنجوع والحدود فإن ذلك يعنى كفالة تموين هذه الحاميات، إلى جانب نشر هذا الخلق فى المجتمع الجديد.

ومن المؤكد أن سياسة دقيقة وضعت آنذاك لحصر مقدار الأرض التى فى حوزة كل قرية حتى يتسنى للحسبة تحديد الخراج بالدرهم، فقد كان فى كل كور

---

(١) السابق.
(٢) أحكام أهل الذمة ٤٢.

صاحب كورة، ثم يليه أفراد وظيفتهم تحديد كل صغيرة وكبيرة على كل مصرى مسلم أو نصرانى.

يقول د. العدوى: وجاء بعد طبقة أصحاب الكور رؤساء القرى ومشايخها، وقد عرفتهم الإدارة الإسلامية باسم (موازيت)[١].. وجرى تنسيق العمل بين الإدارة الإسلامية، وتلك الإدارات المحلية وفق خطة محكمة وإشراف دقيق.[٢]

وقد لوحظ أن الخراج والجزية كانا يدفعان فى موعد محدد من العام، وكان ما يبعث منه إلى العاصمة (المدينة) محدد الوقت أيضاً، فكل الأمور تسير بدقة متناهية، وتقول الروايات إن الخليفة عمر استبطأ مرة خراج مصر، فبعث الكتاب تلو الكتاب لعمرو بن العاص منبهاً إياه مرة وعاتباً ثانية وموبخاً ثالثةً أخرى، وقد نقلنا بعض هذه الكتب من بتلر الذى نقلها بدوره من ابن عبد الحكم والبلاذرى والمقريزى.

ففى السنة الثالثة لفتح مصر عام ٢٣ للهجرة (الموافق عام ٦٤٤ للميلاد) بعث الخليفة إلى عمرو قائلاً: فإنى فكرت فى أمرك، والذى أنت عليه، فإذا أرضك واسعة عريضة رفيعة، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة فى بر وبحر، وإنها قد عالجها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم، فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب، وقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر، ورجوت أن تفيق فترفع إلىّ ذلك، فإذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسى، لست قابلاً منك دون الذى تؤخذ به من الخراج قبل ذلك، ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقبضك؟

فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة، وإن كنت مضيعاً نطعاً إن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك، وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام[٣] الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك، وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك

(١) المازوت: تعريب كلمة Mazot، وهى تعنى العمدة بلغة البيزنطيين. (نهر التاريخ ١٧١)
(٢) نهر التاريخ الإسلامى ١٧١.
(٣) قال بتلر: ربما كان ذلك الخطاب عام ٦٤٤ للميلاد.

عمال السوء وما توالس[1] عليك وتلفف، اتخذوك كهفاً، وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه، فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج، والسلام.[2]

والكتاب- كما نرى- كله عتاب وتأنيب، وتهديد بإبعاده، وهو لم ينْسُب التقصير لعمرو، وإنما للحاشية المحيطة به، ومع ذلك فقد رد عليه عمرو رداً رقيقاً مذكراً إياه بموقفه[3] من رسول الله ﷺ وصاحبه أبى بكر، قال:... ولقد عملنا لرسول الله ﷺ ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأمانتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا، نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به شينا.. معاذ الله من تلك الطعم، ومن شر الشيم.. فإن الله نزهنى عن تلك الطعم الدنية، والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضاً، ولم تكرم فيه أخا، والله ياابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد غضباً لنفسى، ولها إنزاهاً وإكراماً، وما عملت من عمل أرى على فيه متعلقاً، ولكنى حفظت مالم تحفظ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت، يغفر الله لك ولنا.[4]

ولن نستطرد فى سرد هذه المراسلات، وإنما كل همنا هو إظهار ما كان عليه حال الحكومة الإسلامية، فالوالى غير حر فى تصرفاته المالية، إنما هو محاسب بكل دقة عن كل صغيرة وكبيرة، ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقد كان يحاسب كل وال حساباً عسيراً، ويبدأ بأن يسجل مقدار ما عنده عند توليه الإمارة، وإذا زاد عنده شىء حاسبه عليه، وربما أخذه ووضعه فى بيت المال، أو أخذ نصفه للمسلمين.

وهناك كتاب ذكره القلقشندى بعثه الخليفة عمر مستفسراً عن مصدر أموال عند واليه على مصر عمرو بن العاص، قال: سلام عليك، أما بعد، فإنه قد بلغنى أنه فشت إليك فاشية من خيل وإبل وبقر وعبيد، وعهدى بك قبل ذلك لا مال لك، فاكتب إلىّ من أين أصل هذا المال؟[5]

---

(١) التوالس: التناصر فى خب وخديعة. (المعجم الوسيط).
(٢) فتح العرب ٣٩٧.
(٣) كان عمرو عاملاً لرسول الله ﷺ فى عمان يجمع صدقاتها وزكاتها بعد إسلامه عام ٨ للهجرة، ومات ﷺ وعمرو فيها، فأبقاه أبو بكر.
(٤) فتح العرب ٣٩٨.
(٥) مآثر الخلافة ٣ / ٣٨٠.

ورد عمرو: لعبد الله أمير المؤمنين، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فإنه أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه أن فاشية مال فشت لى، وإنه يعرفنى قبل ذلك ولا مال لى، وإنى أعلم أمير المؤمنين أنى ببلد السعر فيه رخيص، وأنى أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس، وفى رزق أمير المؤمنين سعة، والله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك.(١)

ولم يسكت أمير المؤمنين، إنما بعث إليه بالقول الفصل، قال: إنى قد خبرت من عمال السوء ما كفى.. وقد سؤت بك ظناً، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه طلعة، وأخرج إليه ما يطالبك به، وأعفه من الغلظة عليك، فإنه برح الخفاء. وجاء محمد إلى مصر وقاسمه ماله.

يقول البلاذرى: لما قاسم محمد بن مسلمة عمرو بن العاص، قال عمرو: إن زماناً عاملنا فيه ابن حنتمة (يقصد عمر) هذه المعاملة لزمان سوء، لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج(٢).

فقال محمد:.. لولا زمان ابن حنتمة هذا الذى تكرهه ألفيت معتقلاً عنزاً بفناء بيتك يسرك غزرها(٣)، ويسوؤك بكاؤها.

قال عمرو: أنشدك الله ألا تخبر عمر بقولى، فإن المجالس أمانة.

قال: لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا وعمر حى.(٤)

وقد يكون من واجبنا أن نفسر هذا الموقف الذى يزداد على مر الشهور تعقداً بين أمير مصر وأمير المؤمنين، فلا شك أن عمراً حين تسلم مصر كان حريصاً على إصلاح ما بها من خلل فى المرافق والإدارة، وقد كان يرى من واجبه طبقاً لمشورة المقوقس وبنيامين أن ينفق على إصلاح تلك المرافق، فيبنى الجسور، ويطهر الترع، وقد كان يستهلك جزءاً كبيراً من الدخل العام خراجاً وجزية، وهو

(١) مآثر الخلافة ٣/٣٨٠.
(٢) الديباج والخز: نوعان من الحرير.
(٣) الغزر: كثرة اللبن.
(٤) فتوح البلدان ٢١٧.

الذى أثر على ما كان يرسله إلى أمير المؤمنين بالمدينة من فائض هذا الإنفاق العام، ولابد أن نتصور أن هذا الإنفاق كان يتزايد من عام لآخر مع بسط يد الإدارة الإسلامية على أنحاء البلاد، ولم يكن لدى عمر فى تقديرنا صورة صحيحة عن واقع هذا الإنفاق حتى ظن بعمرو الظنون، وتصور أنه يحبس عن المسلمين حقهم الذى سبقت منه نماذج فى العام الأول والثانى، ولو كانت لدى أمير المؤمنين صورة صحيحة فعلاً لعذر عمراً، لأن الخليفة لم تكن تنقصه النية الصالحة والرغبة الصادقة فى إصلاح أحوال العباد، وإنما حرصه كله أنه كان يخشى على ولاته من الدنيا، وأن يغلبهم الشيطان على أمرهم، فيزيغ بهم عن الصراط.

ومع هذه الروح العادلة والدقة المتناهية فى معاملة الولاة ومحاسبتهم نرى أناساً من المستشرقين والمغرضين من أتباع الطائفية ينتهزون فرصة المراسلات بين الخليفة والأمير، فيتطاولون على عمرو ويتهمونه بأنه كان يأخذ الخراج لنفسه، ولكن هؤلاء وجدوا من يرد عليهم من المستشرقين أنفسهم.

ونذكر هنا رأى واحد منهم، هو بتلر حيث يقول: فإنا لو آمنا بأن الطمع والجشع قد دبا فى قلب عمرو، لم يكن لنا أن نذهب إلى أنهما قد ملكا عليه لبه فأنسياه العدل، وجعلاه يتخلى عن أداء أمانته نحو المصريين.(١)

فهذا هو الخليفة الذى يراقب ولاته ويحاسب كلا منهم على كل صغيرة وكبيرة، وهذا الوالى الذى يطيع ويلتزم بكل تعاليم الخليفة، وهذا يذكرنا بقصة المصرى المعروفة، الذى ضربه ابن عمرو بن العاص، فأسرع القبطى، وشكا إلى الخليفة فى المدينة، ولم يتوان الخليفة، بل أسرع وبعث من يأتى بابن الوالى ليقتص منه القبطى، ثم قال قولته المشهورة المدوية عبر العصور الموجهة لعمرو بن العاص: يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟؟.

ونسترجع الحديث عن الجزية والخراج، ونستعرض مقدارهما، فى ولاية عمرو بن العاص.

قال البلاذرى، فى كتابه (فتوح البلدان): وَجَبَى عمرو خراج مصر وجزيتها ألفى ألف.(٢)

---

(١) فتح العرب ٣٩٩.
(٢) فتوح البلدان ٢٢٣.

ولكن المقريزى وبعض المؤرخين رأوا أن الخراج والجزية كانا اثنى عشر ألف ألف دينار.

ونحن بدورنا نستبعد هذا الرأى، والأرجح هو الرقم الأول الذى ذكره البلاذرى، وسنورد رأى د. ضياء الدين الريس فى قيمة الخراج ومناقشته لكل من رأى البلاذرى والمقريزى، قال: ونحن نرى أن التقدير الثانى – رأى البلاذرى وقدامة بن جعفر – هو الأرجح، بل الأصوب، ولنا على ذلك أدلة عديدة، **فأولها:** أن البلاذرى وقدامة كلاهما متقدم على المقريزى.

وثانيها: أن المقريزى نفسه نص على أن هذا الذى جباه عمرو ثم عبد الله[1] إنما هو على الجماجم خاصة دون الخراج[2]، أى: إنه كانت الجزية على الرؤوس، باعتبار أن الجزية – بالاتفاق – هى ديناران على كل رجل، أى دون: النساء والصبيان والشيوخ.[3]

كما ذكر المقريزى أيضاً فى موضع آخر : فيكون معنى ذلك أن عدد الرجال الذين أدوا الجزية ستة ملايين، فإذا اعتبرنا الرجال ثلث أو ربع أو خمس السكان كان عدد السكان الكلى ١٨ أو ٢٤ مليوناً على الترتيب، وهذا غير معقول بالمرة، وقد قرر مؤرخو مصر البيزنطية أن عدد سكانها كان فقط ٧ ملايين بالإضافة إلى ثلاثمائة ألف فى الإسكندرية، ونرجح أن هذا نقص فى عهد الخلفاء بعد جلاء الروم.[4]

هذا ما حلله د. الريس، ونحن معه فى أن الخراج المصرى فى زمن عمرو كان مليونى دينار فقط، وزاد فى عهد عثمان على يد عبد الله بن سعد بن أبى السرح إلى ٤ ملايين.[5]

وربما كانت هذه الزيادة كما يقول د. الريس: نتجت عن ضبط الإحصاء أو عن استبدال جزء من الضريبة العينية بضريبة نقدية، كما ذكرنا آنفاً.

---

(١) هو عبد الله بن أبى السرح، تولى بعد أن عزل عثمان بن عفان عمرًا عام ٢٦ للهجرة.
(٢) خطط المقريزى ٩٨.
(٣) السابق ٧٦.
(٤) الخراج والنظم المالية ١٥٢.
(٥) السابق ١٥٦.

وبما أن الجزية كانت حوالى مليونين، فقد كان عدد الرجال وقتئذ مليوناً، ومنهم ستمائة ألف فى الإسكندرية وحدها، كما قال بذلك عمرو بن العاص فى خطابه للخليفة، ويكون بذلك عدد سكان مصر زمن الفتح ما بين ٤: ٧ ملايين.

وإن كان عرض لنا فى موسوعة (قصة الحضارة) خبر عن عدد المصريين جاء فيه: فى العصر الرومانى فى مصر كان عدد سكان العاصمة -الإسكندرية- ٨٠٠,٠٠٠، وعدد سكان مصر كلها ٨,٥٠٠,٠٠٠.(١)

أما د. حسين مؤنس فقال: عدد سكان مصر فى زمن الفتح العربى لا يتجاوز ستة ملايين نسمة.(٢)

ونتساءل الآن هل كانت قيمة الجزية والخراج آنذاك مجحفة بالفلاح المصرى ؟

إننا لو رجعنا إلى ما كانت عليه الضرائب أيام الرومان واليونان لوجدنا أن ما فرض على المصرى من جزية أقل بكثير مما كان يلزم بدفعه من قبل، وقد اعترف بذلك كثيرون من كتاب النصارى والمستشرقين، وسوف نستعرض بعضاً من أقوالهم.

قال فيلب حتى: ولنذكر أن الجزية التى فرضها الفاتحون العرب على أبناء البلدان المنسلخة عن فارس وبيزنطة كانت أقل مما كان يفرض عليهم فى ظل الحكومات السابقة.(٣)

وقال بتلر: إن ضرائب الروم كانت - من غير شك - فوق الطاقة، وكانت تجرى بين الناس على غير عدل، وإن وطأة الضرائب خفت بعد فتح العرب، كما أن العرب أزالوا ما كان مقرراً من التفريق بين الناس فى جباية الضرائب.(٤)

أما جورجى زيدان فقد قارن بين مقدار الجزية، وما كان يأخذه الرومان من البلدان المستعمرة، قال: الجزية ليست حديثة من مستحدثات الإسلام.. فقد فرضها

(١) قصة الحضارة ١١ / ٩٧.
(٢) أطلس تاريخ الإسلام ٣٢٢.
(٣) تاريخ العرب ١ / ١٩٤.
(٤) فتح مصر ٣٩٣.

اليونان والرومان من قبل، وإن الرومان وضعوا الجزية على الأمم التى أخضعوها، وكانت أكثر كثيراً.

وقال جستاف لوبون: كانت الجزية دينارين، أى: خمسة عشر فرنكاً.(١)

كيف كان يقسم الخراج ؟

كان الوالى يجمع الجزية والخراج فى موعدهما، ثم يرسل الخمس إلى العاصمة (المدينة المنورة)، وكان ذلك التزاماً بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى...الخ﴾ [الأنفال:٤١]، ثم تبقى الأربعة الأخماس فى مصر، وعلى الوالى تحديد حاجة البلاد من خلالها.

قال السيوطى: كان عمرو بن العاص يبعث إلى عمر بن الخطاب بالجزية بعد حبس ما يحتاج إليه.(٢)

وما يحتاج إليه هو رواتب الجند وتجهيز الجيش من معدات وخيول ودواب وغيرها، وإقامة السدود والجسور وشق الترع والإنفاق على كل ما يلزم الزراعة، وبناء المنشآت العامة من مساجد وحمامات وخانات ودور إيواء العجزة والأيتام وغير ذلك، ثم مرتبات العاملين والمحصلين وموظفى الديوان.

وقد قدر عمر بن الخطاب للولاة رواتبهم، وكذلك كبار موظفى الدولة، وبعث لكل أمير بذلك، وكان هذا التحديد بعد النظر بعين الاعتبار للمتقدمين فى دخول الإسلام والمصاحبين لرسول الله ﷺ، وهذا ما التزم به الخليفة عمر عند تقسيمه العطايا فى المدينة، فقد زاد فى عطاء أمهات المؤمنين، وعطاء من شهد بدراً مع رسول الله ﷺ، وبعث لعمرو قائلاً: أنظر مَنْ قِبَلَكَ ممن بايع تحت الشجرة(٣)، فأتم لهم العطاء مائتين، وأتمها لنفسك لإمْرَتِك.

---

(١) حضارة العرب ٢١٢.

(٢) حسن المحاضرة ٤٨.

(٣) كان هناك صحابة مع عمرو بن العاص ممن شهد بدراً وما بعدها مثل الزبير، ولكنهم خرجوا إلى المدينة، وصارت أعطياتهم على ديوان المدينة. والشجرة هى بيعة الرضوان عام ٦هـ.

وفـى روايـة: وأبلـغ ذلـك بنفسـك وأقـاربك، وأتمهـا لخارجـة بـن حذافـة[١] لشجاعته، ولعثمان بن أبى العاص الثقفى[٢] لضيافته.

ولنا كلمة أخيرة: عن الجزيـة والخـراج، فلـم تكـن هـذه الأمـوال المفروضـة ضريبة تدفع دون مقابل، بل كان يقابلها الدفاع عن البلاد، والحماية والمنعة وحقن الدماء، ومقاتلة العدو دونهم، فإذا فرض أن أخذ المسلمون الجزية ومنعهم شىء من الدفاع عن البلاد فإنهم كانوا يردون الجزية لأهل الذمة.

وقد ذكر البلاذرى كيف رد المسلمون لأهل حمص جزيتهم عندما حيل بينهم وبين الدفاع عنهم، قال: إنـه حين جمـع هرقـل للمسلمين الجمـوع، وبلـغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك، رد المسلمون على أهل حمـص مـا كـانوا أخذوا منهم من خراج، وقالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكـم، فـأنتم علـى أمركـم. فحينئذ قال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم.[٣]

وكان نتيجة لذلك التصرف انضمام أهل حمـص إلـى المسلمين، ومساعدتهم ضد الروم.

وقد فسر (ت. أرنولد) الحكمة من جمع الجزيـة، قـال: وقـد فرضـت الجزيـة على القادرين من الذكور مقابل الخدمـة العسكرية التـى كـانوا يطـالبون بأدائهـا لـو كـانوا مسلمين، ومـن الواضـح أن أيـة جماعـة مسيحية كـانت تعفـى مـن أداء هـذه الضريبة إذا مـا دخلت فـى خدمة الجيش الإسلامى.[٤]

وقال أيضاً: وكان على هؤلاء الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا - بـدلا من الجزية - الصدقات الشرعية، وهى الزكاة، التى كانت تفرض سنوياً على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية.[٥]

---

(١) صحابى جليل كـان علـى الشرطة، جعلـه عمـرو يصلـى بالنـاس يـوم ١٧ رمضـان عـام ٠ للهجرة، فقتله الخارجى، وهو يظنه عمراً.

(٢) تولى قضاء مصر فى آخر عام لخلافة عمر بن الخطاب، ثم لخلافة عثمان، وبقى قاضياً حتى عام ٤٢ للهجرة، وكان ﷺ قد جعله على الطائف، ثم سكن البصرة بعد ذلك.

(٣) فتوح البلدان ١٣٢.

(٤) الخراج ١٦٨، عن الدعوة للإسلام لأرنولد ٥٨.

(٥) الخراج ١٦٩.

وهذا جستاف لوبون يؤكد سلوك المسلمين القويم فى جمع الجزية، يقول: ولم يكن سلوك عمرو بن العاص فى مصر أقل رفقاً من عمر، فقد عرض على غير المسلمين حرية دينية تامة، وعدلاً مطلقاً، واحتراماً للأموال، وجزية سنوية ثابتة لا تزيد على خمسة عشر فرنكاً عن كل رأس، وقد بالغ العرب فى الوقوف عند حد الشروط، والتقيد بها، فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمَرَّيْن من ظلم عمال القسطنطينية النصارى، وأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيما إقبال.(١)

ولم يكن الخلفاء يتركون الولاة وشأنهم ما داموا يدفعون الخمس، وإنما كانت الكتب تبعث تترى لوصاياتهم وتذكيرهم بالعهد الذى أخذوه على أنفسهم.

ويقول رسول الله ﷺ: **((من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة))**، وقوله: **((لا تعذبوا الناس، فإن الذين يعذبون الناس فى الدنيا، يعذبهم الله يوم القيامة))**.

وهذا عمر بن الخطاب يرسل لكل ولاته: **((لا تكلفوهم ما لا يطيقون))**.

ويأتى الخليفة عثمان بن عفان، فيبعث لهم بقوله: **((أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، ولم يخلقوا جباة.))**

وكان أول كتاب لعثمان بعث به لعمال الخراج، قال فيه: **((أما بعد، فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا بالحق، خذوا الحق، وأعطوا الحق به، الأمانة الأمانة قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها، والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم.))**(٢)

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان - كما يقول ابن عبد الحكم: جعل رجلاً يدور على المجالس صبح كل يوم، فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود ؟ هل نزل بكم نازل؟. فيقال: ولد لفلان غلام ولفلان جارية. فيقول: سموهم، فيكتب.

---

(١) حضارة العرب ١٣٥.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ٥ / ٤٤.

فإذا فرغ أتي الديوان.. عن ابن لهيعة، قال: فأعطى مسلمة بن مخلد أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة وحملان القمح إلى الحجاز وبعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضلاً.(١)

إن هذا الذى أكدته مصادر التاريخ ليدل دلالة واضحة على أن الفاتحين المسلمين لم يكونوا ذوى أطماع، ولم يحكموا بالهوى فيما بينهم وبين أبناء البلاد، وإنما التزموا الوفاء بما اتفقوا عليه فى عهد الفتح، ثم إنهم بموجب الأمانة التى فطروا عليها كانوا ينفقون ما يأخذون من خراج وجزية فى مصالح البلاد بإصلاح ما تهدم من الجسور، وشق ما انسد من الترع ومجارى المياه، وكأنهم إنما جاءوا ليكونوا خدماً لأبناء مصر، لا سادة يستعبدونهم، مع أنهم كانوا نوعية من الرجال لها قدرها وعظمتها وتضحياتها التى تجعلها تيجاناً على الرءوس، إنها تربية محمد ﷺ ومنهاج الإسلام الحنيف.



(١) فتوح مصر ١٠٢.

الأرض الزراعية فى شريعة الإسلام

كان الخليفة عمر قد بعث بنظام تقسيم العطاء بعد أن حلت مشكلة الأرض، واستقر الأمر على عدم تقسيم البلاد المفتوحة على الفاتحين.

وقد ظهرت هذه المشكلة عند فتح العراق ثم الشام ثم مصر، وكان سعد بن أبى وقاص بعد فتح القادسية قد كتب إلى أمير المؤمنين ينبئه أن الناس سألوه أن يقسم بينهم غنائمهم، وما أفاء الله عليهم من مدن بما فيها من ناس وبيوت وشجر وشوارع، وبنفس المعنى كتب أبو عبيدة عندما فتحت الشام، كل ذلك قبيل فتح مصر.

وجمع عمر الصحابة لاستشارتهم، قال د. ضياء الدين الريس نقلاً عن أبى يوسف وأبى عبيد : فرأى كثير منهم أن يقسم حقوقهم عليهم. فكان عمر يقول : لو قسمته لم يبق بعدكم شيء، فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدوا الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأى، فما يسد به الثغور!! وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره؟

فأكثروا عليه وأجابوا : كيف تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا؟....

وكان على رأس المؤيدين للتقسيم : عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وبلال بن رباح... وأيد عمر فى رأيه من المهاجرين: على وعثمان وطلحة ومعاذ وابن عمر.[1]

ولما اشتد الخلاف بين عمر وصحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين، عرض الأمر على عشرة من الأنصار، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج، وشرح القضية، ووضح الصورة قائلاً: أرأيتم هذه الثغور؟ لابد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام ؟ لابد أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون ومن عليها؟

---

(١) الخراج ١٠٧.

وكانت الإجابة الواحدة القاطعة التى صارت دستوراً بعد ذلك على كل بلد مفتوح، قال الأنصار جميعاً : الرأى رأيك، فنعم ما قلت وما رأيت.

قال الشيخ مصطفى الزرقا : وقد ذهبَ عمر إلى خلاف الرأى، فاعتبر الأراضى من الفئ الذى تتعلق به حقوق المسلمين عامة، حاضرهم وآتيهم رعاية لمصلحة الأجيال وحقوقها فى بيت المال، فأبقى الأرضين لأهليها وطرح عليها ضريبة الخراج.(١)

وكان القرار الخطير الذى استقرت عليه السياسة المالية للدولة الإسلامية : أن تعتبر الأرض ملكاً للأمة الإسلامية بجميع أجيالها، لا أن تكون فيئًا متقاسماً بين الأفراد يتداولونه ويرثه الأبناء عن الآباء.

وعندما فتحت مصر طُبِّقَ هذا القرار، وكان المصرى يدفع خراج الأرض، حتى إذا دخل الإسلام يلزم بدفعه أيضاً، ولا يسقط عنه بإسلامه إلا الجزية ؛ لأنها تدفع عن شخص، أما الخراج فهو ضريبة الأرض التى تنفق على الحكومة وإدارتها للبلاد وحشدها لحماية الحدود، وهو اعتبار لا يتغير بإسلام صاحب الأرض أو بقائه على غير الإسلام.

وقد نستدرك هنا على الرأى القائل بأن الأرض الخراجية هى أرض مستأجرة من الدولة باعتبارها مالكة لها، ونحن فى الواقع لا نرى هذا الرأى باستيلاء الدولة على الملكيات الخاصة، وتحويلها إلى ملكيات عامة - كما يرى المذهب الاشتراكى، فالإسلام منذ كان، يحترم الملكية الخاصة مادامت تؤدى التزاماتها المالية تجاه الدولة : وهى ملكية ناشئة عن التخصيص والاستخلاف، لا على سبيل الإستبداد- كما هو شأن الفلسفة الرأسمالية.

فلم يستول أى رجل من الفاتحين على جزء ولو يسير من الأرض الزراعية، ولم يمتهن أحد من المجاهدين مهنة الزراعة، وإنما خرجوا للفتح ونشر الإسلام، وليس لزراعة الأرض وامتلاك الضياع، وتسويد الإقطاع، واستعباد العباد.

وقد وجدنا صحابياً واحداً ملك جزءاً من أرض مصر الزراعية فى أول الفتح، وهو : عبد الله بن سَنْدَر التجيبى.

(١) المدخل الفقهى العام ١/١٦١.

وقصة (ابن سندر) أنه كان عبداً لزنباع الجذامى[1] فى المدينة، وذات مرة شاهد زنباعُ ابنَ[2] سندر يقبل جاريته، فعاقبه بأن جدع أنفه وأذنه، وقال بعضهم إنه جبّه أى : قطع ذكره، وأتى العبد المجدوع رسول الله ﷺ، وشكا له فعلة سيده، فقال ﷺ : انطلق فأنت حر. ثم شرع ﷺ معاملة العبيد وسياستهم، وقال : **((لا تحملوهم ما لا يطيقون وأطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، فإن رضيتم فأمسكوا، وإن كرهتموهم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله، ومن مثّل به أو أحرق بالنار، فهو حر، وهو مولى الله ورسوله)).**

وفرح ابن سندر بالحرية، وسأل رسول الله ﷺ شيئاً آخر، قال : يا رسول الله أوص بى. فقال عليه السلام : أوصى بك كل مسلم.

وعاش ابن سندر حياة رسول الله ﷺ معززاً مكرماً، حتى خلفه أبو بكر الصديق، فجاءه ابن سندر، وذكره بمقالة النبى ﷺ، فعاله أبو بكر، وأنفق عليه وعاش نفس الحياة الكريمة العزيزة، حتى استخلف عمر رضى الله عنه، فجاءه ابن سندر، وكرر عليه وصاة رسول الله ﷺ، فقال له عمر : إن شئت أن تقيم عندى أجريت عليك مالاً، أو انظر أى المواضع من البلاد المفتوحة أحب إليك، فأكتب لك. فاختار ابن سندر مصر، وقال : إنها أرض ريف.

قال ابن سعد : فكتب له عمر إلى عمرو بن العاص : أما بعد فإن سندر [3] قد توجه إليك، فاحفظ فيه وصية رسول الله ﷺ. فقطع له عمرو بأرض مصر معاشاً، فعاش فيها ما عاش، فلما مات قبضت فى بيت المال، ثم أقطعها الإصبع بن عبد العزيز، فما كان لهم فى الأرض مال خير منها.[4]

وقد ذكر ابن عبد الحكم رأيا آخر فى أيلولة أرض ابن سندر، قال : وكان عمر بن الخطاب قد أقطع ابن سندر منية الإصبع[5]، فحاز لنفسه ألف فدان. وسبب

---

(١) هو زنباع بن روح بن سلامة الجذامى، له صحبة، عاش فى فلسطين.

(٢) قيل : صاحب القصة هو سندر الأب.

(٣) فى بعض الروايات : أن المجدوع هو سندر الأب، قال ابن سعد : إنه كان كافراً عندما جدع.

(٤) الطبقات ٧ / ٥٠٦.

(٥) قال ابن سعد فى الطبقات ٧ / ٥٠٦ : ومنية الإصبع معروفة بمصر.

تسمية منية الإصبع - كما قال ابن عبد الحكم - أنه لما مات ابن سندر اشتراها الإصبع بن عبد العزيز بن مروان من ورثته.[1]

والمكان الذى كان ملكاً خاصاً لابن سندر فى ذلك الزمان البعيد صار الآن وسط العاصمة جهة العباسية، وهو أراضى كنيسة بطرس (الكتدرائية) ودير الملاك والدمرداش وما والاها بشارع مصر والسودان والقبة وما حولها، ومازال هناك ميدان وشارع باسم ابن سندر فى منطقة سراى القبة.

وسار الوضع على هذا المنوال، لا تملك للأرض الزراعية للفاتحين، اللهم إلا استثناء واحداً حين تملك أحد الصحابة -غير ابن سندر أرضاً فى مصر، وهو الصحابى الجليل عقبة بن عامر الجهنى[2] الذى ولى إمارة مصر فى عهد معاوية بن أبى سفيان.

وقصة هذا التملك كما ذكرها ابن عبد الحكم - أن عقبة كتب إلى معاوية يسأله نقيعاً[3] فى قرية يبنى فيها منازل ومساكن لأهله، فأمر له معاوية (بألف ذراع × ألف ذراع)، وحددها له فى الجيزة، فقال له مواليه ومن حوله : أنظر إلى أرض تعجبك فاختط فيها وابتن. فقال عقبة : إنه ليس لنا ذلك، لهم فى عهدهم - أى القبط - ستة شروط منها، ألا يؤخذ من أرضهم شىء، ولا يزاد عليهم، وأن يقاتل عنهم عدوهم من ورائهم و... وأنا شاهد على ذلك - وتوقف عند ما حدده له أمير المؤمنين معاوية.

وما اقتطع لعقبة بن عامر هو ما يعرف الآن بمنية عقبة أو ميت عقبة.

قالت د. سعاد ماهر : وكلمة (منية) أى: ميناء، لأنها واقعة فى ذلك العهد على الشاطئ الغربى للنيل، قبل تحوله إلى الشرق.[4]

(١) فتوح مصر ١٣٧.
(٢) كان صاحب بغلة رسول الله ﷺ الشهباء، يقودها له فى الأسفار.
(٣) النقيع : أو النقعاء : الأرض الحرة الطين، المستوية، ليس بها حزونة. (المعجم الوسيط).
(٤) أهم مساجد مصر ١ / ٢٨٦.

ولكن هذا لا يمنع أن يكون للمكان الآن اسم آخر هو: ميت عقبة، وكلمة (ميت) من المتوارث عن اللغة المصرية القديمة، بمعنى قرية، ومثلها لفظة (كفر) المأخوذة عن السريانية.

غير أن لنا وقفة أمام خبر عن أمير مصر وفاتحها عمرو بن العاص، وهو يشير إلى أنه ربما تملك أرضاً كان يزرعها، وهو ما ورد خلال رسالته إلى عمر ابن الخطاب – أمير المؤمنين، من قوله : **وإنى أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس**، فهل كان عمرو يملك فعلاً أرضاً يزرعها ؟ ذلك ما نتوقف فى الإجابة عنه، لأن الأخبار لم ترد بأنه ورث بنيه شيئاً من ذلك، ولعلها مساحات فى الفسطاط قام بزراعتها حتى يمون أهله، ويستغنى بها عن التماس القوت من الأسواق.



علاقة الفاتحين بأصحاب الأرض

لم تكن العلاقة بين المسلمين وأصحاب الأرض علاقة جباية الجزية والخراج فحسب، وإنما كانت علاقة مودة وحب وتسامح لم يجد المصريون لها مثيلاً على طول حياتهم تحت إمرة الملوك الفراعنة والهكسوس والفرس واليونان والرومان.

وبهذا الجو الجديد انفتح أمام المصريين باب الحرية فصاروا يمارسون عقائد أديانهم دون إزعاج، أو تدخل من جانب المسلمين.

وكان السبب فى هذا الجو الجديد من الرفاهية والطمأنينة التزام الفاتحين بروح الإسلام، وما أملاه عليهم كتابهم، وما علمهم إياه رسولهم، فقد تأسست الدولة على التقوى، وشادها العدل والإحسان.

وكان الهدف الأول لهؤلاء هو الآخرة ونشر دين الله، أما مغانم الدنيا فكانت آخر ما يفكرون فيه، ولذلك كان أول ما نعم به النصارى من القبط - بعد الفتح - حريتهم الدينية، فقد مارسوا عقائدهم، وخاصة المذهب اليعقوبى (الأرثوذكس) بكل حرية، بعيداً عن الاضطهاد والتعسف الذى كانوا يلاقونه على يد أصحاب المذهب الملكانى من الرومان.

فهذا جبون يصف حال المصريين، قال : إن العرب استقبلوا فى مصر كالمنقذين للكنيسة اليعقوبية، وفى أثناء حصار منف[١] عقدت معاهدة سرية نافذة بين جيش انتصر وشعب كان من العبيد، وبوثيقة الضمان هذه حطم طغيان الملكانيين : الكنسى والمدنى.

وقال أيضاً : قد اتبع المسلمون سياسة التسامح مع الأمم المغلوبة، ونجحت سياستهم، وتركوا للناس حرية الضمير والعبادة.[٢]

أما بتلر صاحب كتاب (فتح العرب لمصر)، فيكفى أن نقتبس منه بعض النصوص التى يدافع فيها عن عدالة المسلمين إبان الفتح، قال:... قال مطران

(١) يقصد بابليون الحصن.
(٢) الخراج ١٦٩.

نسطورى: وهؤلاء الذين أعطاهم الله السلطان فى أيامنا لا يحاربون دين المسيح، بل هم يدافعون عن ديننا ويجلون قسوسنا وقديسينا، ويهبون الهبات لكنائسنا وأديرتنا.(١)

وقال على لسان القبط : وقالوا فى أنفسهم : لعلنا نجد فى حكم المسلمين قراراً واطمئناناً نأمن فيه على ديننا، فلا نكره على شيء فيه ضرر على أموالنا، ولا نتحمل من الخراج والجزية إلا قدراً نطيقه، ولعل أكبر ما حملهم على الرضا بحكم العرب رفع ما كان يبهظهم من الضرائب، فقد كان الروم يجبون من مصر أموالاً يتعذر علينا أن نعرف مقدارها، ولكنها كانت بلاشك كثيرة الأنواع ثقيلة الوطأة شديدة الأذى، فأحل العرب محلها الجزية والخراج للأرض، ومهما يكن من مقدارهما فقد كانت لهما فضيلة البساطة، وكانت الجزية ثابتة المقدار محدودة القصد.(٢)

لقد كانت سياسة المسلمين رائعة تدل على فهم للدين، ومحاولة تطبيق مبادئه فى الدول المفتوحة، فهذا عمرو بن العاص لا يفرق بين ملكانية ويعقوبية، ولا يهتم بمنازعات مذهبية، أو أحزاب كنسية، أو مجامع كهنوتية، ولذا لم يتحيز لفريق دون فريق، بل أقر الحرية الدينية للجميع، ورفع الاضطهاد الملكانى عن اليعاقبة، وأعطى الأمان لكبير بطارقتهم (بنيامين) الذى اختفى من الظلم والاضطهاد ثلاثة عشر عاماً، والتف حوله القبط بعد أن أمن من الخوف، واطمأن بعد البلاء، التفوا حوله يقيمون شعائرهم الدينية فى حرية وسعادة واطمئنان.

وهذا ميخائيل السورى بطريق اليعاقبة يشيد بمواقف المسلمين منهم فى كل من مصر والشام، فيقول : إن رب الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية أبناء إسماعيل لينقذنا بواسطتهم من أيدى اليونانيين(٣)... وقد أصابنا خير ليس بالقليل بتحررنا من قسوة الرومان وشرورهم، ومن غضبهم وحفيظتهم علينا من جهة، ومن جهة أخرى سادت الطمأنينة بيننا.(٤)

---

(١) هامش ١٤١ من فتح العرب.
(٢) فتح العرب ٢٣٣.
(٣) كان الحكم آنذاك للروم، وليس للإغريق.
(٤) تاريخ اللغة العربية ٤٦.

والمؤرخ ساويرس بن المقفع يصف شعورهم السعيد بدخول المسلمين إلى مصر بقوله : كانت الشعوب فرحين (كذا) مثل العجول الصغار إذا حل رباطهم، وأطلقوا على أمهاتهم.(١)

ولو نظرنا إلى دور عبادة النصارى لوجدنا إبان الفتح بعض الأديرة والكنائس، وقد هدم فسمح الأمير المسلم لهم بإعادة بنائه، وتبييضه، كما صرح لهم ببناء كنائس جديدة، حتى إننا لو رجعنا إلى تاريخ بناء بعض الكنائس لوجدناه قد تم خلال القرن السابع الميلادى - الأول الهجرى.

ونتيجة لما وجده القبط من حسن معاملة ورقة وموادعة من الفاتحين المسلمين رأينا عقلاء من الروم ومن القبط انتهى بهم الأمر إلى الدخول فى الإسلام بعد أن كانوا شاهدوا تنازع المذاهب المسيحية، واضطهاد أصحابها، ومحاربة بعضهم لبعض، وهو ما جعلهم يزهدون فى المسيحية، ويلتمسون طريق الحرية والمساواة بدخولهم الإسلام، لقد كانت حال المسلمين جذابة لكل ذى لب، فالسمو والصفاء هما السمة المتأصلة للدين الجديد(٢)، أما التعصب للمذاهب المختلفة فلم يكن قد ظهر بعد، ولذلك دخل المصريون فى دين الله أفواجاً - لا لكى يتساووا مع الفاتحين المسلمين فى الحقوق والواجبات كما قال بذلك بعض ذوى الأهواء من المستشرقين، وإنما دخلوا فى الدين الجديد عن رضا واقتناع وإيمان.

وهذا د. بتلر : يؤكد هذه الحقيقة، ويقول : ليس من العدل أن يقال إن كل من أسلم من القبط إنما كان بقصد الدنيا وزينتها، وإذا كان منهم من أسلم طمعاً فى أن يتساوى بالمسلمين الفاتحين حتى يكون له ما لهم وينجو من دفع الجزية(٣)، فإن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقيدتهم غير راسية، أما الحقيقة المرة فهى أن كثيرين من أهل الرأى والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان من عصيان لصاحبها، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء فى الله، ونسيت ذلك فى ثوراتها وحروبها التى كانت تنشب بين شيعها وأحزابها، ومنذ بدأ ذلك لهؤلاء

(١) السابق.
(٢) ارجع للجزء الأول من هذا الكتاب.
(٣) من يسلم تسقط عنه الجزية، ويبدأ فى دفع الزكاة.

العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته.[1]

وعلى ذلك فكل النصارى الذين أسلموا لم يدخلوا فى الدين الجديد بدافع اقتصادى أو سياسى، أى : ليتساووا بالمسلمين فى الحقوق والواجبات، لأن الإسلام سوى بينهم وبين المسلمين، ما داموا يدفعون الجزية، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، وهذا خليفة المسلمين عمر يبعث بكتاب لعمرو يقول فيه:.. وإن معك أهل ذمة وعهد، وقد أوصى رسول الله ﷺ بهم، وأوصى بالقبط، فقال: استوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً، ورحمهم أم إسماعيل، وقد قال ﷺ : من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته، فأنا خصمه يوم القيامة. احذر يا عمرو أن يكون رسول الله ﷺ لك خصماً، فإنه من خاصمه خصمه، والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة وأنست من نفسى ضعفاً، وانتشرت رعيتى، ورق عظمى، فأسأل الله أن يقبضنى إليه غير مفرط، والله إنى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً أن أسأل عنه.[2]

وهذا عمرو بن العاص يخطب في المسلمين على منبر الفسطاط، يقول : استوصوا بمن جاورتموهم من القبط خيراً، حدثنا أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لكم منهم صهراً وذمة، فعفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم.[3]

وغنى عن البيان أن نشير هنا إلى ما تمثله هذه الكلمات من فاتح مصر وواليها عمرو بن العاص من قيم ومبادئ كانت دستوراً لحكم البلاد، ولاشك أن المصريين وجدوا فيها روحاً جديدة لم يعرفوها فى أحد من الغزاة السابقين.

لقد شهدت مصر قبل الفتح الإسلامى معارك التاريخ كلها، ووطئ أرضها قادة العالم، فلم يتركوا على هذه الأرض من الملامح والذكريات سوى أشلاء المصريين متناثرة فى الساحات، لقد ذاق المصريون الأهوال فى كل جولة من

---

(١) فتح العرب ٣٢٥.
(٢) رسائل الخلفاء الراشدين ٣١٣.
(٣) حسن المحاضرة ١ / ٦٧.

جولات التاريخ القديم، ولم يكن ذلك بدعاً، فقد كان ما يحدث فى مصر هو الذى يحدث فى الشام وفى فلسطين.

ويكفى أن نعود بالذاكرة إلى ما فعله (يشوع) بالمدينة المقدسة حين فتحها، وبأريحا حين أحرقها، وقتل كل ذى روح فيها، جاء فى سفر يشوع :.. وحرموا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف.. وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها.[1]

وقفّى على أثر يشوع كل الغزاة من بنى إسرائيل والأباطرة من رومان وفرس ويونان، ممن اعتنقوا الوثنية أو المسيحية، فكانت سياساتهم هى الإبادة الكاملة لمخالفيهم فى الرأى، وفرض العقيدة بالقوة والإكراه، فإما التحول إلى ديانتهم، وإما القتل والتعذيب، بل إن الطوائف المسيحية فيما بينها كانت ترتكب من الفظائع مالا يمكن تصوره، تنكيلاً بمخالفيهم فى الرأى أو فى العقيدة. وهذا هو سلوك النصارى مع المسلمين فى الأندلس، حيث أكرهوهم على التنصر فى عهد فرديناند وإيزابيلا وما بعدهما وأقاموا لهم محاكم التفتيش. لقد أثبت التاريخ أن احترام نفس الإنسان، وعقيدته وحريته لم يكن إلا عند المسلمين، دون غيرهم من أتباع الوثنية، ومعتنقى الأديان الأخرى.

وأفاق المصريون على صوت عمرو بن العاص وهو يوصى بهم، وينذر من ينالهم بأذى، ويضرب لهم المثل فى الوفاء والرحمة، ويعلن أن ذلك هو الإسلام الذى جاء به نبى الرحمة، وأن هذه هى سياسة أمير المؤمنين، فلابد أن تسيطر على المصريين حالة من الذهول، إذ إنهم لم يعرفوا من قبل غازياً بهذه الروح السخية السمحة، ولاشك أن هذا الوضع فتح طريقاً للمصريين إلى الإسلام.

ولم تكن المعاملة الحسنة اللينة للقبط من الوالى عمرو بن العاص وحده، بل كان كل الولاة الذين جاءوا بعده يسيرون بوجه عام على نهجه، فلم يتدخلوا فى أمور العقيدة النصرانية أو اليهودية ولا فى اختيار زعمائهم الدينيين، وإنما تركوا كل ذلك لأساقفتهم وبطارقتهم وأحبارهم.

(١) سفر يشوع ٦ / ٣٨٥.

وقد زاد فى تسامح الأمراء أنهم سمحوا للقبط ببناء كنائس جديدة، مع أن شروط الصلح كانت لا تبيح إقامة كنائس جديدة، على أن يكتفى بإصلاح المتهدم منها.

يقول السيوطى : وأول كنيسة بنيت فى فسطاط مصر الكنيسة التى خلف القنطرة أيام مسلمة بن مخلد(١)، فأنكر الجند على مسلمة، وقالوا له : أتقر لهم أن يبنوا الكنائس؟. حتى كاد يقع بينهم وبينه شر، فاجتمع عليهم مسلمة يومئذ، فقال : إنها ليست فى قيروانكم(٢)، إنما هى خارجة فى أرضهم. فسكتوا عن ذلك.(٣)

ونرى فى عهد الأمير الأموى عبد العزيز بن مروان(٤) أنه قد سمح للنصارى ببناء كنائس كثيرة منها : كنيسة القديس مرقس، فى الإسكندرية، وكنيسة مارجرجس، وكنيسة أبى كير(٥) فى قصر الشمع داخل حصن بابليون.

وكذلك كنيسة أبو سرجة، قال سعيد بن بطريق : بنيت فى عهد الخليفة عبد العزيز بن مروان.(٦)

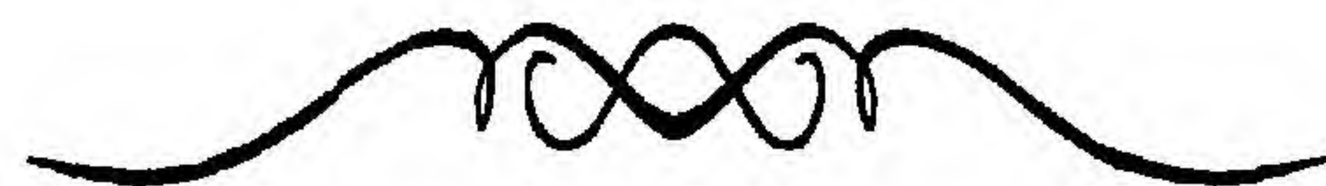
وعندما انتقل عبد العزيز للإقامة فى حلوان(٧)، بنى النصارى كنائس فيها.



(١) تولى مصر من عام ٤٨ إلى عام ٦٣ للهجرة.
(٢) القيروان : يريد منطقتكم.
(٣) حسن المحاضرة ٢ / ٥.
(٤) تولى مصر من عام ٦٥ إلى عام ٨٦ للهجرة.
(٥) جاء فى كتاب الكنائس القبطية ٥١ كنيسة أبا كيرنسبة للشهيد سيروس الذى استشهد فى زمن الاضطهاد بسبب العقيدة الدينية.
(٦) الكنائس القبطية ٢٥.
(٧) حلوان : ضاحية جنوبى الفسطاط على النيل.

الفصل الحادي عشر

مقياس النيل



كانت الحياة الزراعية قائمة على النيل، وكان الخراج مرتبطاً بما تنتجه الأرض من خير، وقد رأى عمرو ضرورة قياس النيل ليستطيع جباية الضرائب بالعدل والقسطاس المستقيم، مع العلم بأن ماء النيل كان يقاس على عهد الفراعين، وعندما علم أمير المؤمنين علاقة الفيضان[1] بالأرض بعث يطلب من عمرو أن يشرح له ذلك، ويبين مدى تأثير الفيضان على الأرض.

فكتب عمرو:.. إني وجدت ما تروى به مصر حتى لا تقحط أهلها أربعة عشر ذراعاً، والحد الذى يروى منها سائرها حتى يفضل عن حاجتهم، ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعاً، والنهايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار اثنا عشر ذراعاً فى النقصان وثمانية عشر ذراعاً فى الزيادة.

قال المقريزى: فاستشار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب علياً رضى الله عنه فى ذلك، فأشار بأن يكتب إليه أن يبنى مقياساً.. وأن ينقص ذراعين من ١٢ ذراعاً، وأن يقر ما بعدها على الأصل، وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعاً أصبعين.[2]

يعنى ذلك أن يكون الاحتكام فى فرض الخراج إلى هذا المقياس بحيث يراعى العدالة والرحمة فى آن، فإذا بلغ المقياس اثنى عشر ذراعاً حاسبهم على خراج عشرة أذرع، فإذا تفوق على ذلك نقص من كل ذراع أصبعين لحساب الشعب المصرى، فتكون الرحمة دائماً فوق عدالة المقياس.

ونفذ عمرو أمر الخليفة، وبنى المقياس فى حلوان[3]، وبدأ فى محاسبة الفلاحين بهذه الطريقة.

---

(١) قال ابن تغرى بردى : كان الماء فى عيد الصليب، وهو ١٤ تخلو من توت -أول أيلول فى أعلى زياداته. (النجوم الزاهرة ١ / ٥٥)

(٢) خطط المقريزى ١ / ٥٨.

(٣) فى عام ٢٤٧ للهجرة أمر الخليفة المتوكل العباسى ببناء مقياس للنيل بجزيرة الروضة بدلاً من مقياس حلوان، الذى استمر العمل به من ساعة إنشائه. قال صاحب حوليات الإسلام : وتولى رعاية المقياس المهندس محمد بن كثير الفرغانى، الذى قدم من العراق لهذا الغرض.

قال د. أبو رابية : وقد أقام عمرو أيضاً مقاييس النيل بأسوان ودندرة لتكون معياراً صادقاً للزراعة والرى والضرائب فى كل عام.[1]

أما اشتغال العرب الفاتحين أنفسهم بالزراعة فلم يتم إلا فى أواخر العصر الأموى، زمن الخليفة هشام بن عبد الملك (من عام ١٠٥ : عام ١٢٥ للهجرة)، وكان عامل خراجه على مصر عبد الله بن الحبحاب، وكان أناس من الجزيرة ينتقلون إلى مصر، ويعيشون فيها، وجاء أناس من قبيلة قيس، فأنزلهم عبد الله فى منطقة الحوف شمال شرقى الفسطاط - محافظة الشرقية وما حولها - وأخذ هؤلاء يربون الخيل ويتاجرون فيها، ثم رويداً رويداً أخذوا يعملون بالزراعة، وبذلك اقتربوا من المصريين وأصهروا إليهم، وبدأ الامتزاج حتى اشتد التغلغل بمجيء كل أمير ومعه حاشيته وحاميته، حتى إذا مات أو عزل، بقيت الحامية التى تكون ما بين عشرة وعشرين ألفاً.

وأخيراً جاء الخليفة المعتصم العباسى (من عام ٢١٨ : عام ٢٢٧ للهجرة، الموافق عام ٨٣٣ : عام ٨٤١ للميلاد) وتبعه الخليفة المتوكل، وكان العجيب همهما بالاستغناء عن العرب فى الشئون الإدارية والعسكرية، وأن يحل محلهم الترك، وهنا اضطر بقية العرب القاطنين فى مصر إلى مزاولة مهنة الزراعة والصناعة، وبدأوا فى التغلغل فى القرى والنجوع، وخاصة الصعيد، وتركوا العاصمة وما حولها.

وعودة إلى اهتمام الوالى المسلم عمرو بمصر، البلد الزراعى الذى يعتمد على النيل اعتماداً كلياً، فقد ذكرت المراجع كلها الاهتمام الشديد بالرى والصرف والفيضان وتحسين الإنتاج ومعاقبة الذى يهمل الأرض، وجعل الاهتمام بالأرض شرطاً من شروط عقد الاستزراع على الفلاحين، ونصه كما ذكرته د. سيدة الكاشف : وما بَوَّرْتَ فعليك خراجه.[2]

وبذلك استقر فى ضمائر الناس ووعيهم معنى الحزم، إلى جانب معنى العدل، فلا أحد يستطيع أن يفرط فى ذرة تراب، لأنه فى النهاية مسئول عن

---

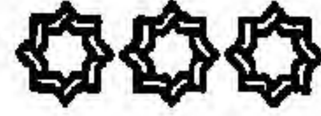
(١) عمرو بن العاص ٢٥٨.

(٢) مصر فى فجر الإسلام ٢٧١.

خراجها، ملزم بأدائه، فإما أن يزرع لينتج ما يمون به حياته وحياة أمته، وإما أن يترك الأرض لمن يقدر على زراعتها، ويفى وفاء كاملاً بكل حقوقها.

ومن ملاحظات اهتمام عمرو بالأرض التركيز على وسائل إنتاج الأرض من حفر ترع وخلجان وتقوية جسور وقناطر، وتطهير مصارف وما إلى ذلك.

يقول السيوطى : فشكل عمرو بن العاص قوة من المصريين، عددها مائة وعشرون ألف عامل مهمتها الأولى العمل فى حفر القنوات، وإقامة الجسور والقناطر.[١]



(١) حسن المحاضرة ١ / ٦٣.

عروس النيل وألوهيته

وما دمنا نتحدث عن مصر والنيل، فلابد أن نذكر فى هذا الصدد ما كان يعتقده المصريون فى النيل من ألوهية، وما كانوا يضفون عليه من قداسة، حتى إنهم كانوا يخصونه فى موسم فيضانه بهدية سنية يتقربون بها إليه، كأنما يستدرون عطفه وماءه، وقد عرف ذلك فى الآداب الشعبية بعروس النيل.

يقول ابن تغرى بردى:.. لما ولى عمرو بن العاص مصر أتاه أهلها حين دخل بؤونة (يونيو) من أشهر القبط المذكورة، فقالوا: أيها الأمير، إن لنيلنا عادة أو سنّة لا يجرى إلا بها. فقال لهم: وما ذاك؟

قالوا : إنه إذا كان فى اثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر من عند أبويها، وأرضينا أبويها، وأخذناها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل فيجرى.

فقال لهم عمرو بن العاص : إن هذا لا يكون فى الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله.(1)

كانت المسافة هائلة بين هذه المعتقدات الوثنية وما يعتقده المسلمون الفاتحون من إسناد كل أمر إلى الله، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين، وهو الذى ينزل الغيث من السماء ليخرج به نبات الأرض، وقد وقع الصدام بين المعتقدين حين اقترب موعد الفيضان فى شهر بؤونة، وذهب المصريون لعمرو والى مصر يستأذنونه فى أن يؤدوا شعيرتهم المرسومة للنيل، ورأى عمرو فى ذلك وحشية بشعة، وشركاً بالله لا يقبله الإسلام، وكانت فرصة ليلقن المصريين درساً فى التوحيد، وليعلمهم ضرورة التخلى عن هذه المعتقدات الخرافية، والالتزام بالدين الجديد الذى لابد أن يحل لهم المشكلة، واستمهلهم حتى أرسل إلى أمير المؤمنين عمر يطلعه على ما عشش فى عقول القوم من أساطير، ويستنصحه فى هذا الأمر.

ورد أمير المؤمنين : قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما قبله، وقد أرسلنا إليك ببطاقة ترميها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى.

---

(1) النجوم الزاهرة ١ / ٣٥.

ونص البطاقة : **من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد، فإن كنت تجرى من قبلك، فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك.**

وانتظر المصريون ما سيقوم به حاكمهم لإنقاذهم وإنقاذ زراعتهم، وكانت المدة التى استغرقتها المراسلة قرابة ثلاثة أشهر : بؤونة وأبيب ومسرى وأوائل توت (الموافق يونيو ويوليو وأغسطس وأوائل سبتمبر)، ووصل رد أمير المؤمنين.

يقول ابن تغرى بردى :.. فعرفهم بكتاب أمير المؤمنين وبالبطاقة، ثم ألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم عيد الصليب[1] بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصالحهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم عيد الصليب، وقد أجراه الله ١٦ ذراعاً فى ليلة واحدة، وقطع تلك السنّة القبيحة عن أهل مصر ببركة سيدنا عمر رضى الله عنه.[2] أو لنقل : بفضل عقيدة التوحيد التى حملتها البطاقة.

وبدهى أن بطاقة المؤمنين لم تكن موجهة إلى النيل، بل إلى عقول أهل مصر، التى ترسبت فيها أبنية الشرك، وآن الأوان لهدم هذه الأبنية، وإزالة رواسبها، حتى يتجلى لأبصار المصريين وبصائرهم حقيقة التوحيد والإسلام.

إن أحداً لا يستطيع أن يتجاهل تأثير هذه البطاقة الخارقة على عقول المصريين ومعتقداتهم، لقد تزلزلت كل الأساطير التى نسجتها فترة الجاهلية المصرية، وكانت ما تزال تحتل عقول الناس، فإذا بها تتساقط كما يتحاتّ ورق الشجر عند ذبوله، وإذا بالناس يرون النيل بغير العين التى ألفوا أن يروه بها، أصبح النيل مخلوقاً مسخراً لهم، لا إلهاً متحكماً فى أرزاقهم، ... لقد أصبح النيل مطية مذللة يركبها الإنسان المصرى إلى الرخاء.

وفى ذلك ما فيه من الانقلاب العقائدى الذى أصاب الناس فى أعماقهم، وهيأهم ليتعقلوا رسالة الإسلام، الفاتح الجديد الذى جاء ليفتح القلوب قبل أن يفتح البلاد.

---

(١) يوم الصليب : ١٤ توت – أول أيلول (سبتمبر)، وكان قمة الفيضان.

(٢) النجوم الزاهرة ١ / ٣٦.

هذه المواقف وأمثالها مما كرم الله به بعض عباده من الصحابة - كانت بمثابة جلاء للبصائر، وإزالة للغشاوة التى غطت على رؤية الإنسان المصرى، منذ كان مستعبداً للكهنة والسحرة، فإذا بدولة الأوهام تسقط، قطعة قطعة، وخرافة خرافة، ليحل محلها البناء الجديد، بناء العقيدة التوحيدية.



الفصل الثانى عشر

النظام الإدارى والمالى فى مصر الإسلامية



لو نظرنا إلى مصر فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى)- لوجدنا أنها كانت ولاية تابعة للمدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، وواليها هو الحاكم الفعلى المباشر المقيم فى الفسطاط، وهو الذى يختاره الخليفة المقيم فى المدينة المنورة.

وللوالى سلطة واسعة، وبيده مقاليد الأمور كلها، الخاصة بولايته: من شئون الدين وشئون الدنيا من جيش ومال وقضاء وتعليم وزراعة وحرب وغيرها.

فهو يؤم المسلمين فى الصلاة فى الجامع الكبير، وهو يعد الجيش، ويقود المسلمين فى الحرب أو يختار من ينوب عنه فى قيادة الجيش، ذلك الذى كان فاتحاً لإفريقيا شمالاً أو غرباً أو جنوباً، ثم هو يشرف على جمع الجزية والخراج والزكاة، ويحدد المنصرف منها والمرسل إلى دار الخلافة فى عاصمتها، وعليه تعيين رئيس الشرطة لمعاونته فى حفظ الأمن وحماية النفس والمال، ولهذا الشرطى صلاحية اختيار معاونيه من حفظة الأمن والنظام.

ومن أعمال الوالى أيضاً إدارة الدولة داخلياً، فهو يختار الكتبة والمحاسبين وجامعى الخراج، الذين كانوا غالباً من القبط فى أول عهد الحكومة الإسلامية، وذلك لأن الروم الذين كانوا فى هذه الوظائف تركوا مصر بعد الفتح.

وكان من عمل الوالى أيضاً الإشراف على كتبة الدواوين الذين يسجلون أسماء السكان من قبط وعرب، حتى يتسنى لكل فرد أخذ عطائه، ودفع ما عليه من جزية وخراج وزكاة وصدقات فى الوقت المحدد، ودون تأخير.

وللوالى سلطة هامة، وهى اختيار القضاة، فبعد أن كان الوالى هو القاضى الوحيد، اتسعت أعمال الولاية، وتشعبت فروعها، وكثر عدد الناس، فكان الوالى يختار قضاة للفصل فى مشكلاتهم الاجتماعية واليومية من زواج وطلاق وميراث وبيع وشراء وقرض، كذلك كان يشرف على تنفيذ الأحكام بين المتقاضين، وفض الخصام بين المتنازعين، كل ذلك مع الإشراف على إقامة الحدود لتصان محارم

الله، وتحفظ حقوق المسلمين والذميين على السواء.

وكما ذكرنا فى حديثنا عن الجامع العتيق - كان وجود المشرفين على كل من القضاء والمحاسبة والمال والديوان فى جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط، وكان لكل عامل مكانه المحدد وزمانه الذى يتصدر فيه لوظيفته.



العملة المتداولة

وقبل أن نترك هذا الفصل لابد أن نتحدث عن العملة التى كانت متداولة فى ذلك العصر بين المسلمين وأصحاب البلاد المفتوحة وخاصة مصر، فى القرن الأول الهجرى.

ولنرجع قليلاً إلى العصر الجاهلى لنرى أن العرب فى الحجاز قد عرفوا العملة البيزنطية من دراهم ودنانير، وتعاملوا بها، وكانت الوحدة هى (الصولديوس) الذى سكه البيزنطيون على أساس الدراخمة اليونانية - الدرهم.

وعرف العرب كذلك الدراهم الفارسية المسماة بالبغلية، وتعاملوا بها على أنها تبر، فالمعول عليه هو وزن العملة - سواء كانت ذهباً أو فضة - وليس قيمتها الاسمية المتفق عليها.

وقد حدد الخليفة عمر بن الخطاب الوحدة فى العطاء والزكاة والخراج على أساس المثقال[1]، ووزن المثقال = ٢٢ قيراطاً إلا كسراً، وقال بعضهم: بل عشرون، ووزن السبعة مثاقيل = عشرة دراهم، والدينار المستعمل كان ذهباً خالصاً من الشوائب، ووزنه ٣٣,٧٥ قيراطاً.

وسوف نستعرض العلاقة بين النقود المتداولة فى الأمصار فى العصر الإسلامى الأول، فالدينار من الذهب، والدرهم من الفضة، وكل ١٠ أوزان درهم = ٧ أوزان دينار. وان كان جورجى زيدان حدد الوزن غير ذلك قال: والدينار مثقال من الذهب ووزن الدرهم درهم من الفضة وكان الدينار يبدل بعشرة دراهم وفى عهد بنى أمية زادت قيمة الدينار فصار ١٢ درهما.[2]

والعملات الصغيرة من الدينار هى الحبة، وكل دينار = ٦٦ حبة.

---

(١) حدد ابن سراج الفرق بين الدينار والمثقال، قال: والمثقال المعيار الذى توزن به النقود، وكان الدينار يساويه، والفرق بينهما أن الدينار اسم للقطعة من الذهب المضروبة والمثقال ميزانها الذى تقدر به. (فى النظام المالى الإسلامى ١٧١)

(٢) تاريخ مصر الحديث ٣٦/٢.

قال الكتانى: وكانوا يتعاملون بها فى جميع البلدان، أما أجزاء الدرهم فهى كالآتى :

الدرهم = ستة دوانق (جمع دانق)

والأوقية = ٤٠ درهماً

والنش = ٢٠ درهماً.

النواة = ٥ دراهم.

الشعيرة = ١ على ٦٠ من وزن الدرهم.

وقد أقر رسول الله ﷺ هذه التعاملات، وسار عليها الخلفاء من بعده، والأغلب أن المسلمين الأول قد ضربوا نقوداً.

قال جورجى زيدان: ذكر المرحوم جودت باشا أنه رأى نقوداً ضربها الأمراء والولاة فى عهد الخلفاء الراشدين أقدمها ضرب سنة ٢٨ للهجرة - فى عهد عثمان - فى قصبة هرنك طبرستان وعلى دائرها بالخط الكوفى (بسم الله ربى).(١)

ولما جاء عبد الله بن الزبير عام ٦٠ للهجرة ضرب دراهم ودنانير، وتعومل بها حتى مات عام ٧٣ للهجرة، فكسرت، ولم يُتَعَامَلْ بها، وكانت ممسوحة الوجهين.

وإن كان جورجى زيدان قال: كان عليها: أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بخط بهلوى(٢).

أما النقود الإسلامية التى ضربت على رسم الحاكم المسلم- ذهباً أو فضة- فقد ضربت فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، وكان ضَرْبُ أول دينار إسلامى عام ٦٧ للهجرة، ومعياره نفس المعيار السابق، وطابعه بيزنطى لأنه حمل صورة الخليفة على أحد الوجهين، وعلى الوجه الآخر الشهادة، ولم تكن هذه الدنانير تحمل اسم المكان الذى ضربت فيه، وإن كان من الأغلب أنها ضربت فى دمشق.

(١) تاريخ مصر الحديث ١ / ١١٢.

(٢) فارسى قديم.

وقد ذكر أيضاً أن أول من ضرب الدنانير الإسلامية هو معاوية بن أبى سفيان، قال بذلك الشيخ حمزة فتح اللـه المصرى فى (المواهب الفتحية فى علوم اللغة) ٢٥٣/١، وعليها تمثاله متقلداً سيفاً.(١)

وفى عام ٧٤ للهجرة ضرب الخليفة عبد الملك دنانير عليها الشهادة فقط، وليس عليها صورته، وكان ذلك فى كل من دمشق والفسطاط.

وقد ذكر صاحب الحوليات قصة النقود الإسلامية، قال: تم فى عام ٧٧ للهجرة تعريب النقود الإسلامية منذ أن فسخ عبد الملك المعاهدة البيزنطية قبل أربع سنوات، بعد ذلك استقلت العملة الإسلامية العربية عن التبعية البيزنطية (٢) مما أدى إلى تجدد حروب الصوائف بين الدولتين.

وخلت العملة من دينار ودرهم من الصور، ونقش على وجه منها (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وعلى الوجه الآخر (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله).

كما نقش على الوجه الأول: (ضرب هذا الدينار عام ٧٧ للهجرة) واقتصر الضرب على دمشق والفسطاط.(٣)

وقد ذكر ابن الأثير أن ضرب عبد الملك للدنانير جاء نتيجة لاستشارته خالد ابن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان أول عالم مسلم فى الكيمياء، قال ابن الأثير: فأحضر – عبد الملك – خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره، فقال: حرم دنانيرهم – أى الروم – واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى، فضرب الدنانير والدراهم.(٤)

وسنجد ذكراً لذلك فى أثناء الحديث عن ولاية عبد العزيز بن مروان، الذى شارك فى ضرب الدنانير فى الفسطاط بعد أن ضربت فى دمشق.

---

(١) نظام الحكومة النبوية ٢ / ٦٩.

(٢) قال العلامة الكتانى: وقد كنت رأيت فى سفرى لتطوان عام ١٣٤١ للهجرة درهماً من هذه الدراهم الهرقلية منقوشا عليه صورة هرقل، ثم اشتريت بعد ذلك درهماً رسم عليه اسم قيصر وصورته، ولعله أحد القياصرة المعاصرين لأول الإسلام. (نظام الحكومة النبوية ١ / ٤١٦)

(٣) حوليات الإسلام ٨٠.

(٤) الكامل ٤ / ١٦٧.

وقد اختلف المؤرخون فى استعمال المسلمين العملة الورقية، فمنهم من قال إنهم عرفوها، ومنهم من رفض هذا القول، ومن هؤلاء البلاذرى الذى قال: إن عمر بن الخطاب قال: هممت أن أجعل الدراهم من جلود الإبل، فقيل له: إذاً لا بعير، فأمسك.

أما من قال بتعامل العرب المسلمين بالأوراق النقدية بدلاً من الذهب والفضة فهو الكتانى الذى قال:.. ووقع فى رسالة لصديقنا الكاتب الكبير الأصيل السيد توفيق البكرى فى (الموافق بين الأعراف الأوربية والأعراف العربية) منقولة فى كتاب (صهاريج اللؤلؤ) صفحة ٢٩٠: أن عمر بن الخطاب كان يستعمل الورق والجلود مكان النقود للحاجة، وأنشد البكرى لأبى تمام:

لم ينتدب عمرٌ للإبْل يجعلُ منْ   جلودها النقد حين عَزَّ الذهبْ

يقول الكتانى: وبمكتبتنا فى قسم النقود دراهم مكتوبة بالكوفى عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وفى آخر الكتابة اسم على، ويقطع الناظر المتأمل فى كتابتها ونقشها القديم أنها لعلى بن أبى طالب.(١)

(١) الموافقات ٢ / ٦٩.

العربية فى مصر

ونقصد بالعربية: اللغة مرتبطة بأمرين، أولهما: أنها لغة الفاتحين الذين اندفعوا من قلب الجزيرة العربية إلى الأقطار المحيطة بها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكانت مصر هى الجبهة الغربية التى طالما استقبلت موجات الهجرة العربية، التى استوطنت المنطقة الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، وعاشت فيها قبائل الأنباط.

وثانى الأمرين: أنها لغة الرسالة المحمدية، نزل بها القرآن، الذى كان الدافع الرئيس لاندفاع هؤلاء الفاتحين خارج موطنهم لينشروا رسالة الإسلام، ويقيموا شريعة الله فى الأرض، ويقوموا ما انحرف من عقائد الشعوب نحو الوثنية، والمجوسية، ويحرروا العقيدة الدينية مما شابها من آثار الشرك والتثليث، وقد جاء ذلك فى تعاليم القرآن فى قوله تعالى:﴿ **هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [التوبة:٣٣].

لقد واجه المصريون زحف اللغة العربية باعتبارها لغة الفاتحين، وباعتبارها لغة العقيدة الجديدة التى يُدْعَوْن لاعتناقها.

وكانت المواجهة على ثلاثة محاور:

المحور الأول: المحور السياسى، والثانى: المحور الاجتماعى، والثالث: المحور الدعوى الدينى.

فعلى المحور السياسى بدأت علاقة أهل مصر باللغة العربية فى صورة العهد الذى أبرمه عمرو بن العاص مع المقوقس، ومن نصوص هذا العهد:

((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان، على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم، ولا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقض، ولا تساكنهم النوبة، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لُصُوتهم (لصوصهم)، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع

عنهم من الجزية بقدرهم، وذمتنا ممن أبى برئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم من الجزية بقدر ذلك، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم، ومن أبى منهم واختار الذهاب، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا، عليهم...

عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين.))(١)

ولعل هذا النص هو أول نص بالعربية تقع عليه أعين المصريين، وإن كان عهدهم بالعربية المنطوقة بعيداً، فيما تسجله الدراسات المصرية.

وهو أيضاً النص الذى سجل تحولاً خطيراً فى حياة مصر، فقد خلصها من أيدى الرومان الطغاة، وقرر مصيرها بتلك الروح التى تتسم بالسماحة والأمان، ولم يكن للمصريين إلا أن يترقبوا مدى وفاء هؤلاء الفاتحين بما وعدوا به فى عهدهم المبرم، الذى أزاح الرومان ومظالمهم إلى الأبد.

من خلال هذا العهد بدأت العلاقات بين الفاتحين والمصريين، وهى علاقات اجتماعية تنشأ فى الأسواق، وتتوثق بالتعامل السليم، وتزداد توثقاً بالجوار، والتعارف، ثم بالتزوج بالمصريات، وهو أمل كل وافد إلى مصر، لاسيما إذا كان العربى جاء ضمن الفاتحين، وليس معه زوجة، ومن حقه أن يتزوج بأكثر من واحدة، من أولئك النسوة الجميلات ذوات المعنى والطعم الجديد والغريب.

والهدف من ذلك فضلاً عن مطلب المتعة والعفة – تكثير المسلمين، وتكوين مجتمع مسلم، يكثر فيه السواد العربى.

ويذكر هنا ما روى من أن الزبير بن العوام طلب من عمرو بن العاص أن يقسم أرض مصر بين الفاتحين كما قسم الرسول ﷺ خيبر، فقال عمرو: لا.. حتى أكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فرد عليه قائلاً: ((**أقِرَّها حتى يغزو حَبَلُ الحبَلَة**))، أى: حتى يغزو أولاد الأولاد.

ومعنى ذلك أن موجة الفاتحين كان ينبغى أن تتضاعف، عن طريق الزواج بالمصريات، وهو ما حدث فعلاً بصورة مذهلة أشاعت العربية فى الشارع، والسوق، وفى القرية والمدينة، ومن جيل لآخر ازداد اندماج العرب المسلمين

---

(١) النجوم الزاهرة ١ / ٢٤.

بطبقات المجتمع المصرى، وتداخلت المصالح المتبادلة على المستوى الاجتماعى، فسهل هذا الاختراق الاجتماعى التحول من القبطية إلى العربية شعبياً.

فإذا انتقلنا إلى المحور الثالث، وهو محور الدعوة، كان علينا أن نشير إلى الهدف الأسمى الذى دفع إلى حركة الفتوحات الإسلامية، وهو تبليغ الدعوة الإسلامية إلى الشعوب المفتوحة، وتحويل هذه الشعوب من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وحسب المصريين أن يشهدوا بأعينهم تأثير بطاقة عمر بن الخطاب، التى خاطب بها نهر النيل بالعربية، وهو تأثير مذهل - حتى يحفظوا نص البطاقة باعتباره نص التحويل من الوثنية إلى التوحيد عقديا، وإلى العربية لغويا.

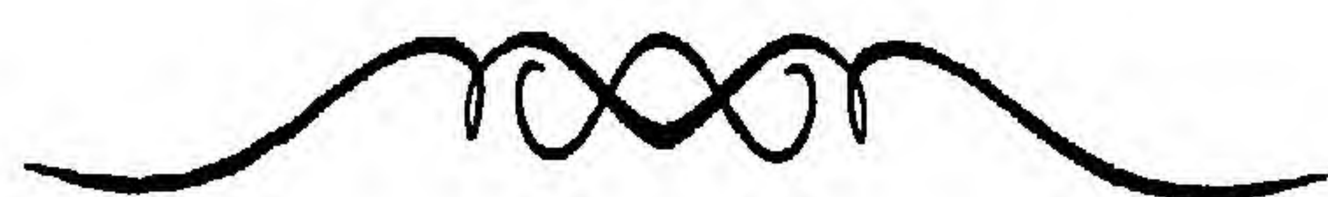
ومن المؤكد أن نظرة الفاتحين إلى الشعب القبطى المصرى كانت تؤمل فى تحويله من عقيدة التثليث إلى عقيدة التوحيد، أى: نقله من النصرانية إلى الإسلام، ومن ثم، من القبطية المهزومة أمام اليونانية والرومانية - إلى العربية الفاتحة المنتصرة.

لقد جاءت إلى مصر كوكبة عظيمة من الصحابة فى جيش الفتح، ووفد إليها أيضاً جماعات كثيرة من الصحابة، ومن التابعين، لنشر الدعوة الإسلامية، وتعليم المسلمين، صغاراً وكباراً، تعاليم الإسلام، وقد كان الداخلون إلى الإسلام من المصريين بحاجة إلى معرفة العربية، ليقرأوا القرآن، ويتعلموا حديث رسول الله ﷺ، ويصححوا عبادتهم.

وهكذا انتشرت العربية فى مصر بفعل العوامل المختلفة، السياسية، والاجتماعية، والدينية، فما إن وافى العقد التاسع من القرن الأول حتى عربت الدواوين، وحكمت العربية المجتمع بعد مضى أقل من ستين سنة من الفتح الإسلامى، أى: بعد جيلين اثنين، وكان تعريب الدواوين على يد أمير مصر عبد الله بن عبد الملك عام ٨٦ للهجرة، وكان هذا الإجراء تأكيداً لواقع اللغة فى المجتمع، فقد غلب استعمال العربية آنذاك على القبطية، كما كان دعوة لكل من لا يعرف العربية من الأقباط أن يتعلمها، تيسيراً لحياته وحركته فى المجتمع الذى صار معظمه من المسلمين.

الفصل الثالث عشر

أمراء مصر المسلمون



أمراء مصر المسلمون

من المحرم عام ٢١ للهجرة: المحرم عام ١٠١ للهجرة

الموافق ١٠ من ديسمبر عام ٦٤١: أول يوليو عام ٧١٩ للميلاد

ـ تولى أمر مصر الإسلامية فى القرن الأول الهجرى خمسة عشر أميراً، منهم أربعة من قبل الخلفاء الراشدين فى المدينة، والباقون أمراء لبنى أمية فى دمشق.

وكان أولهم فاتح مصر العظيم عمرو بن العاص، الذى تولى إمرتها مرتين، الأولى من المحرم عام ٢١ للهجرة إلى عام ٢٦ للهجرة (الموافق ١٠ من ديسمبر عام ٦٤١ إلى عام ٦٤٥ للميلاد).

والإمارة الثانية فى ربيع أول عام ٣٨: غرة شوال عام ٤٣ للهجرة (الموافق سبتمبر عام ٦٥٨: ٦ من يناير عام ٦٦٤ للميلاد)، حيث انتقل إلى الرفيق الأعلى.

وسوف نلقى الضوء على سيرة هؤلاء الأمراء، ومدى تأثيرهم فى تاريخ مصر الإسلامية، ودور كل منهم فى نشر دعوة الإسلام.

عمرو بن العاص

قال الذهبى: عمرو داهية قريش، ورجل العالم، ومن يضرب به المثل فى الفطنة والدهاء والحزم.[1]

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم[2] بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشى السهمى.

يلتقى مع رسول الله ﷺ فى الجد السابع: كعب بن لؤى.

يكنى: أبا عبد الله، وأبا محمد.

وكلت إلى ذويه من بنى سهم الحكومة فى الجاهلية، والمقصود بالحكومة: القضاء، أى: إن كبار القرشيين كانوا يحتكمون إلى زعماء بنى سهم فيما يختلفون فيه ويتنازعون عليه، وكان لبنى سهم أيضاً الإشراف على الأموال الخاصة بالآلهة الأوثان.

أما والد عمرو: العاصُ بن وائل، فكان من سادات قومه وأشرافهم، وأحد أقطاب الكفر الذين كانوا يكيدون للإسلام ورسوله، ويستهزئون به، مات كافراً بعد الهجرة بشهر، كان ذا تجارة واسعة وبذخ وجاه وكثرة أموال، إلا أنه كان مساطلاً لا يحب رد الحقوق إلى أصحابها.

وقد حدث ذات مرة - وعمرو فى الرابعة عشرة من العمر تقريباً - أن ابتاع العاص سلعة من أحد بنى يزيد فى اليمن، ثم رفض دفع ثمنها، ولما أيقن الرجل أنه لن يسترد حقه قرر أن يفضح العاص، فوقف على أعلى جبل فى مكة: جبل أبى قبيس، مستجيراً صارخاً طالباً العون، فخف إلى نجدته كبار القوم من قريش، وراضوا الرجل وأعطوه حقه.

---

(١).سير أعلام النبلاء ١ / ٦٦.

(٢) ذكر النسابة عشرة بطون من قريش انتهى إليها الشرف فى الجاهلية والإسلام، وهم: بنو هاشم، وبنو أمية، وبنو نوفل، وبنو عبد الدار، وبنو أسد، وبنو تيم، وبنو مخزوم، وبنو عدى، وبنو جمح، وبنو سهم قوم عمرو.

ثم اجتمعوا فى دار عبد الله بن جدعان، وتعاهدوا، وتحالفوا على نصرة المظلوم والوقوف فى وجه الظالم.

يقول ابن هشام:.. وسمى حلف الفضول، وقد قال ﷺ فيه: لقد شهدت فى دار ابن جدعان حلف الفضول، وما أحب أن لى به حمر النعم، ولو دعى إليه فى الإسلام لأجبت.(١)

أما والدة عمرو فهى سلمى بنت حرملة من اليمن، سباها بعض فتاك العرب وباعوها، وانتقلت من بيت إلى بيت بيعاً وشراءً حتى وصلت إلى بيت العاص ابن وائل.

فصّل عمرو كل شىء عن تاريخ أمه فى حادثة ذكرها الرواة، قال المبرد: إن حساده جعلوا لرجل ألف درهم على أن يسأل عمراً - وهو على دست الإمارة ومنبر الخطابة عن أمه، فقال له: من أم الأمير ؟

فأمسك عمرو عن غضبه، وقال: أمى سلمى بنت حرملة، تلقب بالنابغة، من بنى عنزة، أصابتها رماح العرب، فبيعت فى عكاظ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان، فوهبها للعاص بن وائل، فولدت له وأنجبت، فإن كانوا جعلوا لك شيئاً فخذه.(٢)

ولد عمرو بن العاص - على الأغلب - عام ٥٠ قبل الهجرة، وهناك رأى قائل بمولده عام ٤٤ قبل الهجرة، المهم أنه قال: إنه شهد يوم مولد عمر بن الخطاب، فهو إذن كان واعياً بما يجرى فى المجتمع، وليس أقل من خمس سنوات، وقد ولد ابن الخطاب - على أكثر الروايات - عام ٤٠ قبل الهجرة.

فيكون مولد عمرو بن العاص ما بين عامى ٤٥ و٥٠ قبل الهجرة، والله أعلم.

وتربى عمرو فى كنف أبيه العاص، فخوراً ببنوته، شديد الاعتداد به وبعشيرته، معتزاً بنسبه، وكان العاص من سادات قريش وأشراف العرب، وكانت التجارة هى رأسماله، ولاتساع التجارة فقد تعددت أسفاره بين اليمن والشام ومصر،

(١) السيرة ١ / ٢٦٠. وكان ﷺ فى قرابة العشرين من العمر.
(٢) الكامل ٤٤٧.

فى رحلتى الصيف والشتاء، وكان عمرو المرافق الدائم لوالده فى حلّه وترحاله، حتى أصبحت التجارة والسفر المدرسة الأولى التى تخرج فيها عمرو، وتعلم منها أحوال الحياة، ومواقع البلاد، وأسرار الشعوب، وسياسة الأمم.

وكانت تربية عمرو تربية أبناء سادة، فتعلم ركوب الخيل، واستخدام السيف، وحيل القتال من كرّ وفر استعداداً لمواجهة قطاع الطرق، وفتاك العرب الذين يقابلونهم فى رحلاتهم التجارية، وقوافلهم الضخمة، كذلك تعلم السباحة(١) فى الآبار ومجارى المياه، ثم تعلم القراءة والكتابة والحساب، وتعلم فى سفره الدائم جغرافية البلاد، وشيئاً من تواريخها.

وقد ذكر الرواة سفر عمرو إلى مصر أكثر من مرة، وقيل: إنه زار الإسكندرية، وعرف دروبها وطرقها وشعابها، حتى إن الخليفة عندما طلب منه وصفها كتب له كل صغيرة وكبيرة عنها، وكأنه أحد أبنائها.

وأسلم عمرو فى صفر عام ٨ للهجرة، يقول خالد بن الوليد فى قصة إسلامهما: خرجت، فلقيت عثمان بن طلحة(٢)، فذكرت له الذى أريد - أى الإسلام - فأسرع بالإجابة، وخرجنا جميعاً، فأدلجنا سحراً، فلما كنا بالهدّ(٣) إذا عمرو بن العاص، فقال: مرحباً بالقوم. قلنا: وبك. قال: أين مسيركم ؟. فأخبرناه وأخبرنا أنه يريد أيضاً النبى ﷺ ليسلم، فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة على النبى ﷺ أول يوم فى صفر عام ٨ للهجرة.(٤)

قال عمرو: فتقدم خالد فأسلم وبايع، ثم دنوت، فقلت: يا رسول الله إنى أبايعك على أن تغفر لى من ذنبى ما تقدم، ولا أذكر ما تأخر. فقال ﷺ: يا عمرو،

---

(١) لعل هذه كانت سمة العصر فى ممارسة الرياضات المختلفة، وقد أثر عن الرسول ﷺ قوله : أحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار. (نظام الحكومة ٩٣/٢)

(٢)هو : هو عثمان بن طلحة بن عبدالعزى بن عبدالدار القرشى العبدرى الحجبى، قتل أبوه وعمه وإخوته الأربعة كفارا يوم أحد، هاجر فى هدنة الحديبية مع خالد وعمرو، وقال النبى ﷺ ألقت إليكم مكة بأفلاذ أكبادها. مات سنة٤٢هـ فى مكة.

(٣) الهدّ: ربما كان مكاناً بالقرب من مكة.

(٤) الطبقات ٤ / ٢٥٢.

بايع، فإن الإسلام يَجُبُ[1] ما قبله، وإن الهجرة تجب ما قبلها. فبايعته وانصرفت.[2]

كان رسول الله ﷺ على دراية بكل أصحابه، فقد عرف عمراً، واختار له ما يناسبه من حب الرياسة واعتداده بالنسب، وقدرته على الإقناع، وجرأته، وإقدامه، فبعثه بعد إسلامه مباشرة لهدم الصنم (سواع) الذى عبدته هذيل، وكان من مسئولية بنى سهم فى الجاهلية.

ثم بعثه لقضاعة أخوال أبيه، وكانوا يتأهبون للزحف على المدينة، فهزمهم فى موضع سمى بذات السلاسل.

وندبه ﷺ فى عمل ثالث، هو: الدعوة إلى الإسلام فى عمان، وحمل كتاب رسول الله ﷺ إلى ملكيها، وكان عند حسن ظن الرسول ﷺ به، فدخل الملكان فى الإسلام، وبقيا فى ملكهما، وجازاه ﷺ بأن جعله على الزكاة فى هذه البلاد، يجمعها ويوزعها على الفقراء، وله منها نصيب العاملين عليها.

قال عمرو: ما عدل بى ﷺ وبخالد بن الوليد منذ أسلمنا أحداً من الصحابة فى حربه.

وانتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وتولى أبو بكر الصديق، فأبقى عمراً على ولايته الزكاة، وبعث إليه بكتاب، وكانت صدمة شديدة لعمرو بوفاة الرسول ﷺ.

يقول العقاد: ولم ير عمرو قط فى حزن كالحزن الذى غمره يوم ورد إليه ذلك الكتاب، فبكى طويلاً، وجلس يتلقى العزاء كما يتلقاه فى أقرب الناس إليه.[3]

وظهرت فتنة المرتدين فى الجزيرة، فبعث الصديق عمراً - بعد أن أمده بجيش - ليحارب مرتدى قضاعة، فهزمهم، وكافأه الصديق بأن ولاه أمر قضاعة.

---

(١) يجُب: يمحو.
(٢) تاريخ الطبرى ٣ / ٣١.
(٣) عمرو بن العاص للعقاد ٦٠.

ثم ما لبث أن استدعاه عندما سمع أن هرقل قد جمع الجيوش، واتجه إلى فلسطين، فسيّر الصديق أربعة جيوش إلى الشام لتطبق على جيش هرقل، وأمراؤها هم: أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين، ويزيد بن أبى سفيان إلى دمشق، وشرحبيل بن حسنة إلى وادى الأردن.

قال ابن الأثير: وأمرهم الخليفة أن يعاون بعضهم بعضاً، وأن يكونوا جميعاً تحت إمرة أبى عبيدة، وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين، وأن يمد الجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة إلى ذلك.(١)

وكان الصديق قد جعل جيش عمرو تسعة آلاف معظمهم من مكة والطائف وهوازن، وأمره أن يجعل سبيله إلى فلسطين عن طريق العقبة، ثم أسرّ إليه حديثاً خاصاً: أن يكاتب أبا عبيدة، وينجده إذا أراده، ولا يقطع أمراً إلا بمشورته.

وخرجت الجيوش فى أواخر عام ١٢ للهجرة، وبدأت رايات النصر ترفرف على الأمصار بعد أن فتح الله على المسلمين أكثر بلاد فارس والروم، وكان أول فتح لعمرو بن العاص هو (غزة).

قال العقاد نقلاً عن ماير: إن سكان غزة المسيحيين خرجوا مع جيش الروم عندما حاصرها العرب، إلا أنهم عادوا إليها بعد اطمئنانهم إلى الفاتحين، ودخل فريق كبير منهم فى الإسلام، وذهب المتكلمون عنهم إلى عمرو بن العاص يطلبون منه قسمة الكنائس بينهم، فقسمها بينهم على حسب عددهم، وأعطى الكنيسة الكبرى لأصحاب العدد الأكبر، وهم المسلمون، وأمر بإبقاء الكنيسة الأخرى لمن بقى على دينه من المسيحيين.(٢)

وقد كان هذا السلوك من عمرو معبراً عن موافقة مبدئية لتحقيق العدل بين المسلمين وبين من بقى على دينه من أبناء الشعوب المفتوحة، وهو نموذج لما صار إليه تصرفه فى مصر بعد ذلك.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٩٥.

(٢) عمرو بن العاص للعقاد ١٥٨.

أما الفتح الثانى فكان (اليرموك)[1] وقد اشترك فيه جميع القادة، وتعاهد المسلمون على النصر أو الشهادة، واتفقوا على قيادة خالد بن الوليد الذى أتى لتوه من فارس، وهجم الروم بقضهم وقضيضهم على المسلمين، فكشفوا، وسقطت خذلانا رايتهم، فأسرع كل من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص لأخذها فى يده، وأخذها عمرو واندفع يقاتل المتقدمين من الروم حتى أدبروا مهزومين، وكان النصر المؤزر.

وجاءت المعركة الثالثة لعمرو مع الروم فى (أجنادين)، وفيها كان لعمرو موقف شجاع قلما يتكرر.

قال ابن الأثير: لما انهزم الروم يوم أجنادين انتهوا إلى موضع ضيق لا يعبره إلا إنسان بعد إنسان، فجعلت الروم تقاتل عليه، وقد تقدموه وعبروه، فتقدم هشام بن العاص[2]، فقاتلهم حتى قتل ووقع على تلك الثلمة فسدَّها، فلما انتهى المسلمون إليها، هابوا أن يوطئوه الخيل، فقال عمرو بن العاص: أيها الناس إن الله قد استشهده، ورفع روحه، وإنما هو جثة، فأوطئوه الخيل. ثم أوطأه هو، ثم تبعه الناس حتى قطعوه، فلما انتهت المعركة بهزيمة الروم، ورجع المسلمون إلى المعسكر، كرّ عليه عمرو، فجعل يجمع لحمه وعظامه وأعضاءه، ثم حمله فى نطع[3]، فواراه.[4]

وشارك عمرو فى حصار دمشق لمدة ستة أشهر، فكان على جيش من الجيوش الأربعة المحاصرة حتى استسلمت صلحاً بعد ذلك فى ١٤ من رجب عام ١٥ للهجرة.

وخرج بجيشه بعد ذلك إلى (بيسان)، وحاصرها حتى فتحها، وصالح أهل (طبرية وفحل)، وكتب للخليفة بفتح الأردن.

---

(١) لما نزل الروم على ضفة اليرموك فى الواقوصة، وصار الوادى خندقاً لهم، صاح عمرو بن العاص: أيها الناس، أبشروا، حصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير.

(٢) أخو عمرو بن العاص من الأب، أسلم وهاجر قبله، استشهد فى أجنادين عام ١٣ للهجرة.

(٣) النطع: قطعة من الجلد.

(٤) أسد الغابة ٥ / ٤١٢.

واتجـه إلـى فلسـطين، وفيهـا القـائد الرومـى الداهيـة (أريطيـون)[1] واسـتقل عمـرو جيشـه، فكتـب للخليفـة يطلـب المـدد، فقـال الخليفـة عمـر قولتـه المشـهورة: **قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمَّ تنفرج؟**

ثم كتب الخليفة إلى القواد المسلمين أن يسيروا بجيوشهم إلى قيسارية والرملة وبيت المقدس (إيليا) ليشغلوا الروم عن عمرو، وهـزم أرطبـون الـروم فـى ثمـانين ألفاً، وفر إلى بيت المقدس نهاية عام ١٥ للهجرة، وكـان مـن نتـائج هـذا الانتصـار اذعان الروم فـى بـلاد كثيرة، ومصـالحتهم عمـراً - مثـل (يافـا ونـابلس وعسـقلان والرملة وعكا وبيروت ومرج عيون ورفح).

وتم بعد ذلك فتح بقية المدن الفلسطينية، حتى وصل إلى بيت المقدس، فـأخذ يراسل أرطبون ليسلم له المدينة صلحاً، ولكنه أبى، فحاصرها عمـرو قرابـة أربعـة أشهر، وجـاء أبـو عبيدة، وكـرر عليهم الإسـلام أو الجزيـة، فطلبـوا التفـاوض مـع الخليفة عمر بنفسه، وتم الاتفاق، وكتـب عهد الأمـان عـام ١٦ للهجـرة فـى الجابيـة بالقرب من دمشق.

وجاء عمر ثانية إلى الجابية عام ١٨ للهجرة، وفيهـا دار الحديـث بينـه وبيـن عمرو بن العاص على فتح مصر - كما عرفنا.

وسوف نسرد أسماء البلاد التـى فتحهـا البطـل عمـرو بـن العـاص صلحـاً أو حرباً: غزة، أجنادين، اليرموك (مشـاركة)، بيت المقدس (مشـاركة)، نـابلس، اللّد، الرملة، عمواس، سبيطية، مرج جبرين، يافا، مـرج عيـون، عكـا، عسـقلان، رفـح، وبيروت، ثم درة الفتوحات: مصر.

وبعد أن فتح مصر، قضى فى ولايتها قرابـة خمـس سـنين مـن المحـرم عـام ٢١ للهجرة إلى عام ٢٧ للهجرة، يتولى إدارتها وخراجهـا والدفـاع عنهـا، ويسـاعده فى ذلك جمع من الصحابـة، وتولـى عثمـان الخلافـة، وفكـر فـى عـزل عمـرو عـن مصر، ولكنه انتظر حتى استقرت الأمور فى الإسكندرية بعد نشوب الفتنة علـى يـد عمنويل الخصى الرومى (أنظر فصل فتح مصر) الفصل الرابع.

---

(١) ينطقها العرب (أرطبون).

وبعد انتصار عمرو عرض عليه عثمان تولى شئون الحرب، على أن يتولى عبد الله بن أبى السرح - أخو عثمان فى الرضاعة - شئون الخراج، ورفض عمرو، وخرج من مصر معتزلاً فى فلسطين، وكان لا ينزل مكة أو المدينة إلا حاجاً أو معتمراً.

ولم يتركه الوشاة والحاقدون، بل كانوا يوقعون بينه وبين الخليفة، واستدعاه عثمان مرة، وخلا به، وابتدره قائلاً: يا ابن النابغة، أتطعن علىّ، وتأتينى بوجه، وتذهب عنى بوجه آخر ؟.

ويرد عمرو فى هدوء: إن كثيراً مما يقوله الناس، وينقلون إلى ولاتهم باطل، فاتق الله يا امير المؤمنين فى رعيتك.(١)

ونقل عنه الوشاة أيضاً، أنه قال: إنى كنت ألقى الراعى، فأحرضه على عثمان.

وهذا فيما نرى كذب صراح، تأباه أخلاق عمرو وتجربته، ثم ماذا سيفعل الراعى - لو صح القول - بخليفة المسلمين ؟ وما شأن رجل يعيش فى الصحراء، ليس معه إلا غنيماته، بأمور الدولة والحكم ؟ مع ما يفصله عنها من مسافات هائلة مادية وأدبية ؟...

ومن ناحية أخرى، لقد كان الخليفة عثمان كلما أعيته الحيلة، وطلب المشورة، بعث فى إحضار عمرو ليستشيره، فهو يعلم إخلاصه ودينه، ومن ذلك ما حدث عندما اشتدت الأزمة، واستحكمت، أراد عثمان أن يعرف رأى عمرو فى ذلك، ويطلب منه المشورة. يقول الطبرى: قال عثمان لعمرو: ما ترى يا عمرو ؟. قال: أرى أنك قد لنت لهم، وتراخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك، فتشتد فى موضع الشدة، وتلين فى موضع اللين، وإن الشدة تنبغى لمن لا يألو(٢) الناس شراً، واللين لمن لا يخلف الناس بالنصح، وقد فرشتهما جميعاً باللين.(٣)

---

(١)الطبرى ٥ / ١٠٩.

(٢) لا يألوا: لا يكف.

(٣) تاريخ الطبرى ٤ / ٣٤٣.

ما أروعها نصيحة ومشورة، فهذا الرأى الصفى من عمرو يسديه إلى أميره وأمير المؤمنين عثمان يقطع أولاً: بأن ما نسبه بعض الرواة إليه من تحريض الرعاة على عثمان كذب، لا يصح اعتماده فى الحكم على موقف عمرو من الخليفة من ناحية، وعلى شخصية عمرو من ناحية أخرى.

وثانياً: يرسم هذا الرأى صورة سياسية باهرة لشخصية عمرو فى صدقها وذكائها وتجربتها، وهى أمور ما كانت لتجتمع إلا فى عمرو، فقد استطاع أن يعالج الموقف بكل احتمالاته ووجوهه فى ضوء ما حفظ من أصول السياسة التى كان ينتهجها عمر بن الخطاب، ولقد كان يتمنى أن يسير عثمان على نهج عمر، بدلاً من سياسته المتراخية التى أدت إلى تخبط الناس، وتمردهم عليه.

واعتزل عمرو الفتنة فى أواخر عهد عثمان، فلم يزر المدينة، شأنه فى ذلك شأن مجموعة من الصحابة، منهم: سعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن عمر، وأبو موسى الأشعرى، وغيرهم.

واستشهد ذو النورين، واختار الصحابة علىّ بن أبى طالب، وبدأت الفتنة الكبرى بهروب قتلة عثمان إلى جيش الخليفة الجديد، مما جعل معاوية والى الشام -من عشرين سنة تقريباً- يرفع شعار القصاص لعثمان، لاسيما وأن السيدة نائلة بنت الفرافصة، زوج الشهيد عثمان كتبت إليه تحمله مسئولية القصاص من قتلة زوجها، وربما كان هذا هو السبب فى إصرار علىّ بن أبى طالب على نزعه من ولاية الشام.

ومع أن كلاً من المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عباس وغيرهما حاولوا ثنيه عن عزمه فى إقالة أمراء عثمان، وخاصة معاوية، فإن الخليفة علياً أصر على طرد كل الولاة السابقين، وازدادت الفتنة اشتعالاً.[1]

---

(١) قال الإمام الغزالى: ما جرى بين على ومعاوية رضى الله عنهما كان مبنياً على الاجتهاد، لا منازعة من معاوية فى الإمامة، إذ ظن علىّ رضى الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائرهم، واختلاطهم بالعسكر يؤدى إلى اضطراب أمر الإمامة فى بدايتها، ورأى التأخير أصوب، وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع عظيم جنايتهم، يوجب الإغراء بالأئمة، ويعرض الدماء للسفك، وقد قال أفاضل العلماء: كل مجتهد مصيب... (إحياء علوم الدين ١ / ٨٦)

اما عمرو فقد كان شديد القلق على مصر، وما تؤول إليه أمورها فى ظل ولاة غير أكفاء، وسياسة مضطربة، لقد كان يرى أن بقاء مصر الإسلامية هو الشرط الأساسى لاستمرار المسلمين فى الشام وفلسطين، مع ملاحظة فشل الفتوحات فى الجبهة المغربية، آنذاك حتى الإسلام لم يستقر فى بلاد المغرب إلا فى العقد الثامن تقريبًا، ولذلك فقد كان موقفه مع معاوية، وعودته إلى ولاية مصر فيما بعد لتأمين الوجود الإسلامى فيها، فقد كان عالى الهمة، عالى القصد، ينظر إلى الأمور نظرة استراتيجية، لا تقف أمام الأحداث العارضة بقدر ما تستهدف احتواء أخطار المستقبل القريب والبعيد. وتدافعت أحداث الفتنة الكبرى، حتى آلت إلى التحكيم الذى شارك فيه عمرو، وبعد التحكيم دخل عمرو مصر للمرة الثانية عام ٣٨ للهجرة، بعد غياب عنها اثنتى عشرة سنة، حتى اختار المسلمون معاوية خليفة بعد أن تنازل الحسن بن على له فى ربيع أول عام ٤١ للهجرة (عام الجماعة)، حيث أخمدت ريح الفتنة.

وعاد المسلمون بعد حروب ومنازعات صفاً واحداً، وبعد أكثر من خمس سنوات لم يخرج فيها جندى مسلم للغزو والفتح، لطف الله بالأمة، ورجع المسلمون للفتح، حتى وصلوا إلى حدود الصين شرقاً، والقوقاز شمالاً، وأسبانيا والبرتغال غرباً.

ولى الخليفة معاوية الأموى عمرو بن العاص إمارة مصر رسمياً، واتفق معاوية مع عمرو على جعل مصر طعمة له طول حياته، لا يغرم من خراجها إلا أعطية الجند، والنفقة على مصلحتها، واستقرت الأمور فى مصر، وأخذ الوالى عمرو يصلح ما أفسدته الأيام الماضية، وبدأ بإطفاء نار الفتن الطائفية التى تأججت بين عثمانية وشيعة وخوارج وأمويين، حتى هدأ الناس، وأقبلوا على أميرهم، محبين، مخلصين، يزرعون أرضهم، ويجنون ثمارهم، ويدفعون زكاتهم وخراجهم لأميرهم.

وفى سنوات الولاية الثانية أشرف عمرو بنفسه على القضاء والخراج والجند والشرطة، فقسم البلاد إلى مديريات، وأقام على كل منها قاضياً مسلماً، وآخر قبطياً، يفصل فى النزاع الدينى والمدنى لغير المسلمين، وفقاً لشرائعهم.

جاء فى كتاب (تاريخ الإسلام السياسى)، صفحة ٢٧٢: وقد تحبب عمرو إلى القبط، وأطلق لهم حرية الدين، وأقام العدل بينهم، فتمتعوا بالهدوء والطمأنينة.

ولم ينس عمرو فى خضم مسئولياته الجسام حديث رسول الله ﷺ، فكان يرويه للناس، ويذكرهم به، ويدعوهم إلى حفظه والالتزام بتعاليمه.

وقد ورد له فى كتب الصحاح سبعة وثلاثون حديثاً، مع قصر المدة التى قضاها فى صحبة رسول الله ﷺ، وانشغاله بما ندبه إليه من مسئوليات قتالية وإدارية.

لقد عاد عمرو إلى مصر، كما تعود العافية إلى البدن، وكما يفد النسيم الأصيل، لينعش أنفاس المحرومين.

وفاة الفاتح عمرو بن العاص

واقترب عمرو البطل الصنديد من التسعين، أو زاد قليلاً، فوهن جسمه، وتتابع مرضه، واقترب من اللقاء.

فكان يحاسب نفسه طويلاً، ويبدى الندم، ويطلب المغفرة، ويدعو دعاء، ذكر ابن عساكر بعضاً منه عن أناس سمعوه، قال:.. سمعت عمرو بن العاص يصلى بالليل، وهو يبكى، ويقول: اللهم إنك آتيت عمْراً مالاً، فإن كان أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار، فاسلبه ماله، وإنك آتيت عمراً أولاداً فإن كان أحب إليك أن تثكل عمراً ولده ولا تعذبه بالنار، فاثكله ولده، وإنك آتيت عمراً سلطاناً، فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار، فانزع منه سلطانه.[١]

وقد ذكرت كل كتب السيرة الساعات الأخيرة من حياة البطل، والحوارات التى دارت بينه وبين ابنه، وبينه وبين بعض عواده.

فهذا ابنه عبد الله يقول له عندما تأكد أنها النهاية: يا أبت إنك كنت تقول: عجباً لمن ينزل به الموت وعقله معه كيف لا يصفه ؟، فصف لنا الموت وعقلك معك.

فقال: يا بنى، الموت أجل من أن يوصف، ولكنى سأصف لك منه شيئاً، أجدنى كأن على عنقى جبل رضوى، وأجدنى كأن فى جوفى شوك السُلاّء، وأجدنى كأن نفسى يخرج من ثَقْبِ إبرة.[٢] والتفت عمرو لابنه يوصيه الوصية الأخيرة، قال: يا بنى إذا مت، فاغسلنى غسلة بالماء، ثم جففنى فى ثوب، ثم اغسلنى الثانية بماء قراح، ثم جففنى فى ثوب، ثم اغسلنى الثالثة بماء فيه شىء من كافور، ثم جففنى فى ثوب.. ثم إذا حملتنى على السرير فامش بى مشياً بين المشيتين، وكن خلف الجنازة، فإن مقدمها للملائكة، وخلفها لبنى آدم، ولا تصحبنى نائحة ولا نار، فإذا وضعتنى فى القبر فسنّ[٣] علىّ التراب سناً... فإذا فرغتم من قبرى، فامكثوا

(١) عمرو بن العاص ٣٤٥.

(٢) الطبقات ٤ / ٢٦٠. وجبال رضوى: بين ينبع والمدينة.

(٣) أى: صبوه صباً

عند قبرى قدر ما ينحر جزور، ويقسم لحمها، فإنى أستأنس بكم، حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربى.(١)

وقد أراد رضى الله عنه أن يعطى درساً لمن حوله من الجند قبل أن يتركهم، ويغادر دنياهم.

قال الذهبى: لما ثقل عمرو بن العاص، قال لصاحب شرطته: أدخل وجوه أصحابك. فلما دخلوا، نظر إليهم، وقال: هاقد بلغت هذه الحال، ردوها عنى. فقالوا: مثلك أيها الأمير يقول هذا ؟؟ هذا أمر الله لا مرد له. قال: قد عرفت، ولكن أحببت أن تتعظوا، لا إله إلا الله. فلم يزل يقولها حتى مات.(٢)

وهذا ابن خلكان يذكر آخر كلمات قالها عمرو بن العاص، وهو يودع دنيانا، قال: اللهم إنك أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فارتكبنا، وهذا مقام العائذ بك، فإن تَعْفُ فأنت أهل العفو، وإن تعاقب فبما قدمت يداى، اللهم لا برىء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، ولا مستكبر، بل مستغفر، أستغفرك وأتوب إليك، لا إله إلا الله. ومازال يرددها حتى مات.(٣)

وانتقل عمرو إلى الرفيق الأعلى فى ليلة عيد الفطر عام ٤٣ للهجرة (الموافق أول عام ٦٦٤ للميلاد)، ودفن فى سفح المقطم، حيث لا يعرف قبره بالتحديد حتى الآن، لأنه أوصى ابنه عبد الله ألا يميز لحده بشىء، ولكن حدده بعضهم أنه غربى قبر الإمام الشافعى، فى الموضع الذى يقال عنه مقابر قريش، حيث دفن الصحابة: عقبة بن عامر الجهنى، وأبو بصرة الغفارى، وعبد الله بن الحرث الزبيدى، وعبد الله بن حذافة، وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ ممن دفن فى المقطم.

وقال ابن عبد الحكم: دفن عمرو بالمقطم من ناحية الفج، وكان طريق الناس يومئذ إلى الحجاز، فأحب أن يدعو له كل من مرّ به، أخبرنا بذلك ابن عفير.(٤)

---

(١) الطبقات ٤ / ٢٠٩.
(٢) سير أعلام النبلاء ٣ / ٧٧.
(٣) وفيات الأعيان ٢ / ٤٠٥.
(٤) فتوح مصر ٢٥٣.

ووضح الشيخ الشرقاوى هذا المكان، قائلاً: دفن بالمقطم، وهو جبل الجيوشى، من ناحية الفج، وكان طريق الناس يومئذ إلى الحجاز، فأحب أن يدعو له من مر به من الناس.[١]

وقد وصف الإمام الليث بن سعد عمرو بن العاص وصفاً دقيقاً، قال: كان عمرو قصيراً، عظيم الهامة، ناتئ الجبهة، واسع الفم، عظيم اللحية، عريض ما بين المنكبين، عظيم الكفين والقدمين.[٢]

وقد زاد المعافرى فى وصفه قال: رحت أنا ووالدى إلى صلاة الجمعة تهجيرا بعد حميم[٣] النصارى بأيام يسيرة... فقام عمرو على المنبر فرأيت رجلا ربعة قصير القامة وافر الهامة أدعج[٤] أبلج[٥] عليه ثياب موشاة كأن به العقيان[٦] تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة[٧].

رحم الله عمرو بن العاص رحمة واسعة، وجازاه عنا - نحن بنى مصر - خير الجزاء.

وهذه بعض أبيات أشاد بها أحمد شوقى بعمرو بن العاص فى قصيدته (كبار الحوادث فى وادى النيل):

من كعمرو البلاد والضاد مما ... شاد فيها والملة الغراء ؟
شاد للمسلمين ركناً جساماً[٨] ... ضافى الظل دأبه الإيواء
طالما قامت الخلافة فيه ... فاطمأنت وقامت الخلفاء
فابك عمراً إن كنت منصف عمرو ... إن عمراً لنيّر وضاء[٩]

وقال أيضاً فى إسلامه وخالد بن الوليد فى يوم واحد :

---

(١) تحفة الناظرين ٣٩.
(٢) فتوح مصر ٥٨.
(٣) عيد من أعياد النصارى أسمه (عبد الغطاس) وهو يوم ١١ طوبة.
(٤) أسمر اللون. (الوسيط)
(٥) مضئ نضر.
(٦) الذهب الخالص.
(٧) تاريخ مصر الحديث ٩٨/١.
(٨) الجسام: العظيم.
(٩) الشوقيات ١ / ٣١.

إسـلامه وخـالدا فـى آن حلّ على الشرك بـه رزآن[1]
السـيف والـرأى بيـوم أجمعـا واستأذنا علـى محمـد معا
بالفاتحيْن بُشْـر الإسـلام واسـتقبلت آمالهـا الأعلام

ثم قال عن فتوحاته:

عمـرو القنـا والـرأى والجـدود رمـى بـه الفـاروق فـى الحـدود
علـى فلسـطين حمـى الرايـات وحمـل الخيـل إلـى الغايـات
حتـى حـوى لعمـرَ الإقليمـا وحـاز للإسـلام أورشـليما[2]
سما إلـى مصـر بطـرف وطمـحِ ولم يزل بعمـر حتـى سمح
وَجَّهَـهُ فهـب والغـزاةَ كما أطار الصُّيد[3] البـزاة[4]

وقد أحسن أمير الشعراء حين سار مع عمرو عند دخوله مصر من العريش حتى الإسكندرية، وذكرها بلداً بلداً، وحصناً حصناً، لله درك يا عمرو، ورحمة الله عليك يا مادح عمرو.

وهذا شاعر النيل حافظ إبراهيم، يقول:

وأنت تعرف عَمْراً فى حواضرهـا ولست تجهل عمـراً فـى بواديهـا
لم تنبت الأرض كابن العاص داهيـة يرى الخطوب برأى ليس يخطيها[5]

وقال أحمد محرم:

جمعت لحربهـم يـا عمـرو بأسـاً يزلـزل كـل جبـار عتـىّ
وكنـت القـائد الفطـن المُلَقَّـى فنـون المكـر والكيـد الخفـىّ
ومـا للحـرب إلا كـل طَـبٍّ يصرفهـا بـرأى عبقـرىّ
أمـير الجنـد يـالك مـن سـرى أصـاب إمـارة الجنـد السـرىّ
أجل يـا عمـرو مـا بك من خفـاء إذا فـزع الرجـال إلـى الكفـىّ
شـأوت السـابقين إلـى محـل يجاوز غاية الأمـد القصـىّ
وذلك فضـل ربـك زيـد فيـه على يده لذى الجد الحظـىّ[6]

(١) مثنى رزء، وهو المصاب الفادح.
(٢) القدس.
(٣) الصيّد: جمع صائد. والبزاة: جمع باز، وهو نوع من الصقور.
(٤) دول العرب وعظماء الإسلام.
(٥) ديوان حافظ إبراهيم ٨٧.
(٦) الإلياذة الإسلامية ٤٤١.

عبد الله بن أبى السرح

والى مصر من عام ٢٦ للهجرة إلى عام ٣٦ للهجرة تقريباً

هو ثانى ولاة مصر الإسلامية: أبو يحيى عبد الله بن سعد بن أبى السرح بن الحارث بن جذيمة بن نضر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى القرشى، أخو عثمان فى الرضاعة، ولد قريباً من عثمان الذى ولد عام ٤٧ قبل الهجرة.

ولم يدخل عبد الله فى الإسلام إلا قبل فتح مكة، وهاجر إلى رسول الله ﷺ، وقد كان عارفاً بالكتابة، فضمّه رسول الله ﷺ إلى كتّاب الوحى، وكان الشيطان له بالمرصاد فزين له الردة، فارتد وعاد إلى مكة، حتى كان يوم الفتح، فكان ممن أهدر رسول الله ﷺ دمهم لردته.

واختفى عبد الله عند أخيه عثمان مستجيراً تائباً طالباً المغفرة من الله والأمان من رسوله، وجاء عثمان لرسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، بايع عبد الله (ثلاث مرات)، فبايعه ﷺ بعد الثالثة.

وعاد عبد الله إلى حظيرة الإسلام تائباً مستغفراً، ولم يظهر منه بعد ذلك إلا كل صلاح وتقوى، حيث شارك فى حركة الفتوحات.

خرج عبد الله مع عمرو فى فتح مصر، وكان على الميمنة فى كل المعارك من العريش حتى الإسكندرية، وكانت له مواقف مشرفة فى هذه الفتوحات، ثم ولاه عمر بن الخطاب صعيد مصر بعد أن غزا النوبة[١] أو الأساود، وكان قد غزاها مرتين، المرة الأولى بعد الفتح مباشرة، حين بعثه عمرو بن العاص عام ٢١ للهجرة بجيش إلى الجنوب، ووصل إلى (إنقولا) أو (دنقلة)، وأرغم ملك النوبة على الاستسلام، والخضوع لدولة الإسلام.

وسجل المقريزى هذا الفتح قائلاً: لما بعث عمرو عبد الله بن أبى سرح بعد فتح مصر - عام ٢١ للهجرة، فى عشرين ألفاً، فمكث بها زماناً، فكتب عمرو يأمره بالرجوع.[٢]

(١) يقصد بالنوبة: صعيد مصر الأعلى حتى حدود الحبشة بما فيه السودان.
(٢) خطط المقريزى ١ / ٣٢٣. وربما كان عدد هذا الجيش مبالغاً فيه.

أما الفتح الثانى للنوبة، فكان أثناء ولايته لمصر عام ٣١ للهجرة، وفى هذا اللقاء عقدت معاهدة بين المسلمين وملك النوبة، واتفق الطرفان على الأمان، وأن يسمح بتنقل التجار بين مصر والنوبة، وأن يحافظ النوبيون على المسجد الذى بناه المسلمون فى دنقلة، وكان هدف عبد الله من بناء المسجد التمهيد لنشر الإسلام فى إفريقية كلها.

يقول الشيخ الصواف: ودامت المعاهدة ستة قرون.[١]

وكان عبد الله قد تولى إمارة مصر بعد أن انتصر عمرو بن العاص على الروم فى الإسكندرية لما نقضوا العهد[٢] بقيادة عمنويل عام ٢٥ للهجرة، وكان عبد الله محباً للجهاد، فقد تم فى أثناء ولايته فتح كثير من البلاد فى المغرب، وجنوب مصر.

وقد كان عبد الله يؤمن أن سلامة مصر منوطة بالحفاظ على حدودها، ولذلك استأذن الخليفة عثمان فى الخروج غرباً لخروج من صالحهم أيام عمرو بن العاص، وجهز جيشاً قوامه عشرون ألفاً عام ٢٧ للهجرة، وقد تميز هذا الجيش الكبير بالنظام والكفاءة وإيمان المقاتلين، وكان بالجيش كثير من الصحابة والتابعين، وقد سميت هذه الغزوة (بغزوة العبادلة) لمشاركة سبعة من الصحابة اسمهم (عبدالله)، وهم: عبدالله بن أبى سرح، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن جعفر، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عمرو بن العاص.

وعاود عبد الله غزو شمال إفريقية عام ٣١ للهجرة بعد أن كتب له عثمان قائلاً: إن فتح الله عليك فلك من الفيء خمس الخمس.

وخرج فى عشرة آلاف، وافتتح شمال إفريقية سهلها وجبالها، وعاهدهم، ونقضوا العهد، فخرج إليهم مرة ثالثة عام ٣٣ للهجرة، وحاربهم حتى أقرهم على الإسلام أو الجزية.

---

(١) رحلاتى إلى الديار الإسلامية ١ / ٣٩

(٢) انظر حديثنا عن (نقض الروم عهد الإسكندرية).

وكان مَلِكُ الروم على شمالى إفريقية، من طرابلس إلى طنجة، على المحيط هو (جرجير)[1]، وقد أخذ عبد الله يتبعه فاتحاً حتى وصل إلى (سبيطلة)[2]، وهناك دعاه مرة أخرى إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، فامتنع وتحصن بالمدينة، وبعث من ينادى الجند: من قتل عبد الله بن أبى سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى.

ونادى عبد الله فى جيشه: من يأتى برأس جرجير نفلته مائة ألف، وزوجته ابنة جرجير وأستعمله على بلاده. وطال الحصار، ثم فتحت، وقتل عبد الله بن الزبير جرجير، وقسم عبد الله بن عباس الغنائم بين القواد والأجناد.

يقول حسن عبد الوهاب: صالحهم عبد الله بن أبى سرح على مقدار من المال قيل: ثلاثمائة قنطار ذهباً، فدفعوه إليه، والقنطار حينئذ= ٨٤٠٠ دينار، فيكون المبلغ المدفوع مقابل الصلح مليونين ونصف المليون فرنكاً ذهباً، على سبيل التقريب.[3]

وقد أقام عبد الله فى إفريقية فى هذه الفتوحات سنة وثلاثة أشهر.

يضاف إلى سيرة عبدالله بن أبى سرح أنه كان محباً للمغامرة، وهو جانب من مقوماته الشخصية، فقد قاد المسلمين فى أول معركة بحرية وقعت بين المسلمين والروم عام ٣٥ للهجرة، وهى معركة (ذات الصوارى)، وانتصر فيها المسلمون – كما ذكرنا من قبل.

---

(١) جرجير: هو جريجور البطريق الرومى.
(٢) مدينة آثارها بجوار مدينة القيروان بتونس.
(٣) تاريخ تونس ٥٥.

نشأة الفتنة فى مصر

والعجيب أن هذه الإنجازات التاريخية التى اكتسحت الوجود الرومى فى المنطقة كانت لها آثار سلبية على الصعيد الإسلامى، فقد ترتب على غياب الأمير عن مصر مدة طويلة فى الفتوح ظهور تيارات مناوئة للخلافة وتَوَجُهاتها، فظهرت طائفة تعلن رفضها لكل من عثمان وواليه عبد الله.

يقول ابن تغرى بردى: ونشأ فى مصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس على حرب عثمان وحرب عبد الله بن أبى سرح، واجتمعوا واستنفروا من مصر ستمائة راكب يذهبون إلى المدينة فى صفة معتمرين فى شهر رجب عام ٣٥ للهجرة لينكروا على عثمان.. وأمَّر الجميع عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعى، وعبد الرحمن التجيبى، ومحمد بن أبى بكر، وأقام بمصر منهم محمد بن حذيفة يؤلب الناس، ويدافع عن هؤلاء.[1]

وأسرع عبد الله فى العودة لمصر، ومكاتبة الخليفة ينبهه، ولكن الركب الثائر وصل إلى المدينة أولاً، فأسرعوا إلى مقابلة الخليفة وطالبوه بعزل عبد الله وتولية محمد بن أبى بكر، فوافق الخليفة، وعزل عبد الله وولى محمداً.

وخرج الركب متجهاً إلى مصر بالوالى الجديد، وفى الطريق بدأت الفتنة عندما وجد هؤلاء الخارجون كتاباً مرسلاً على لسان عثمان وبختمه يأمر والى مصر عبد الله بقتل طائفة منهم وصلب آخرين، فعادوا إلى المدينة للتحقيق فى هذا الأمر، وقال لهم الخليفة: إن هذا الكتاب مدلس وليس له علم به، وصدقه أناس وكذبه آخرون، وتفاقمت أحداث الفتنة، وزاد أوارها، وتجرأ الثوار على مقام الخلافة، واستشهد الخليفة عثمان فى ذى الحجة عام ٣٥ للهجرة (الموافق ١٧ من يونية عام ٦٥٦ للميلاد).

---

(١) النجوم الزاهرة ١ / ٨١.

وتولى على بن أبى طالب الخلافة، فكان أول همه عزل جميع ولاة عثمان، ونصحه بعض الصحابة أن يتمهل، ولكنه أبى.

قال الطبرى: قال عبد الله بن عباس:.. ابعث إلى عمال عثمان بعهودهم تقرهم على أعمالهم، ويبايعون لك الناس، فإنهم يُهَدِّئون البلاد، ويُسَكِّنون الناس.. فقال على: والله لا كان هذا أبداً.[1] وأصر على أن يمضى فى قراره بعزل ولاة عثمان.

(١) تاريخ الطبرى ٤ / ٤٤٠.

وفاة ابن أبى سرح

بعث على بن أبى طالب والياً جديداً على مصر هو الصحابى قيس بن عبادة الأنصارى، وخرج عبد الله بن أبى سرح إلى عسقلان فى شوال عام ٣٦ للهجرة، وقيل: بل إلى الرملة فى فلسطين، وعاش بعيداً عن الفتنة، فهو أحد الصحابة الذين اعتزلوا الحياة السياسية فى هذه الفترة، فلم ينحز إلى علىّ ولا إلى معاوية.

لقد كان دعاؤه دائماً: اللهم اجعل خاتمة عملى الصلاة.

واستجاب الله دعاءه، ففى يوم من أيام عام ٣٧ للهجرة، وأثناء صلاة الصبح قرأ فى الركعة الأولى بأم القرآن والعاديات، وفى الثانية بأم القرآن وسورة أخرى، وسلم عن يمينه، ثم ذهب يسلم عن يساره، فقبضه الله إليه.(١)

وانتهت حياة رجل من رجالات الإسلام، رجل مجاهد، قائد، حاكم، دافع عن فتوحات الإسلام، وذاد عنه المعتدين.

---

(١) أسد الغابة ٣ / ٢٦٠.

قيس بن سعد بن عبادة

من شوال عام ٣٦ للهجرة إلى ربيع أول عام ٣٧ للهجرة

ثالث من تولى إمارة مصر فى عهد الخلفاء الراشدين هو: الأنصارى قيس بن سعد بن عبادة بن دليم، من الخزرج.

أسلم قيس مع أبيه يوم العقبة، وكان سعد أبوه أحد النقباء الاثنى عشر الذين اختارهم النبى ﷺ ليكونوا رءوساً فى قومهم قبل الهجرة.

وبعد أن هاجر الرسول ﷺ، جاء سعد بابنه قيس لرسول الله ﷺ ليخدمه، فكان بمنزلة الشرطى لرسول الله ﷺ حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، ويوم فتح مكة أخذ رسول الله ﷺ راية الأنصار من أبيه، ودفعها إليه.

كان قيس شريفاً فاضلاً كريماً كأبيه.

ذكر ابن الأثير حادثة تظهر نجدته وفضله وكرمه، قال: كان قيس فى سرية فيها أبو بكر وعمر، فكان يستدين ويطعم الناس، فقال أبو بكر وعمر: إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه. فمشيا فى الناس، فلما سمع سعد بن عبادة، قام خلف النبى ﷺ فقال: من يعذرنى من ابن أبى قحافة وابن الخطاب؟؟ يبخّلان علىّ ابنى.(١)

وقال ﷺ عن قيس: إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت.(٢)

واشتهر قيس بالدهاء والمكر، قال: لولا الإسلام لمكرت مكراً لا تطيقه العرب، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: المكر والخديعة فى النار، لكنت من أمكر هذه الأمة.(٣)

---

(١) أسد الغابة ٤ / ٤٢٥.

(٢) كنز العمال ١١ / ٧٤٢.

(٣) قال ابن الأثير: كان دهاة العرب حين ثارت الفتنة خمسة يقال لهم: ذوو رأى العرب ومكيدتهم: معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص وقيس بن سعد بن عبادة والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن بديل بن ورقاء، فكان قيس وابن بديل مع علىّ، وكان المغيرة معتزلاً، وكان عمرو مع معاوية. (أسد الغابة ٤ / ٤٢٢)

وكان قيس بن سعد يحب على بن أبى طالب، ووقف معه بعد مقتل عثمان رضى الله عنه، واختاره علىّ لولاية مصر، فى شوال عام ٣٦ للهجرة، واستطاع أن ينهض بمسئولية الحكم فى هذه الساعات الحرجة، وهو ما دفع معاوية إلى التقرب إليه، ومحاولة استمالته، ولما رأى منه عناداً وعدم استجابة، أشاع فى أهل الشام أن قيساً قد بايع معاوية، وبلغ ذلك علياً، فعز عليه ولم يصدق، ولكن من حوله زينوا له عزله، فأراد أن يتأكد من تغير قيس، فبعث إليه كتاباً يأمره أن يغزو من تخلف عن البيعة -أى: غزو معاوية فى الشام-، وكان رد قيس الاعتذار قائلاً: إن كنت أمرتنى لتختبرنى، فابعث على عملك بمصر غيرى.

وأسرع على فاستجاب، وبعث والياً آخر هو: الأشتر مالك بن الحارث النخعى، الذى ما لبث أن قتل[1] فى الطريق عند السويس، فبعث علىّ رضى الله عنه والياً آخر هو: محمد بن أبى بكر، وقال: ما كان لمصر إلا أحد رجلين، قيس ابن سعد والآخر الأشتر، وكان قد حزن على الأشتر حزناً شديداً، وقال: لقد كان لى كما كنت لرسول الله ﷺ.

أما قيس فقد كان محباً لعلىّ بن أبى طالب، فلم يلمه على عزله، وإنما عذره، وعرف أنه خدع، وخرج من مصر متجهاً إلى العراق ليكون مع علىّ، فجعله فى مقدمة جيشه، حتى استشهد أمير المؤمنين فى رمضان عام ٤٠ للهجرة.

وكان قيس بن سعد قد ترك مصر فى ربيع أول عام ٣٧ للهجرة، فتكون إمارته لمصر أربعة أشهر وخمسة أيام.

وعندما تولى الخلافة الحسن بن علىّ صار قيس من شيعته، حتى كان عام الجماعة عام ٤١ للهجرة، حين تنازل الحسن لمعاوية عن خلافة المسلمين، حينئذ اعتزل قيس الحياة السياسية، وعاش فى المدينة حتى مات بها عام ٦٠ للهجرة، فى أواخر عهد معاوية، رضى الله عنهما.

---

(١) قال الذهبى: لقى الأشترَ عبدٌ من عبيد عثمان بن عفان، فسقاه عسلاً مسموماً. (العبر ١/٤٥). ونسب بعضهم مقتل الأشتر إلى معاوية مستدلاً بتعليقه على هذا الحادث حين قال: إن لله جنوداً منها العسل. ولا دليل فى هذا.

وقد ذكر ابن عبد الحكم قصة عن قيس تبين مدى نزاهته، قال:.. واختط قيس بن سعد فى قبلة المسجد الجامع - فى الفسطاط- (دار الفلفل)[1]. ولما عزله علىّ كان الناس يقولون: إنها له، حتى ذكر ذلك له فقال: إنما بنيتها من مال المسلمين، ولا حق لى فيها، ولما حضرته الوفاة قال: إنى كنت بنيت داراً بمصر.. فهى للمسلمين ينزلها ولاتهم.[2]

(١) قال بعضهم عن دار الفلفل: كانت لسعد بن أبى وقاص.

(٢) فتوح مصر ٩٨.

محمد بن أبى بكر

من رمضان عام ٣٧ للهجرة إلى صفر عام ٣٨ للهجرة

رابع من تولى إمارة مصر فى عهد الراشدين وآخرهم، محمد بن أبى بكر ابن عامر (أبى قحافة) التيمى القرشى، شقيق أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، أمه الصحابية الجليلة، صاحبة الهجرتين أسماء بنت عميس(١)، ولدته وهى فى طريقها إلى الحج مع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع عام ١٠ للهجرة.

رباه علىّ بن أبى طالب بعد وفاة أبى بكر الصديق، وزواجه من أمه أسماء، كان على خلق وصلاح حتى سموه (عابد قريش)، كنى باسم ابنه القاسم أحد علماء وفقهاء المدينة السبعة فى زمنه.

ووقعت الفتنة فكان محمد بداهة مع علىّ، اتهمه بعضهم بالمشاركة فى دم عثمان رضى الله عنه، لدخوله مع من دخل ساعة قتل ذى النورين.

وجعله أمير المؤمنين علىّ فى مقدمة جيوشه، وخاصة فى معركتى الجمل وصفين.

ولما قرر على عزل قيس بن عبادة عن ولاية مصر، وبعث الأشتر(٢) إليها والياً، ثم ما لبث أن قتل قرب السويس - لم يجد علىٌّ أوفق من ربيبه ليحل محل قيس فى ولاية مصر.

وجاء محمد إلى مصر من قبل الخليفة الراشد على بن أبى طالب، ودخلها فى رمضان عام ٣٧ للهجرة، وكان أول عمل له هو محاولة القضاء على الفتنة القائمة بين العثمانية والعلوية، ولكنها كانت محاولة فاشلة، لم ينتج عنها خير.

ولم يكن حكيماً فى معالجة هذا الأمر، فقضى شهور ولايته فى صراعات ومناجزات مع العثمانيين الذين تحصنوا فى قرية (خربتا) - فى محافظة البحيرة حالياً، وعليهم صحابيان جليلان هما مسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج.

---

(١) تزوجت أسماء بنت عميس جعفر بن أبى طالب، وهاجرت معه إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، ولما استشهد فى سرية مؤتة، تزوجت أبا بكر، ثم تزوجت علياً، توفيت بعد استشهاد زوجها فى عام ٤٠ للهجرة.

(٢) كان الأشتر من فرسان على المعدودين، وكان سيد قومه وخطيبهم، عده المؤرخون ممن حرض على قتل عثمان.

ولصغر سن[1] محمد، لم يستطع أن يحسن التدبير والمراوغة كما كان يفعل قيس بن عبادة.

وقد ذكرت المراجع أن قيساً لم يترك محمداً بدون إرشاده ونصحه حتى يستطيع مواجهة الفتنة المشتعلة فى مصر، وهى لا تحتاج إلا للأمير الحصيف، قال له: لا يمنعنى عزله إياى – يقصد علياً – من نصحى لك، ولقد عزلنى عن غير وهن ولا عجز، فاحفظ ما أوصيك به، يدم صلاح حالك: دع معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد وبشر بن أرطأة ومن ضوى إليهم.. وإن أتوك فاقبلهم، وإن تخلفوا عنك، فلا تطلبهم، وألن جناحك لهذا الحى من مصر، وقرب عليهم مكانك، وارفع عنهم حجابك.. وأنزل الناس منازلهم، فإن استطعت أن تعود المرضى، وتشهد الجنائز، فافعل، فإن هذا لا ينقصك.. والله موفقك.

تقول د. سعاد ماهر: وبدلا من أن يأخذ محمد بن أبى بكر برأى قيس أو يعمل بنصائحه، عمل بعكس ما أوصاه تماماً... فبعث إلى دور الخارجة فهدمها، ونهب أموالهم وسجن ذراريهم، فنصبوا له الحرب.[2]

ويقول د. حسن إبراهيم:.. فأظهر الخيلاء، وأساء إلى العثمانية، وبعث لزعيمهم معاوية بن خديج يدعوه لبيعة علىّ، فلم يجبه لطلبه، فهدم محمد بن أبى بكر دورهم، ونهب أموالهم، وحبسهم.[3]

وبعد التحكيم جاء جيش الشام إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص، فأسرع العثمانية إلى الانضمام إليه.

وذكر ابن تغرى بردى تفاصيل هذه الساعات الحرجة، قال: وكتب عمرو إلى محمد صاحب مصر: أما بعد، فنح عنى بدمك، فإنى لا أحب أن يصيبك منى قلامة ظفر، والناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك، وهم مُسْلِموك، فاخرج منها، فإنى لك من الناصحين...

ومعه كتاب معاوية يقول: يا محمد إن غِبَّ البغى والظلم عظيم الوبال، وسفك الدماء الحرام من النقمة فى الدنيا والآخرة، وإنا لا نعلم أحداً كان على عثمان

(١) كان حينئذ فى السابعة والعشرين.
(٢) مساجد مصر وأضرحتها ٢ / ٢٣.
(٣) تاريخ الإسلام السياسى ٢٧٢.

أشد منك، فسعيت عليه مع الساعين، وسفكت دمه مع السافكين.. ولن يسلمك الله من القصاص أينما كنت، والسلام.

فطوى محمد الكتابين، وبعث بهما إلى علىّ بن أبى طالب، وفى ضمنهما يستنجده، ويطلب منه المدد، والرجال، فورد عليه الجواب من عند علىّ بن أبى طالب بالوصية والشدة، ولم يمده بأحد.(١)

وربما كان ذلك لانشغاله بمشكلة التحكيم، وما نتج عنها من خروج أقوام من شيعته عليه فى العراق، ومحاربته لهم فى معركة (النهروان)(٢)، ولذلك لم يجد أمير مصر بداً من مقابلة الجيش العثمانى والجيش الشامى، فلم يلبث أن هزم، ابن أبى بكر وقبض عليه.

وعندما دخل عمرو بن العاص الفسطاط، جاءه عبد الرحمن بن أبى بكر الذى كان فى جيشه، يطلب منه العفو عن أخيه محمد، وحاول عمرو ذلك، لكن معاوية بن خديج أصر على القصاص، وقتل محمد، وقال: لقد منعوا عن عثمان الماء، ثم قتلوه صائماً.

وقتل محمد بن أبى بكر فى ١٤ صفر عام ٣٨ للهجرة، بعد ولاية دامت قرابة خمسة أشهر فقط، ومات آخر وال لمصر من قبل الخلفاء الراشدين.

أما ما حدث من تمثيل بجثته فقد أمسكنا عن الحديث عنه رفقا بمشاعر القراء، وصونا لها عن مطالعة لون من البشاعة والقسوة لا علاقة له بأخلاق الإسلام.

ودفن فى سفح المقطم، وبنى على قبره مسجد.

قال الزريكلى: ودفنت جثته مع رأسه فى مسجد يعرف بمسجد زمام، خارج مدينة الفسطاط، وقد زرت قبره فى الفسطاط.(٣)

وتقول د. سعاد ماهر: هناك أكثر من مكان يقال إن به رأس محمد بن أبى بكر، ففى حارة الباطلية بالأزهر عند جامع سودون القصروى المعروف بجامع

---

(١) النجوم الزاهرة ١ / ١٠٩.

(٢) كورة واسعة بين بغداد وواسط من الناحية الشرقية، فيها وقعة مشهورة بين علىّ رضى الله عنه والخارجين عليه.

(٣)الأعلام ٦ / ٢٢٠.

المدعى ضريح فى خلوة يعرف بضريح محمد بن أبى بكر الصديق، وعليه تابوت مرقوم فى كسوته اسمه، وله خادم، ونافذة على الطريق، ويزوره كل من مر عليه بقراءة الفاتحة، والدعاء عنده.

وقالت: ويقع مسجد محمد بن أبى بكر فى مصر القديمة بشارع الودائع.. ويعرف باسم محمد الصغير، كما كان يعرف باسم زمام، وذلك أنه بعد مضى مدة من قتله أتى (زمام) مولى محمد بن أبى بكر إلى الموضع الذى دفن فيه، وحفر فلم يجد سوى الرأس فأخذه، ومضى به إلى المسجد المعروف بمسجد زمام، فدفنه فيه، وبنى عليه المسجد، ويقال إن الرأس مدفون فى القبلة، وبه سمى مسجد زمام.[1]

وتولى عمرو بن العاص بعد محمد بن أبى بكر ولايته الثانية لمصر، ولكن بعد أن انتقلت حاضرة الخلافة من المدينة المنورة إلى دمشق الشام، عاصمة دولة بنى أمية، وعاش عمرو فى الفسطاط حتى توفى غرة شوال عام ٤٣ للهجرة.



وواضح أن هؤلاء الولاة كانت ولايتهم قصيرة، وحافلة بالاضطرابات والقلاقل التى شغلتهم عن تحقيق أى إصلاح فى البلاد، فقد كان إخماد الفتن شغلهم الشاغل، وكانوا إذا أخمدوا فتنة، ظهرت لهم أخرى على امتداد البلاد، وتوزع مواقع الجند المسلمين على خريطتها. وشعب مصر بعيد كل البعد عن هذه الصراعات، فقد كان المسلمون من المصريين قليلين، تغلب عليهم سمة المسالمة، والبعد عن صراعات الحكام، بعضهم مع بعض، ولذلك كانت تلك الفتن تخمد بمجرد قتل قائدها، فينضم أنصار القائد القتيل إلى صف القائد المنتصر، وعبثاً نحاول البحث عن أى أثر لإصلاح المجتمع، بتعليم الناس قواعد الدين الجديد، وأصوله وشرائعه - فلا نجد لذلك أثراً، وقد كان من فضل الله أن هذه الفترة لم تطل، فقد دام هذا الوضع المحزن أقل من عقد من الزمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم استقامت الأمور بعد ذلك فى اتجاه الإصلاح والدعوة إلى الإسلام والتوحيد.

(١) مساجد مصر وأضرحتها ٢ / ٢٤.

عتبة بن أبى سفيان

تولى من شوال عام ٤٣ للهجرة إلى ذى الحجة عام ٤٤ للهجرة

لما توفى عمرو بن العاص فى غرة شوال عام ٤٣ للهجرة، بعث الخليفة معاوية والياً جديداً على مصر، هو أخوه لأبيه: عتبة بن أبى سفيان، وكان عتبة قد أسلم صغيراً، حتى إذا كان عهد الخليفة عمر ولاه إمارة الطائف، وفى عهد عثمان لزمه حتى استشهد يوم الدار، ثم كان مع عائشة فى وقعة الجمل، وذهبت عينه فيها، وانتقل بعد ذلك إلى الشام، فولاه معاوية الطائف، وجعله أميراً على الحج عامى ٤١ و٤٢ للهجرة، ثم ما لبث أن ولاه مصر، فجاءها فى ذى القعدة عام ٤٣ للهجرة، وكانت ولاية جامعة للخراج والصلاة.

كانت أحداث الفتنة قد خمدت، وبدأ عهد من الهدوء باختفاء عناصر الاضطراب فى فترة ولاية عمرو بن العاص الأخيرة، فكان ذلك تمهيدا رائعا للولاية الجديدة.

اشتهر عتبة بالصلاح والتقوى والعدل والمهابة والفصاحة، قيل: أخطب بنى أمية عتبة بن أبى سفيان ومروان بن الحكم.[1]

ولعدله أحبه الناس، قال يوماً فى الجامع الكبير بعد خطبة طويلة: إن البيعة متتابعة، لنا عليكم السمع والطاعة، ولكم علينا العدل، فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه، فناداه المصريون: سمعاً سمعاً، وناداهم عتبة: عدلاً عدلاً.

ويعتبر عتبة بن أبى سفيان فى الحقيقة بداية أحوال الاستقرار وعهد الإصلاح الذى بدأه عمرو بن العاص فى ولايته الثانية، ولذلك نجد فى كلماته دائماً - وقد حفظها لنا التاريخ - سمة التأمل والمعالجة العقلية، ومحاولة إصلاح طبائع الناس ونفوسهم، وعلى الرغم من قصر المدة التى عاشها والياً على مصر، فإن كلماته تعتبر فى نظرنا نصوص الدستور الأخلاقى الذى وضعه للناس قاعدة يسير

---

(١) قال الأصمعى: الخطباء من بنى أمية عتبة بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان. (الأعلام ٤ / ٢٠١)

عليها الحكم، وتقنن بها العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ويكفى أن يضع قاعدة أن طاعة الرعية هى مقابل العدل من الراعى، وهو معنى من استقامة التفكير وجدناه كثيرا عند الراشدين أبى بكر وعمر، فهو لم يتصور نفسه دكتاتوراً كل همه أن تنحنى له الهامات خضوعاً ورعباً من سيفه وسوطه.

ونراه لا يتجسس على نوايا الناس، ولا يأخذهم بالظِّنة، فإن أحوال القلوب بيد الله، وليس للحاكم إلا ما ظهر، وهو اتجاه مأخوذ من تعاليم النبوة (لنا الظاهر والله يتولى السرائر)، وهذا قوله للناس:.. واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم، دون قلوبكم، فأصلحوا لنا ما ظهر، ونَكِلُكُمْ إلى الله فيما بطن، وأظهروا لنا خيراً وإن أضمرتم شراً، فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون، وعلى الله أتوكل، وبه أستعين.(١)

ولقد كان عتبة رجل مبادئ، عركته الحياة، وعلمته التجارب، فكل الكلمات التى أُثِرَت عنه كانت فى الواقع تلخيصاً لتجاربه، وتعبيراً عن ذكاء هذه التجارب.

ولننظر إليه فى وصيته لمعلم أولاده، وسنجد أن فطرته قد هدته إلى قواعد من علم النفس التربوى، لم تعرف علمياً إلا فى العصر الحديث، وربما نسب بعضها إلى مفكرين جاءوا بعده بعدة قرون.

ومن ذلك مثلاً رأيه بأن تزاحم المعانى فى عقل الطفل مفسدة لعقله فعلاً - (فكثرة الكلام ينسى بعضه بعضاً)، ونلمح اتجاهاً تربوياً من اتجاهات العصر الأول، عصر النبوة، فقد كان النبى ﷺ حريصاً فى تعليمه لصحابته ألا يزودهم بشىء من الجديد، حتى يحسنوا تثبيت القديم فى عقولهم وسلوكياتهم، والتعليم فى نظره سلوك أولاً يقوّم الموقف المعرفى، والمعلم هنا هو مصدر هذا السلوك، وهو كتاب القدوة، فما ينفع علم لا ترجمة له فى العمل، ولا ينجح عالم غير ملتزم بما يدعو الناس إليه.

وهذه وصيته التى تثير إعجابنا بشخصيته وفكره، يقول:.. ليكن إصلاح بَنِىَّ إصلاحك لنفسك، فإن عيوبهم(٢) معقودة بعيبك، فالحسن عندهم ما فعلت، والقبيح ما

(١) العقد الفريد ٤ / ١٣٩.
(٢) فى بعض النسخ: عيونهم معقودة بعينك.

تركت، وعلمهم كتاب الله، ولا تُمِلَّهُمْ فيتركوا، ولا تَدَعْهُمْ منه فيهجروا، وَرَوِّهِمْ من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفّه، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يُحْكِمُوه، فإن ازدحام الكلام فى السمع مشغلةٌ[1] للفهم، وهددهم بى، وأدبهم دونى، وكن كالطبيب الرفيق الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، وامنعهم من محادثة النساء، واشغلهم بسِيَرِ الحكماء، واستزدنى بأدبهم أزِدْك، ولا تَتَّكِلَنَّ على عذر منى، فقد اتَّكَلْتُ على كفايةٍ منك.[2]

لقد كان عتبة يربط الأجر بالإنتاج، وهو معنى قوله (واستزدنى بأدبهم أزدك)، فكلما ازداد الأبناء فى أدبهم وعلمهم استحق مؤدبهم زيادة فى أجره، والعكس أيضاً صحيح فى سياق هذه الوصية.

أما عتبة فى ممارسته للسلطة فهو آية فى العقل والحسم، لقد أعطى الناس العدل مقابل الطاعة، فإذا هم نكثوا بالعهد، واختاروا العصيان، فليس إلا الوجه الآخر الذى يعتدل به الميزان، ويتحقق به العدل مرة أخرى، ولذلك لا يجب أن تثيرنا خطبته العاصفة التى روتها كتب التاريخ، قال فيها: بعد أن حمد الله وأثنى عليه.. يا أهل مصر[3] إياكم أن تكونوا للسيف حصيداً.. إن الله جمعكم بأمير المؤمنين بعد الفرقة، فأعطى كل ذى حق حقه... فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق بإحياء الفتن، وإماتة السنن، فأطأكم وطأة لا رمق معها، حتى تنكروا منى ما كنتم تعرفون.. وأنا أشهد عليكم الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.[4]

وخطبهم مرة أخرى، قال:.. يا أهل مصر، خف على ألسنتكم مدح الحق، ولا تفعلونه، وذم الباطل، وأنتم تأتونه، كالحمار يحمل أسفاراً أثقله حملها، ولم ينفعه

---

(١) فى البيان والتبيين: مضلة.

(٢) النجوم الزاهرة ١ / ١٢٣.

(٣) إن الخطاب هنا موجه إلى الجند الذين شاركوا فى الفتح، ثم استوطنوا مصر، فصاروا من أهل مصر، ومنهم كان الثوار على عثمان، أما القبط، فلم يكونوا مقصودين بالخطاب إلا ضمناً، ولم تكن لهم مشاركة فى الفتنة التى راح ضحيتها عثمان رضى الله عنه.

(٤) العقد الفريد ٤ / ١٣٧.

علمها، وإنى لا أداوى داءكم إلا بالسيف، ولا أبلغ السيف ما كفانى السوط، ولا أبلغ السوط ما صلحت الدرة، فالزموا ما ألزمكم الله لنا، تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا.(1)

لا ينبغى أن تثيرنا هذه الكلمات، فنرى فيها نزوعاً إلى الجبروت، أو ميلاً إلى ظلم الرعية، فقد كان يهدف إلى تقويم موقفهم، وإبعادهم عن الفوضى حتى تعود العدالة إلى سيرتها الأولى.

لقد كانت كلماته فى هذه الخطب علاجاً لحالة من الزيغ والانحراف كانت تؤذن بالفوضى، فردتهم هذه الكلمات إلى موقف التعقل والتخلى عن العصيان، واستقامت بذلك قناتهم، لكن التاريخ لم يسجل على عتبة أنه أراق الدماء أو أزهق الأرواح.

وإذا انتقلنا إلى دراسة البعد الاقتصادى فى تفكير عتبة بن أبى سفيان، فستبهرنا كلماته التى أوصى عامله على أمواله بالحجاز، تلك الكلمات التى تلقفها أعيان المجتمع الإسلامى، فجعلوها دستوراً لعلاقتهم بعمالهم أيضاً، وهى كلمات تحتاجها جهود التنمية فى زماننا هذا.

قال عامله – سعد القصير –: ولاّنى عتبة أمواله بالحجاز، فلما ودعته، قال لى: يا سعد، تعاهد صغير مالى فيكثر، ولا تضيّع كثيره فيصغر، فإنه ليس يشغلنى كثير مالى عن إصلاح قليله، ولا يمنعنى قليل ما فى يدى عن الصبر على كثيره مما ينوبنى.

قال سعد: فقدمت المدينة، فحدثت بها رجالات قريش، ففرقوا بها الكتب على الوكلاء.(2)

والشيء المحزن حقاً أن هذا الرجل لم يطل عمره فى هذه الولاية أكثر من سنة، ثم عجل الله له الأجل، فكان مشهد توديعه للحياة أبلغ عبرة.

---

(1) أسد الغابة ٣ / ٥٦٠. والسابق ٤/١٤٠.
(2) العقد الفريد ٣ / ٣٤.

قال ابن عبد ربه: ولما اشتكى شكاته التى مات فيها، تحامل إلى المنبر، فقال: يا أهل مصر، لا غنى عن الرب، ولا مهرب من ذنب، إنه قد تقدمت منى إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها، وأنا أخاف اليوم الوزر منها، فليتنى لا أكون اخترت دنياى على معادى، فأصلحتكم بفسادى، وأنا أستغفر الله منكم، وأتوب إليه فيكم، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه، ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به، وقد شَقِيَ من هلك بين رحمة الله وعقوبته، والسلام عليكم سلام من لا ترونه عائداً إليكم... قال الراوى: ولم يعد.[1]

وهذا كلام ترعد منه القلوب، وتزلزل جوانب النفوس، فكأن عتبة يراجع نفسه فى كل ما أبرم من قرارات وأحكام خلال ذلك العام المبارك الذى حكم فيه مصر.

ومع أن هذه الأحكام قد أحدثت فى الواقع إصلاحاً شاملاً، واستقراراً، فإنه يخشى أن يكون جارَ ذات مرة عن نهج العدل وسَمْتِ الحق.

وهى مراجعة يحتاج أن يقوم بها كل حاكم، لا تقليداً لعتبة فحسب، وإنما تأسياً برسول الله ﷺ، حين وقف فى آخر حياته يقول للناس: "أيها الناس، من كنت جلدت له ظهراً، فهذا ظهرى، فليستقد منى، ومن كنت أخذت له مالاً، فهذا مالى، فليأخذ منه، ولا يخش الشحناء، فإنها ليست من شأنى".

وكان عتبة قد خرج مرابطاً إلى الإسكندرية، وبنى بيتاً فى حصنها، ولكن القدر لم يمهله حتى يعود للفسطاط، مكان إمارته، فمات فى الإسكندرية فى ذى الحجة عام ٤٤ للهجرة، ودفن فى مدافنها، رضى الله عنه وأرضاه.

(١) العقد الفريد ٤ / ١٣٨.

عقبة بن عامر

تولى من ذى الحجة عام ٤٤ للهجرة إلى ربيع أول عام ٤٧ للهجرة

سادس ولاة مصر فى الإسلام، الصحابى الجليل عقبة بن عامر بن عبس، من جهينة، من قضاعة، يرجع أصله إلى اليمن.

روى عقبة واقعة مع رسول الله ﷺ تبين لنا أصله اليمنى، قال: قال ﷺ يوماً: من كان هنا من معدّ فليقم، فقام رجال، وقمت معهم، فقال لى: اجلس، قال ففعل بى مرتين أو ثلاثاً، فقلت: يا رسول الله ألسنا من معد ؟

قال: لا، قلت: ممن نحن ؟، قال: أنتم من قضاعة بن مالك بن حمير.(١)

وكان عقبة راعى غنم قرب المدينة، ولما هاجر رسول الله ﷺ، وسمع عقبة بما جاء به، أراد أن يدخل فى الإسلام، قال: قدم رسول الله ﷺ وأنا فى غنم لى أرعاها، فتركتها، ثم ذهبت إليه.

ودخل عقبة على رسول الله ﷺ مبايعاً، فسأله إن كان سيعيش فى المدينة أو يرحل إلى قومه قضاعة ؟ وكان جوابه أنه سيقيم.

روى ابن سعد: قال عقبة: يا رسول الله جئت أبايعك. فقال: بيعة أعرابية تريد أو بيعة هجرة. قلت: بيعة هجرة. فبايعنى على الهجرة وأقمت.(٢)

ويقصد رسول الله ﷺ بالبيعة الأعرابية، أن يبايع ويرجع إلى البادية من حيث جاء، وقد كان ذلك مرفوضاً فى تلك المرحلة المبكرة التى أعقبت الهجرة، إذ كان يُخشَى على من يسلم أن يعود إلى البادية، فيبتعد عن الدين، ويرتد إلى الكفر.

وكان بقاء المسلمين فى المدينة نوعاً من الاستقرار، بجانب منبع الوحى، ومصدر الإيمان، ليتزودوا من علم الدين على يد رسول الله ﷺ، وليتكون منهم جيش الإسلام وأمة المؤمنين.(٣)

(١) كنز العمال ١٢ / ٤٩٥.
(٢) الطبقات ٤ / ٣٤٤.
(٣) النجوم الزاهرة ١/١٢٧.

وقد كانت الهجرة فعلاً تعنى هجرة الوطن إيثاراً للإيمان، ومن هؤلاء المؤمنين الذين استقروا بالمدينة، وتركوا التبدى كان جيش الدعوة الذى حقق الله به النصر فى كل المعارك.

ولما دخل عقبة الإسلام، كان من خدم رسول الله ﷺ، يأخذ بزمام بغلته، ويقودها فى الأسفار، وهو من أهل الصفة، أى: من المهاجرين الفقراء الذين لم يكن لهم مأوى، ولا بيت بالمدينة، وإنما كان منزلهم فى مسجد رسول الله ﷺ شمالى الحجرات.

وعقبة ممن جمع القرآن الكريم فى مصحف خاص به.

قال ابن يونس: رأيت مصحفه بمصر على غير تأليف مصحف عثمان، وفى آخره: كتبه عقبة بن عامر بيده.(١)

ولم يكن عقبة كاتباً فقط، بل كان شاعراً، قارئاً(٢)، عالماً بالفرائض، فقيهاً، فصيح اللسان، راوية لأحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، قيل: خمسة وخمسين. وقال ابن تغرى بردى: وللمصريين عنه نحو مائة حديث.(٣)

وفى عهد أبى بكر خرج عقبة مع المحاربين فى الفتوحات إلى الشام، وفى عهد عمر كان هو البشير إلى المدينة بفتح دمشق.

تقول د. سعاد ماهر:.. وصل إلى المدينة المنورة فى سبعة أيام، ورجع منها فى يومين ونصف ببركة دعائه عند قبر النبى ﷺ، وتشفعه به فى تقريب طريقه.(٤)

ولما شبت نار الفتنة كان عقبة فى صفوف معاوية، وحارب معه فى صفين، وحين استقر الأمر لمعاوية، وبعد وفاة عتبة بن أبى سفيان، بعث بعقبة والياً على خراج وصلاة وحرب وشرطة مصر، وكان ذلك فى عام ٤٤ للهجرة.

---

(١) قال الذهبى: الإمام المقرئ أبو عبس أحسن الناس صوتاً. (سير أعلام النبلاء ٤٠٦/٢)

(٢) النجوم الزاهرة ١ / ١٢٧.

(٣) كانوا حوالى أربعمائة رجل من المهاجرين منهم أبو هريرة، وابن أم مكتوم، وصهيب وسلمان وخباب وبلال.

(٤) مساجد مصر وأولياؤها ٨٥/١.

وعاش عقبة أميراً على مصر، ورأى معاوية أن يوجهه لعملية جهاد لا يصلح فيها غيره، فأمره أن يتوجه إلى جزيرة (رودس)، فى الوقت الذى أرسل الوالى الجديد مسلمة بن مخلد، وأوصاه أن يكتم ذلك عن عقبة حتى يخرج للغزو.

ولا نشك فى أن تصرف معاوية على هذا النحو كان احتياطاً، قصد به الحفاظ على الولاية، حتى لا يحدث فراغ فى السلطة بغيبة عقبة، وقد كان ذلك ثمرة تجربة سبقت على عهد عثمان بن عفان، فقد خرج الوالى عبد الله بن أبى سرح لعملية مماثلة، فنشأ عن تغيب الوالى الرسمى فتنة هائلة، وما كان معاوية بالذى يرتكب مثل هذا الخطأ مرة أخرى.

وتسلم مسلمة بن مخلد زمام السلطة بعد أن غادر عقبة الفسطاط فى طريقه لرودس.

قال ابن تغرى بردى: فكان ذلك لعشر بقين من ربيع الأول.[1] بعد أن دامت ولاية عقبة سنتين وثلاثة أشهر.

وقد وصل عقبة إلى شاطئ البحر ومعه جنوده، وبدأ فى نشر الرايات على السفن[2]، فبلغه خبر ولاية مسلمة، فعلق على ذلك قائلاً: ما أنصفنا معاوية عزلنا وغربنا، قال هذا كمن يعتب على أمير المؤمنين لأنه لم يطلعه على تفاصيل هذا التحرك، ثم أخذ طريقه إلى حيث أمره أمير المؤمنين، وأتم مهمته، وهو راض قرير العين، بإنجاز ما كلف به.

لقد كان عقبة رجلاً فريداً بين أقرانه، نذر نفسه للجهاد، وعلم أن الله اختاره لصفات فطره عليها، وأنه ينبغى أن يلزم طريق الجهاد لا يحيد عنه، فشارك بعد ذلك فى حصار القسطنطينية تحت إمرة يزيد بن معاوية، وهى أولى محاولات فتح القسطنطينية التى مات خلالها أبو أيوب الأنصارى، ودفنه يزيد تحت أسوارها.

ويبدو أن عقبة كان ملماً ببعض ما يؤخذ على مسلمة، ولكنه آثر أن يسلك مسلك الورع الذى يبدو فى قوله حين قدم إلى مسلمة بعد توليته مصر: أتذكر يوم قال ﷺ: من علم من أخيه سبة فسترها، ستره الله بها من النار يوم القيامة ؟ قال مسلمة: نعم. قال عقبة: فلهذا آخيتك.

---

(١) النجوم الزاهرة ١ / ١٢٨.

(٢) كان عقبة أول من نشر الرايات على السفن المحاربة.

وعلى كلٍ، فلابد أن نسجل هنا إعجابنا بالرجلين كليهما، فإن مسلمة لم يضق بعقبة، بل أبقاه معه أكثر من عشر سنوات دون أن يخشى أذى من خلفه، شأن الولاة الذين يقضون على أسلافهم تأميناً لاستمرارهم فى الولاية، لقد تعايش الرجلان بكل الحب، وتآخيا على مدد من تعاليم النبوة، ولذا عاش عقبة فى مصر آمناً، فى البلد الذى اختاره، يروى حديث رسول الله ﷺ، ويبلغ دعوته، ويأتيه الصحابى من المدينة كجابر بن عبد الله وأبى أيوب الأنصارى، وغيرهما، ليتناقشوا فى حديث سمعه من رسول الله ﷺ، ودام على ذلك إلى أن وافاه الأجل فى أواخر عهد معاوية[1] عام ٥٨ للهجرة، ودفن فى سفح المقطم، وكان قبل وفاته قد أوصى بما خلف: سبعين فرساً بجعابها[2] ونبالها فى سبيل الله.

قال ابن تغرى بردى : وليس فى الجبانة قبر صحابى مقطوع به إلا قبر عقبة، فإنه زاره الخلف عن السلف.[3]

وقيل: إن البقعة التى دفن فيها عقبة المذكور، بها أيضاً قبر عمرو بن العاص، وقبر أبى بصرة الصحابيين.[4] والله أعلم.

قالت د. سعاد ماهر عن ضريح ابن عامر: وظل قبر عقبة بن عامر محل عناية ملوك مصر وولاتها، حتى جاء صلاح الدين الأيوبى، فهدم المبنى المقام على المقبرة، وأنشأ مكانه قبة كبيرة، تولاها الملوك من بعده بالتجديد.[5]

ومما روى عن عقبة من أحاديث رسول الله ﷺ قوله: كنت آخذاً بزمام بغلة رسول الله ﷺ فقال: هل أعلمك سورتين ؟ فقلت: بلى يا رسول الله. قال: فاقرأ (قل أعوذ برب الناس وقل أعوذ برب الفلق)، ثم أقيمت الصلاة، فتقدم، فصلى بهما، وقال: اقرأهما كلما نمت وقمت. وفى رواية: أمرنى ﷺ أن أقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة.

---

(١) قالت د. سعاد ماهر: توفى فى اليوم الذى توفيت فيه السيدة عائشة فى ٨ شعبان عام ٥٨ للهجرة.

(٢) الجعاب: جمع جعبة، وهى: وعاء السهام والنبال.

(٣) النجوم الزاهرة ١ / ١٢٩.

(٤) النحوم الزاهرة ١ / ١٣٠.

(٥) مساجد مصر وأولياؤها ١ / ٨٧.

وروى الإمام أحمد عنه حديثاً قال: ذهب عقبة إلى المسجد الأقصى ليصلى، فرآه الناس فاتبعوه، فقال لهم: مالكم ؟. قالوا: أتيناك لصحبتك لرسول الله ﷺ لتحدثنا بما سمعت منه. قال: انزلوا فصلوا، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد يلقى الله عز وجل لا يشرك به شيئاً، ولم يتنذ[1] بدم حرام إلا دخل من أى أبواب الجنة شاء.[2]

وهذه روايات عنه ذكرها ابن عبد الحكم: قال ﷺ: كفارة النذر كفارة اليمين.

وقال ﷺ: من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن، فأطعمهن، وسقاهن من جِدَتِهِ، كُنَّ له حجاباً من النار.

وقال ﷺ: من توضأ، فجمع عليه ثيابه، ثم خرج إلى المسجد، كتب له كاتبه بكل خطوة عشر حسنات، ومازال فى صلاة مادام ينتظر الصلاة، ويكتب من المصلين من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه.

وقال ﷺ من قال علىّ ما لم أقل، فليتبوأ بيتاً فى جهنم.

وقال ﷺ: يوم النحر ويوم عرفة وأيام التشريق عيدنا أهلَ الإسلام، هى أيام أكل وشرب.

وقال ﷺ من توضأ فأحسن وضوءه، ثم صلى صلاة غير ساه ولا لاه، كفر عنه ما كان قبلها من سيئة.

وقال ﷺ عن عمرو بن العاص: نعم أهل البيت أبو عبد الله وأم عبد الله وعبد الله.

وقال ﷺ: المؤمن أخو المؤمن، ولا يحل لمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه حتى يذر، ولا يحل لمؤمن أن يخطب على خطبة أخيه حتى يذر.

وسأل عقبة النبى ﷺ: هل فضلت سورة الحج على القرآن ؟ قال: نعم ومن لم يسجد فلا يقرأ بها.[3]

(١) لم يصب منه شىء.
(٢) كنز العمال ١٥ / ٣٥.
(٣) فتوح مصر ٢٨٨.

مسلمة بن مخلد

تولى من ربيع أول عام ٤٧ للهجرة إلى رجب عام ٦٢ للهجرة

أول أنصارى تولى إمارة مصر: أبو سعيد مسلمة بن مُخَلَّدٍ بن الصامت بن ثعلبة الخزرجى، وهو أيضاً أول أمير يتولى إمارة مصر والمغرب معاً.

ولد مسلمة قبل الهجرة بسنوات، قال يوماً على المنبر: أسلمت وأنا ابن أربع سنوات، وتوفى رسول الله ﷺ، وأنا ابن أربعة عشرة سنة. أى: إنه أسلم عام الهجرة، وهو ما يعنى أن قومه دخلوا فى الإسلام حول هذا التاريخ.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها قوله عليه السلام: من ستر مسلماً فى الدنيا ستره الله عز وجل فى الدنيا والآخرة، ومن نجى مكروباً، فك الله عز وجل عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن كان فى حاجة أخيه، كان الله فى حاجته.(١)

وكان مسلمة ورعاً، تقياً، حافظاً للقرآن، يطيل العبادة.

قال مجاهد (٢): كنت أرى أنى أحفظ الناس حتى صليت خلف مسلمة بن مُخَلَّد الصبح، فقرأ سورة البقرة، فما ترك ألفاً ولا واواً. (وفى رواية: فما أخطأ فيها ألفاً ولا واواً).(٣)

شارك مسلمة فى فتح مصر، فكان على المدد الذى بعثه الخليفة الفاروق لعمرو، وقال له: إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف منهم رجل مقام ألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد. كانت سن مسلمة آنذاك قريباً من خمس وعشرين سنة، وكان الخليفة عمر قد جعله على صدقات قبيلة فزارة قبل أن يخرج إلى مصر مجاهداً.

(١) رواه أحمد فى أسد الغابة ٥ / ١٧٤.
(٢) مجاهد التميمى، من التابعين، وأحد القراء الكبار.
(٣) خطط المقريزى ٢ / ٨٤.

وفى الفتح كان له الباع الطويل، إذ كان ممن تسلق السلم والسور مع الزبير، حتى فتح الله لهم حصن بابليون، وبه فتح أغلب مصر، وكان من المقربين للقائد عمرو بن العاص، يعتمد عليه ويستشيره، مع فارق السن الكبير بينهما[1].

فعندما حاصر المسلمون الإسكندرية، وطال الحصار، قال عمرو لمسلمة: أشر عليّ فى قتال هؤلاء. فقال مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ، فتعقد له على الناس، فيكون هو الذى يباشر القتال، ويكفيكه.

فقال عمرو: ومن ذلك ؟. فأشار مسلمة عليه بعبادة بن الصامت.

قال المقريزى: فدعاه عمرو وأتاه وهو راكب على فرسه، فلما دنا أراد عبادة النزول، فقال عمرو: عزمت عليك أن نزلت، ناولنى سنان رمحك. فناوله إياه، فنزع عمامته عن رأسه، وعقد له، وولاه قتال الروم، فتقدم عبادة مكانه، فصادف الروم، وقاتلهم، ففتح الله على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك.[2]

وعاش مسلمة مع عمرو فى مصر، وقد عينه مشرفاً على الطواحين والغذاء، حتى عزل الخليفة عثمانُ عَمْراً، وخرج عمرو إلى فلسطين، فلم يمكث مسلمة فى مصر بعد ذلك، وإنما خرج إلى المدينة وعاش فيها، حتى بدأت الفتنة الكبرى بين عليّ ومعاوية، فرحل إلى الشام قبل أن يستتب الأمر لمعاوية، ثم كان معه فى صفين، وأراد معاوية مجازاته فأمّره على مصر والمغرب معاً.

وكان مسلمة مغرماً بالغزو لنشر الإسلام، وهو الذى زين لمعاوية غزو القسطنطينية، فبعث معاوية جيشاً كثيفاً، فيه كثير من الصحابة كابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن الزبير وأبى أيوب الأنصارى، وعلى الجيش يزيد بن معاوية، ومات أبو أيوب خلال هذه المحاولة، فدفنه يزيد تحت أسوار القسطنطينية - حسب وصيته.

---

(١) كانت سن مسلمة حول الخامسة والعشرين، أما عمروفكان قد تخطى الستين بكثير.
(٢) خطط المقريزى ١ / ١٦٤.

وقد سير مسلمة الجيوش من مصر فى ولايته براً وبحراً إلى بلاد المغرب، وإلى الجزر التى فى البحر الأبيض (جزر الروم)، وهو الذى أكمل فتح جزيرة رودس عام ٥٢ للهجرة، بقيادة الصحابى جنادة الأزدى.

وقد أثار فتح رودس الروم، فجاءوا بجيش لغزو مصر من ناحية الساحل عند بحيرة البرلس، وذلك عام ٥٣ للهجرة، ولكن مسلمة كان لهم بالمرصاد، فردهم وهزمهم شر هزيمة فى معركة استشهد فيها الصحابى عائذ بن ثعلبة البلوى، ووردان مولى عمرو بن العاص وغيرهما..

غير أن كثرة خروجه للغزو، واتساع مطامحه فى هذه السبيل - أرهق المجاهدين معه، فكرهوا منه ذلك، وخاصة الغزوات البحرية، وأظهروا له الاستياء، فقام فيهم خطيباً، قال: يا أهل مصر.. ما نقمتم منى ؟ والله لقد زدت فى مددكم وعددكم وقوتكم على عدوكم، اعلموا أنى خير ممن يأتى بعدى، والآخير منا لآخَر شر[1]. وفى رواية: والذى نفسى بيده، لا يأتيكم زمان إلا الآخر فالآخر شر، فمن استطاع منكم أن يتخذ نفقاً فى الأرض فليفعل.[2]

على أن مسلمة لم يقصر همه على الفتح فحسب، بل اهتم بالإصلاحات الداخلية، ومنها تعليم الناس الدين الجديد، فبنى المساجد الصغيرة فى كل مكان من مصر، فى القرى والكفور، ثم اتجه إلى المسجد الجامع فى الفسطاط محاولاً إصلاح ما أفسدته الأيام والظروف، فعمل خطة فى عام ٥٣ للهجرة لترميم المسجد وتوسعته وتجديده، دون أن يقترب من البناء القديم الذى بناه عمرو بن العاص، ثم بيضه وفرشه بالحصر بعد أن كان مفروشاً بالحصباء، ثم بنى فى كل ركن من أركانه الأربعة صومعة، أى: غرفة صغيرة، وهى إضافة تميز بها آنذاك أول مساجد الإسلام فى إفريقية.

ومسلمة هو أول من بنى المآذن[3] فى المساجد، فقد أمر ببناء منارة فى كل مسجد، وكتب عليها اسمه، ثم سن سنة لطيفة ذكرها على مبارك، قال: أمر مسلمة مؤذنى الجامع - جامع عمرو - أن يؤذنوا الفجر إذا مضى نصف الليل، فإذا

(١) قال أبو نعيم فى كنز العمال ١٣/ ٥٩٨: قال مسلمة:.. والآخَر فالآخر.
(٢) الإصابة ٦ / ١١٨.
(٣) ذكر المقريزى أن معاوية بن أبى سفيان هو الذى أشار على واليه بابتناء منار المسجد الذى فى الفسطاط.

فرغوا من أذانهم أذن كل مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد، فكان لأذانهم دوى شديد.[1]

وكان المتبع عند الفجر ضرب ناقوس لإيقاظ الناس.

تقول د. سعاد ماهر: وأمر ألا يضرب فى المسجد بناقوس عند الفجر، كما كان يُفعَلُ أولاً، وبذلك يعتبر مسلمة بن مخلد أول من جعل المآذن فى المساجد الإسلامية.[2]

ولم يهمل مسلمة القبط، إنما قدم لهم مآثر مازالوا يذكرونها له، فقد ترك لهم حرية بناء الكنائس الجديدة، مع التصريح بتجديدها وترميم القديم منها.

يقول د. ادوارد: وقد أجمع المؤرخون على أنه قد بنيت فى مصر عدة كنائس فى القرن الأول الهجرى، منها كنيسة مارمرقس بالإسكندرية ما بين عامى ٣٩ و ٥٠ للهجرة، كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط فى حارة الروم فى ولاية مسلمة بن مخلد ما بين عامى ٤٧: ٦٨ للهجرة.[3]

ومات معاوية بن أبى سفيان أول خلفاء بنى أمية عام ٦٠ للهجرة، وتولى ابنه يزيد الخلافة، فأقر مسلمة على ولاية مصر والمغرب.

وقد عاش مسلمة بن مخلد حياة حافلة بالأعمال الجليلة فى إمارته لمصر والمغرب، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى فى رجب عام ٦٢ للهجرة، وهو الأرجح، وقيل فى ذى الحجة (الموافق أبريل عام ٦٨٢ للميلاد) ودفن فى الإسكندرية[4]، رضى الله عنه.

(١) الخطط التوفيقية ١٥/٤.
(٢) مساجد مصر وأولياؤها ٣٧/٢.
(٣) معاملة غير المسلمين ١٤٠. وصواب التاريخ: ما بين عامى ٤٧ و٦٢ للهجرة.
(٤) قالت د. سعاد ماهر: (عن ابن زولاق وابن الزيات): مات مسلمة بن مخلد بمصر - الفسطاط - وهو الأصح، وقبره بمصر بخط مذبح الجمل، ومذبح الجمل بمصر القديمة الآن، ويعرف الشارع الذى به ضريح مسلمة باسم شارع مسلمة بن مخلد، أما الآن فقد تغير اسم الشارع الموجود به الضريح، وأصبح سوقاً للباعة المتجولة، متفرع من الشارع المؤدى إلى جامع عمرو بن العاص، والضريح عبارة عن زاوية صغيرة بداخلها غرفة مربعة تقوم عليها قبة صغيرة. (مساجد مصر ٣٧/١)

وقبل أن نترك ترجمة الأمير مسلمة ينبغى أن نعلق على واقعة حدثت زمن مسلمة، تدلنا على أن وسام الصحبة مع رسول الله ﷺ كان أرفع شأناً، وأكثر تأثيراً من أى اعتبار آخر يمكن أن يميز بين هؤلاء الأسلاف.

فإن من تولى الولاية منهم، لم تكن تميزه السلطة عن الآخرين، كما أن من عزل من الولاة لم يكن يفقد اعتباره الاجتماعى بين الناس.

ولنأخذ مثلاً على ما نقول قصة أبى أيوب الأنصارى حين زار عقبة بن عامر فى مصر بعد عزله، قال الذهبى: جاء أبو أيوب عقبة بن عامر بمصر ليسأله عن حديث، فالتقاه مسلمة وعانقه.(1)

والقصة بالتفصيل كما ذكرها عطاء بن رباح، قال: خرج أبو أيوب إلى عقبة ابن عامر، وهو بمصر، يسأله عن حديث سمعه من النبى ﷺ لم يبق أحد سمعه من رسول الله غيره وغير عقبة، فلما قدم أتى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى، وهو أمير مصر، فأخبر به، فعجل، فخرج إليه، فعانقه، ثم قال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيرى وغير عقبة، فابعث من يدلنى على منزله: قال: فبعث معه من يدله على منزل عقبة، فأخبر عقبة، فعجل، فخرج إليه فعانقه، وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيرى وغيرك فى ستر المؤمن، قال عقبة: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: من ستر مؤمناً فى الدنيا على عورة، ستره الله عز وجل يوم القيامة.

قال أبو أيوب: صدقت. ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته، فركبها، راجعاً إلى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر.(2)

ما أعظم هذا الجيل، الذى علم الدنيا الأمانة والتفانى فى طلب العلم، حفاظاً على سنة رسول الله ﷺ، وإثباتاً لأقواله ووصاياه، حتى إنهم كانوا يضربون فى

(1) سير أعلام النبلاء ٣ / ٤٢٥.
(2) مجمع الزوايد ١ / ١٣٤.

الأرض شهوراً، بحثاً عن قولة قالها رسول الله ﷺ لا تزيد على سطر واحد، فإذا بالرجل منهم يتحمل من أجل هذا السطر وعثاء الطريق، مخافة أن يموت دون أن يُبَلِّغَ هذا السطر إلى الدنيا، ويوثق روايته لمن يأتى بعده من جيل التابعين.

إننا لا نعلم فى تاريخ الإنسانية موقفاً كهذا، إلا ما سجله التاريخ لجيل الأمانة من صحابة رسول الله ﷺ، ورضى الله عنهم أجمعين.

سعيد بن يزيد

تولى من رمضان عام ٦٢ للهجرة إلى شعبان عام ٦٤ للهجرة

بعد وفاة مسلمة بن مخلد، عين الخليفة يزيد بن معاوية والياً آخر على مصر، هو: سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدى، وجاء سعيد إلى مصر، ودخلها فى رمضان عام ٦٢ للهجرة، وكان سعيد صغير السن، رغم قول بعض الرواة بصحبته، واستبعد كثير منهم ذلك، مع أنه روى كثيراً من أحاديث رسول الله ﷺ، منها قوله: عن رجل من الصحابة قال: يا رسول الله أوصنى. قال: أوصيك أن تستحيىَ من الله كما تستحيى رجلاً صالحاً من قومك.

وصل سعيد إلى مصر، وشاهده كبراء الناس وفضلاؤهم، فاستصغروه، فقالوا: يغفر الله لأمير المؤمنين، أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك، يولى علينا أحدهم؟، وبالغوا فى ازدرائه والبعد عنه.

قال ابن تغرى بردى: ولم يزل أهل مصر من الشنآن له والإعراض عنه والتكبر عليه، حتى توفى يزيد بن معاوية(١)، ودعا عبد الله بن الزبير الناس لبيعته، وقامت أهل مصر بدعوته، وسار منهم جماعة كثيرة إليه، فبعث عبد الله بن الزبير عبد الرحمن بن جحدم أميراً على مصر، واعتزل سعيد، فكانت ولايته سنتين إلا شهراً، وقيل سنتين وأشهراً.(٢)

ولو استعرضنا حال مصر خلال السنتين اللتين تولى فيهما سعيد، لوجدنا أن حال البلاد لم يكن فى استقرار، وإنما كانت الحروب تحيط بالبلاد شرقاً وغرباً، فمن جهة الشرق خرج عبد الله بن الزبير، وطالت الحروب بينه وبين بنى أمية، وفى الغرب خرج كسيلة البربرى الذى ارتد بعد إسلامه، وهجم على عساكر المسلمين، وعليهم عقبة بن نافع، واستولى على أمر إفريقية، ولم يستطع سعيد أن يرد هذه الهجمات البربرية على بلاد المغرب.

---

(١) توفى يزيد فى ربيع أول عام ٦٤ للهجرة.
(٢) النجوم الزاهرة ١ / ١٥٨.

أى : إن الحروب والاضطرابات لم تترك فرصة للوالى سعيد بن يزيد أن يتفرغ لمصر وإصلاحاتها الداخلية وشئونها الدينية، فكل ما أثر عنه حبه للعلم، ورواية حديث رسول الله ﷺ.

غير أن قصر مدته لم يسمح بظهور تصدعات فى السلطة الداخلية، حتى كانت خلافة عبد الله بن الزبير.

عبد الرحمن بن جحدم

تولى من شعبان عام ٦٤ للهجرة إلى رجب عام ٦٥ للهجرة

ظلت الدولة الإسلامية تموج وتفور بالأحداث بعد وفاة يزيد بن معاوية، والذى يهمنا مصر وما حولها، فقد استولى عبد الله بن الزبير على مكة عام ٦٣ للهجرة، وبعث بأمراء من قبله إلى بعض الأمصار، ومنها مصر، التى بعث إليها فى شعبان عام ٦٤ للهجرة عبد الرحمن بن إياس بن الحارث بن جحدم الفهرى القرشى، الذى دعا لابن الزبير خليفة، فتبعه الناس، وأظهر له آخرون الولاء مع ما يضمرون فى قلوبهم من الحب لبنى أمية.

ولم يمكث عبد الرحمن فى مصر إلا أشهراً قلائل، وسمع الناس أن مروان بن الحكم قد استولى على الخلافة فى الشام، وهو فى طريقه بجيش كبير إلى مصر، وجهز عبد الرحمن جيشاً لملاقاة مروان، الذى ما لبث أن وصل إلى مصر، وتقابل الجيشان، وتحاربا يوماً أو يومين، وقتل أناس كثيرون، ثم تصالح مروان مع عبد الرحمن على أن يتخلى عن الإمارة، وولى مروان ابنه عبد العزيز إمارة مصر.

وفى أثناء هذه الفتنة توفى الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو، فلم يستطع المشيعون الخروج بجنازته إلى سفح المقطم حيث المقبرة، فدفنوه فى داره التى ضُمَّت إلى المسجد العتيق فيما بعد.

وهكذا عانت هذه المنطقة من الدولة الإسلامية قرابة ثلاث سنوات من عدم الاستقرار،جَرَّاءَ الفتن والحروب، حتى تولى مروان بن الحكم، وتبعه ابنه عبد الملك.

ولابد أن نذكر أن الناس فى سائر البلاد، عدا مصر والمغرب عام ٦٤ ـ لم يحجوا، لأن ابن الزبير كان مسيطراً على سبل الحج، ولكن عبد الرحمن بن جحدم والى مصر من قِبَل ابن الزبير خرج بمن أراد الحج من المصريين والمغاربة، فحج بهم فى ذلك العام.

عبد العزيز بن مروان

تولى من رجب عام ٦٥ للهجرة إلى ١٣ جمادى الأولى عام ٨٥ للهجرة

هو أبو الأصبع عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية القرشى، عَاشِرُ أمراء مصر الإسلامية، وخامس أمراء بنى أمية، وأول أمير من قبل بنى مروان، فقد ولاه أبوه مروان بن الحكم مصر، فوصلها فى رجب عام ٦٥ للهجرة.

وكان مروان قد زحف على مصر فى غرة جمادى الأولى عام ٦٥ للهجرة، وبعد صراع مع الزبيريين - كما سبق - استتب الأمر لمروان، وولى ابنه عبد العزيز أمر مصر، ولما توفى مروان فى ٢٧ من رمضان عام ٦٥ للهجرة، تولى الخلافة عبد الملك بن مروان، وأقر إمرة أخيه عبد العزيز على مصر.

شخصية عبد العزيز

كان عبد العزيز أقرب أبناء مروان إليه، فقد عاصر الأحداث الأخيرة فى الدولة الإسلامية من أول الفتنة، فكان مع مروان[١] أبيه يوم قتل عثمان، وكان طفلاً صغيراً، ثم خرج معه إلى الشام عندما طردهم ابن الزبير من المدينة، بعد وفاة يزيد عام ٦٣ للهجرة، ودرس عبد العزيز السياسة من ينابيعها وأحداثها، ودرس الدين من مصبه فى المدينة، وروى عن أبى هريرة أحاديث عن رسول الله ﷺ، وقد عده ابن سعد - فى طبقاته - فى الطبقة الثانية من التابعين.[٢]

وعبد العزيز والد خامس الخلفاء الراشدين (عمر)، الذى تولى الخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك عام ٩٩ للهجرة.

قال ابن سعد: لما أراد عبد العزيز الزواج من أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب، قال لقيّمه: اجمع لى أربعمائة دينار[٣] من أطيب مالى، فإنى أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح.[٤]

---

(١) مع أن أخاه عبد الملك ولد قبله عام ٢٦ للهجرة، وولد عبد العزيز بعده.

(٢) الطبقات ٥ / ٢٣٦.

(٣) مثل مهور أمهات المؤمنين.

(٤) الطبقات ٥ / ٣٣١.

وكان مروان قد غلب على مصر كما علمنا سنة٦٥هـ، ثم أقام أبنه عبدالعزيز أميرا عليها للصلاة والخراج، وتهيب عبدالعزيز أن يكون فيها وحده وليس معه أحد من بنى أبيه فقال له مروان: يا بُنَىَّ عُمَّهُمْ بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك واجعل وجهك طلقا تَصْفُ لك مودتهم وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن لك عينا على غيره، وينقاد قومه إليك، ثم نصحه بكلمة أخيرة قال: وما عليك يا بُنَىَّ أن تكون أميرا بأقصى الأرض، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخمولك فى منزلك؟[1] ثم أمره بتقوى الله فى السر والعلانية والاهتمام بالصلاة وانفاذ الوعود واستشارة القوم وعدم التعجل.

وقد ميز الله عبد العزيز بميزات حببت فيه سكان مصر، سواء من القبط أم من العرب، فقد كان كريماً جواداً سخياً، قيل إنه كانت تنصب له كل يوم حول داره ألف قصعة للآكلين، ثم تحمل مائة قصعة على العجل إلى قبائل مصر.

وكان القبط النصارى يحبونه، فقد سمح لهم ببناء كنائس جديدة فى بلاد مصر، خاصة فى الإسكندرية والفسطاط وحلوان.

ومن صفاته أنه كان رجاعاً إلى الحق، لا يستنكف أن يتقبل النصح ممن دونه، ومن ذلك ما روى أن رجلاً دخل عليه فى ولايته يشكو إليه صهراً له، فقال: إن ختنى[2] ظلمنى. فقال له عبد العزيز: من ختنَك؟- بفتح النون-. فقال: الرجل الختان الذى يختن الناس. فقال عبد العزيز لكاتبه: ماهذا الجواب ؟ فقال أيها الأمير إنك لحنت[3]، والرجل يعرف اللحن، وكان ينبغى أن تقول: من ختنُك -بالضم-. فقال عبد العزيز: أترانى أتكلم بكلام لا تعرفه العرب ؟ والله لا شاهدت الناس حتى أعرف اللحن. فأقام فى بيته جمعة لا يظهر، ومعه من يعلمه النحو، فصلى بالناس الجمعة الأخرى، وهو أفصح الناس.[4]

وكان عبد العزيز أخاً سمحاً محباً لإخوته واصلاً لهم، وما دار بينه وبين عبد الملك يدل على ذلك.

(١) خطط المقريزى ٢٠٩/١.
(٢) الختن: زوج البنت.
(٣) أخطأت فى اللغة.
(٤) النجوم الزاهرة ١ / ١٧٥.

فقد عهد مروان بالخلافة لابنه عبد الملك ثم عبد العزيز، ولما تولى عبد الملك حَلِيَت فى عينه فجعلها لابنيه سليمان والوليد من بعده، وخلع منها عبد العزيز، فبعث إليه فى مصر أن يتنازل عن الخلافة لابنه، فرفض عبد العزيز مرتين، وفى الثالثة كتب عبد الملك إليه أن يحمل خراج مصر إليه، وكان عبد العزيز مستقلاً يملك مصر بجميع خراجها وشئونها المالية، ويديرها بحكومة منفصلة عن دمشق، أشبه شيء بالحكم الذاتى فى عصرنا، وكما كانت حال عمرو ابن العاص فى فترة حكمه الثانية لمصر، ولذلك غضب غضباً شديداً عندما أمره عبد الملك أن يبعث إليه بالخراج، أى: إنه اعتبره أميراً تحت وصايته، ومن قِبَلِه.

وقد أورد ابن تغرى بردى رده الأخير على الخليفة، قال: فكتب إليه عبد العزيز: إنى وإياك قد بلغنا سناً لم يبلغها أحد من أهلنا، وإنا لا ندرى أينا يأتيه الموت أولاً[(١)]، فإن رأيت ألا تُغَثِّثَ[(٢)] علىّ بقية عمرى، ولا يأتينى الموت إلا وأنت واصل فافعل. فرق له عبد الملك، وقال: لا أُغَثِّثُ عليه بقية عمره، وقال لابنيه (سليمان والوليد)[(٣)]: إن يُرِدِ اللهُ أن يعطيكماها، لم يقدر أحد من الخلق على ردها عنكما، ثم قال لهما: هل قارفتما حراماً قط ؟. قالا: لا والله. قال عبد الملك: نلتماها ورب الكعبة.[(٤)]

وعاش عبد العزيز والياً على مصر، حتى توفى قبل أخيه بسنة وبضعة أشهر، فتولى ابنا أخيه عبد الملك الخلافة بعد ذلك دون منازع.

وقد سكن عبد العزيز خلال ولايته الفسطاط، واختط بها داراً عظيمة للإمارة عام ٦٧ للهجرة، وسماها دار الذهب، وجعل لها قبة مذهبة.

قال القلقشندى:... ونزلها بنوه من بعده، فلما هرب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية إلى مصر نزل هذه الدار، فلما رهقه القوم [(٥)]، أمر بإحراقها، فلامه

---

(١) توفى عبد العزيز فى جمادى الأولى عام ٨٥ للهجرة، وتوفى عبد الملك فى شوال عام ٨٦ للهجرة.

(٢) تفسد.

(٣) تولى الوليد الخلافة فى شوال عام ٨٦ للهجرة، وتولى سليمان فى جمادى الآخرة عام ٩٦ للهجرة.

(٤) النجوم الزاهرة ١ / ١٧٤.

(٥) القوم هم: بنو العباس، وذلك عام ١٣٢ للهجرة.

فى ذلك بعض بنى عبد العزيز ، فقال: إنْ أَبْقَ أَبْنِها، لَبِنَةٌ من ذهب، ولَبِنَةٌ من فضة، وإلا فما تصاب به فى نفسك أعظم، ولا يتمتع بها عدوك من بعدك.[1]

وعود إلى عبد العزيز الذى نزل الفسطاط، حتى إذا كان عام ٧٠ للهجرة، وقع طاعون كاسح فى مصر، فرحل جنوباً حتى وصل إلى أرض فضاء جنوبى الفسطاط على نهر النيل، فاشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار، وسماها حلوان، وبنى فيها الدور والقصور والمساجد، وزرع البساتين والكروم والأشجار والنخل، ولهوائها الجميل ومياهها المعدنية لم يفكر فى العودة إلى الفسطاط، إلا للصلاة فى الجامع الكبير[2] فى الجمعة والأعياد، ولم ينس عبد العزيز القبط فى حلوان، فبنى لمن سكن معه منهم كنيسة.

يقول بتلر: فلما جاء البطريق إسحق قيل: إن حاكم مصر نفسه عبد العزيز ابن مروان أمر أن تبنى كنيسة فى مدينته الجديدة حلوان.[3]

وفى حلوان ضربت الدنانير الإسلامية، وبُنِىَ كذلك مقياسٌ للنيل، وفى عام ٦٩ للهجرة أمر عبد العزيز ببناء قنطرة الخليج الكبير فى طرف الفسطاط بالحمراء القصوى قرب السيدة زينب.

قال ابن قيس الرقيات معظماً حلوان:

سُقْياً لحلوان ذى الكروم وما صُنِّفَ من تينه ومن عنبه [4]

وعاش عبد العزيز فى حلوان يدير ولايته حتى توفى فى ١٣ جمادى الأولى عام ٨٥ للهجرة، بعد موت ابنه الأصبع بستة عشر يوماً بطاعون جاء إلى مصر، وحمل ليصلى عليه فى المسجد الكبير فى الفسطاط، ويدفن مع سابقيه فى سفح المقطم.

قال المسعودى: كان يقول عند موته: ياليتنى لم أكن شيئاً، ياليتنى كهذا الماء الجارى.. هاتوا كفنى - ثم يخاطب الدنيا: أف لك، ما أقصر طويلك وأقل كثيرك!![5]

---

(١) صبح الأعشى ٢ / ٣٣١.
(٢) لم ينس عبد العزيز جامع عمرو، إنما زاد فيه، ووسعه، وأدخل فيه الرحبة.
(٣) فتح العرب ٣٩٠.
(٤) معجم البلدان ٢ / ٢٩٤.
(٥) مروج الذهب ٤ / ٢٥٠.

سك العملة الإسلامية

ولعبد العزيز بن مروان الفضل الأول فى أسلمة النقود، وذلك أن عبد الملك كتب لملك الروم[1] عام ٧٦ للهجرة كتاباً جاء فيه ذكر (قل هو الله أحد) وذكر النبى ﷺ مع التاريخ، فضاق الملك الرومى بذلك، وتوعد المسلمين قائلاً: إنكم أحدثتم كذا وكذا فاتركوه، وإلا أتاكم فى دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون.

فعظم ذلك علي عبد الملك، واستشار أخاه عبد العزيز وخالد بن يزيد بن معاوية[2]، فكان رداً واحداً: حرم دنانيرهم واضرب للناس سكة جديدة فيها ذكر الله.

وصادف هذا الكلام هوى فى نفس عبد الملك، وفسخ المعاهدة بينه وبين البيزنطيين، وقرر هو سك نقود إسلامية، وخاصة أنه - كما قال ابن تغرى بردى - وجد دراهم ودنانير تاريخها قبل الإسلام بثلاثمائة سنة أو أربعمائة مكتوب عليها: بسم الأب والابن وروح القدس.[3]

وضرب أول دينار إسلامى فى دمشق، ثم أمر الخليفة أخاه عبد العزيز أن تكون الفسطاط فى مصر هى المركز الثانى لضرب النقود الإسلامية، وقد سبق فى فصل النظام الإدارى والمالى فى مصر الإسلامية إفاضة فى موضوع أسلمة النقود.

وقبل أن نترك عبد العزيز بن مروان، نذكر عملاً قام به، لم يعمله غيره، وهو أنه أول من عرّف فى مصر، أى أقام وقفة عرفات فى مصر، كما تقام فى الحج، وذلك عام ٧١ للهجرة، وولاة أمر المسلمين اثنان: عبد الملك بن مروان على مصر والشام والمغرب وما حولها، والثانى عبد الله بن الزبير على مكة والمدينة والعراق، وكان عبد الله ينتهز فرصة الحجيج، فيخطب فيهم مسيئاً لبنى أمية، وحاضاً على الخروج عليهم، فما كان من عبد الملك إلا أن بنى مسجد الصخرة

---

(١) الإمبراطور جستنيان الثانى.
(٢) خالد أول من نقل صناعة الكيمياء إلى العرب، وخاصة فى مدرسة الإسكندرية.
(٣) النجوم الزاهرة ١ / ١٩٣.

والمسجد الأقصى، وأقام ما يشبه الحج فى القدس، وأمر أخاه عبد العزيز بعمل ذلك فى ٩ من ذى الحجة عام ٧١ للهجرة، فيقف الناس، ويصلون، ويذبحون أضحياتهم كأنهم فى مكة.

والحق أن ذلك من بدع السياسة، ونتائج الصراع على السلطة – وهو لا يجوز فى شرع الله، بل هو حدث من الأحداث المنكرة فى دين الله، لأنه نوع من التزييف الذى يفسد به الحكام عقائد الرعية، ويشوهون حقائق الدين، وما نعلم حاكماً – فى تاريخ الإسلام – لجأ إلى مثل هذا الأسلوب المجترئ على الدين، مهما تكن الظروف التى تواجهه، وغاية ما بلغه بعض الحكام فى هذا المجال أن يلجأوا إلى تعطيل الفريضة، بإخافة الطريق، أو منع الناس من السفر.

عبد الله بن عبد الملك

تولى من ١١ جمادى الآخرة عام ٨٥ للهجرة إلى صفر عام ٨٩ للهجرة

هو ابن الخليفة عبد الملك بن مروان، تولى مصر بعد وفاة عمه عبد العزيز، ولد فى عام ٥٨ للهجرة، ومع صغر سنه[١] كان محباً للجهاد والغزو، ولذلك كان عبد الملك يندبه للغزوات فى بلاد الروم، وعندما جاءه نعى عبد العزيز أسرع فى طلب ابنه عبد الله، الذى كان فى صراع مع الروم بعد أن فتح مدينة (المصّيصة)، وهى مدينة على حدود بلاد الشام، ومن ثغورها، بين أنطاكية وبلاد الروم قرب طرسوس، وجاء عبد الله وسار إلى مصر ودخلها فى ١١ من جمادى الآخرة عام ٨٥ للهجرة.

وكانت الوصية الأولى من عبد الملك لابنه أن يعفى على آثار عبد العزيز، فاستجاب عبد الله، وغيّر جميع عمال عمه، وجاء بعمال جدد، ثم اهتم بالبناء، فأقام عدة أبنية، منها مسجد جامع كبير عرف باسم مسجد عبد الله.

وتوفى عبد الملك بعد تولية عبد الله بسنة وشهر، وتولى الوليد الخلافة، فأبقى لأخيه ولاية مصر لفترة قصيرة، ثم عزله.

قال الشابشتى: كان عبد الملك عند وفاته وصى الوليد بثلاثة نفر، قال له: على بن عبد الله[٢] -العباسى- فى نسبه وقرابته وانقطاعه إلينا: أكرمه واعرف حقه، وأخوك عبد الله أقره على مصر ولا تعزله عنها، وعمك محمد بن مروان أقره على الجزيرة واعرف له موضعه.

فأول ما بدأ بأخيه، عزله عن مصر بقرة بن شريك، وعزل عمه عن الجزيرة، وضرب علياً بالسوط مرتين.[٣]

---

(١) قال ابن تغرى بردى: كانت سنه عند توليه إمارة مصر - سبعاً وعشرين سنة.

(٢) جد الخليفتين العباسيين: أبو العباس السفاح، وأبو جعفر المنصور.

(٣) الديارات ٢١٦.

وتذكر بعض المراجع أن عبد الله كـان جـائراً ظالمـاً، يـأخذ الرشـوة، ويبتز الخراج، ولذلك عزله أخوه الوليد فى أول سنة ٩٠ للهجرة، ولم يتركه ينعم بما أخذه من خيرات مصر وهداياها، وتحفها، وإنما بعث له وهو فى طريقه إلى دمشق من أحاط به فى الأردن، وأخذ كل ما كان معه، وكانت ولاية عبد الله ثلاث سنوات وعدة أشهر.

والذى يهمنا فى شخصية عبد الله وترجمته، هو العمل الجليل الذى قام به فى أثناء ولايته لمصر، وهو تعريب الدواوين.

قال جورجى زيدان: فى عام ٨٦ للهجرة، جعلت الكتابـة فـى دواويـن مصـر باللغة العربية، وكانت لا تزال بالقبطية، يتولى أمرها (أنتش)، فعزلـه عبـد اللـه بـن عبد الملك، وولى مكانه ابن يربوع الفزارى، من أهل حمص.[1]

هذه الخطوة ما كانت لتتم لولا أن الإسلام كان قد انتشر فى مصر، واعتنقه أغلبية تكفى لفرض التعامل باللغة العربية، على مختلف المستويات.

(١) تاريخ مصر الحديث ١٢٠.

قرة بن شريك

تولى من أول ربيع أول عام ٩٠ للهجرة إلى ربيع آخر عام ٩٦ للهجرة

جاء إلى مصر بعد عزل عبد الله بن عبد الملك الأمير قرة بن شريك بن مرثد بن الحارث بن قيس بن عيلان العبسى، قال عنه صاحب الأعلام: العبسى الغطفانى المصرى القنسرينى.

اشتهر بالظلم والخبث، وقيل: كان فاسقاً صُلْباً جباراً، اتفقت الخوارج على قتله عند زيارة الإسكندرية، وعلم بالمؤامرة، فقبض عليهم، وقتلهم.

كان عمر بن عبدالعزيز يعيب على الوليد توليته كلاً من قرة بن شريك والحجاج بن يوسف لإشاعة ظلمهما، ويشاء الله - كما تقول الروايات - أن يموت الاثنان فى وقت واحد، قرة فى مصر، والحجاج فى العراق، وذلك فى ربيع أول عام ٩٦ للهجرة.

والذى يهمنا فى فترة تولية قرة بن شريك لمصر اهتمامه الكبير بجامع عمرو بن العاص، ففى عام ٩٠ للهجرة، هدم المسجد، وبناه من جديد، وزاد فى بنائه، وأدخل فيه الطريق الشرقى، وبيت عمرو بن العاص، وبنى منبراً جديداً، وجعل للجامع أحد عشر باباً، كما أنه بنى مساجد أخرى.

يقول السيوطى: بنى بفسطاط مصر المسجد الذى فى حصن الروم، ويعرف باسم العيلة.[1]

وكان الوليد بن عبد الملك هو الذى أمر بتلك التعديلات والتوسعات، حيث عنى بكل مساجد العالم الإسلامى، وأمر ولاته بالعناية بها، وتوسعتها، وخاصة فى العواصم الكبيرة مثل الفسطاط والبصرة والكوفة، واهتم هو بما فى الشام وفلسطين، فبنى المسجد الأموى فى دمشق، ومسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى فى بيت المقدس.

(١) حسن المحاضرة ١٤٣.

ومن أعمال قرة بن شريك الجليلة التى تحسب له فى مصر اهتمامه ببركة الحبش، التى تقع شمالى الفسطاط، فبعد أن كانت بركة، وحولها أرض موات، أحياها، وغرس فيها القصب، فصارت متنزهاً، واستفاد منها.

وقرة بن شريك هو الذى سُجل فى عهده الديوان الثالث، والديوان هو الدفاتر التى يسجل فيها أسماء أفراد الجيش والقبط ودافعى الزكاة والجزية والخراج ومستحقى العطاء.

وكان الديوان الأول فى عهد عمرو بن العاص، والثانى فى عهد عبد العزيز ابن مروان، والثالث فى عهد قرة بن شريك.

عبد الملك بن رفاعة

تولى من ربيع آخر عام ٩٦ للهجرة إلى ربيع أول عام ٩٩ للهجرة

تولى إمارة مصر بعد وفاة قرة بن شريك عبد الملك بن رفاعة بن خالد الفهمى، وكان من عام ٩١ للهجرة متولياً الشرطة فى مصر، وقد اشتهر عبد الملك بالعدل بين الرعية، وبالأمانة والعفة.

قال عنه الليث بن سعد: كان عبد الملك يقول: إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاق - يقصد النافذة.

وذكر عنه ابن إياس مزيدا من الاهتمام بشئون الرعية فى مصر، قال: لما تولى مصر نظر فى مصالح قرى مصر، وخرج بنفسه وطاف البلاد (قبلى وبحرى)، فأحصى من القرى نحو عشرة آلاف قرية، فى كل قرية خمسمائة من الرجال الأقباط الذين تفرض عليهم الجزية فكانت مدة غيبته فى هذه السرحة ستة أشهر حتى رجع إلى الفسطاط [1]. ولا نشك فى ضعف هذا الخبر لما فيه من المبالغة فى الأرقام إلى حد غير معقول ولا مقبول، وكل ما يستفاد منه هو اهتمامه بشئون البلاد، باعتباره رجل شرطة.

لقد تولى عبد الملك ولاية مصر مرتين، **الأولى** فى أواخر عهد الوليد بن عبد الملك، الذى ما لبث أن توفى فى ١٥ من جمادى الآخرة عام ٩٦ للهجرة.

ولما استخلف سليمان بن عبد الملك أبقى عبد الملك والياً على مصر، ثم تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، فعزل عبد الملك، وتولى بعده أيوب بن شرحبيل.

والولاية الثانية لعبد الملك كانت فى محرم عام ١٠٩ للهجرة، ولكنه لم يبق فيها إلا خمسة عشر يوماً، وتوفى، ودفن فى المقطم.

---

(١) بدائع الزهور ١٢٦/١.

أيوب بن شرحبيل

تولى من ربيع أول عام ٩٩ للهجرة إلى ١٧ من رمضان عام ١٠١ للهجرة

فى صفر من آخر سنة من القرن الأول الهجرى، تولى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز بن مروان خلافة المسلمين فى دمشق.

وكان أول عمل قام به هو تغيير ولاة الأمصار، فعزل عبد الملك بن رفاعة وولى أيوب بن شرحبيل [(١)] بن أبرهة الأصبحى من بنى الصبّاح.

وجاء إلى مصر فى ربيع أول عام ٩٩ للهجرة، وعندما وصل إليها، بدأ فى تنفيذ أوامر الخليفة.

أولها : إغلاق الحانات وأماكن بيع الخمور، وتكسير القدور، وعدم السماح ببيعها أو الإتجار فيها، ثم قام بعمل إدارى مهم هو إبعاد القبط عن إدارة الكور والدواوين والمواريث، وأحلّ رجالاً مسلمين محلهم، وقد حاول أيوب التعاطف مع المصريين، والعناية بشئونهم، حتى حسنت أحوال سكان مصر فى أيامه التى لم تدم طويلاً، ولم تزد عن سنتين ونصف السنة.

فقد توفى عمر بن عبد العزيز فى رجب عام ١٠١ للهجرة، وجاء يزيد بن عبد الملك، فأقر أيوب بن شرحبيل على مصر، ولكن القدر لم يمهله، فتوفى فى رمضان عام ١٠١ للهجرة، بعد عمر بن عبد العزيز بشهرين، رضى الله عن الجميع.

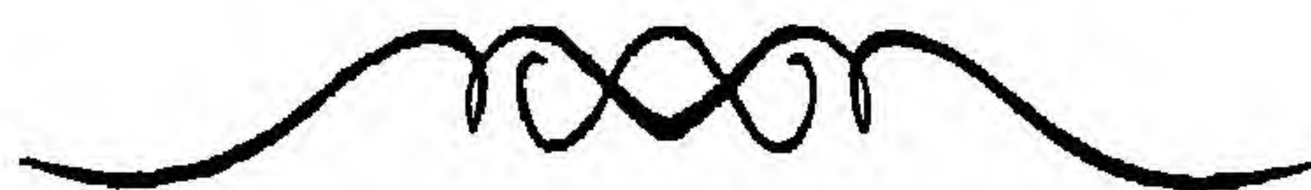
وهكذا نختم ترجمة أمراء مصر المسلمين من قبل الخلفاء الراشدين فى المدينة، ومن قبل خلفاء بنى أمية فى دمشق الشام، وذلك منذ فتحها عام ٢٠ للهجرة على يد عمرو بن العاص حتى نهاية القرن الأول الهجرى.

---

(١) جده أبرهة بن شرحبيل، أحد الصحابة الذين فتحوا مصر مع عمرو بن العاص، وكان ممن اختط فى الجيزة، وعاش فيها.

الفصل الرابع عشر

الصحابة الفاتحون



فتح عمرو بن العاص مصر عام ٢٠ للهجرة، ودخل معه أربعة آلاف محارب من قبائل شتى، أكثرهم من قبائل عك وجذام ولخم وبلى اليمنية، مع عدد من قريش وأسد والأوس والخزرج.

على أنه يهمنا هنا من دخل مصر من صحابة رسول الله ﷺ ضمن هذا الجيش الفاتح، أو فى المدد الذى أرسله الخليفة عمر بعد ذلك، ومن هؤلاء الصحابة من سكن مصر بعد أن استقر فيها الإسلام، ومنهم من تركها إلى بلاد إسلامية أخرى مفتوحة فى الشام والعراق والمغرب.

وهناك صحابة جاءوا إلى مصر بعد الفتح، إما للمشاركة فى فتح المغرب، أو لسبب سياسى، أو لاستشارة واحد من الصحابة فى مصر فى حديث أو غيره.

وقد اختلف المؤرخون فى عدد من دخل مصر من الصحابة فى جيشى الفتح. فهذا ابن ربيع الجيزى يعدهم مائة ونيفاً وأربعين رجلاً.

أما جلال الدين السيوطى فى كتابه (حسن المحاضرة) فقد عدهم ثلثمائة وخمسة وثلاثين صحابياً، وسمى هذا الكتاب الذى ضمنه حسن المحاضرة: (در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة)، وقال فى مقدمته:.. وبعد، فقد ألف الإمام محمد بن ربيع الجيزى الذى والده صاحب الإمام الشافعى رضى الله عنه كتاباً فيمن دخل مصر من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فى مجلد، فأورد مائة ونيفاً وأربعين رجلاً، وأورد فى أحاديثهم، وما رواه أهل مصر، وقد فاته جماعة لم يذكرهم، ذكر بعضهم ابن عبد الحكم فى (فتوح مصر)، وبعضهم ابن يونس فى (تاريخ مصر)، وبعضهم ابن سعد فى (طبقاته)، وقد أردت أن ألخص كتاب محمد بن ربيع الجيزى، وأضم إليه ما فاته.. وأرتبه على حروف المعجم، وأزيد التراجم، فأذكر الاسم والكنية واللقب، واسم الأب والجد والنسب والسن والوفاة، وما تفرد الصحابى بروايته، وسميته (در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة).(١)

وقد أحصينا من كتاب الإمام السيوطى أسماء من سكنوا مصر، واختطوا بها، فوجدناهم قرابة الخمسين.

---

(١) حسن المحاضرة ٧٨.

أما الصحابة الفاتحون الذين عاشوا فى مصر فترة، ثم توفوا فيها، أو استشهدوا فى معارك فتحها، فقد وجدناهم زادوا على الثلاثين.

أما الصحابة الذين جاءوا لمصر بعد الفتح لعمل سريع، مثل رواية ومراجعة حديث، أو إحضار رسالة للوالى، أو جاءوا للاشتراك فى فتوحات المغرب والنوبة، ولا معبر لهم إلا مصر - فكانوا كُثراً، عددنا منهم حوالى الثلاثين.

وسنورد الآن أسماء الصحابة الذين دخلوا مصر فاتحين، سواء فى جيش عمرو بن العاص الأول، أو فى المدد مع الزبير بن العوام، أى: من دخل مصر مقاتلاً مجاهداً، وسنرتبهم ترتيباً هجائياً، كما فعل السيوطى، مع الرجوع إلى بقية المؤرخين حتى نستطيع استيفاء أكبر قدر من المعلومات عن هؤلاء الصحابة الفاتحين، مع الاختصار بقدر الإمكان، ثم استعراض دور هؤلاء الصحابة فى نشر الدعوة الإسلامية، ورواية الحديث الشريف، وتعليم المصريين الذين دخلوا فى الدين الجديد مع الإشارة إلى أهم ملامح شخصياتهم وبصماتهم التى تركوها على صفحات تاريخ الفتح الإسلامى لمصر وإفريقية.

فمثلاً وجدنا أن أكثر من ثمانين صحابياً فاتحاً قد نقلوا حديث رسول الله ﷺ، ورووه إلى أهل مصر وإفريقية، وأن من بين من شهد مع رسول الله ﷺ بدراً وما بعدها أكثر من عشرة، وممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة بيعة الرضوان من بلى وحدها - كما قال السيوطى - مائة رجل، والمقلل يقول: إنهم سبعون.

كما وجدنا أن أكثر من سبعين صحابياً اشتركوا فى بناء المسجد الجامع فى الفسطاط، وهكذا.

ولسوف نعرض سير هؤلاء - فيما يلى موجزة بقدر الإمكان كما وعدنا، وبقدر ما تسعفنا المعلومات المتاحة، وقد استصفينا من بين الركام الكثير تراجم مائة وتسعين من هؤلاء الصحابة، تحققنا من مشاركتهم فى أحداث الفتح الإسلامى، ونرجو ألا يمل القارئ متابعة سيرهم، فهم جميعاً يستحقون منا العرفان والشكر باعتبارهم مجاهدين بأموالهم وأنفسهم، وباعتبارهم ممثلين لكل المجاهدين المجهولين الذى اختفى ذكرهم فى الأرض، وسجلت أمجادهم ملائكة السماء..

وباعتبارهم أولاً وأخيراً أصحاب الفضل الذين حملوا إلينا عقيدة الإسلام، وأدوا إلينا أمانته، فإليهم يرجع الفضل فى إسلامنا، إلى آخر الزمان، ولهم من الله أجر الدعاة المجاهدين، وأجر من اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين. وحسبنا أن نذكر هنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : **"من سَنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة"**.

وإلى القارئ تراجم هؤلاء الصحابة الأبطال (مرتين هجائيا) :

(١) **أبرهة بن شرحبيل بن أبرهة بن الصبّاح الحميرى:** وفد على رسول الله ﷺ مبايعاً، ففرش له رسول الله ﷺ رداءه، وروى عن رسول الله ﷺ أحاديث.

بعد نهاية الفتح، وبناء الفسطاط، بعثه عمرو ليكون مرابطاً فى الفرما، ومعه سرية من المسلمين.

قال ابن الأثير: وبعث عمرو إلى الفرما أبرهة بن الصباح، فنزل بها، وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية، فنزل بها.[١]

وأبرهة ممن اختطوا بالجيزة، وعاش فيها بعد ذلك.

(٢) **أبيض بن حمال بن مربد (أو مرثد) بن ذى لحيان المازنى السبئى اليمنى:** كان اسمه أسود، فسماه رسول الله ﷺ أبيض، كان بوجهه قوباء[٢]، أتلفت وجهه وأنفه، ودعاه النبى ﷺ، فمسح على وجهه، فلم يُمْس ذلك اليوم، وفى وجهه أثر.

جاء إلى النبى ﷺ فى المدينة، وأعلن إسلامه مع وفده، وأراد أن يحتكر الملح فى بلده.

قال ابن حبان: استقطع أبيض بن حمال النبى ﷺ - لما وفد عليه - الملح الذى بمأرب، فأقطعه إياه، فلما ولى، قال رجل: أتدرى ما أقطعت له ؟ إنما أقطعت له الماء العِدّ[٣]. فانتزعه منه.

---

(١) أسد الغابة ١ / ٥٦.

(٢) مرض جلدى يتقشر منه الجلد وينجرد من الشعر. (المعجم الوسيط)

(٣) العد: الدائم الغير المنقطع.

وهذا تطبيق للمبدأ القائل (الناس شركاء فى ثلاث: الماء والكلأ والنار)، وقد كان رسول الله ﷺ قد أقطعه الملح، وهو بضاعة تستخرج وتحمل، وتباع وتشترى، فأما حين ظهر أن المكان ماء دائم، لا ينقطع، فقد خرج عن أن يكون بضاعة للتجارة، وصار حقاً للجميع على الشيوع.

وكان أبيض قد تناقش مع رسول الله ﷺ فى الزكاة المفروضة على المسلم. قال أبو داود: كلم رسول الله ﷺ أبيض فى الصدقة حين وفد عليه، قال: يا أخا سبأ، لابد من صدقة. فقال: إنما زرعنا القطن يا رسول الله، وقد تبددت[1] سبأ، ولم يبق منهم إلا قليل بمأرب.

فصالح نبى الله ﷺ على سبعين حلة من بز المعافر، كل سنة عمن بقى من سبأ بمأرب، فلم يزالوا يؤدونها حتى قبض رسول الله ﷺ، وإن العمال انتقضوا عليهم بعد قبض النبى ﷺ فيما صالح أبيض بن حمال فى الحلل السبعين، فرد ذلك أبو بكر على ما وضعه ﷺ، حتى مات أبو بكر، فلما مات، انتقض ذلك، وصارت على الصدقة.[2]

(٣) **أبيض بن هنىّ بن معاوية أبو هبيرة:** قال ابن حجر: أدرك النبى ﷺ، وشهد فتح مصر.[3]

(٤) **أُبَىّ بن عِمارة:** قال ابن حجر: بالكسر، مدنى سكن مصر، له صحبة، وهو أحد من صلى إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ، روى حديثاً عن رسول الله ﷺ، أنه عليه السلام صلى فى بيته، ثم سأله أُبَىّ عن مسح الخفين، قال: قلت يا رسول الله أمسح على الخفين ؟. قال: نعم. قلت: يومان ؟. قال: نعم. قلت: وثلاثة يا رسول الله ؟. قال: نعم، وما بدا لك.[4]

وقد حدد رسول الله ﷺ مدة المسح على الخفين بعد ذلك، وجعلها يوماً ونصف يوم للمقيم، وثلاثة أيام للمسافر.

---

(١) تبددت سبأ بعد انهيار سد مأرب فى عام ١٥٠ قبل الميلاد.
(٢) سنن أبى داود ٣ / ١٦٥. وكنز العمال ١٣ / ٢٦٨.
(٣) تهذيب التهذيب ١ / ٤٨.
(٤) فتوح مصر ٣١٠.

(٥) **أجمد بن عجيان**، بالجيم، قاله السيوطى عن ابن يونس، وقال ابن حجر: أَجْمَدُ بن عجيان الهمدانى، بايع النبى ﷺ، وشهد فتح مصر، وأحد من اختطوا، وسكنوا الجيزة، وخطته معروفة بجيزة مصر.(١)

(٦) **أحمر بن قطن الهمدانى**: قال ابن حجر: شيخ شهد فتح مصر، وكان سيداً فيهم.(٢)

(٧) **أسعد بن عطية القضاعى البلوى**: قال ابن حجر: ذكره ابن يونس، وقال: بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر.

(٨) **الأكدر بن حُمام بن عامر بن صعب بن هذيل اللخمى**: أدرك رسول الله ﷺ، وجاء مع جيش عمرو، وبعد الفتح عاش فى مصر، حتى كانت الفتنة، فكان مع علىّ، وقتل عام ٦٥ للهجرة.

ذكر ابن حجر قصة مقتله عن الكندى، قال: كان أكدر علوياً، وكان ذا فضل، وفقه فى الدين.. وكان معاوية يتألف قومه به، فيكرمه، ويدفع إليه عطاءه، ويرفع مجلسه.

فلما حاصر مروان بن الحكم - أهل مصر، أجلب عليه الأكدر بقومه، وحاربه بكل أمر يكرهه، فألّب عليه قوماً من أهل الشام، فادعوا عليه قتل رجل منهم، فدعاه، فأقاموا عليه الشهادة، فأمر بقتله، وقتله.. وتنادى الجند: قتل الأكيدر. فلم يبق أحد إلا لبس سلاحه، وحضروا باب مروان، وهم زيادة على الثمانين ألف إنسان، فأغلق مروان بابه خوفاً. فمضوا إلى كُريب بن أبرهة(٣)، فأعلموه الخبر، فوجدوه فى جنازة زوجته بسيسة بنت عبد كلال، فلما فرغ، جاء صحبتهم إلى مروان، فدخل عليه، فقال له مروان: إلىّ يا أبا رشيد. فقال: بل إلىّ يا أمير المؤمنين. فقام إليه، فألقى عليه رداءه، وقال: أنا جارٌ له. فانصرف الجيش عنه، وذهب دم الأكدر هدراً.(٤)

---

(١) الإصابة ١ / ٣١.
(٢) الإصابة ١ / ٣٣.
(٣) صحابى حضر فتح مصر.
(٤) الإصابة ١ / ٢١٣.

وروى عن الأكدر أنه قال: جلسنا يوماً فى المسجد، فقلنا لفتى منا: اذهب إلى رسول الله ﷺ، فسله ما يعدل رتبة الجهاد ؟؟. فأتاه، فسأله، فقال: لا شيء.[1]

(٩) **امرؤ القيس أبو شرحبيل بن الفاخر بن الطماخ (وقيل الطمّاح) الخولانى:** قال ابن منده: شهد فتح مصر، وله ذكر فى الصحابة.[2]

(١٠) **أوس بن عمرو بن عبد القارّى:** بعد أن شارك فى فتح مصر، عاش فيها، قال القضاعى فى الخطط: له صحبة.

(١١) **إياس بن أبى البكير بن عبد ياليل بن ثابت الليثى:** من كنانة، من السابقين إلى الإسلام، فقد أسلم ورسول الله ﷺ فى دار الأرقم، وهاجر إلى المدينة وإخوته الثلاثة: عاقل[3] وخالد[4] وعامر[5].

قال ابن سعد: خرج عاقل وخالد وعامر وإياس بنو أبى البكير من مكة إلى المدينة للهجرة.. فلم يبق فى دورهم أحد، حتى غلقت أبوابهم.[6]

شهد إياس مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وفى فتح مصر كان ضمن الجيش الذى جاءها، وكان من أهل الراية الذين اختطوا لهم بيوتاً فى الفسطاط.

روى حديث رسول الله ﷺ على منبر جامع عمرو، حتى توفى عام ٣٤ للهجرة.

وإياس زوج الصحابية الجليلة الربيع بنت معوذ قاتل أبى جهل فى بدر.. روى كثيراً عن رسول الله ﷺ، وخاصة فى وصف وضوئه ﷺ.

(١٢) **إياس بن عبد الأسد القارىّ:** حليف بنى زهرة، عاش فى مصر بعد أن شارك فى فتحها، واختط بها.

---

(١) الاصابة ٢١٣/١.

(٢) السابق ١ / ١٥٨.

(٣) استشهد عاقل يوم بدر فى رمضان عام ٢ للهجرة.

(٤) استشهد خالد يوم الرجيع عام ٤ للهجرة.

(٥) استشهد عامر باليمامة عام ١٢ للهجرة.

(٦) الطبقات ٣ / ٣٨٨.

(١٣) **بُحُر بن أمية بن يحمد الرعينى:** وقيل: ابن ضُبُع، قال ابن الأثير: شهد فتح مصر، واختط بها، وخطته معروفة واسمها : رُعين.

عاش فى مصر، وتولى أحد أحفاده مراكب دمياط فى عهد عمر بن عبدالعزيز، قاله ابن عبد الحكم، ومعنى ولايته مراكب دمياط : الإشراف على الميناء والصيد فى دمياط.

ولبُحُر حفيد آخر كان شاعراً، افتخر بجده قائلاً:

وجدى الذى عاطى الرسول يمينه وجَنّتْ إليه من بعيد رواحله [١]

(١٤) **برْح بن عُسكر، وقيل (عسكل)، وقيل (حُسْكل) بن وتار القضاعى:** عاش فى مصر بعد الفتح، ذكر ابن عبد الحكم قصة تبين مدى النظام الذى كان متبعاً فى ذلك الوقت المبكر بعد الفتح، والدقة التى كانت فى الديوان الإسلامى، قال:.. فأعطى مسلمة بن مخلد أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالاتهم وأرزاقهم ونوائبهم ونوائب البلاد من الجسور، وأرزاق الكتبة وحُملان القمح إلى الحجاز، وبعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضلاً، فلقيهم بِرْح بن حُسْكُل فقال: ماهذا ؟ ما بال مالنا يُخْرَجُ من بلادنا ؟ ردوه. فَرُدَّ، فوقف فى المسجد، فقال: أخذتم عطاءكم وأرزاقكم وعطاء عيالاتكم ونوائبكم ؟. قالوا: نعم..[٢] فأطلق القافلة إلى الشام.

وهو خبر يدلنا على اهتمام الفرد فى المجتمع الإسلامى بِهَمِّ الجماعة من ناحية، كما يدل من ناحية أخرى على أن ما كان يرسله الولاة إلى العاصمة كان دائماً فائضاً عن حاجات الناس، وبعد أن يقرر الجميع أنهم حصلوا على ما يكفيهم، ولا مطلب لهم فى زيادة.

(١٥) **بُرتا بن الأسود بن عبد شمس القضاعى:** استشهد فى فتح الإسكندرية.

قال ابن إياس: برتا بن الأسود صحابى استشهد فى الإسكندرية.[٣]

(١) الإصابة ١ / ٢٧١.
(٢) فتوح مصر ١٠٢.
(٣) بدائع الزهور ١ / ١٠٠.

(١٦) **بُسر بن أبى أرطأة العامرى القرشى:** بعد فتح مصر اختلط بها وعاش فيها، حتى كانت بوادر الفتنة، فانحاز للخليفة عثمان، ثم كان مع معاوية، وعندما استتب الأمر له، ولى بسراً الحجاز واليمن.

كان بسر شجاعاً، فكان إذا ركب البحر قال: أنت بحر وأنا بسر، علىّ وعليك الطاعة لله، سيروا على بركة الله. (١)

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها ما ذكره أبو داود، قال: كان بسر فى البحر، فأتى بسارق، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تقطع الأيدى فى السفر.

وحديث آخر رواه ابن حبان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها.(٢)

عاش بسر حتى خلافة عبد الملك بن مروان، قال ابن سعد: كان بسر عثمانياً، وصحب معاوية، وبقى إلى خلافة عبد الملك بن مروان.(٣)

(١٧) **بشير بن جابر بن عراب العبسى:** قال ابن حجر: وفد على النبى ﷺ، وشهد فتح مصر، ولا تعرف له رواية.(٤)

(١٨) **بصرة بن أبى بصرة الغفارى:** قال عنه الذهبى: هو وأبوه صحابيان نزلا مصر، روى عن رسول الله ﷺ قوله: لا تُعْمَلُ المَطِيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدى ومسجد بيت المقدس.(٥)

(١٩) **بلال بن حارث بن عاصم بن سعيد بن المزنى:** أقطعه النبى ﷺ جزءًا من العقيق، وهو ضاحية من ضواحى المدينة الآن، وكان صاحب لواء مزينة يوم فتح مكة، عاش فى مكة بعد أن شارك فى فتح مصر، وتوفى عام ٦٢ للهجرة.

قال ابن إياس: اسمه بلال بن الحارث بن عقبة بن سعد بن قرة.. عاش ثمانين عاماً، وتوفى عام ٦٠ للهجرة.

---

(١) الإصابة ١ / ٣١٠.
(٢) السابق.
(٣) الطبقات ٧ / ٤٠٩. وكانت خلافة عبد الملك من عام ٦٥ إلى عام ٨٦ للهجرة.
(٤) الإصابة ١ / ٢٨٩.
(٥) أسد الغابة ١ / ٢٣٧. والمقصود: لا تشد الرحال - كما فى رواية أخرى.

(٢٠) **تميم بن أوس بن حارثة الدارى**: من قبيلة لخم على حدود الشام، كان نصرانياً من فلسطين، أسلم عام ٩ للهجرة، كان من مشاهير الصحابة، روى لرسول الله ﷺ قصة الجساسة[١] للدجال، غزا مع رسول الله ﷺ فى تبوك، وهو أول من أسرج السراج فى المسجد.

عاش فى مصر بعد مشاركته فى فتحها، حتى قتل عثمان رضى الله عنه، فانتقل إلى قرية فى فلسطين كان النبى قد أقطعها له هى (عينون)، يقول ابن الأثير: وهى الآن قرية مشهورة عند بيت المقدس.[٢]

وقصة هذه المنحة النبوية المعجزة، التى تمت قبل دخول الإسلام فلسطين بقرابة خمسة أعوام، ذكرتها كتب التاريخ، قال العلامة الكتانى: آخر مكتوب حفظ التاريخ جلدة المكتوب فيه بعينه له عليه السلام، الكتاب الذى أقطع به تميما الدارى أرضاً بالشام، وهو مكتوب مشهور، معروف فى العصور السابقة، تكلم عليه أهل الحديث والتاريخ والفقه وغيرهم وقال: دعا رسول الله ﷺ بقطعة جلد من أدَم، فكتب كتاباً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب ذكر فيه ما وهب رسول الله للداريين[٣] إذا أعطاه الله الأرض، وهب لهم بيت عينون وحبرون وبيت إبراهيم بمن فيهن أبداً. شهد عباس بن عبدالمطلب وجهم بن قيس وشرحبيل بن حسنة.. وفى رواية: وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم من بعدهم أبد الأبد، فمن آذاهم فيها آذاه الله.[٤]

وكان تميم قد قال لرسول الله ﷺ عام ٩ للهجرة مُنْصَرَفَه من تبوك، قال: لنا جيرة من الروم لهم قريتان يقال لإحداهما حبرى، والأخرى بيت عينون، فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لى. قال: فهما لك. قال: فاكتب لى. فكتب له.[٥]

---

(١) الدابة التى رآها فى جزيرة البحر، وسميت بذلك لأنها تجس الأخبار للدجال. (النهاية). ولعلها كانت دابة من دواب البحر غير المألوفة، فنسب إليها هذا الخبر غير المألوف.

(٢) أسد الغابة ١ / ٢٥٦.

(٣) وفى رواية لتميم الدارى وإخوته، ورواية تميم وأخوه نعيم وأصحابهما وذريتهم.

(٤) التراتيب الإدارية ١ / ١٤٥.

(٥) ضوء السارى ٥٦.

وذكر الكتانى أن ابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار قد رأى الكتاب الشريف عام ٧٤٥ للهجرة، ولكن شهد عليه ابن أبو قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وكتب على بن أبو طالب - هكذا فى الوثيقة.[١]

وقال الكتانى أيضاً: إن الشيخ مصطفى أسعد اللقيمى، وهو من أهل القرن الثانى عشر، قال: إن هذا الإقطاع مستمر بيد ذرية تميم يأكلونه إلى يومنا هذا، وهم مقيمون ببلد الخليل ونواحيها.. ويقال لهم: الدارية، وهذا ببركة النبى ﷺ.[٢]

وعاش تميم فى فلسطين حتى توفى عام ٤٠ للهجرة، وقبره ببيت جبرين هكذا قال ابن حجر.[٣]

أما ممتلكات الدراية، فقد قال المقريزى: مازالت القرى تحت أيديهم حتى استولى الفرنج على القدس والخليل، وقتلوا من بها من المسلمين، ولا يعرف هل عادت لهم أم لا ؟.[٤]

(٢١) **تميم بن إياس بن البكير الليثى:** جاء مع أبيه إياس مصر فاتحاً، واستشهد فى أول الفتح عام ٢٠ للهجرة مع من استشهد.

(٢٢) **ثابت بن طريف المرادى:** قال ابن الأثير: ثم العرنى، أدرك النبى ﷺ، وخرج أيام أبى بكر إلى الشام للفتح، ثم شهد الفتوح فى عهد عمر، ثم دخل مصر مع عمرو ابن العاص.

(٢٣) **ثابت بن النعمان بن أمية بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس الأنصارى:** ذكره بعضهم بكنيته (أبا حبة البدرى)، روى عن رسول الله ﷺ قوله فى حديث المعراج: ثم عرج بى حتى ظهرت إلى المستوى أسمع فيه صريف الأقلام.

---

(١) التراتيب الإدارية ١ / ١٥٤.
(٢)التراتيب الإدارية ١ / ٨٤.
(٣) الإصابة ١ / ٣٩٩.
(٤) ضوء السارى ١٣٢.

(٢٤) **ثابت مولى الأخنس بن شريق الثقفى:** قال ابن حجر: شهد ثابت بدراً، وقد شهد فتح مصر. قال ابن الأثير: كان ثابت من المهاجرين، ثم شهد فتح مصر.[١]

(٢٥) **ثمامة مولى خارجة بن عراك:** قال ابن حجر: ثمامة الرومانى مولاهم، له إدراك، شهد مع مولاه خارجة بن عراك فتح مصر صحبة عمرو بن العاص.[٢]

(٢٦) **ثوبان بن مجدر (أو جحدر أو بجدد):** مولى رسول الله ﷺ، أصله من حمير من اليمن، وقيل من السراة، موضع بين مكة واليمن، أصابه سبى، فاشتراه رسول الله ﷺ، وأعتقه، وقال له: إن شئت أن تلحق بمن أنت منهم، وإن شئت أن تكون منا أهل البيت ؟ فثبت على ولاء رسول الله ﷺ، ولم يزل معه فى الإقامة والسفر حتى انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فنزل ثوبان فى فلسطين، ثم نزل حمص، وذلك بعد أن دخلهما الإسلام.

وفى فتح مصر كان فى الجيش الغازى، وعاش فيها، واختط بجوار المسجد الجامع.

قال ابن الأثير: وابتنى ثوبان داراً بالرملة، وابتنى بمصر داراً بعد أن شهد فتحها، وابتنى بحمص داراً، توفى عام ٥٤ للهجرة، قيل: بمصر، وقيل بحمص.[٣]

روى ثوبان عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قوله: إن رسول الله ﷺ دعا لأهله، فقلت: أنا من أهل البيت؟- مرتين-، فقال بعد الثالثة: نعم مالم تقم على باب سُدَّةٍ، أو تأتى أميراً تسأله.

وروى أبو داود عن ثوبان، قال رسول الله ﷺ: من تكفل أن لا يسأل الناس وأتكفل له الجنة؟. فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل أحداً شيئاً.

وروى عن رسول الله ﷺ حديثاً قال: إن الله زَوَى - أى جمع - لى الأرض، حتى رأيت مشارقها ومغاربها، فأعطانى الكنزين الأحمر والأبيض، وإن ملك أمتى سيبلغ ما زُوِىَ لى منها.[٤]

---

(١) أسد الغابة ١ / ٢٦٥.
(٢) الإصابة ١ / ٤١٨.
(٣) أسد الغابة ١ / ٢٩٧.
(٤) الإصابة ١ / ٤١٣.

(٢٧) جابر بن أسامة الجهنى: يكنى أبا سعاد[1]، عاش فى مصر حتى توفى بها.

ذكر عن رسول الله ﷺ، قال: لقيت النبى ﷺ بالسوق فى أصحابه، فسألتهم: أين تريدون ؟. قالوا: نخط لقومك مسجداً. قال: فرجعت فإذا قومى قيام، فقلت: مالكم ؟. فقالوا: خط لنا رسول الله مسجداً، وغرز لنا فى القبلة خشبة، فأقامها فيها.[2]

لم تكن هذه المساجد بالمعنى المفهوم لدينا من الكلمة، بل كانت عبارة عن مصلى يؤدى فيه الناس بعض الصلوات عند الاقتضاء، أما السجد النبوى بالمدينة فقد كان هو المسجد الجامع، والمقصود هو تحديد اتجاه ـبلة حيث ينزلون.

(٢٨) جابر بن ياسر بن عويص الرعينى: زاد ابن الأثير: القتبانى.

(٢٩) جابر بن ماجة (وقيل ماجد) الصدفى: ممن وفد على النبى ﷺ، وروى عنه، وحضر فتح مصر.

(٣٠) جبارة بن زرارة البلوى: صحب النبى ﷺ بعد إسلامه، ومبايعته بيعة الرضوان. قال ابن يونس: صحب النبى ﷺ، وشهد فتح مصر.[3]

(٣١) جبلة بن عمرو بن ثعلبة بن ساعدة الساعدى الأنصارى: من فقهاء الصحابة، كان ممن شهد أحداً وما بعدها، وحضر فتوحات مصر وإفريقية، وفى الفتنة وقف من عثمان بن عفان موقفاً معادياً، حتى استشهد.

قال الطبرى: كان أول من اجترأ على عثمان بالمنطق السىء.[4]

وقيل: إنهم لما أرادوا دفن عثمان، فانتهوا إلى البقيع، فمنعهم من دفنه جبلة ابن عمرو الساعدى، فانطلقوا به إلى حُش كوكب[5]، ثم كان لجبلة دور مع علىّ، فشهد معه صفين، ثم اعتزل الحياة السياسية، وسكن مصر بعد ذلك.

---

(١) قال ابن سعد: أبو سعاد صاحب رسول الله ﷺ سكن مصر. (الطبقات ١ / ٤١٨)

(٢) أسد الغابة ١ / ٣٠٢.

(٣) الإصابة ١ / ٤٥٠.

(٤) تاريخ الطبرى ٤ / ٣٩٦.

(٥) الإصابة ١ / ٤٥٧. وحُش كوكب: بستان رجل من الأنصار اسمه كوكب، كان عثمان قد اشتراه ليضمه إلى البقيع لتوسيعه.

(٣٢) جُدرة (أوجذرة) بن سبرة الثقفى: وقال ابن حجر: العتقى.

(٣٣) جرهد بن خويلد بن بحرة الأسلمى: وقال ابن حجر: جرهد بن خويلد بن بحرة بن عبد ياليل.

كان من أهل الصفة، شهد مع رسول الله ﷺ الحديبية، أكل بيده الشمال أمام رسول الله ﷺ، فقال له: كل باليمين. فقال: إنها مصابة. فنفث عليها رسول الله ﷺ فما شكا حتى مات.

وعن الطبرانى أن رسول الله ﷺ قال لجرهد: غط فخذك، فإن الفخذ عورة. وكان ﷺ مر عليه فى المسجد، وقد انكشف فَخِذُه. وهو أمر يتعلق باستيفاء الكمال فى هيئة المسلم، وخاصة فى مسجد رسول الله ﷺ، وإلا فقد ذهب الفقهاء إلى أن الفخذ مما يلى الركبة عورة مخففة.

وبعد مشاركة جرهد فى فتح مصر، انتقل إلى المدينة، وعاش فيها، حتى توفى عام ٦١ للهجرة.

أما ابن إياس فقال عنه: شهد فتح مصر، ومات بها عام ٦١ للهجرة.

(٣٤) جعنم الخير بن ساجى بن موهب الصدفى: ممن بايع النبى ﷺ تحت الشجرة، وكساه النبى ﷺ قميصه ونعليه.

(٣٥) جميل بن بصرة بن أبى بصرة الغفارى: أسلم هو وأبوه وجده، وروى الثلاثة عن رسول الله ﷺ، وكانوا فى الجيش الفاتح لمصر.

قال ابن سعد: أبو بصرة الغفارى صحب النبى ﷺ، ونزل مصر، ومات بها، ودفن فى المقطم فى مقبرة أهل مصر، وبصرة صحب النبى ﷺ، وروى عنه، وابنه جميل بن بصرة بن أبى بصرة صحب النبى ﷺ أيضاً مع أبيه وجده.(١)

(٣٦) جميل بن معمر الجُمحى: قال ابن حجر: ابن أسيد الفهرى، يكنى أبا معمر.

قال المبرد فى الكامل: له صحبة، وكان قاضياً لعمر بن الخطاب، ولا نسب بينه وبين جميل العذرى الشاعر المشهور صاحب بثينة.

---

(١) الطبقات ٧ / ٥٠٠

كان جميل لا يكتم سراً، فهو الذى أخبر قريشاً بإسلام عمر حين أخبره واستكتمه، قال عبد الله بن عمر: لما أسلم عمر، قال: أىُ أهلِ مكةَ أنقَلُ للحديث؟. قالوا: جميل بن معمر. فخرج عمر، وخرجْتُ وراءه وأنا غُلَيِّمٌ أعقِلُ كل ما رأيت، حتى أتاه، فقال: يا جميل أشعرت أنى أسلمت؟ فوالله ما ارتجعه الكلام، حتى قام يجر رداءه، وخرج وعمر يتبعه، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ: يا معشر قريش، إن عمر قد صبأ. قال: كذبتَ، ولكنى أسلمتُ.[1]

وأسلم جميل بعد ذلك، وهاجر، وشهد فتح مكة وحنيناً، وكان من أذكى العرب وأحفظهم، حتى قالت مكة: لأبى معمر قلبان وعقلان، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب:٤].

شهد جميل فتح مصر، وعاش فيها، حتى توفى بها فى أيام عمر بن الخطاب، الذى حزن عليه حزناً شديداً، قال ابن حجر: وأظنه قارب المائة، فإنه شاهد حرب الفجار[2] وهو رجل.

(٣٧) **جناب بن مرثد الرعينى:** أسلم حياة الرسول ﷺ، وبايع معاذ بن جبل فى اليمن حين كان والياً عليها من قبل الرسول ﷺ، وخرج فى الجيش الفاتح لمصر مع عمرو بن العاص.

(٣٨) **جنادة بن أبى أمية الأزدى الزهرانى:** شهد فتح مصر، وولى البحر لمعاوية بن أبى سفيان. قال ابن الأثير: ولى البحر من زمن عثمان إلى أيام يزيد، إلا ما كان أيام الفتنة.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها قوله: تذاكرنا الهجرة، فقال بعضنا: انقطعت. وقال بعضنا: لم تنقطع. فأرسلنا[3] رجلاً منا إلى النبى ﷺ، فقال: لا تنقطع الهجرة ما كان الجهاد.

---

(١) أسد الغابة ٣ / ٣٤٠.

(٢) حرب الفجار: وقعت قبل البعثة بخمس وعشرين سنة، بين قريش ومعها كنانة وقيس عيلان، وسميت بذلك لأن سببها قتل أحدهم فى الشهر الحرام.

(٣) فى رواية الإصابة: فانطلقت إلى النبى ﷺ...

والمقصود هنا : الهجرة بالمعنى العام، وهى هجرة المنهى عنه إلى المأمور به، والجهاد مأمور به، فالتزامه هجرة إلى الله عز وجل، أما الهجرة بالمعنى الخاص (إلى المدينة) فتلك هى التى انقطعت بقول رسول الله ﷺ: لا هجرة بعد الفتح، ولكن إيمان وجهاد، وإذا استنفرتم فانفروا.ويوضع بإزاء هذا قول رسول الله ﷺ: المهاجر من هجر ما نهى الله عنه.

وهناك حديث آخر رواه الصحابى جنادة، قال: دخلنا مع نفر على النبى ﷺ يوم الجمعة، فقرب إلينا طعاماً، فقال: كلوا. فقلنا: إنا صيام. فقال: أصمتم أمس ؟. قلنا: لا. قال: أفصائمون أنتم غداً ؟. قلنا: لا. قال: فأفطروا.[1]

وزاد ابن سعد فى الرواية، قال: ثم خرج النبى ﷺ إلى الجمعة، فلما جلس على المنبر دعا بإناء فيه ماء، فشرب، والناس ينظرون، ليعلمهم أنه لا يصوم يوم الجمعة.[2]

(٣٩) **الحارث بن تبيع الرعينى**: وفد على رسول الله ﷺ، وبايعه، وفى عهد عمر بن الخطاب رحل فى جيش عمرو، وشهد فتح مصر.

(٤٠) **الحارث بن حبيب بن خزيمة بن عامر بن لؤى القرشى**: شهد فتح مصر، واستشهد فى فتوحات إفريقية.

(٤١) **حبّان بن بُحّ الصدّائى**: وفد على النبى ﷺ، وشهد فتح مصر، ذكر ابن كثير قوله عند مجيئه للرسول ﷺ، قال: كنت مع النبى ﷺ فى سفر، فحضرت صلاة الصبح، فقال لى: يا أخا صُداء أذن. فأذنت، فجاء بلال ليقيم، فقال ﷺ: لا يقيم إلا من أذّن.[3]

وقد روى حبان خبراً آخر ذكره ابن حجر، قال: أسلم قومى -بنو صداء- فأخبرت أن رسول الله ﷺ جهز إليهم جيشاً، فأتيته، فقلت له: إن قومى على الإسلام.[4]

---

(١) فتوح مصر ٣٠٦.
(٢) الطبقات ٧ / ٥٠٣.
(٣) أسد الغابة ١ / ٤٣٧.
(٤) الإصابة ٢ / ١٣.

(٤٢) **حبيب بن أوس الثقفى:** أدرك رسول الله ﷺ، وشهد فتح مصر، قال ابن حجر فى تقريب التهذيب: مقبول شهد فتح مصر، وسكنها.(١)

وقال فى الإصابة: ذكره ابن يونس فيمن شهد مصر، فدل على أن له إدراكاً، ولم يبق من ثقيف فى حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم وشهدها.(٢)

(٤٣) **حذيفة بن عبيد المرادى:** قيل كان قاضياً لعمر بن الخطاب، قال ابن حجر: أدرك الجاهلية، وشهد فتح مصر.

(٤٤) **حرملة بن سلمى:** من بنى برد، له إدراك، ثم خرج مع خالد بن الوليد لفتح العراق عام ١٢ للهجرة، ثم كان فى فتح مصر، ويشير ابن حجر إلى كونه صحابياً بقوله: أمّره خالد بن الوليد حين دخل العراق... وكانوا لا يؤمرون إلا الصحابة.(٣)

(٤٥) **حزام بن عوف البلوى:** من بنى جُعل، من بلىّ، جاء إلى رسول الله ﷺ يبايعه تحت الشجرة فى رهط من قومه، قال ابن حجر: فقال لهم ﷺ: لا صخر ولا جُعل، أنتم بنو عبد الله.(٤)

(٤٦) **الحكم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف القرشى:** شهد مع رسول الله ﷺ فتح خيبر، وأخذ من فيئها، وعند فتح مصر، كان فى الجيش الفاتح ضمن رجّالة قريش، وبعد فتحها عاش فيها.

روى عن رسول الله ﷺ حديثاً، هو: لا تقدموا بين أيديكم فى صلاتكم وعلى جنائزكم سفهاءكم.(٥)

(٤٧) **حمزة بن عمرو بن عويمر الأسلمى المدنى:** قال ابن حجر: صحابى جليل، وهو الذى بشر كعب بن مالك بتوبة الله عليه، وكعب أحد الثلاثة الذين تخلفوا فى تبوك، وتاب الله عليهم فى قوله تعالى فى سورة التوبة: ﴿ **لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ**

---

(١) تقريب التهذيب ١ / ١٤٨.
(٢) الإصابة ٢ / ٥١.
(٣) السابق.
(٤) الإصابة ٢ / ٦٠.
(٥) الإصابة ٢ / ١٠٣.

يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [١١٧: ١١٨].

وحمزة هو الذى سأل رسول الله ﷺ عن متابعة الصوم فى الإقامة والسفر، قالت السيدة عائشة: إن حمزة بن عمرو الأسلمى سأل رسول الله ﷺ عن سرد الصوم فى السفر، وكان يسرد الصوم. فقال ﷺ: إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر.(١)

(٤٨) **حيان بن كرز البلوى:** قال ابن يونس: شهد فتح مصر، وله صحبة.(٢)

(٤٩) **حيويل بن ناشرة بن عبد عامر الكنفى (أو الكنعى):** قال ابن حجر: أدرك النبى ﷺ، ولم يره، شهد فتح مصر، وعاش حيويل فى مصر، حتى خرج عبد الله بن أبى سرح لفتح السودان عام ٣١ للهجرة، وفى يوم دنقلة أصيبت عين حيويل.

(٥٠) **حيوة بن مرثد التُجيبى:** ثم الأندائى، من ولد أندى بن عدى بن تجيب.

(٥١) **خارجة بن حذافة بن غانم العدوى القرشى:** أسلم يوم الفتح، وهو من الفرسان، عده عمر بن الخطاب بألف رجل فى المدد الذى بعثه لعمرو بن العاص، ولشجاعته كان عطاؤه مميزاً، بعث الخليفة إلى عمرو قائلاً: أنظر مَنْ قِبَلَكَ ممن بايع تحت الشجرة، فأتم لهم العطاء مائتين، وأتمها لنفسك لإمرتك، وأتمها لخارجة بن حذافة لشجاعته.(٣)

بعد أن فتحت مصر اختط خارجة بالفسطاط بيتاً، وولاه عمرو على الشرطة، حتى كان يوم ١٧ من رمضان عام ٤٠ للهجرة، أصيب عمرو بمغص، فاستخلف خارجة على الصلاة.

قال ابن عبد الحكم: كان عمرو قد أصابه فى بطنه شىء، فتخلف فى منزله، وكان خارجة يَغْشَى الناس، فضربه الحرورى، وهو يظن أنه عمرو.(٤)

(١) أسد الغابة ٢ / ٥٥.
(٢) الإصابة ٢ / ١٤٥.
(٣) فتوح مصر ١٤٥.
(٤) فتوح مصر ٢٦٠.

وكان ثلاثة من الخوارج من جيش على بن أبى طالب قد اتفقوا على قتل كل من على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص فى يوم واحد هو ١٧ من رمضان، والخوارج الثلاثة هم: عبد الرحمن بن ملجم الحميرى قاتل علىّ فى الكوفة، وكان ممن شهد الفتح، وسكن مصر لفترة، والحجاج بن عبد الله التميمى الذى حاول قتل معاوية، ولكنه فشل فى قتله فى دمشق، والثالث عمرو بن بكر التميمى قاتل خارجة بن حذافة فى الفسطاط، الذى شاء الله أن يقتل بدلاً من عمرو، حتى إن القاتل بعد علمه بمن قتل، صرخ، وقال: والله ما أردت إلا عَمْراً. ويقول عمرو عندما يبلغه هذا القول: ولكن أراد الله خارجة.

وخارجة هو صاحب أول غرفة بنيت علوية فى الفسطاط، حيث تشرف على الجيران، وعندما علم الخليفة عمر فى المدينة بخبرها كتب إلى عمرو يأمره أن ينصب سريراً عند فتحتها، ثم يقيم رجلاً لا جسيماً ولا قصيراً، فإن كشف الجيران سدها، وقد أطاع عمرو، ولم يسد نافذة الحجرة.

روى خارجة بعض أحاديث رسول الله ﷺ منها قوله: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: إن الله قد أمدكم بصلاة هى خير لكم من حُمُر النعم، الوتر جعله لكم فيما بين صلاة العشاء إلى أن يطلع الفجر.[١]

(٥٢) **خارجة بن عراك الرعينى الزيادى:** قال ابن حجر: له إدراك، وكان ممن شهد فتح مصر، وشهد معه ثمامة مولاه.

(٥٣) **خالد بن ثابت بن طاعن العجلان الفهمى:** شهد فتح مصر، يقول السيوطى: وولى بحر مصر فى عام ٥١ للهجرة.

ومعنى أنه ولى بحر مصر: أنه تولى شئون النيل من قياس زيادة ونقصان الماء، وشق الترع والقنوات وغيرها، فهو بمثابة وزير شئون الرى فى الوقت الحاضر.

وقد أغزاه مسلمة بن مخلد إفريقية عام ٥٤ للهجرة، يقول ابن حجر: وذكرته فى هذا القسم – قسم الصحابة – اعتماداً على ما مضى: أنهم ما كانوا يؤمرون فى الفتوح إلا الصحابة.[٢]

---

(١) فتوح مصر ٢٦٠.
(٢) الإصابة ٢ / ٢٢٨.

(٥٤) **خالد بن العنْبس:** قيل: شهد بيعة الرضوان، قال ابن يونس: إن له صحبة.

(٥٥) **خرشة بن الحرث (أو الحارث أو الحر) الأزدى:** روى عن رسول الله ﷺ أحاديث. وبعد فتح مصر عاش فى حمص.

(٥٦) **خيار بن مرثد التجيبى:** شهد فتح مصر، وكان رئيساً فيهم، قاله ابن يونس.(١)

(٥٧) **دحية بن خليفة بن فروة الكلبى:** من مشاهير الصحابة، شهد مع رسول اللهﷺ أحداً وما بعدها، وقيل أول مشاهده الخندق.

كان يضرب به المثل بحسن الصورة، وكان جبريل عليه السلام ينزل على صورته، قال ﷺ: دحية الكلبى يشبه جبريل. قال ابن عباس: كان دحية إذا قدم المدينة لم يبق معقير(٢) إلا خرجت تنظر إليه.

كان دحية أحد رسل رسول الله ﷺ إلى الملوك، وكانت وجهته قيصر الروم، فلقيه فى حمص.

قال ابن الأثير: بعثه رسول الله ﷺ رسولاً عام ٦ للهجرة فى الهدنة، فآمن به قيصر، وامتنع عليه بطارقته، فأخبر دحية رسول الله ﷺ بذلك، فقال: ثبت الله ملكه.(٣)

روى دحية عن رسول الله ﷺ، وقد تهادى هو والنبى ﷺ. روى الترمذى أن دحية أهدى إلى النبى ﷺ خفين، فلبسهما. وروى أبو داود أن دحية قال: أهدى إلى النبى ﷺ قباطى، فأعطانى منها قُبطية.(٤)

(٥٨) **ديلم بن هوشع (أو فيروز) الجيشانى الحميرى الرعينى:** كان أول وافد على رسول الله ﷺ من قبل معاذ بن جبل من اليمن، وكان لديلم زوجتان عند إسلامه، فقال للنبى ﷺ: أسلمت وعندى أختان. فقال له النبى ﷺ: طلق إحداهما.

---

(١) الإصابة ٢ / ٣٦٦.
(٢) المعقير: المعصر: العاتق: وهى البنت التى دنا حيضها.
(٣) أسد الغابة ٢ / ١٥٨.
(٤) الإصابة ٢ / ٣٨٦. والقُبطية: ثوب رقيق أبيض من صناعة مصر.

وعندما قام الأسود العنسى المتنبئ فى اليمن، كان ديلم مع من حاربه، ووقف ضده، حتى انتصر عليه وقتله، وحمل رأسه إلى المدينة المنورة، لكنه وجد رسول الله ﷺ قد انتقل إلى الرفيق الأعلى.

وخرج بعد ذلك فاتحاً، ولما فتحت مصر اختط بها، وعاش فيها.

روى ديلم أحاديث عن رسول الله ﷺ خاصة بالأشربة، منها قوله: أتيت النبى ﷺ، فقلت: يا رسول الله إنا بأرض باردة، شديدة البرودة، ونصنع شراباً من القمح، أفيحل يا نبى الله ؟. فقال: أليس يسكر ؟. قال ديلم: بلى. قال: فإنه حرام. ثم راجعه الثانية، فقال مثلها. قال ديلم: ثم إنى أعدت عليه، فقلت: أرأيت إن أبوا أن يَدَعوها يا نبى الله، وقد غلبت عليهم ؟. قال: من غلبت عليه فاقتلوه.(١)

وسأله مرة أخرى، قال: قلنا يا رسول الله إن لنا أعناباً، فماذا نصنع بها ؟. قال: زببوها – أى: اصنعوها زبيباً –. قالوا: وما نصنع بالزبيب ؟. قال: انتبذوه على غدائكم، واشربوه على عشائكم، وانتبذوه فى الشنان لا فى الأسقية.(٢)

وفى رواية ابن الأثير: ولا تنبذوه فى القلل، فإنه إن تأخر عصيره، صار خلاً.(٣)

(٥٩) **ربيعة بن زرعة الحضرمى:** قال ابن يونس: من أصحاب رسول الله ﷺ، وشهد فتح مصر.(٤)

(٦٠) **ربيعة بن شرحبيل بن حسنة:** استعمله عمرو بن العاص فى بعض الأعمال.

قال المقريزى: ربيعة بن شرحبيل، وعمرو بن علقمة القرشى أقاما قبلة جامع الفسطاط.(٥)

وقال ابن عبد الحكم: استعمله فى المكس، أى: جمع الضرائب من زكاة وجزية وخراج.

---

(١) فتوح مصر ٣٠٣.
(٢) الإصابة ٢ / ٣٩٣. والشنان: جمع شنّ، وهو الجلد.
(٣) أسد الغابة ٢ / ١٦٣. والقلة: الجرة العظيمة.
(٤) الإصابة ٢ / ٤٦٦.
(٥) خطط المقريزى ٣ / ١٨٥.

قال ابن الأثير: اختط بمصر وكان والياً على المكيين، وكان ربيعة قد شهد النبى ﷺ وهو غلام.[1]

(٦١) **ربيعة بن عباد الديلمى:** وقال ابن حجر: الدئلى، من بنى الديل من كنانة، شاهد النبى ﷺ فى الجاهلية، وبعد الفتح تذكره عليه السلام، قال: رأيت أبا لهب بسوق عكاظ وهو وراء النبى ﷺ فى الجاهلية، وهو يقول: إن هذا قد غوى، فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم، ورسول الله ﷺ يفر منه، وهو على أثره، ونحن نتبعه ونحن غلمان، كأنى أنظر إليه، أحول، ذو غديرتين، أبيض الناس وأجملهم. قلت: من هذا ؟. قالوا: محمد بن عبد الله. قلت : ومن هذا الذى يرميه؟. قالوا: عمه أبو لهب.[2]

وفى رواية ابن حجر: قال ربيعة: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذى مجاز يقول: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا. وقال بعد فتح مكة: دخلنا بعد فتح مكة بأيام ننظر ونرتاد، وأنا مع أبى، فنظرت رسول الله ﷺ، فساعة رأيته عرفته، وذكرت رؤيتى إياه بذى مجاز، فسمعته يومئذ يقول: لا حلف فى الإسلام.[3]

عمّر ربيعة طويلاً، وبعد مشاركته فى فتح مصر والمغرب عاش فى المدينة، وتوفى فى خلافة الوليد بن عبد الملك.

(٦٢) **رويفع بن ثابت بن السكن الأنصارى:** وهو من بنى مالك بن النجار، شهد مع رسول الله ﷺ خيبر، وخرج فى الفتوحات إلى الشام، ثم شهد فتح مصر، واختط بها، وعاش فيها، وشارك فى فتح إفريقية، ولاه معاوية بن أبى سفيان عام ٤٦ للهجرة طرابلس، فغزا منها إفريقية عام ٤٧ للهجرة، وفتح قرية (جِرْبة).

روى ابن إسحق، قال: قال حنش الصنعائى: غزونا مع رويفع بن ثابت المغرب، فافتتح قرية يقال لها جربة، فقام خطيباً، فقال: لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ، يقول فينا يوم خيبر: لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماؤُه زرعَ غيره - يعنى إتيان الحبالى منَ الفىء، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله

(١) أسد الغابة ١ / ١٥٢.
(٢) أسد الغابة ٢ / ١٥٢.
(٣) الإصابة ٢ / ٤٦٩.

واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبى ثيباً حتى يستبرئها، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً حتى يُقْسَمَ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فئ المسلمين، حتى إذا أعجفها ردها فيه، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فيء المسلمين حتى إذا أخْلَقه رده.(١)

وقد روى رويفع عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: من صلى على محمد، وقال: اللهم أعطه المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتى.(٢)

وعاش رويفع فى برقة أميراً عليها، حتى توفى عام ٥٦ للهجرة.

(٦٣) الزبير بن العوام القرشى: من بنى أسد بن عبد العزى، حوارى رسول الله ﷺ، قال: الزبير ابن عمتى - صفية - وحواريى من أمتى.(٣)

وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، أسلم وهو ابن اثنتى عشرة سنة، وكان عمه يعلقه فى حصير، ويدخن عليه، ليرجع عن الإسلام، فيقول: لا أكفر أبداً.

ثم هاجر الهجرتين إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ: بدراً وأحداً والخندق وخيبرًا والفتح وحنينا والطائف، وكان ﷺ يقول يوم بدر: إن الملائكة نزلت على سيما الزبير. وفى أحد ثبت مع رسول الله ﷺ، وبايعه على الموت. وفى فتح مكة كان معه إحدى رايات المهاجرين الثلاث.

قتل غيلة عام ٣٦ للهجرة فى جمادى الأولى، قرب البصرة بعد يوم الجمل، وعندما جيء لعلى بن أبى طالب بسيفه، قال: إن هذا سيف طالما فرّج الكَرْبَ عن رسول الله ﷺ، بشر قاتل ابن صفية بالنار.(٤)

وترك من الولد أحد عشر ذكراً وتسع إناث، أكبر أولاده عبد الله بن أسماء بنت أبى بكر، وكان الزبير غنياً إلا أنه لم يترك ديناراً أو درهماً لكثرة عطائه،

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٣٣٢. وأعجفها: أضعفها، وأخلقه: صيَّرَهُ قديماً بالياً من الاستعمال.
(٢) فتوح مصر ٢٨٠.
(٣) رواه جابر فى كنز العمال ١١ / ٨٦٢.
(٤) أسد الغابة ٢ / ٢٥٢.

وإنما ترك أرضاً بالغابة (من أطراف المدينة)، وداراً فى الكوفة، وداراً فى الإسكندرية، وداراً بالفسطاط، وكان مديناً، فحسب عبد الله دينه فكان ألفى ألف ومائتى ألف، فباع عبد الله الأرض، وسدد الدين، ثم قسم ما بقى على ورثته.

لم يرو عن رسول الله ﷺ، سأله ابنه يوماً: مالى لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان ؟. قال: أما إنى لم أفارقه منذ أسلمت، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: من كذب علىّ فليتبوأ مقعداً من النار.(١)

وخرج عمرو بن العاص لفتح مصر، وأمده الخليفة عمر بجيش قوامه أربعة آلاف رجل، عليهم أربعة رجال، أحدهم الزبير بن العوام.

قال ابن عبد الحكم: ثم قدم الزبير، فتلقاه عمرو، ثم أقبلا يسيران، ثم مالبث الزبير أن ركب، ثم طاف بالخندق (٢) ، ثم فرق الرجال حول الخندق.(٣)

وكان للزبير دور هائل فى سرعة فتح الحصن بعد حصار دام سبعة أشهر، قال يوماً: إنى أهب نفسى لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلماً إلى جانب سور الحصن، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوا جميعاً.

قال ابن عبد الحكم: فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، وتحامل الناس على السلم، حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسر، وبعد أن كبر الزبير وأجابه المسلمون من خارج، لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً، فهربوا، فعمد الزبير ومن معه إلى باب الحصن، ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن.(٤)

وأخذ الزبير السلم تذكاراً لهذا اليوم الأغر، وعندما بنى بيته فى الفسطاط، وضعه فيه، وتناقلته الأجيال جيلاً بعد جيلٍ، حتى شب حريق فى الفسطاط، فأتى على المنزل بما فيه.

وقد تتبع ابن عبد الحكم مسيرة هذا السلم، قال: اختط الزبير داره بسوق وردان فى الفسطاط، وكان فيها السلم الذى نصبه، وصعد عليه الحصن، وكان ينزل

---

(١) الطبقات ٣ / ١٠٧.

(٢) الخندق حفره عمرو بن العاص شمالى وشرقى حصن بابليون.

(٣) فتوح مصر ٦٢.

(٤) فتوح مصر ٦٣.

فيها عبد الله بن الزبير إذا قدم مصر، وأخذها عبد الملك بن مروان، ثم ردها عليهم هشام بن عبد الملك، ثم أخذها منهم يزيد بن الوليد، فلم تزل - الدار - فى أيديهم، حتى كانت ولاية أبى جعفر المنصور، فكلمه فيها هشام بن عروة، فأمر بردها.(1)

(٦٤) **زبيد بن عبد الخولانى:** قال ابن حجر: له إدراك، وشهد فتح مصر، ثم شهد صفين فى جيش معاوية، وكان معه الراية، وفى اليوم الأخير عندما سمع بمقتل عمار بن ياسر تحول إلى عسكر على بن أبى طالب.

(٦٥) **زهير بن قيس البلوى:** شهد فتح مصر، وعاش فيها حتى ولاية عبد العزيز ابن مروان، الذى ندبه إلى برقة من قِبل الخليفة عبد الملك بن مروان.

وخاطبه عبد العزيز مرة بشىء يكرهه(2)، فغضب، قال السيوطى:.. فأجابه زهير: تقول لرجل جمع ما أنزل الله على نبيه قبل أن يجتمع أبواك هذا ؟؟ ونهض إلى برقة، فلقى الروم فى عدد قليل، فقاتل حتى قتل شهيداً، وذلك عام ٧٦ للهجرة.(3)

وكان زهير عندما تولى برقة سار إلى القيروان لإنقاذها، بعد مقتل عقبة بن نافع ومن معه، وزحف فى قتال عنيف حتى انتصر على كسيلة وعصابته، واسترجع المسلمون عاصمتهم، ثم رجع ناحية الشرق. قال السيوطى: وفى برقة قابل عسكر الروم، فقاتلهم حتى قُتل.(4)

(٦٦) **زياد بن الحارث الصدّاى:** ذكره ابن عبد الحكم: الصدائى، وصداء حى من أحياء اليمن، وكان زياد قد جاء مسلماً، وبايع رسول الله ﷺ، وسمع أن النبى ﷺ جهز جيشاً إلى قومه (صدّاء)، فقال: يا رسول الله أردُدهم، وأنا لك

---

(1) السابق ١١٤. وأبو جعفر هو: ثانى خلفاء بنى العباس. وهشام بن عروة بن الزبير.

(2) قال ابن عبد الحكم: وكان عبد العزيز عاتباً على زهير بن قيس لأنه قاتله حين وجهه أبوه مروان بن الحكم من ناحية أيلة من قبل أن يدخل مصر، فقال له: ما علمتك يا زهير إلا جلفاً جافياً. فقال له زهير: ما كنت أُرى يا ابن ليلى أن رجلاً جمع ما أنزل الله على محمد ﷺ من قبل أن يجتمع أبواك جلفٌ جاف.. أنا منطلق، فلا ردنى الله إليك. فخرج حتى إذا كان بدرنة من طَبَرقة.. ولقى الروم، وهو فى سبعين رجلاً.. فلقيهم فاستشهد زهير وأصحابه جميعاً، فقبورهم معروفة هناك إلى اليوم. (فتوح مصر ٢٠٢)

(3) در السحابة ٩٢.

(4) السابق.

بإسلامهم، فرد الجيش، وكتب إليهم، فجاء وفدهم بإسلامهم، فقال: إنك مطاع فى قومك يا أخا صداء. قال: بل الله هداهم.

(٦٧) **زياد بن قائد اللخمى:** من بنى سعد بن زر بن غنم، قال ابن حجر: له إدراك، وشهد فتح مصر، وكان مسناً.(١)

عاش زياد إلى خلافة مروان بن الحكم، فقد رثى الأكدر بن حمام الذى قتل فى ثورة مروان فى جمادى الآخرة عام ٦٥ للهجرة.

(٦٨) **زيادة بن جهور اللخمى:** قال ابن حجر: له إدراك، وشهد فتح مصر، وقد عاش زيادة فى فلسطين بعد الفتح.(٢)

(٦٩) **السائب بن خلاد بن سويد الخزرجى الأنصارى:** عرف بكنيته (أبو سهلة)، وبعد أن شارك فى فتح مصر، رجع إلى المدينة، وعاش فيها، ولكنه جاء مصر مرة أخرى لمقابلة عقبة بن عامر الجهنى، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يذكر فى السَّتْرِ شيئاً ؟. فقال عقبة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من ستر مسلماً ستره الله. فقال: أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟. فقال: نعم. فراح، ولم يقدم من المدينة إلا لذلك.

وفى رواية: أنه قدم على مسلمة بن مخلد وهو الأمير، وقال له: أرسل إلى عقبة بن عامر، فذهب إليه فى قرية، فقال له: أتذكر مجلساً كنت أنا وأنت فيه مع رسول الله ﷺ، ليس معنا أحد غيرنا ؟. قال: نعم. قال: كيف سمعته ؟. قال: سمعته يقول: من اطلع على أخيه، على عورة، ثم سترها، جعلها الله له يوم القيامة حجاباً من النار...

وفى رواية: كأنما أحيا موءودة من قبرها. قال: كنت أعرف ذلك، ولكنى أوهمت الحديث، فكرهت أن أحدث به على ما كان. ثم ركب على صدر راحلته، ثم رجع.(٣)

(١) الإصابة ٢ / ٦٤٣.
(٢) الإصابة ٢ / ٦٣٠.
(٣) أسد الغابة ٢ / ٢٥٤.

وقد روى السائب أحاديث عن رسول الله ﷺ منها قوله: أتانى جبريل عليه السلام، فأمرنى أن آمر أصحابى أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال والتلبية.

وقوله ﷺ: من أخاف أهل المدينة، أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.(١)

وقد عمر السائب، ومات عام ٧١ للهجرة، وقيل: عام ٩١ للهجرة.

(٧٠) **السائب بن هشام بن عمرو العامرى القرشى:** قال ابن حجر: يقال: إنه رأى النبى ﷺ، وشهد فتح مصر، ثم أقام فى مصر، فولاه عمرو بن العاص الشرطة، بعد مقتل خارجة بن حذافة.(٢)

ثم ولاه مسلمة بن مخلد القضاء، وجمع له الشرطة، وكان أبوه هشام أحد من قاموا فى نقض الصحيفة التى قاطعت فيها قريش رسول الله ﷺ وبنى هاشم، ثم أسلم بعد ذلك.

(٧١) **سُخْرور بن مالك الحضرمى:** بعد أن شارك فى فتح مصر، سكنها، وعاش فيها، حتى سار مروان بن الحكم عام ٦٥ للهجرة إلى مصر، وأجمع أكثر المصريين على منعه، وكان على رأسهم سخرور الذى حضهم على حرب مروان، والطاعة لعبد الله بن الزبير، ثم صالحوه على دخول مصر.

قال ابن حجر: لما سار مروان إلى مصر، أجمع أهل مصر على منعه، إلا طائفة من أشرافهم، فقام فى كل قبيلة خطيب يحضونهم على الطاعة لابن الزبير، وقام سخرور بن مالك خطيباً فى حضرموت، وكان قد رأى النبى ﷺ، وبايعه، فخطبهم، فقال: ألا إنه من نكث صفقة يمينه طائعاً فقد خرج من الإسلام.

فلما صالح أهل مصر مروان على الدخول، ودخلها، قال سخرور: اللهم لا أراه ولا يرانى، فقد طال عمرى، فاقبضنى إليك، فتوفى بعد دخول مروان مصر بتسع ليال.(٣) فى جمادى الأولى عام ٦٥ للهجرة.

---

(١) الإصابة ٣ / ٢١.

(٢) حسن المحاضرة ١ / ٩٢.

(٣) الإصابة ٣ / ٣٦.

(٧٢) **سُرّق بن أسد (أو أسيد) الجهنى الأنصارى الدؤلى:** كان اسمه الحباب، وسبب تسميته (سرق) رواه الحاكم فى المستدرك، قال: عن عبد الرحمن بن السلمانى، قال: كنت بمصر[١]، فقال لى رجل: ألا أدلك على رجل من أصحاب النبى ﷺ ؟. قلت: بلى، فأشار إلى رجل، فجئته، فقلت: من أنت يرحمك الله ؟. فقال: أنا سرق. فقلت: سبحان الله، ينبغى لك ألا تسمى بهذا الاسم، وأنت رجل من أصحاب رسول الله. قال: إن رسول الله ﷺ سمانى سرقاً، فلم أدع ذلك أبداً. فقلت: ولم سماك سرقاً ؟. قال: قدم رجل من البادية ببعيرين، فابتعتهما منه، وقلت له: انطلق معى حتى أعطيك حقهما، فدخلت بيتى، ثم خرجت من خلف بيتى، وقضيت بثمن البعيرين حاجة لى، وتغيبت حتى ظننت أن الأعرابى قد خرج، وإذا بالأعرابى مقيم، فأخذنى إلى رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر، فقال النبى ﷺ: ما حملك على ما صنعت ؟، فقلت: قضيت بثمنها حاجة يا رسول الله. قال: فاقضه. قلت: ليس عندى. قال: أنت سرق، اذهب به يا أعرابى، فبعه حتى تستوفى حقك. فجعل الناس يسومونه[٢] بشىء، فيلتفت إليهم فيقول: ما تريدون ؟. قالوا: وماذا نريد؟. نريد أن نفتديه منك. قال: فوالله ما منكم أحد أحوج إليه منى، اذهب فقد أعتقتك.[٣]

قال ابن يونس: سرق له صحبة، وشهد فتح مصر، واختط بها.[٤]

(٧٣) **سعد بن أبى وقاص:** اسم أبيه مالك بن أهيب بن عبد مناف الزهرى القرشى: سابع المسلمين، وقيل: رابع من أسلم، قال: والله إنى لرابع فى الإسلام، ولقد جمع لى رسول الله ﷺ أبويه يوم أحد، فقال: ارم سعد فداك أبى وأمى، اللهم سدد سهمه، وأجِبْ دعوته.[٥]

---

(١) فى رواية ثانية: كنت بالإسكندرية.

(٢) يسومونه: يفاوضونه فى بيعه، ويغالون فيه.

(٣) در السحابة عن المستدرك ٩٤.

(٤) الإصابة ٣ / ٤٤.

(٥) كنز العمال ١١ / ٦٩٠.

وسعد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وآخرهم موتاً، توفى عام ٥٥ للهجرة، وهو أحد الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليكون الخليفة منهم من بعده، وسموا أهل الشورى، وهو بطل القادسية، وفاتح مدائن كسرى، كان قد شارك فى فتح مصر، وانتقل بعد ذلك إلى المدينة، حتى استشهد عثمان بن عفان، فاعتزل سعد الفتنة، عندما رأى تفرق أصحاب رسول الله ﷺ واختلافهم، واشترى أرضاً بوراً خارج المدينة بالعقيق، واستصلحها، وعاش فيها مع أهله، حتى توفى، وله بضع وسبعون عاماً.

قال ابنه: لما حضرته الوفاة دعا بخلق جبة صوف، فقال: كفنونى فيها، فإنى كنت لقيت المشركين فيها يوم بدر وهى علىّ، وإنما كنت أخبئها لهذا.(١)

ولنا رد على من لام سعداً على اعتزاله، وهو أن ماضى سعد، وما سجله فى حركة الفتوحات من بطولة جدير بأن يقدمه للمسلمين على أنه عامل من عوامل حل المشكلة التى نجمت عن الفتنة، ولكن هؤلاء لم يكونوا طلاب دنيا، بل استخدموا الدنيا من أجل الآخرة، ولذلك اعتزل سعد الفتنة حين كانت المواكب تتزاحم على طريقها، ورغب فيما عند الله، وما عند الله خير للأبرار.

(٧٤) **سعد بن مالك بن سنان الكندى:** قال ابن حجر: ابن مالك بن الأقيصر بن الدئل الأزدى، وفد على النبى ﷺ، وعقد له راية على قومه سوداء، فيها هلال أبيض، شهد فتح مصر، وله بها عقب.(٢)

(٧٥) **سفيان بن هانئ بن جبير الجيشانى:** حليف المعافر، روى عن رسول الله ﷺ، وبعد فتح مصر سكن الإسكندرية، ومات فيها زمن عبد العزيز ابن مروان(٣).

قال ابن حجر: شهد فتح مصر، وله رواية عن على، وكان قد وفد عليه، وله صحبة. قال ابن يونس: مات فى الإسكندرية.

---

(١) أسد الغابة ٢ / ٣٦٩.
(٢) الإصابة ٣ / ٧٣.
(٣) تولى مصر من عام ٦٥ إلى عام ٨٦ للهجرة.

(٧٦) سفيان بن وهب الخولانى ـ أوأيمن ـ : بعد أن وفد على النبى ﷺ حضر حجة الوداع، وخرج بعد ذلك فى الجيش الفاتح لمصر، ثم شهد فتح إفريقية.[١]

تولى إمرة المغرب، وسكن بها إلى أن مات عام ٨٢ للهجرة.

روى سفيان عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قوله ﷺ: روحة أو غدوة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وإن المؤمن، عرضه وماله ونفسه حرام كما حرم الله هذا اليوم.

وروى ابن عبد الحكم حديثاً آخر عن سفيان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تأتى المائة وعلى ظهرها أحد باق. فحمل سفيان إلى عبد العزيز بن مروان وهو شيخ كبير، فسأله عبد العزيز عن الحديث، فحدثه، فقال عبد العزيز: فلعله، يعنى لا يبقى أحد ممن كان معه إلى رأس المائة.[٢]

(٧٧) سلمة بن قيصر الحضرمى. روى عنه حديث "من صام ابتغاء وجه الله باعده الله من جهنم كبعد غراب طار وهو فرخ حتى مات هرما" (رواه النسائى) [٣]

(٧٨) شبث بن سعد بن مالك البلوى: قال ابن يونس: له صحبة، وشهد فتح مصر.[٤]

وقيل: شهد بيعة العقبة، وفتح مصر.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها قوله ﷺ: إن العبد ليُخْرَجُ إليه يوم القيامة كتاب فيه حسناته.[٥]

(٧٩) شرحبيل بن عبد الله بن المطاع الكندى: اشتهر بشرحبيل بن حسنة، وهى أمه، هاجر إلى الحبشة.

---

(١) الإصابة ٣ / ٢٦٠.
(٢) فتوح مصر ٣٠٧.
(٣) أسد الغابة ٢/٤٣٣.
(٤) الإصابة ٣ / ٣١١.
(٥) أسد الغابة ١ / ٥١٠.

وكان أول كاتب لرسول الله ﷺ. قال الشيخ الكتانى: كان شرحبيل بن حسنة أول كاتب لرسول الله ﷺ يكتب التوقيعات للملوك.(١)

ولاه أبو بكر قيادة أحد الجيوش الخارجة للشام، وفتح طبرية، ثم ولاه عمر ابن الخطاب على ربع من أرباع الشام.

ومن الأخبار المؤكدة أن شرحبيل بن حسنة مات فى طاعون عمواس مع أبى عبيدة بن الجراح عام ١٨ للهجرة، ولم يشاهد فتح مصر، وربما وهم السيوطى فى دخوله مصر فاتحاً، والأصوب - فى رأينا - أن الذى حضر فتح مصر ولدا شرحبيل، وليس شرحبيل نفسه. والله أعلم.

(٨٠) **شريح بن أبرهة اليافعى:** قال ابن منده: له صحبة، وشهد فتح مصر.(٢)

وروى ابن يونس له حديثاً عن رسول الله ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ كبر فى أيام التشريق، وكان يقول: لبيك اللهم لبيك.(٣)

(٨١) **شريك بن أبى الأعقل:** قال ابن حجر: الأغفل، التجيبى، الشاعر المخضرم، وفد على النبى ﷺ، وشهد فتح مصر، قاله ابن يونس.

(٨٢) **شريك بن سمى الغطيفى المرادى:** كان ممن وفدوا على النبى ﷺ، وخرج مع الجيش الفاتح، فكان على مقدمة عمرو بن العاص فى فتح مصر.

وقد روى ابن عبد الحكم حادثة تبين مدى التزام المسلمين الفاتحين بالتعاليم التى تمنعهم من الزراعة أو المزارعة، قال: إن عمر بن الخطاب أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية أن عطاءهم قائم، وأن رزق عيالهم سائل، فلا يزرعون ولا يزارعون.

وكان شريك بن سمى الغطيفى أتى إلى عمرو بن العاص، فقال: إنكم لا تعطونا ما يحسبنا، أفتأذن لى بالزرع ؟. فقال عمرو: ما أقدر على ذلك.

---

(١) التراتيب الإدارية ١ / ١٢٤.
(٢) أسد الغابة ٣ / ٣٣٣.
(٣) أسد الغابة ١ / ٥١٨.

فزرع شريك من غير إذن عمرو، فلما بلغ عمراً كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك بن سمى الغطيفى حرث بأرض مصر، فكتب إليه عمر ابن الخطاب أن ابعث إلىّ به، فلما انتهى كتاب عمر إلى عمرو أقرأه شريكاً، فقال شريك: قتلتنى يا عمرو. قال: عمرو: ما أنا قتلتك، أنت صنعت هذا بنفسك. قال: إذ كان هذا من رأيك، فأذن لى بالخروج إليه من غير كتاب، ولك عهد الله أن أجعل يدى فى يده. فأذن له بالخروج.

فلما وقف على عمر، قال: تؤمنى يا أمير المؤمنين. قال: ومن أى الأجناد أنت ؟. قال: من جند مصر. قال: فلعلك شريك بن سمى الغطيفى ؟. قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: لأجعلنك نكالاً لمن خلفك. قال: أوتقبل منى ما قبل الله من العباد. قال: وتفعل ؟. قال: نعم.

فكتب إلى عمرو بن العاص: إن شريك بن سمى جاءنى تائباً، فقبلت منه.[1]

وهذا الخبر عن شريك له دلالات عدة :

فهو أولاً: كاشف عن إحاطة القيادة بأحوال الجند، والتزام الجند بتوجيهات القيادة على بعد ما بين مصر والمدينة.

وهو ثانياً: يدل على ما التزمت به حركة الفتوحات الإسلامية من رعاية لحقوق الشعوب المفتوحة، حتى تتفرغ لإنتاج أقواتها، وهى تقدم ما التزمت به من خراج وجزية. ويتفرغ الجند لما خرجوا من أجله وهو الجهاد، وإلا ضاعت الفتوحات.

وهو ثالثاً: يقدم صورة رائعة للعلاقات بين الجند وقيادتهم التى تحاسبهم بهذا الأسلوب الحازم، ولا تغلو فى معاقبتهم، فتقبل منهم المعذرة، وتستبقيهم للاستمرار فيما تحملوا من أمانة الجهاد، ولله در عمر، ولله در عمرو، ولله در شريك.

---

(١) فتوح مصر ١٦٢.

وشريك هذا هو الذى سميت باسمه معركة (كوم شريك) قرب الإسكندرية، وقد عاش شريك فى مصر حتى كان عام ٤٣ للهجرة، وهى السنة التى توفى فيها عمرو بن العاص، فخرج لغزو المغرب.

(٨٣) **صُحَار بن صخر العبدى:** قال ابن ربيع الجيزى: من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر، وقد وفد وقومه على النبى ﷺ عام الفتح.

قال ابن حجر : روى حديثين أو ثلاثة عن رسول الله ﷺ ، كان صحار ممن طالبوا بدم عثمان بن عفان[١].

وبعد استقرار الأحوال كان فى حاشية معاوية، واشتهر صحار بالبلاغة والفصاحة والخطابة، قال له معاوية يومًا : ما البلاغة؟. قال : الإيجاز. قال: وما الإيجاز؟. قال : لا تبطىء ولا تخطئ[٢].

(٨٤) **ضمرة بن الحصين بن ثعلبة البلوى:** كان ممن بايع تحت الشجرة، وسكن مصر بعد مشاركته فى فتحها.

(٨٥) **عائذ بن ثعلبة بن وبرة البلوى:** بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، واختط بها، ثم خرج فى معركة ضد الروم عام ٥٣ للهجرة، عند بحيرة البرلس، فاستشهد هو ووردان مولى عمرو بن العاص، وأبو رقية اللخمى، وكان مسلمة بن مخلد قد خرج لمواجهة الروم الذين جاءوا للانتقام من المسلمين الذين فتحوا جزيرة رودس العام السابق.

(٨٦) **عامر بن الحارث بن ثوبان:** قال ابن حجر: له صحبة، وشهد فتح مصر.

(٨٧) **عامر بن عبد الله بن جهيرة:** قال ابن حجر: ابن جهم الخولانى، من أصحاب رسول الله ﷺ، وشهد فتح مصر، قاله ابن يونس.

(٨٨) **عامر بن عمرو بن حذافة بن عبد الله بن المِهْزم التجيبى:** قال ابن منده وابن يونس: له صحبة، وشهد فتح مصر.[٣]

---

(١) الإصابة ٣/٤١١.
(٢) السابق.
(٣) الإصابة ٣ / ٤١١.

وأحد هؤلاء الثلاثة [1]، أول من دفن فى سفح المقطم من صحابة رسول الله ﷺ - فقد ورد فى الأثر: إن أول من قبر بالمقطم صحابى اسمه عامر.

(٨٩) عبادة بن الصامت بن قيس بن أخرم الخزرجى الأنصارى: ولد قبل الهجرة بحوالى ٣٨ عاماً، كان من سادات قومه، ومن أطولهم [2]، شهد العقبتين، اختاره رسول الله ﷺ ضمن الاثنى عشر نقيباً ليكونوا رؤساء على قومهم، شهد مع رسول الله ﷺ جميع المشاهد.

وكان ممن جمع القرآن الكريم [3] حفظا على عهد رسول الله ﷺ، قال عنه قتادة: كان عبادة بدرياً عقبياً أحد النقباء، وكان بايع رسول الله ﷺ على ألا يخاف فى الله لومة لائم.

روى عبادة عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قول عبادة: إنى من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق.

وفى رواية: كنت فيمن حضر بيعة العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب، على ألا نشرك بالله... وقال: فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأمركم إلى الله، إن شاء غفر، وإن شاء عذب. [4]

وحديث آخر رواه عبادة، قال: أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خلال، قال: لا تشركوا بالله شيئاً، وإن قُطِّعتم أو أُحرِقتم أو قُتِّلتم، ولا تتركوا الصلاة المكتوبة متعمدين، فمن تركها متعمداً فقد خرج من الملة، ولا تركبوا المعصية، فإنها سخط

---

(١) الثلاثة المسمون بعامر فى الترجمات المتتابعة لهم.

(٢) جاء فى التراتيب الإدارية: أدرك الإسلام عشرة، طول كل رجل منهم عشرة أشبار (أكثر من مترين): عبادة بن الصامت، وسعد بن معاذ، وقيس بن سعد بن معاذ، وجرير بن عبد الله البجلى، وعدى بن حاتم الطائى، وعمرو بن معدى كرب الزبيدى، والأشعث بن قيس، ولبيد بن ربيعة، وعامر بن الطفيل، وأبو زيد الطائى. (٢/٣٩١)

(٣)جمع القرآن خمسة من الأنصار هم: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبىّ بن كعب، وأبو أيوب، وأبو الدرداء.

(٤) كنز العمال ١٣ / ٥٥٦.

الله، ولا تشربوا الخمر، فإن شربها رأس الخطايا، ولا تفروا من القتل والموت، وإن كنتم فيه، ولا تعصين والديك وإن أمراك أن تخرج من الدنيا كلها فاخرج، ولا تضع عصاك على أهلك، وأنصفهم من نفسك.(١)

ومن الأحاديث التى رواها عبادة أيضاً قوله ﷺ: ما من نفس تموت لها عند الله خير تحب أن ترجع إليكم إلا الشهيد، فإنه يحب أن يرجع فيقتل مرة أخرى.

وقال عبادة أيضاً: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أى العمل أفضل؟. قال: إيمان بالله، وتصديق وجهاد فى سبيله. قال: أريد أهون من ذلك. قال: السماحة والصبر. قال: أريد أهون من ذلك. قال: لا تتهم الله فى شىء قضى لك به.(٢)

وقد روى عبادة حادثة، قال: كنا فى المسجد نتقرأ القرآن، معنا أبو بكر، ونحن أميون يقرأ بعضنا على بعض، فخرج عبد الله بن أبى بن سلول، تتبعه نمرقة وزربية(٣)، وضعتا له فاتكأ، فقال: يا أبا بكر ألا تقول لمحمد يأتينا بآية كما أرسل الأولون، جاء صالح بالناقة، وجاء موسى بالألواح، وجاء داود بالزبور، وجاء عيسى بالمائدة، وعبد الله رجل فصيح صبيح. فبكى أبو بكر، فخرج رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر: قوموا بنا نستغيث نبى الله من هذا المنافق. فقال ﷺ: إنه لا يقام لى، إنما يقام لله، إن جبريل أتانى، فقال: اخرج حدّث بنعمة الله التى أنعم عليك، وبفضيلته التى فضّلك بها، فبشرنى بعشر لم يؤتها نبى قبلى: إن الله بعثنى إلى الناس جميعاً، وأمرنى أن أنذر الجن، وإن الله لقانى كلامه وأنا أمىّ، قد أوتى داود الزبور وموسى الألواح وعيسى الإنجيل، وأنه غفر لى ذنبى ما تقدم منه وما تأخر، وإن الله أعطانى الكوثر، وإن الله أمدنى بالملائكة وآتانى النصر، وجعل بين يدى الرعب، وجعل حوضى أعظم الحياض، ورفع ذكرى فى التأذين، وبعثنى يوم القيامة مقاماً محموداً، والناس مهطعين مُقْنِعِى

---

(١) فتوح مصر ٢٧٢.

(٢) فتوح مصر ٢٧٢.

(٣) النمرقة: الوسادة، والزربية : وسادة كبيرة للجلوس عليها.

رءوسهم، ويبعثنى يوم القيامة فى أول زمرة فأدخل الجنة فى سبعين ألفاً من أمتى لا يحاسبون، ورفعنى يوم القيامة ليس فوقى إلا الملائكة الذين يحملون العرش، وآتانى السلطان والملك، وطيب لى الغنيمة ولأمتى، ولم تكن لأحد قبلنا.(١)

وقد خرج عبادة أول ما خرج إلى الشام، وكان يزيد بن أبى سفيان بعث إلى عمر بن الخطاب لاحتياج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن، ويفقههم فى الدين، فبعث معاذاً وعبادة وأبا الدرداء، وأقام عبادة فى فلسطين، التى تولى فيها القضاء بعد ذلك.

وخرج عام ٢١ للهجرة فى المدد الذى ذهب إلى مصر، وهو أحد أربعة اعتبر الخليفة عمر كلا منهم بمقام ألف رجل، وفى حصار بابليون ظهر دور عبادة الرائع فى الحوار الذى دار بينه وبين المقوقس، وقد أوردنا هذا الحوار فى فصل (فتح مصر).

وكان عبادة أحد اثنين أقاما محراب جامع الفسطاط، وبعد الفتح اختط له دارين مع بقية المسلمين بجوار الجامع، وعاش فى إحداهما مدة، ثم انتقل إلى فلسطين التى توفى فى إحدى مدنها (الرملة) عام ٣٤ للهجرة عن ٧٢ عاماً.

(٩٠) **عبد الله بن أسيد الخولانى:** قال ابن حجر: من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر صحبة عمرو(٢)، ولم يذكره السيوطى.

(٩١) **عبد الله بن أنيس الجهنى(٣) القضاعي السلمى:** حليف بنى سلمة من الأنصار، شهد العقبة مع السبعين أنصارياً، وكان أحد الذين كسروا أصنام بنى سلمة.

شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقد بشره بالجنة، فقد قال له بعد أن أعطاه مخصرة(٤): خذ هذه، فتخصّر بها يوم القيامة، فإن المتخصرين يومئذ قليل. قال عبد الله: من ماذا يا رسول الله ؟. قال: آية بينى وبينك يوم القيامة.

---

(١) فتوح مصر ٢٧٢.
(٢) الإصابة ٥ / ٨١.
(٣) نسبة إلى جهينة.
(٤) العصا القصيرة، توضع فى الوسط.

وفى رواية: تخصر بهذه حتى تلقانى يوم القيامة، وأقل الناس المتخصرون.[1]

وخرج عبد الله فى فتوحات الشام ومصر، وبعد الفتح عاش فى مصر راوياً لحديث رسول الله ﷺ، وقيل إن جابر بن عبد الله جاءه من المدينة مستفسراً عن حديث لرسول الله ﷺ.

توفى عبد الله فى خلافة معاوية عام ٥٤ للهجرة، وقيل عام ٧٤ للهجرة، والله أعلم.

روى عبد الله أحاديث عن رسول الله ﷺ منها قوله ﷺ: أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، والذى نفسى فى يده لا يحلف أحد ولوعلى جناح بعوضة إلا كانت نكتة[2] فى قلبه إلى يوم القيامة.[3]

(٩٢) عبد الله بن الحارث بن حزم[4] بن عبد الله بن معدى كرب الزبيدى[5]: كان من أهل الصفة، أى: الفقراء المهاجرين، ومن الفرسان المعدودين.

جاء مصر فى جيش الفتح، وكان كبيراً فى السن حتى إن سائلاً سأله: ما أعملك إلى مصر، وليس فيك مضرب بسيف، ولا مطعن برمح، ولا مرمى بسهم؟. قال: جئت أكونُ فى صفوف المسلمين لعل سهم غرب يأتينى فيقتلنى.[6]

وبعد الفتح خطّ عبد الله له داراً مع بقية الفاتحين حول الجامع فى الفسطاط، وبعد مدة فكر فى الحياة وسط القرى، فأقطعه عمرو أرضاً فى قرية فى بطن الوادى بين فرعى النيل بالغربية، بنى عليها داراً ومسجداً.

وقد عُمّر عبد الله وجاوز المائة، ومات عام ٨٨ للهجرة، وقد اختلف فى مكان دفنه، فقال بعضهم: فى سفح المقطم بجوار عقبة بن عامر، وأكد آخرون دفنه فى مكان إقامته بالغربية.

---

(١) كنز العمال ١١ / ٧٣٤.
(٢) نكتة: الأثر كالنقطة.
(٣) أسد الغابة ٣ / ١٨٠.
(٤) وقيل: جزء.
(٥) زبيد: من مذحج من اليمن.
(٦) فتوح مصر ٣٠٠.

وكان عبد الله آخر صحابة رسول الله ﷺ موتاً فى مصر.

تقول د. سعاد ماهر: وسفط تراب التى أقطعها عمرو بن العاص شيخنا عبد الله بن الحارث هى من القرى المصرية القديمة.. وهى قرية من مديرية الغربية بقسم محلة منوف من الشمال الشرقى لمحلة روح، وذكر ياقوت قرية باسم سفط تراب بأسفل مصر.. وذكر الزبيدى صاحب تاج العروس سفط تراب السمنودية، وهى سفط القدور، وهى المعروفة بسفط عبد الله.. وبها توفى عبد الله بن جزء الزبيدى، آخر من مات من الصحابة فى مصر، وقبره ظاهر يزار، وقد زاره صاحب تاج العروس فى رحلته إلى الوجه البحرى عام ١١٨٧ للهجرة.(١)

وقد وصفت د. سعاد ماهر قبر الصحابى عبد الله ومسجده، وقالت: دفن عبد الله بن جزء الزبيدى فى داره التى كان يسكنها بصفط تراب، وقد تحولت داره إلى مزار لوجود قبره به، وظل الحال على ذلك حتى القرن الخامس الهجرى حين أقام خلفاء الدول الفاطمية على القبر قبة، وبنوا بجانبها مسجداً صغيراً، وقد أعيد بناء المسجد عدة مرات.(٢)

روى عبد الله عن رسول الله ﷺ قرابة عشرين حديثاً، منها سبب تسميته عبد الله، قال: توفى رجل ممن قدم على رسول الله ﷺ غريب، فقال ﷺ وهو عند القبر: ما اسمك ؟. فقلت: العاص. وقال لابن عمرو: ما اسمك ؟. فقال: العاص. وقال للعاص بن العاص: ما اسمك ؟. قال: العاص. فقال ﷺ: أنتم عَبْد الله، انزلوا. قال: فوارينا صاحبنا، ثم خرجنا من القبر، وقد بدلت أسماؤنا.(٣)

وقال عن رسول الله ﷺ قوله: ويلٌ للأعقاب وبطون الأقدام من النار. يعنى: إسباغ الماء عند الوضوء على الأرجل.

وقال ﷺ أيضاً: إن الله أعد لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) مساجد مصر وأضرحتها ١ / ٤١.
(٢) السابق ١ / ٤٤.
(٣) فتوح مصر ٣٠٢.

وقد وصف عبد الله النبى ﷺ بقوله: ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ.(٣)

(٩٣) عبد الله بن حوالة الأزدى: من بنى عامر(١) بن لؤى، قال ابن حجر: ابن حَوَلى، بعد أن شارك فى فتح مصر، نزل الأردن.

روى حديثاً عن رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنكم ستجندون أجناداً، فجند بالشام، وجند بالعراق، وجند باليمن. فقال عبد الله: يا رسول الله، خِرْ لى بلداً أكون فيه، فلو أعلم أنك تبقى لم أختر على قربك شيئاً. قال: عليك بالشام!.

روى ابن حجر قول عبد الله: فلما رأى رسول الله ﷺ كراهتى للشام قال: أتدرون ما يقول الله للشام؟ يا شام أنت صفوتى من بلادى، فيك خيرتى من عبادى.

قال ابن سعد: مات عبد الله عام ٥٨ للهجرة فى آخر خلافة معاوية وهو ابن ٧٢ عاماً.(٢)

(٩٤) عبد الله بن سعد بن أبى سرح: سبق الحديث عنه فيمن تولى إمارة مصر.

(٩٥) عبد الله بن شفى(٣) الرعينى العتكى: وفد على رسول الله ﷺ ثم رجع إلى اليمن مع معاذ بن جبل، وعقد له معاذ أول لواء عقده باليمن، وبعد وفاة الرسول ﷺ حارب المرتدين فى اليمن، وقتل أخوه جرادة بن شفى، ثم خرج عبدالله بعد ذلك فى الجيش الفاتح لمصر.

قال ابن يونس: هو من أصحاب رسول الله ﷺ، المعروف فى أهل مصر، شهد فتح مصر.(٤)

(٩٦) عبد الله بن شمر الخولانى: ويقال له شمران

---

(١) قال ابن الأثير: ويمكن أن يكون حليفاً لبنى عامر وأهله من الأزد. (أسد الغابة ٣/٤٨)

(٢) أسد الغابة ٣ / ٢٢.

(٣) فى أسد الغابة: شقى. وفى الإصابة: شفى بن رقى.

(٤) الإصابة ٤ / ٢٩.

(٩٧) عبد الله بن عمر بن الخطاب: الفقيه القدوة، شقيق أم المؤمنين حفصة، أسلم، وهاجر مع أبيه وهو ابن عشر سنين، يقال: إنه شارك فى أحد، أما فى بدر فكان صغيراً.

وعن ابن سعد: قال عبد الله: عرضت على رسول الله ﷺ يوم بدر، وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، فردنى، وعرضت عليه يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فردنى، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة، فقبلنى.(١) فهو إذن لم يشارك فى أحد، ولعله حضر الموقعة دون قتال.

قال عنه الذهبى: وقد عين للخلافة يوم الحكمين- التحكيم- مع وجود علىّ والكبار.(٢)

شارك عبد الله فى فتح مصر، وبعد الفتح، اختط داراً بالفسطاط سماها: دار البركة.

قال ابن عبد الحكم:.. واختط فيها دار البركة: بركة الرقيق، قال عبد الله: فوهبتها لمعاوية رجاء أن يثيبنى منها، فلم يثبنى منها حتى مات، فهو فى حل.(٣)

كان عبد الله شاباً متميزاً حياة رسول الله ﷺ، وبعد وفاته كان كثير الاتباع لآثار النبى ﷺ، حتى إنه ينزل منازله، ويصلى فى كل مكان صلى فيه، وكل شجرة جلس تحتها رسول الله ﷺ يتعهدها ابن عمر بالماء كيلا تيبس.

وكان من شدة حبه لرسول الله ﷺ لا يذكره إلا بكى، وعاش بعده يأتى ويحدث بما تعلمه ستين سنة، ولكنه لم يكن يتردد فى أن يقول: لا أعرف، أو لا أدرى، إذا سئل عن شيء لا يعرفه، قال ابن حجر: ثم يقول: أتريدون أن تجعلوا ظهورنا جسوراً فى جهنم؟ تقولون أفتانا بهذا ابن عمر؟.(٤)

روى كثيراً من الأحاديث عن رسول الله ﷺ، منها قوله: أخذ رسول الله ﷺ يوماً ببعض جسدى، وقال: يا عبد الله كن فى الدنيا كأنك غريب، أو كأنك عابر

(١) الطبقات الكبرى ٤ / ١٤٣..
(٢) العبر ١ / ٨٣. والتحكيم كان عام ٣٧ للهجرة.
(٣) فتوح مصر ٩٢.
(٤) الإصابة ٤ / ١٨٦.

سبيل، وعد نفسك فى أصحاب القبور، يا عبد الله بن عمر فإنه ليس ثمت دينار ولا درهم، إنما هى حسنات وسيئات جزاء بجزاء، وقصاص بقصاص.(١)

وقد التزم ابن عمر بتوجيهات رسول الله ﷺ حتى آخر حياته، قال ابن حجر: كان نفر من الصحابة يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التى فارق عليها النبى ﷺ إلا ابن عمر، وقال أحدهم: ما منا أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير ابن عمر، وقال عنه أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: مات ابن عمر وهو مثل عمر فى الفضل، وكان عمر فى زمان له فيه نظراء، وكان ابن عمر فى زمان ليس له فيه نظير.

عاش عبد الله فى مكة مجاوراً حتى توفى أيام الحج عام ٧٣ للهجرة، عن عمر يناهز ٨٣ عاماً، بعد مقتل عبد الله بن الزبير بثلاثة أشهر.

وكان لابن عمر موقف من الفتنة، فلم يعارض أو يصد أميراً، أو يقف ضده، وإنما كان يصلى وراء كل أمير، ويؤدى له زكاته، مادامت قد اجتمعت العامة على مبايعته.

قال ابن سعد: قال عبد الله بن عمر: لا أقاتل فى الفتنة، وأصلى وراء من غلب.(٢)

وروى أنس عن ابن عمر قوله: لو اجتمعت علىّ أمة محمد إلا رجلين ما قاتلتهما.

وعندما عرضوا عليه الخلافة بعد مقتل عثمان، قال قولة حكيمة: ما أحب أنها- أى الخلافة- أتتنى ورجل يقول: لا، وآخر يقول: بلى.

(٩٨) **عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمى القرشى:** كان اسمه العاص(٣)، فغيره رسول الله ﷺ، أسلم قبل أبيه، وهاجر مع رسول الله ﷺ.

كان عالماً فاضلاً قارئاً للقرآن والكتب المتقدمة، حافظاً لحديث رسول

---

(١) أسد الغابة ٣ / ٣٤٤.
(٢) الطبقات ٤ / ١٤٣.
(٣) أنظر عبد الله بن الحارث.

اللهﷺ[1]، روى عنه أكثر من سبعمائة حديث، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ فى أن يكتب عنه، فأذن له، فقال له: يا رسول الله، أكْتُبُ ما أسمع فى الرضا والغضب؟. قال: نعم، فإنى لا أقول إلا حقاً.

وكان عبد الله يسمى الصحيفة التى كتب فيها الحديث: الصادقة.

خرج عبد الله مع أبيه فى الجيش المتجه إلى الشام، وكان على الراية يوم اليرموك، وشهد معه فتح مصر، ولشجاعته ومهارته كان يضرب بسيفين، وكان أحد شهود الصلح مع المقوقس، وبعد الفتح خط بيته بجوار بيت أبيه قبالة المسجد، وهو نفس المكان الذى دفن فيه عام ٦٥ للهجرة، فى فتنة مروان بن الحكم على أغلب الروايات، ولكن رواية ابن سعد تقول: ثم رجع إلى مصر، فلم يزل بها حتى مات، ودفن فى داره[2] عام ٧٧ للهجرة، فى خلافة عبد الملك بن مروان.

تولى عبد الله وزارة أبيه طيلة ولايته لمصر، وعندما عزله عثمان بن عفان، خرج مع أبيه إلى فلسطين، ولما فكر عمرو فى الذهاب إلى معاوية فى الشام، أخذ عبد الله يثنيه، ولكنه أصر على الذهاب، وبرفقته ولداه عبد الله ومحمد، حتى كانت صفين، فشارك فيها مع أبيه.

روى ابن الأثير حادثة تبين رأى عبد الله فى صفين: قال إسماعيل بن رجاء: كنت فى المسجد النبوى فى حلقة فيها أبو سعيد الخدرى وعبد الله بن عمرو، فمر بنا حسين بن على[3]، فسلم، فرد القوم السلام، فسكت عبد الله حتى فرغوا، ورفع صوته، وقال: عليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أقبل على القوم، فقال: ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء ؟. قالوا: بلى. قال: هو هذا

---

(١) قال أبوهريرة: ما أجد من أصحاب النبى ﷺ أكثر حديثاً منى إلا ما كان من عبد الله، فإنه كان يكتب.

(٢) تقول د. سعاد ماهر:... ظل القبر مجهول الاسم والمعالم حتى كان العصر العثمانى، وأعاد الأمير مراد بناء الجامع، فلعله أراد إحياء وجود مقبرة عبد الله داخل المسجد، فبنى المقصورة، وأقام عليها القبة، وإن كنت أرى أن المكان الذى اختير للضريح ليس هو مكان منزل عبد الله الذى يقع إلى الغرب قليلاً من الضريح الحالى. (مساجد مصر وأضرحتها ٧٦/١)

(٣) قتل الحسين بن على فى معركة كربلاء عام ٦٢ للهجرة.

الماشى، ما كلمنى كلمة منذ ليالى صفين[1]، ولأن يرضى عنى أحب إلىّ من حمر النعم. قال أبو سعيد: ألا تعتذر له ؟. قال: بلى..

فلما دخل أبو سعيد، قال: يا ابن رسول الله إنك لما مررت أمس.. وذكر القصة- قال حسين: ما حملك على أن قاتلتنى وأبى يوم صفين، فوالله لأبى خير منى. قال: أجل، ولكن عمراً شكانى إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن عبد الله يا رسول الله يقوم الليل ويصوم النهار. فقال ﷺ لى: يا عبد الله، صل ونم وصم وأفطر وأطع عمراً. قال: فلما كان يوم صفين، أقسم علىّ فخرجت، أما والله ما اخترطت سيفاً ولا طعنت رمحاً ولا رميت بسهم.[2]

وقال ابن سعد: فلما خرج أبوه إلى معاوية خرج معه، فشهد صفين، ثم ندم بعد ذلك، وقال: مالى ولصفين ؟ مالى ولقتال المسلمين ؟.

وقال الذهبى: كان عبد الله بن عمرو ديناً صالحاً كثير العلم، كبير القدر، يلوم أباه على القيام فى الفتنة، ويطيعه للأبوة.[3]

(٩٩) **عبد الله بن عثمة المزنى:** قال ابن الأثير شهد فتح مصر، وشهد فتح الإسكندرية الثانى.[4]

(١٠٠) **عبد الله بن قيس العتقى:** قال ابن الأثير: توفى عام ٤٩ للهجرة.

(١٠١) **عبد الله بن هشام بن عثمان بن عمرو التيمى القرشى:** قال عنه ابن الأثير: أمه زينب بنت حميد بن عبد العزى بن قصى، ذهبت بابنها عبد الله إلى النبى ﷺ، فقالت: يا رسول الله بايعه. فقال ﷺ: وهو صغير. فمسح على رأسه، ودعا له بالبركة.

وكان يضحى بالشاة الواحدة على جميع أهله، وكان مولده عام ٤ للهجرة.[5]

قال ابن حجر تعليقاً على دعاء النبى له بالبركة: فكان يشترى الطعام، فيلقاه

---

(١) صِفِّين: موضع بين الشام والعراق، وقعت بها معركة بين على ومعاوية عام ٣٧ للهجرة.
(٢) أسد الغابة ٣ / ٣٥١.
(٣) العبر ١ / ١٧٢.
(٤) أسد الغابة ٣ / ٣٥٨. وكان فتح الإسكندرية الثانى عام ٢٥ للهجرة.
(٥) أسد الغابة ٣ / ٤١٠.

ابن عمر وابن الزبير، فيقولان له: أشركنا، فإن النبى ﷺ دعا لك بالبركة.[1]

عاش عبد الله إلى خلافة معاوية بن أبى سفيان.

(١٠٢) عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة: وهو شقيق ربيعة، دخل هو وأخوه مصر فى الجيش الفاتح، وقال بعضهم وأبوه شرحبيل أيضاً، ولكنه خطأ لأن شرحبيل بن حسنة مات فى طاعون عمواس عام ١٨ للهجرة.

(١٠٣) عبد الرحمن بن عديس بن عمرو البلوى: كان ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة.

روى عن رسول الله ﷺ قوله: سيخرج من أمتى أناس يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يقتلون بجبل الخليل ولبنان.[2]

بعد فتح مصر ابتنى دارا فى الفسطاط سماها الدار البيضاء، وعاش فيها حتى آخر عهد عثمان رضى الله عنه، فخرج أميرا للجيش الذى خرج من مصر إلى المدينة.

يقول ابن سعد: وكان فيمن رحل إلى عثمان حين حصر حتى قتل. وكان رأساً فيهم.[3]

وبعد مقتل عثمان بن عفان، أخذ معاوية بعض المتهمين بقتله، وسجنهم بفلسطين، ولكنهم هربوا. وقبل سجنه كان أول من بايع على بن أبى طالب وقال:

خذها إليك واعلمنا أبا الحسن   أنّ نمرّ الأمر إمرار الرّسن[4]

يقول ابن الأثير: فاتبعوه حتى أدركوه فأمسك فارس منهم ابن عديس فقال له: ويحك، اتق الله فى دمى، فإنى من أصحاب الشجرة، فقال: الشجر بالخليل كثير، وقتله عام ٣٦ للهجرة.[5] وفى رواية: الشجر بالجبل كثير.

(١٠٤) عبد الرحمن الأكبر بن عمر بن الخطاب: شقيق عبد الله وحفصة، فأمهم

---

(١) الإصابة ٤ / ٢٥٥.

(٢) الإصابة ٣ / ٣٣٤.

(٣) الطبقات ٧ / ٥٠٩.

(٤) الأوائل ٢٠٠، والرَّسَنُ هو ما يُزَمّ به على أنف الدابة ويقصد به سرعة الإستجابة والتلبية

(٥) أسد الغابة ٣ / ٣٧٤.

زينب بنت مظعون، كناه رسول الله ﷺ (أبا عيسى)، وأراد عمر بن الخطاب أن يغير كنيته، فقال: يا أمير المؤمنين والله إن رسول الله ﷺ كناني بها.

دخل عبد الرحمن فى جيش عمرو فاتحاً، وعاش فى مصر بعد الفتح، وتذكر الروايات أنه تعاطى الخمر، فحده[1] عمرو بن العاص.

قال ابن حجر: هو الذى ضربه عمرو بن العاص فى مصر، ثم حمله إلى المدينة، فضربه أبوه عمر أدب الوالد، ثم مرض، فمات بعد شهر.[2]

وإن كان ابن حجر نفسه فى مكان آخر يؤكد أن الذى حد ليس عبد الرحمن هذا، يقول:.. كان لعمر ثلاثة كلهم عبد الرحمن، هذا أكبرهم لا تحفظ له رواية، والثانى يكنى أبا شحمة، وهو الذى ضربه أبوه الحد فى الخمر لما شرب بمصر.[3]

(١٠٥) **عبد العزيز بن سخبرة الغافقى:** قال ابن الأثير: ابن سخبر، كان اسمه عبد العزى، فسماه رسول الله ﷺ: عبد العزيز، وذلك عندما وفد عليه مع قومه، شهد فتح مصر.

(١٠٦) **عبيد بن عمر المعافرى:** يقال: إنه أول من قرأ القرآن الكريم فى مصر.

(١٠٧) **عتبة بن عمر بن صالح الرعينى:** قال ابن الأثير: الذبحانى[4]. وقال ابن حجر: عبيد بن عمر بن الرعينى شهد فتح مصر، وله ذكر فى الصحابة.[5]

(١٠٨) **عنبسة بن عمرو الرعينى.**

(١٠٩) **عبيد (وقيل عتبة) بن الندر السلمى:** قال عنه ابن حجر: صحابى نزل مصر وشهد الفتح.[6]

له رواية فى سنن ابن ماجة، وهى قوله: سئل النبى ﷺ: يا رسول الله، أى

---

(١) حد الخمر ثمانون جلدة.
(٢) الإصابة ٥ / ٤٤.
(٣) السابق ٤ / ٣٤٠.
(٤) وقيل: الذبحان.
(٥) الإصابة ٤ / ٤١٥.
(٦) السابق ٥ / ١٦٣.

الأجلين قضى موسى عليه السلام ؟. قال: أوفاهما وأبرهما.

قال عنه ابن سعد: مات عام ٨٤ للهجرة.(١)

(١١٠) **عثمان بن قيس بن أبى العاص السهمى:** قال عنه ابن حجر: كان عابداً مجتهداً غزير الدمعة، دخل مصر فى جيش الفتح مع أبيه قيس أول قاض فى مصر الإسلامية، وبعد وفاة أبيه استعمله عمرو فى القضاء، فكان ثانى قاض بعد الفتح.

قال ابن حجر: ولى قضاء مصر فى آخر سنة من خلافة عمر بن الخطاب، واستمر على ذلك طول خلافة عثمان إلى أن صرف فى عام ٤٢ للهجرة، فى خلافة معاوية، وكان إذا حكم بين الناس يبكى ويقول: ويلّمن جار فى حكمه.(٢)

وكان عثمان جواداً كريماً كأبيه، بنى أول دار ضيافة فى الفسطاط، فقد كانت مركز استقبال المجاهدين القادمين من الجزيرة العربية، فهيأ لهم هذه الدار فى عاصمة الولاية، وقام بأعبائها.

(١١١) **عدى أبو زرارة بن عميرة الكندى:** وقيل: الحضرمى، صحابى معروف، روى عن رسول الله ﷺ، انتقل بعد فتح مصر إلى الكوفة، وعاش بها حتى توفى عام ٤٠ للهجرة.

وقيل مات بالرها، وسبب تركه الكوفة قاله ابن الأثير: إنه لما ورد أمير المؤمنين علىّ رأى– عدى– من أهل الكوفة قولاً فى عثمان، فقال فى قومه: لا نقيم فى بلد يشتم فيه عثمان، وخرجوا إلى معاوية. يقول ابن الأثير: وكان معاوية إذا قدم عليه أحد من أهل العراق، أنزلهم الجزيرة مخافة أن يفسدوا أهل الشام.. فأنزلهم الرها، وأقطعهم بها قطائع.(٣)

ومن مرويات عدى قوله فى قصة إسلامه: كان بأرضنا حبر من اليهود، يقال له: ابن شهلاء، فقال لى: إنى أجد فى كتاب الله أن أصحاب الفردوس قوم يعبدون ربهم على وجوههم، والله ما أعلم هذه الصفة إلا فينا معشر اليهود، وأجد

---

(١) الطبقات ٧ / ٤١٣.
(٢) الإصابة ٤ / ٤٦٠.
(٣)أسد الغابة ٤ / ١٦.

نبيهم يخرج من اليمن، فلا أرى أن يخرج إلا منا، فوالله ما لبثنا حتى بلغنا أن رجلاً من بنى هاشم قد تنبأ، فذكرت حديث ابن شهلاء، فخرجت إليه، فإذا هو ومن معه يسجدون على وجوههم.(١)

وأورد ابن الأثير روايتين عن عدى، قوله: قال رسول الله ﷺ: أمِّروا النساء فى أنفسهن -أى فى الزواج-، الثيب تعرب عن نفسها، والبكر رضاؤها صمتها.

وقال: أتى رجلان يختصمان إلى النبى ﷺ فى أرض، فقال أحدهما: هى لى. وقال الآخر: هى لى وغصبنيها. فقال ﷺ: فيها اليمين للذى بيده الأرض، فلما أوقفوه ليحلف قال له النبى ﷺ: أما إنه من حلف على مال امرئ مسلم لقى الله عز وجل، وهو عليه غضبان. قال: فمن تركها له ؟. قال: له الجنة.(٢)

(١١٢) **العُرس بن عميرة الكندى:** أخو عدى، شارك مع أخيه فى فتح مصر، وروى أيضاً عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قوله ﷺ: من كذب علىَّ متعمداً، فليتبوأ مقعده فى النار.

(١١٣) **عسجرى بن مانع السكسكى:** قال ابن الأثير: عجرى. أما ابن حجر فقال: عداده فى المعافر، والصواب عسجرى.(٣)

وقال ابن الأثير فى أسد الغابة: عجرى.. من أصحاب رسول الله ﷺ، شهد فتح مصر، لا تعرف له رواية.(٤)

(١١٤) **عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف القرشى:** كان من مسلمى الفتح، جاء إلى مصر مع عمرو بن العاص فاتحاً، وعاش فيها بعد ذلك،كان صديقاً لعبد الرحمن بن عمر، وشرب معه الخمر، فأقام عليهما عمرو حد الخمر، مات فى مصر فى خلافة عبد الله بن الزبير، قاله ابن حجر.

(١١٥) **عقبة بن عامر بن عبس بن مالك الجهنى:** قال ابن عبد الحكم: كان عقبة

---

(١) الإصابة ٤ / ٤٧٧.
(٢) أسد الغابة ٤ / ١٥.
(٣) الإصابة ٥ / ٢٧٤.
(٤) أسد الغابة ٣ / ٦٠٢.

رسول عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص حين كتب إليه يأمره أن يرجع إن لم يكن قد دخل مصر.(١)

ثم شارك فى فتحها، وعاش فيها، واختلط بها، حتى تولى إمارتها عام ٤٤ للهجرة، ثم عزل وتولى بعده مسلمة بن مخلد عام ٤٧ للهجرة، وعاش فى مصر راوية لحديث رسول الله ﷺ، ومعلماً للناس، حتى توفى عام ٥٨ للهجرة.

وقد روى أحاديث بلغت ٥٥ حديثاً، وقد أوردنا بعضاً منها فى فصل (ولاة مصر).

(١١٦) **عقبة بن كريم الخزرجى الأنصارى:** وفى الإصابة: بن كديم بن عدى بن مالك بن النجار، قال عنه الذهبى: شهد أحداً وما بعدها.

وقال ابن حجر شهد المشاهد بعد أحد، وشهد فتح مصر، وعقبه بها.(٢)

(١١٧) **عقبة بن نافع الفهرى:** من كنانة من قريش، ولد على عهد النبى ﷺ فى السنة الأولى للهجرة، وهو ابن خالة عمرو بن العاص، وإن كان مصعب الزبيرى صاحب كتاب (نسب قريش) أورد عقبة ضمن إخوة عمرو بن العاص من الأم، قال: وإخوة عمرو هم: عمرو بن أثاثة العدوى، وأرنب بن عفيف بن العاص، وعقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى.(٣)

دخل عقبة فى جيش عمرو الفاتح لمصر، وفى ولاية عمرو الثانية وجه عقبة قائداً فاتحاً عام ٤٢ للهجرة إلى إفريقية، ففتح كثيراً من تخوم السودان وكورها، قاله الذهبى.(٤) والمقصود بالسودان: حدود مصر جنوباً حتى أواسط إفريقية.

وفى عام ٤٦ للهجرة، توجه إلى بلاد المغرب، ففتح سرت وودّان وفزّان وغيرها.

حتى كان عام ٥١ للهجرة، فولاه معاوية إفريقية استقلالاً، ثم وجهه بجيش إلى غرب إفريقية، فتوغل فيها، حتى أتى وادى القيروان، فأعجبه، واختط فيه مدينة

---

(١) فتوح مصر ٩٤.
(٢) الإصابة ٤ / ٥٢٥.
(٣) نسب قريش ٤٠٩.
(٤) العبر ١ / ٥١.

القيروان، وبنى فيها مسجداً، مازال موجوداً إلى الآن.

وقد فصل ياقوت كيف بنى عقبة القيروان، ووصفها، قال: القيروان مدينة عظيمة بإفريقية، وليس بالغرب مدينة أجل منها، مصرت فى الإسلام، فى أيام معاوية رضى الله عنه..

وكان معاوية قد ولى عقبة بن نافع بن كنانة إفريقية، وكان مقيماً بنواحى برقة، منذ ولاية عمرو بن العاص، فجمع إليه من أسلم من البربر، وضمهم إلى الجيش الوارد من قبل معاوية، وسار فى إفريقية، ونازل مدنها، فافتتحها عنوة، ووضع السيف فى أهلها، وأسلم على يديه خلق من البربر، وفشا فيهم دين الله، حتى اتصل ببلاد السودان.

واختار موضع القيروان، وقال: إنما اخترت هذا الموضع لبعده عن البحر، لئلا تطرقها مراكب الروم، فتهلكها، وهى فى وسط البلاد، ثم أمر أصحابه بالبناء، فقالوا: هذه غياض كثيرة السباع والهوام، فنخاف على أنفسنا هنا، وكان عقبة مستجاب الدعوة، فجمع من كان فى عسكره من الصحابة، وكانوا ثمانية عشر، ونادى: أيتها الحشرات والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، فارحلوا عنا، فإنا نازلون، فمَنْ وجدناه بعدُ قتلناه.

فنظر الناس يومئذ إلى أمر هائل، كان السبع يحمل أشباله، والذئب يحمل أجراءه، والحية تحمل أولادها، وهم خارجون أسراباً أسراباً، فحمل ذلك كثيراً من البربر على الدخول فى الإسلام.

ثم اختط دار الإمارة، واختط الناس حوله، وأقاموا بعد ذلك أربعين سنة لا يرون فيها حية ولا عقرباً.[1]

ولا يستطيع العقل أن يتصور منظر هذا الخروج، بل ليس فى وسع قوة فى الأرض أن تؤلف هذا الموكب من عناصره، بل إن الخيال يبدو عاجزا عن وضع (سيناريو) للمشهد الهائل الذى شاركت فيه كل الكائنات على هذه الأرض، كما أنه عاجز عن تصور القوة التى حشدت تلك المخلوقات المهاجرة، لتؤلف زحفا واحدًا، أشبه شىء بما تشير إليه الآية الكريمة فى وصف يوم الحشر: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ

(١) معجم البلدان ٤ / ٤٢١.

الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣]

وإذا كان نداء عقبة للحشرات والوحوش آمرا لها بمغادرة المنطقة، فلا تملك إلا أن تلبى نداءه، فما السر الذى كانت تنطوى عليه كلمات ذلكم الصحابى؟ وكيف استقبلت تلك الأمم حروف الكلمات ومضمونها؟.. إن أمرا من هذا القبيل مما يحير العقول ويذهلها!! ولا تفسير له إلا بأنه كرامة شرف الله بها عقبة الصحابى المؤمن الصادق!! فى موقف تسامت نورانيته، كما جاء فى الحديث القدسى: (عبدى، أعبدنى أجعلك عبدا ربانيا تقول للشىء كن فيكون)، وما أكثر هؤلاء الربانيين بين أصحاب محمد ﷺ، وهم فى نظرنا -كانوا- مفاتيح النصر على الأعداء، وليس ما حققوه من انتصارات فى مختلف بقاع الأرض حتى نشروا دين الله، وأخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور ليس ذلك إلا ضربا من ضروب (المعجزة) الحضارية على المستوى الدعوى والعالمى، وهو أيضا ضرب من ضروب (الكرامة) على مستوى نورانية الصحابة الربانيين.

وقد عاش عقبة فاتحاً لمدن وحصون المغرب، حتى بلغ البحر المحيط (الأطلسى).

يقول د. حسن عبد الوهاب: ووصل عقبة إلى المغرب الأقصى، ولم يصده عن تقدمه إلا المحيط الأطلنتى، فلما انتهى إلى البحر أقحم فرسه فيه، ورفع يديه إلى السماء ثم قال بأعلى صوته: اللهم اشهد أنى قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر، لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر حتى لا يُعْبَدَ أحدٌ من دونك. ثم قفل راجعاً.(١)

وكان يزيد بن معاوية قد ولاه إمرة المغرب، وخرج مرة للغزو، وعند عودته تقدمته عساكره إلى القيروان، وبقى فى عدد قليل، فطمع به الفرنج، وأطبقوا عليه، فقاتلهم قتال الأبطال، ولكنهم قتلوه ومن معه، ودفن بأرض الزاب(٢) عام ٦٤ للهجرة.

---

(١) تاريخ تونس ٥٧.
(٢) يقول حسن حسنى عبد الوهاب فى كتابه (تاريخ تونس. صفحة ٥٨): ويعرف هذا المكان اليوم باسم (سيدى عقبة) وهو بلد فى وسط واحة صغيرة، غاية فى الجمال، بالقرب من بسكرة، فى الجنوب من ولاية قسنطينة.

ونستطيع أن نحيط بفلسفة هذا الجيل العظيم ودستور حياته إذا ما قرأنا وصية عقبة لأولاده، وهو خارج للغزو فى المرة الأخيرة، وكأنما استشعر أنها ستكون خاتمة المطاف، فأوصاهم تلك الوصية التى جمعت فأوعت، جمعت مبادئ السلوك وأسباب المجد والغنى، وأصول الأمن النفسى الذى استمتع به هذا الجيل، ثم ورثه لبنيه من بعده، قال عقبة: يا بَنِيَّ إنى بعت نفسى من الله، ولا أدرى ما يقضى علىّ فى سفرى، يابنى أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: املأوا صدوركم من كتاب الله، فإنه دليل على الله، وخذوا من كلام العرب ما تهتدى به ألسنتكم، ويدلكم على مكارم الأخلاق، وأوصيكم ألا تداينوا ولو بعتم العباء، فإن الدين ذل بالنهار، وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين، فيفرقوا بينكم وبين الله، ولا تأخذوا ديناً إلا من أهل الورع فإنه أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا.(1)

(118) **عكرمة بن عبيد الخولانى:** قال ابن حجر: ذكر فى الصحابة لكن لا تعرف له رواية.(2)

(119) **علقمة بن جنادة بن قيس الأزدى:** بعد فتح مصر ولاه معاوية إحدى الغزوات البحرية، قال ابن حجر: له صحبة، وشهد فتح مصر، توفى عام 59 للهجرة.(3)

(120) **علقمة بن رمثة البلوى:** كان مع من بايع رسول الله ﷺ تحت شجرة الرضوان، روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها قوله: بعث النبى ﷺ عمرو بن العاص إلى البحرين، ثم خرج فى سرية، وخرجنا معه، فنعس ﷺ ثم استيقظ، فقال: رحم الله عمراً، فتذاكرنا كل إنسان اسمه عمرو، ثم نعس ثانية، فاستيقظ، فقال: رحم الله عمراً. ثم نعس الثالثة، فاستيقظ، فقال: رحم الله عمراً. فقلنا: من عمرو يا رسول الله ؟. قال: عمرو بن العاص. قالوا: وما باله؟.

---

(1) الإصابة 5 / 65، وتاريخ تونس 59. وقد زاد ابن حجر قوله: ولا تأخذوا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا من ثقة.

(2) الإصابة 4 / 540.

(3) الإصابة 4 / 549.

قال: ذكرت أنى كنت إذا ندبت الناس للصدقة جاء من الصدقة فأجزل، فأقول له: من أين لك هذا يا عمرو ؟. فيقول: هو من عند الله. وصدق عمرو، إن لعمرو عند الله خيراً كثيراً.(١)

وقد صاحب علقمة عمراً طوال حياته، وخاصة بعد الفتنة، وكان يقول: أتبع هذا الذى قال رسول الله ﷺ فيه ما قال، ولم أفارقه.(٢)

(١٢١) **علقمة بن يزيد المرادى الغطيفى:** وفد على النبى ﷺ، ثم رجع إلى اليمن، ولما عاد إلى المدينة خرج فى الجيش الذى فتح مصر، وعاش فيها حتى ولاه عتبة بن أبى سفيان- أمير مصر- الإسكندرية، وذلك فى خلافة معاوية.

(١٢٢) **عمرو بن شفو اليافعى:** هكذا أورده السيوطى، أما ابن حجر وابن الأثير، فقالا: ابن سعواء، عن ابن يونس: شهد عمرو فتح مصر، وذكر فى الصحابة.(٣)

(١٢٣) **عمرو بن العاص:** (أنظر فصل ولاة مصر).

(١٢٤) **عمرو بن مرة بن عبس الجهنى:** أسلم قديماً، وقال للنبى ﷺ: آمنت بكل ما جئت به من حلال وحرام، وإن أرْغَمَ ذلك كثيراً من الأقوام.

وأخرج الطبرانى أن عمرو بن مرة أتى النبى ﷺ، فقال: ممن أنت ؟. قال: من قضاعة. فقال ﷺ: أنت من اليد الطليقة، واللقمة الهنيئة، من حمير.(٤)

قال عنه ابن سعد: كان فى عهد النبى ﷺ شيخاً كبيراً، وشهد معه كل المشاهد.(٥)

شهد عمرو المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ثم شهد فتح مصر، وبعد الفتح سكن الشام.

---

(١) فتوح مصر ٣٠٢.
(٢) الإصابة ٤ / ٥٥١.
(٣) الإصابة ٤ / ٦٣٧.
(٤) الإصابة ٤ / ٦٨٢.
(٥) الطبقات ٤ / ٦٨.

وكان عمرو صريحاً فى قول الحق، غير هياب من إظهار رأيه مادام هو الصواب.

يروى ابن الأثير كيف كان يعظ معاوية الخليفة، قال: قال عمرو لمعاوية: يا معاوية إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من إمام- أو وال- يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخُلة[1] والمسكنة إلا أغلق الله عز وجل أبواب السماء دون حاجته وخلته ومسكنته. فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس.[2]

(١٢٥) **عمير بن وهب الجمحى القرشى:** كان من أبطال قريش وصناديدهم، جاء إلى المدينة بعد هزيمة قريش فى بدر، وكان ناوياً على الغدر برسول الله ﷺ، والقصة بالتفصيل فى أسد الغابة، ولما تأكد عمير أن رسول الله على حق أسلم، وعاد إلى مكة يدعوهم للإسلام، ثم كان فى جيش عمرو الفاتح لمصر.

(١٢٦) **عنبسة بن عدى:** من بنى جُعَل، من بنى صخر، ممن بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال ابن حجر: شهد عنبسة الحديبية، وقال له ﷺ ولرهط من قومه: انتسبوا إليه، لا إلى جُعَل، ولا إلى صخر، أنتم عبيد الله.[3]

وبعد غزو مصر عاد إلى الحجاز، وإن كان ابن ربيع الجيزى ذكره فيمن سكن مصر من الصحابة.

(١٢٧) **عنيس بن ثعلبة بن هلال بن عنيس البلوى:** وقال السيوطى: الجهنى، بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. وقال ابن يونس: من أصحاب رسول الله ﷺ، وشهد فتح مصر.[4]

(١٢٨) **عوف بن مالك بن نجوة:** قال عنه ابن منده: له ذكر فى الصحابة، وشهد فتح مصر، ولا تعرف له رواية.[5]

---

(١) الخلة: الفقر.

(٢) أسد الغابة ٤ / ٢٧٠.

(٣) الإصابة ٤ / ٧٣٤.

(٤) الإصابة ٤ / ٧٣٣.

(٥) ٥ / ١٦٦.

(١٢٩) **عياض بن سعيد الأزدى:** قال ابن حجر: ابن سعيد بن جبير بن عوف الأزدى. قال عنه ابن ربيع الجيزى: فيمن سكن مصر من الصحابة.

(١٣٠) **غرفة بن الحارث الكندى اليمنى:** كان من أهل الصفة، وشهد حجة الوداع، خرج مع عكرمة بن أبى جهل لمحاربة المرتدين فى اليمامة، ثم خرج للشام فمصر.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، عاش فى مصر بعد أن شارك فى فتحها، وكان من أشرف أهلها.

روى ابن الأثير عنه رواية وهو فى مصر، قال: سمع غرفة نصرانياً يشتم النبى ﷺ - بمصر - فضرب النصرانى فوق أنفه، فرفع إلى عمرو بن العاص، فقال له: إنّا قد أعطيناهم العهد. قال غرفة: معاذ الله أن نعطيهم العهد على أن يظهروا شتم النبى ﷺ، وإنما أعطيناهم العهد على أن نخلى بينهم وبين كنائسهم، يقولون فيها ما بدا لهم، وأن لا نحملهم ما لا يطيقون، وإن أرادهم عدو قاتلنا دونهم، على أن نخلى بينهم وبين أحكامهم، إلا أن يأتونا راضين بأحكامنا، فنحكم بينهم، وإن اغتنوا عنا لن نتعرض لهم. قال عمرو: صدقت.(١)

(١٣١) **فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس الأنصارى الأوسى:** أسلم قديماً، وشهد مع رسول الله ﷺ أحداً، وما بعدها، وبايع تحت الشجرة، وشارك فى فتح مصر والشام، وولاه معاوية بن أبى سفيان قضاء دمشق بعد وفاة أبى الدرداء، توفى فى دمشق عام ٥٣ للهجرة، وكان معاوية ممن حمل سريره، وكان يقول لابنه عبد الله بن معاوية: أعنّى يا بنى، فإنك لا تحمل بعده مثله.

التزم فضالة بسنة رسول الله ﷺ فى كثير من أحواله، فقد قنع بعيش الكفاف، روى عن رسول الله ﷺ أكثر من عشرين حديثاً، منها قوله عليه السلام: يسلم الراكب على الماشى، والماشى على القاعد، والقليل على الكثير.(٢)

ومنها قوله ﷺ فى حجة الوداع: ألا أخبركم بالمؤمن ؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى

---

(١) أسد الغابة ٤ / ٣٣٨.

(٢) فتوح مصر ٢٧٧.

الله عنه من الخطايا والذنوب.

وقال فضالة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: المجاهد من جهد نفسه، طوبى لمن هُدِىَ إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع.

ورئى فضالة وهو يسوى قبور المسلمين فى بلاد الروم، وقال: قال رسول الله ﷺ: سووا قبوركم بالأرض.(١)

(١٣٢) **قتادة بن قيس بن حبش الصدفى:** قال ابن حجر: شهد فتح مصر، وله بها خطة، وبه تعرف بركة الحبش (عين الصيرة اليوم).

(١٣٣) **قدامة بن مالك بن خارجة بن مرة السلهمى:** قال ابن الأثير: وفد على النبى ﷺ، وشهد فتح مصر هو وابنه سعد.

(١٣٤) **قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى الأنصارى:** من زهاد الصحابة، ومن دهاة العرب، وذوى الرأى والمكيدة فى الحرب، اشتهر بطوله(٢)، وهو أحد الأجواد المشهورين، كانت له صحفة يدور بها حيث دار، وينادى له مناد: هلموا إلى اللحم والثريد، وكان أبوه وجده يفعلان فعله.

بعثه النبى ﷺ أميراً على سرية، يقول جابر بن عبد الله: فجهدوا، فنحر لهم قيس تسع ركائب.. فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا له شأن قيس، فقال: إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت.(٣)

وكان قيس دائم الدعاء: اللهم ارزقنى مالاً، فإنه لا يصلح الفعال إلا بالمال.(٤)

وقد روى قيس أحاديث عن رسول الله ﷺ منها قوله ﷺ: إن ربى حرم على الخمر والميسر والكوبة(٥) والقنين(٦)، وكل مسكر حرام.

---

(١) فتوح مصر ٢٧٧.
(٢) قال السيوطى: أدرك الإسلام عشرة، طول كل منهم عشرة أشبار، منهم قيس بن عبادة. (در السحابة ١٠٣)
(٣) فتوح مصر ٢٧٤.
(٤) الإصابة ٥ / ٤٧٣.
(٥) الكوبة: النرد.
(٦) القنين: كأس الخمر.

وفى رواية: وإياكم والغبيراء، فإنها ثلث خمر العالم.[1]

وقوله ﷺ: من كذب علىّ كذبة متعمداً فليتبوأ بيتاً من النار، ألا ومن شرب الخمر أتى عطشانَ يوم القيامة.[2]

تولى قيس إمارة مصر من قبل على بن أبى طالب، ثم عزل، وشهد معه صفين، ثم كان مع الحسن بن علىّ، حتى صالح معاوية بن أبى سفيان عام الجماعة (عام ٤١ للهجرة)، فأقام فى المدينة حتى توفى بها عام ٦٠ للهجرة. ولذلك نفصيل فى فصل أمراء مصر.

(١٣٥) **قيس بن أبى العاص بن عدى السهمى القرشى:** كان فى فتح مصر طليعة لعمرو بن العاص، وبعد الفتح ولاه عمرو القضاء[3]، واختط لها داراً بجوار المسجد، كان هو وابنه عثمان من الأجواد الكرام، وصى عمر بن الخطاب عمرو بن العاص قائلاً: أنظر من قبلك ممن بايع تحت الشجرة، فافرض له مائتى دينار، وأتمها لنفسك لإمرتك، ولخارجة بن حذافة لشجاعته، ولقيس بن أبى العاص لضيافته.[4]

(١٣٦) **قيسبة بن كلثوم بن جباشة الكندى التجيبى:** كان شريفاً مطاعاً فى قومه، وفد على النبى ﷺ، وكان فى فتح مصر على طليعة عمرو بن العاص.

وقيسبة هو الذى وضع يده على الأرض المجاورة لحصن بابليون قبل فتح الإسكندرية، وعندما اختار عمرو وأصحابه موضع مدينة الفسطاط، قدم قيسبة المكان الذى نزل فيه ليكون مسجد أول عاصمة إسلامية فى مصر.

وقد مدح الشعراء أولاد قيسبة ذاكرين هذه المكرمة، قال أبو مصعب فى عبد الرحمن بن قيسبة :

---

(١) فتوح مصر ٢٧٤. والغبيراء: شراب مسكر يتخذ من الذرة.
(٢) فتوح مصر ٢٧٣.
(٣) قال الشيخ الخضرى: عين عمرو أول قاض فى مصر هو قيس بن أبى العاص السهمى، فهو أول من قضى بها فى الإسلام. (تاريخ الأمم ٢ / ٩)
(٤) أسد الغابة ٣ / ٥٩٧. وفى الإصابة: مائة دينار.

وأبوك سلم داره وأباحه ... لجبـــاه قــوم ركـــع وسجود

وشاعر آخر اسمه أبو تبان ممن حضر الفتح، يقول فى قصيدة أخرى، منها:

وبابليون قد سعدنا بفتحــها ... وحزنا لَعَمْرُ الله فيئاً ومغنما
وقيسية الخير بن كلثوم داره ... أباح حماها للصلاة وسلما[1]

(١٣٧) **كريب بن أبرهة بن الصباح العامرى:** قال بصحبته بعض الرواة، كان فى جيش عمرو فى فتح مصر والإسكندرية، ثم كان ممن اختطوا بالجيزة، يقول ابن يونس:.. ولم يزل قصره بها إلى ما بعد الثلاثمائة.[2]

وعندما تولى عبد العزيز بن مروان[3] مصر، جعل كريباً على رباط الإسكندرية، تكريماً له لموقفه من مبايعة أبيه مروان بن الحكم، وعاش كريب فى الإسكندرية، حتى توفى، ودفن بها عام ٧٨ للهجرة.

(١٣٨) **كعب بن عدى بن حنظلة التنوخى:** نصرانى من أهل الحيرة، قدم على النبى ﷺ، وسمع صلاته وقراءته، وقالت أغلب الروايات: إنه أسلم زمن الرسول عليه السلام، وبعضها يقول بإسلامه بعد وفاته.

قال كعب: أقبلت فى وفد الحيرة على رسول الله ﷺ، فعرض علينا الإسلام، فأسلمنا، ثم انصرفنا إلى الحيرة، فلم نلبث أن جاءتنا وفاة رسول الله ﷺ، فارتاب أصحابى، وقالوا: لو كان نبياً لم يمت، فقلت: فقد مات الأنبياء قبله، فثَبَتُّ على الإسلام.

ثم ذكر كعب كيف أكد له الراهب الذى عرج عليه صدق نبوءة محمد، حتى قال: فاشتدت بصيرتى فى إيمانى.

وهناك رواية لكعب يذكر فيها أنه لم يسلم حقاً إلا حياة أبى بكر، يقول: كان أبى أُسْقُفَ الحيرة، فلما بعث محمد قال: هل لكم أن يذهب نفر منكم إلى هذا الرجل، فتسمعوا منه ؟ لا يموت غداً، فتقولوا: لو أنا سمعنا من قوله، وقد كان على حق؟،

---

(١) الخطط ٣ / ١٨٨.
(٢) الإصابة ٥ / ٦٤٢.
(٣) تولى من عام ٦٥ إلى عام ٨٦ للهجرة.

فاختاروا أربعة... فكنا نجلس إليه إذا صلى الصبح، فنسمع كلامه والقرآن، لا ينكرنا أحد، فلم نلبث يسيراً حتى مات ﷺ، فقال الأربعة: لو كان أمره حقاً، لم يمت، فذهبوا، ومكثت أنا لا مسلماً ولا نصرانياً، فلما بعث أبو بكر جيشاً إلى اليمامة، ذهبت معهم، فلما فرغوا، مررت براهب.. فوقع فى قلبى الإيمان فآمنت.(١)

قال ابن يونس: شهد فتح مصر، واختط بها، وكان ولده بمصر يأخذون العطاء فى بنى عدى بن كعب، حتى نقلهم أمير مصر فى زمن يزيد بن عبد الملك إلى ديوان قضاعة.. وله بمصر حديث.(٢)

ولم يرد لنا خروجه من مصر بعد أن دخلها فاتحاً، فهو إذن من الصحابة الذين ماتوا فى مصر.

(١٣٩) **كعب بن يسار بن ضبة العبسى:** كان قاضياً فى الجاهلية، وعندما دخل مصر مع الجيش الفاتح، جعله عمرو بن العاص على القضاء قبل قيس بن أبى العاص السهمى، وبُنى هذا الخبر على رواية لحفيد كعب، قال فيها: قضى جدى بمصر والياً للقضاء شهرين، حتى أعفاه عمر بن الخطاب.(٣)

وهناك رواية للسيوطى يقول فيها: كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن يستقضى كعب بن يسار، فقال كعب: لا والله لا ينجينى الله من ذلك فى الجاهلية، ثم أعود إليه. وأبى أن يقبل، فتركه عمرو، وولى قيس بن أبى العاص.(٤)

وبعد مشاركة كعب فى الفتح، اختط له داراً بجوار المسجد.

يقول ابن عبد الحكم: وكان يقال لزقاق القناديل زقاق الأشراف، لأن عمراً كان على طرفه مما يلى المسجد الجامع، وكعب بن ضبة على طرفه الآخر مما يلى سوق البربر.(٥)

---

(١) الإصابة ٥ / ٦٠١.
(٢) الإصابة ٥ / ٦٠٢.
(٣) الإصابة ٥ / ٦١٤.
(٤) در السحابة ١٠٤.
(٥) فتوح مصر ١١١.

(١٤٠) **لاحب بن مالك بن سعد الله البلوى:** ممن بايع تحت الشجرة، وروى أحاديث عن رسول الله ﷺ.

(١٤١) **لبيد بن عقبة التجيبى.**

(١٤٢) **لصيب بن جيثم بن حرملة-** هكذا فى حسن المحاضرة-: قال ابن حجر: خيثم. وقال ابن الأثير: جُشم. قال ابن يونس: شهد فتح مصر، له ذكر فى الصحابة.[١]

(١٤٣) **لقيط بن عدى اللخمى:** قال عنه الذهبى: من الصحابة المعدودين بمصر[٢]، كان على كمين جيش عمرو بن العاص وقت فتح مصر. وقال ابن يونس: له ذكر فى الصحابة.[٣]

(١٤٤) **ليشرح بن لحىّ الرعينى:** زاد ابن حجر: بن لحىّ بن مخمّر، شهد فتح مصر، وله ذكر فى الصحابة.

(١٤٥) **مالك بن زاهر بن الربيع (وقيل: ابن أزهر):** قال ابن حجر: عن ابن حبان: لمالك صحبة. وقال البخارى: أدرك النبى ﷺ.

(١٤٦) **مالك بن أبى سلسلة الأزدى الطائى:** أحد الأبطال المشهوين فى فتح مصر، كان أول الناس صعوداً على حصن بابليون، عندما وضع الزبير السلم. قال عنه ابن حجر: له إدراك.

(١٤٧) **مالك بن عتاهية بن حرب بن أشرس الكندى التجيبى:** ذكره ابن عبد الحكم فيمن كان فى فتح مصر، وروى أحاديث عن رسول الله ﷺ، وقد عاش فى مصر بعد فتحها.

(١٤٨) **مالك بن قدامة بن خارجة بن سلهم:** قال ابن يونس: له إدراك، وشهد فتح مصر هو وأبوه قدامة، وسكن هو وأبوه (دلاص)[٤] من صعيد مصر.

---

(١) الإصابة ٥ / ٦٨٣.

(٢) سير أعلام النبلاء

(٣) الإصابة ٥ / ٧٢٦.

(٤) دلاص: من أعمال البهنسا، كورة بصعيد مصر على غربى النيل. (معجم البلدان ٢/٤٥٩)، وهى الآن فى محافظة المنيا.

(١٤٩) **مالك بن هبيرة بن خالد بن ثعلبة بن عقبة السكونى الكندى:** بعد مشاركته فى فتح مصر، عاش فى الشام، وولاه معاوية (حمص) عام ٥٢ للهجرة، وعاش فيها حتى مات زمن مروان بن الحكم عام ٦٥ للهجرة، ودفن بجوار خالد بن الوليد، روى عن رسول الله ﷺ أحاديث.

(١٥٠) **مبرّح بن شهاب بن الحارث بن شرحبيل اليافعى الرعينى:** قال ابن يونس: وفد على النبى ﷺ فى أربعة نفر، ثم شهد فتح مصر.[1]

وفى الفتح جعله عمر بن العاص على الميسرة، استقر بالجيزة، واختط بها هو وأخوه برح بن شهاب، وعاشا فيها حتى توفيا، يقول السيوطى: وخطته بالجيزة معروفة.

(١٥١) **محمد بن بشير الأنصارى:** روى عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قوله ﷺ: إذا أراد الله بعبد هوانًا، أنفق ماله فى البنيان.[2] وربما كان أحد أبناء الزبير بن العوام.

(١٥٢) **محمد بن جابر بن عراب بن عبس العكىّ:** قال ابن الأثير: ابن غراب، ممن وفد على النبى ﷺ.

(١٥٣) **محمد بن الزبير:** هكذا ذكر جورجى زيدان.[3] وربما كان أحد أبناء الزبير بن العوام.

(١٥٤) **محمد بن عمرو بن العاص بن وائل السهمى القرشى:** أسلم مع أبيه، وخرج معه فى الفتوح، ثم كان مع أخيه عبد الله فى فتح مصر، وعاش فيها حتى عزل أبوه عن ولاية مصر عام ٢٥ للهجرة، فسكن مع عمرو فلسطين، حتى بويع لعلى بن أبى طالب، وطلب معاوية من عمرو اللحاق به فى الشام، فاستشار عمرو ولديه عبد الله ومحمداً، وكان رأى عبد الله أن يبقى حتى يرى ما يستقر عليه الأمر، أما محمد فقد قال: أنت فارس أبيات العرب، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر، وليس لك فيه ذكر. فقال عمرو قولته

---

(١) الإصابة ٦ / ٧.
(٢) الإصابة ٥ / ٧٦٢.
(٣) تاريخ مصر الحديث ١ / ١١٦.

المشهورة: يا عبد الله لقد أشرت علىّ بما هو خير لآخرتى، وأنت يا محمد أشرت علىّ بما هو أنبه لى فى دنياى.(١)

وشد عمرو الرحال مع ولديه إلى معاوية، وشاركوا فى صفين، ثم عادوا إلى مصر.

وقد روى محمد حديثاً عن رسول الله ﷺ.

ومحمد بن عمرو هو صاحب حكاية المصرى المضروب، عن أنس أن رجلاً من أهل مصر أتى المدينة، فقال: يا أمير المؤمنين أعوذ بك من الظلم. قال: قد عذت معاذاً. قال: سابقت ابن عمرو بن العاص، فسبقته، فجعل يضربنى بالسوط، ويقول: أنا ابن الأكرمين.

فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم، ويقدم ابنه معه، فقدم، فقال عمر: أين المصرى؟، خذ السوط فاضرب. فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين. قال أنس: فضرب، فوالله لقد ضربه، ونحن نحب ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال عمر للمصرى: ضع على صلعة(٢) عمرو. فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربنى، وقد اشتفيت منه. فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟. قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى.(٣)

(١٥٥) محمد(٤) بن مسلمة بن خالد بن عدى الأوسى الأنصارى: من فضلاء الصحابة، أسلم على يد مصعب بن عمير قبل الهجرة، وبعد الهجرة، شهد مع رسول الله ﷺ جميع المشاهد إلا تبوك، لأن النبى ﷺ استخلفه على المدينة.

خرج مع عمرو فى فتح مصر، وكان ممن صعد حصن بابليون مع الزبير ابن العوام، وبعد الفتح عاد إلى المدينة، ثم رجع إلى مصر من قبل عمر بن

---

(١) الإصابة ٦ / ٢٨.

(٢) صلعة: رأس.

(٣) فتوح مصر ١٦٨.

(٤) ولد قبل البعثة بحوالى ٢٢ سنة، وهو أحد من سموا محمداً فى الجاهلية. وقد عدهم صاحب (المحبر) ص١٣٠ سبعة أشخاص عدا رسول الله ﷺ

الخطاب ليحاسب عمراً، ويقتسم ماله.

يقول الشيخ الخضرى: وكان هناك عامل مخصوص يقتص آثار العمال، فيرسله عمر إلى كل شكوى، يحققها فى البلد الذى حصلت فيه، وكان ذلك العمل موجهاً إلى محمد بن مسلمة، الذى كان يثق به عمر ثقة تامة، وكان أهلاً لتلك الثقة، ولم يكن من دأب محمد بن مسلمة أن يحقق تحقيقاً سرياً، وإنما كان يسأل من يريد سؤاله علناً، وعلى ملأ من الأشهاد.(١)

ودخل محمد مصر، واتجه إلى الوالى عمرو لمحاسبته. قال ابن عبد الحكم: أهدى له عمرو بن العاص هدية، فردها عليه، فغضب عمرو، وقال: يا محمد، لم رددت إلىّ هديتى، وقد أهديت إلى النبى ﷺ مقدمى من غزوة ذات السلاسل، فقبل؟. فقال له محمد: إن رسول الله ﷺ كان يقبل بالوحى ما شاء، ويمتنع ما شاء، ولو كانت هدية الأخ لأخيه، قبلتها، ولكنها هدية إمام، شرٌ خلفها.

فقال عمرو: قبح الله يوماً صرت فيه لعمر بن الخطاب والياً، فلقد رأيت العاص بن وائل يلبس الديباج المزور بالذهب، وإن الخطاب بن نفيل ليحمل الحطب على حماره بمكة. فقال له محمد بن مسلمة: أبوك العاص وأبوه الخطاب في النار، ولكن عمر خير منك، ولولا اليوم الذى أصبحت فيه تذم لأُلفيت معتقلاً عنزاً يسرك غَزْرُها، ويَسُوؤُكَ بَكْؤُها. فقال عمرو: فلتة المغضب، وهى عندك أمانة. ثم أحضر ماله، فقاسمه إياه، ثم رجع.(٢)

وبعث عمر بن الخطاب محمد بن مسلمة كذلك إلى الكوفة، ليحاسب سعد ابن أبى وقاص، عندما سمع ببنائه قصراً، وجعل عليه باباً، فأمر محمداً أن يحرق هذا الباب، ففعل. وقد كان أمير المؤمنين عمر يكره أن يكون للولاة أبواب تحجبهم عن الرعية.

ومحمد ممن اعتزلوا الفتنة، قال: أعطانى رسول الله ﷺ سيفاً، فقال: قاتل به المشركين ما قاتلوا، فإذا رأيت أمتى يضرب بعضهم بعضاً فأت به (أُحداً) فاضرب به حتى ينكسر، ثم اجلس فى بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية، ففعل.(٣)

---

(١) تاريخ الأمم ٢ / ٦.

(٢) فتوح مصر ١٤٦. والغزر : اللبن أو كثرته، والبكء : قلة اللبن.

(٣) الإصابة ٦ / ٣٤.

ولم يشهد الجمل ولا صفين، وإنما عاش فى المدينة، حتى توفى بالربذة عام ٤٣ للهجرة فى صفر، قبل عمرو بن العاص بقليل.

(١٥٦) محمية بن جزء بن عبد يغوث الزبيدى: من مهاجرى الحبشة، وحليف بنى جمح، وهو ابن عم الصحابى عبد الله بن الحارث أحد شهود فتح مصر، قيل: إنه شهد بدراً مع النبى ﷺ، ولكن ابن سعد يقول: شهد المريسيع فى بنى المصطلق، واستعمله رسول الله ﷺ على الخمس وسُهمان المسلمين، ثم استعمله على الأخماس بعد ذلك.(١)

عاش فى مصر بعد أن شارك فى فتحها، وقد تزوج عبد الله بن عمرو بن العاص من أم محمد بنت محمية بن جزء، وولدت له محمداً، ذكره صاحب نسب قريش.

(١٥٧) المستورد بن سلامة بن عمرو الفهرى: صحابى شهد فتح مصر، واختط بالفسطاط، ثم انتقل إلى الإسكندرية، وعاش فيها حتى مات عام ٤٥ للهجرة.

(١٥٨) المستورد بن شداد القرشى الفهرى: شارك فى فتح الكوفة، وعاش فيها، ثم جاء مصر فى جيش عمرو بن العاص، واختط بها.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، ذكر ابن عبد الحكم منها ستة أحاديث، روى المستورد قول رسول الله ﷺ: ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم، فلينظر بم يرجع.(٢)

وقوله ﷺ: من مات مشركاً، فلا تسل عنه، ومن مات وقد قَتَلَ مؤمناً، فلا تسل عنه، ومن مات وهو عاصٍ، فلا تسل عنه.

وقوله أيضاً: من ولى لنا عملاً، ولم يكن له خادم فليكتسب خادماً، ومن لم يكن له مسكن، فليكتسب مسكناً، ومن لم يكن له دابة، فليكتسب دابة، فمن أصاب سوى ذلك، فإنه غالٌ سارق.

وقال المستورد: رأيت رسول الله ﷺ يدلك بخنصره ما بين أصابع رجليه،

---

(١) الطبقات ٧ / ٤٩٧.

(٢) الإصابة ٦ / ٩٠.

وهو يتوضأ بالجحفة.(١)

وقد عاش المستورد فى مصر حتى توفى بها فى خلافة معاوية.

(١٥٩) مسلمة بن مخلد: (أنظر فصل ولاة مصر).

(١٦٠) مطعم بن عبدة البلوى: ممن دخل مصر فاتحاً، روى عن رسول الله ﷺ قوله: عهد إلىّ رسول الله ﷺ أن أسمع وأطيع، وإن كان علىّ أسود مجدع الأطراف.(٢) روى ذلك أيام الفتنة.

(١٦١) معاذ بن أنس الجهنى: بعد مشاركته فى فتح مصر، روى عنه المصريون أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، وصلت إلى الخمسين حديثاً، منها: ما ذكره ابن عبد الحكم:

قال رسول الله ﷺ: من قرأ قل هو الله أحد، إحدى عشرة مرة حتى يختمها، بنى الله له بيتاً فى الجنة، فقال عمر بن الخطاب: إذاً نستكثر يا رسول الله ؟. قال: الله أكثر وأطيب.

قال ﷺ: أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتصفح عمن ظلمك.

قال ﷺ: من ثبت فى مصلاه حين ينصرف من الصبح حتى يسبح ركعتى الضحى لا يقول إلا خيراً، غفرت له خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر.

قال ﷺ: من كان صائماً، وعاد مريضاً، وشهد جنازة، غفر له، إلا أن يحدث من بعد.

قال ﷺ: من كظم غيظه، وهو يقدر على أن ينتصر، دعاه الله على رءوس الأشهاد حتى يخيره فى حلل الإيمان.

قال ﷺ من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه. ومن لبس ثوباً، فقال: الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه.

---

(١) فتوح مصر ٧ / ٤٩٧.

(٢) الإصابة ٦ / ١٣١.

قال ﷺ: من بنى بنياناً فى غير ظلم ولا اعتداء، أو غرس غرساً فى غير ظلم ولا اعتداء، كان له أجراً جارياً ما انتفع به أحد من خلق الله.

عن معاذ بن أنس، قال: سأل معاذ بن جبل رسول الله عن أفضل الإيمان ؟. قال: أن تحب لله، وتبغض لله، وتعمل لسانك فى ذكر الله. قال: وماذا يا رسول الله؟. قال: أن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، وأن تقول خيراً أو تصمت.(١)

(١٦٢) **معاوية بن خديج السكونى التجيبى الكندى**: سماه الذهبى: قائد الكتائب بشجاعة.

ذكره ابن سعد فيمن تولى مصر من الصحابة، وقصة هذه الولاية: أنه كان مع معاوية، وشهد معه صفين، وأخذ له البيعة من أهل مصر، بعد قتل محمد بن أبى بكر، وجاء عمرو بن العاص، وتسلمها، ثم غزا المغرب وصقلية.

قال الزريكلى: بقيت فى مصر ذريته إلى القرن الثامن للهجرة، وله فى إفريقية آثار منها آبار فى القيروان، تعرف بآبار خديج، وفى فتح مصر كان هو البشير لعمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، ثم خرج مع عبد الله بن سعد بن أبى سرح لغزو النوبة والسودان، فذهبت إحدى عينيه بها، وذلك عام ٢٦ للهجرة، وخرج بعد ذلك فى غزو المغرب ثلاث مرات: الأولى عام ٣٤ للهجرة، والثانية فى عام ٤٩ للهجرة، والثالثة عام ٥٠ للهجرة، ثم عاد إلى مصر، وعاش فيها، حتى توفى عام ٥٢ للهجرة.

روى ابن الأثير حواراً دار بين السيدة عائشة رضى الله عنها وبين بعض جنود معاوية بن خديج، قالوا: دخلنا على عائشة فسألتنا: كيف كان أميركم فى غزاتكم ؟. فقالوا: ما نقمنا عليه شيئا، وأثنوا عليه خيراً، قالوا: إن هلك بعير أخلف بعيراً، وإن هلك فرس أخلف فرساً، وإن أبق خادم أخلف خادماً. فقالت: أستغفر الله، إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخى(٢)، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم

---

(١) فتوح مصر ٢٩٧.

(٢) تقصد محمد بن أبى بكر، الذى كان والياً على مصر من قبل على بن أبى طالب.

من رفق بأمتى فارفق به، ومن شق على أمتى، فاشقق عليه.(١)

وقد روى معاوية أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها: قال ﷺ: روحة فى سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها.(٢)

(١٦٣) **معيقب بن أبى فاطمة الدوسى:** حليف بنى أمية، هاجر الهجرتين، وشهد بدراً، وما بعدها، كان على خاتم النبى ﷺ، ثم استعمله أبو بكر وعمر على بيت المال، وشهد فتح مصر، ولما عاد استعمله عثمان على الخاتم، وهو نفس خاتم رسول الله ﷺ الذى تختم به أبو بكر وعمر وعثمان، ثم سقط منه فى بئر أريس، ولم يعثر عليه.

قال ابن سعد: توفى معيقب فى خلافة عثمان.(٣)

(١٦٤) **المقداد بن عمرو بن ثعلبة الكندى:** تبناه الأسود بن عبد بغوث، فكان يقال: المقداد بن الأسود، حتى نزل قوله تعالى: (أدعوهم لآبائهم) فدُعى المقداد ابن عمرو.

أسلم قديماً، وتزوج ابنة عم الرسول ﷺ: ضباعة بنت الزبير، وسبب هذه الزيجة أنه طلب الزواج من ابنة عبد الرحمن بن عوف، فغضب عبد الرحمن وأغلظ له، فشكا ذلك للنبى ﷺ، فقال: أنا أزوجك، وزوجه ضباعة.(٤)

شهد المقداد بدراً، وكان الفارس الوحيد بها، ثم شهد بقية المشاهد مع رسول الله ﷺ، استعمله رسول الله ﷺ على سرية، ولما رجع، قال له ﷺ: كيف رأيت الإمارةأبا معبد ؟. قال: خرجت يا رسول الله، وما أرى فضلاً لى على أحد من القوم، فما رجعت إلا وكأنهم عبيد لى. قال: كذلك الإمارة يا أبا معبد، إلا من وقاه الله شرها. قال: والذى بعثك بالحق، لا أعمل على عمل أبداً.(٥)

روى عن رسول الله ﷺ أحاديث عن مواقف مشرفة منها ما رواه أبو أيوب

(١) أسد الغابة ٥ / ٢٠٧.
(٢) فتوح مصر ٣٠٨.
(٣) الطبقات ٤ / ٨٨.
(٤) الإصابة ٦ / ٢٠٣.
(٥) فتوح مصر ١٠١.

الأنصارى- قبل بدر، قال: قال لنا رسول الله ﷺ، ونحن بالمدينة- بعد أن أخبر بعير أبى سفيان مقبلة-: هل لكم أن نخرج، فنلتقى هذه العير لعل الله يغنمناها؟. قلنا: نعم.

فخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين، قال لنا: ما ترون فى القوم؟ فإنهم قد أخبروا بخروجكم ؟. قلنا: لا، والله يا رسول الله ما لنا بطاقة بقتال العدو، ولكنا أردنا العير. قال: ما ترون فى قتال العدو؟. قلنا: لا طاقة لنا بقتالهم. وهنا وقف المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله امض لما أمرت به فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قاعدون﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا إلى برك الغماد(١)، لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه. فقال له ﷺ خيراً، ودعا له.

وتقول رواية ابن عبد الحكم: فقال أبو أيوب: فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد، أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم.(٢)

وشارك المقداد فى فتح الشام ومصر والمغرب، ثم عاد إلى مصر، قال ابن عبدالحكم: غزا عبد الله بن سعد المغرب مع المقداد بإفريقية، فلما رجعوا، قال عبد الله للمقداد فى دار بناها: كيف ترى بنيان هذه الدار ؟. فقال له: إن كان من مال الله فقد أسرفت، وإن كان من مالك فقد أفسدت. فقال عبد الله بن سعد: لولا أن يقول قائل أفسد مرتين، لهدمتها.(٣)

وترك المقداد مصر، وعاش فى المدينة حتى توفى عام ٣٣ للهجرة، عن سبعين عاماً، وصلى عليه الخليفة عثمان بن عفان، وكان رضى الله عنه قد أوصى للحسن والحسين بستة وثلاثين ألفاً، ولأمهات المؤمنين لكل واحدة بسبعة آلاف درهم.(٤)

---

(١) برك الغماد: موضع وراء مكة بخمس ليال، قبل اليمن. (معجم البلدان).

(٢) فتوح مصر ٢٦٨.

(٣) فتوح مصر ١١٠.

(٤) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٨٩.

(١٦٥) **المهاجر مولى أم سلمة:** عاش فى كنف رسول الله ﷺ قرابة عشر سنين، قال: خدمت رسول الله ﷺ سنين- عشر سنين أو خمس سنين- فلم يقل لشىء صنعته لم صنعته ؟ ولا لشىء تركته لم تركته ؟.

وعندما خرج عمرو بن العاص لفتح مصر، كان معه المهاجر، وبعد الفتح لم يترك مصر، وإنما اختط بالفسطاط، وبعد أن عاش بها مدة، رحل إلى صعيد مصر، وعاش فى بلد تسمى (طحا)(١) حتى مات.

(١٦٦) **نبيه بن صواب (وقيل صؤاب) المهرى (وقيل الجهنى):** وفد على النبى ﷺ، وشهد فتح مصر، وكان أحد مؤسسى الجامع العتيق، ورابع أربعة أقاموا قبلته.

(١٦٧) **مِقْسم بن بُجْرة بن حارثة الكندى التجيبى:** قال ابن يونس: أسلم فى حياة رسول الله ﷺ، وبايع معاذ بن جبل فى اليمن، وشهد فتح مصر، وكان قاتَلَ أهلَ الردة.(٢)

(١٦٨) **النضر بن بشير بن عمرو المزنى:** قال ابن حجر: له إدراك، وشهد فتح مصر، واختط بها، ثم ولى ابنه القضاء بها عام ٧٢ للهجرة، ومات النضر بمصر عام ٨٩ للهجرة.

(١٦٩) **النعمان بن جزء بن النعمان بن قيس بن سعد العطيفى:** قال ابن يونس: وفد على النبى ﷺ، وشهد فتح مصر.. وله أخ يقال له هانئ شهد فتح مصر، ولهما جميعاً صحبة.(٣)

(١٧٠) **هانئ بن جزء بن النعمان المرادى:** وفد على النبى ﷺ، وشهد فتح مصر مع أخيه النعمان.

(١٧١) **هبيب بن مُغْفِل الغفارى:** بعد فتح مصر اختط بها وعاش فيها، حتى كانت الفتنة، فاعتزل الناس فى واد بين مريوط والفيوم، يقال له: وادى هبيب.

---

(١) طحا: كورة بمصر شمالى الصعيد، غربى النيل. (معجم البلدان)
(٢) الإصابة ٦ / ٢٠٥.
(٣) أسد الغابة ٥ / ٤٧٨.

روى عنه أحمد: أنه رأى رجلاً يجر إزاره، فنظر إليه هبيب، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من وَطِئَه- أى الإزار- من الخيلاء، وَطِئَه فى النار.[1]

(١٧٢) **هوذة بن عرفطة الحميرى:** وفد على رسول الله ﷺ مع قومه من حمير، وشهد فتح مصر.[2]

(١٧٣) **يحيى بن يعمر الرعينى:** قال ابن حجر: شهد فتح مصر، وكان رأساً فى الطلب بدم عثمان، ذكر فيمن أدرك النبى ﷺ، ولم يشاهده.[3]

(١٧٤) **يريم بن عامر بن سعد بن ذهل الرعينى:** قال ابن يونس: له إدراك[4]، وشهد فتح مصر هو وأخوه عقبة.[5]

(١٧٥) **يزيد بن أحمد المرادى:** ذكره ابن حجر فيمن شهد فتح مصر من الصحابة.[6]

(١٧٦) **يزيد بن أنيس بن عبد الله بن عبد الرحمن الفهرى:** شهد حنيناً مع رسول الله ﷺ، حضر فتح مصر، ثم بنى بها داراً سماها بدار السلسلة، ونزل الشام، واستشهد فيها.

روى عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قوله: كنت مع النبى ﷺ فى غزوة حنين، فسرنا فى يوم قائظ شديد الحر، فنزلنا تحت ظلال الشجر، فلما زالت الشمس، ركبت فرسى، وأتيت رسول الله ﷺ، وهو فى فسطاط له، فقلت له: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، قد حان وقت الرواح. ويقصد بالرواح: الصلاة. فقال: أخبر بلالاً.[7]

---

(١) أسد الغابة ٥ / ٣٨٦.
(٢)الإصابة ٦ / ٦٩٦.
(٣) السابق.
(٤) له إدراك: أى أدرك حياة الرسول ﷺ، ولم يلتق به.
(٥) الإصابة ٦ / ٦٩٧.
(٦) الإصابة ٦ / ٦٤٨.
(٧) أسد الغابة ٥ / ٤٧٨.

(١٧٧) **يزيد بن ملجم المرادى:** أخو عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب. قال ابن يونس: له إدراك، وشهد فتح مصر.(١)

(١٧٨) **أبو أيوب الأنصارى، خالد بن زيد بن كليب النجارى الخزرجى الأنصارى:** شهد العقبة وبدراً وأحداً وكل المشاهد مع رسول الله ﷺ، وكان بيته أول منزل لرسول الله ﷺ فى المدينة حتى بنى الحجرات والمسجد، وكان النبى ﷺ قد أقام فى بنى عمرو بن عوف خمس ليال قبل أن يخرج إلى المدينة، فكان كل قوم يدعونه لينزل عندهم، فيقول لهم: اتركوها- أى: الناقة- فهى مأمورة، حتى بركت على باب أبى أيوب، وهناك أمر رسول الله ﷺ ببناء المسجد.

وقد لفت نظرنا طرفة ذكرها الرحالة بيرتون فى كتابه عن رحلاته إلى مصر والحجاز، ذكر فيها بعض تفاصيل عن تاريخ المدينة المنورة، منها حديثه عن تُبَّعَ اليمنى الذى دان باليهودية، وكان أول من كسا الكعبة، قال بيرتون: وبعد أن شيد داراً للنبى المرتقب، عاد لحاضرة بلاده فى اليمن، وأبطل الوثنية، واستخدم طريقة التعذيب بالنار للتأكد من صدق التحول عن الوثنية... وكتب وهو على فراش الموت ما يلى: أشهد بصدق أحمد الصادق، أشهد أنه رسول الله خالق الأرواح، وإذا امتد بى الأجل لأشهد أيامه لكنت له وزيراً وابن عم.

وبعد أن ختم الورقة بخاتمه قدمها لرئيس الأحبار اليهود لتكون وديعة عنده مع وصية مهيبة بأن يسلم الخطاب- إذا أتيحت الفرصة، للنبى العظيم، وإذا بعد يوم ظهوره ﷺ، فلابد أن تتوارث الأجيال هذه الرسالة، حتى يتم تسليمها له.

أما المنزل الذى شيده تبع فى المدينة ليكون مقراً للرسول الخاتم، فقد سلمه للجد الذى كان أبو أيوب الأنصارى أحد أفراد سلالته، وكان أبو أيوب هو أول شخص يمر الرسول ﷺ ببيته، بعد أن أنهى رحلة الهجرة.

وكان أبو أيوب يحتفظ بخطاب تبع، وهكذا وصل الخطاب الذى كتبه تبع إلى الرسول ﷺ بعد ثلاثة قرون أو أربعة.(٢)

---

(١) الإصابة ٦ / ٧٠٦.

(٢) رحلة بيرتون ٢ / ٦٩.

وقد التزم أبو أيوب بقوله تعالى (انفروا خفافاً وثقالاً) طوال حياته، فكان مع النبى ﷺ، ثم انتقل إلى الشام ومصر، وشارك فى فتحهما.

ولما تولى على بن أبى طالب الخلافة، كان معه فى الجمل وصفين والنهروان، ثم خرج فى جيوش معاوية بن أبى سفيان لفتوحات الروم براً وبحراً، حتى إنه جاء مصر مرة عام ٤٦ للهجرة عن طريق البحر.

وفى عام ٥٠ للهجرة خرج فى جيش بقيادة يزيد بن معاوية، وتوغلوا إلى الشمال من أرض الروم، ومرض أبو أيوب وعاده يزيد، وقال له: ما حاجتك ؟. قال: حاجتى إذا أنا مت، فاركب، ثم سُغ[١] فى أرض العدو ما وجدت مساغاً، فادفنى، ثم ارجع. فلما مات حمله يزيد حتى اقترب من أسوار القسطنطينية، ودفنه هناك بجوار السور، بعد أن صلى عليه.

قال ابن الأثير: إن الروم قالت للمسلمين فى صبيحة دفنهم لأبى أيوب: لقد كان لكم الليلة شأن ؟. قالوا: هذا رجل من أكابر صحابة نبينا، وأقدمهم إسلاماً، وقد دفناه حيث رأيتم، والله لئن نبش لا ضُرِبَ لكم بناقوسٍ فى أرض الغرب، ما كانت لنا مملكة.[٢]

وزاد الذهبى: وكانت الروم إذا أقحطوا، كشفوا عن قبره، فأمطروا.[٣]

ولقد أصبح مثوى أبى أيوب بعد الفتح الإسلامى للقسطنطينية معلماً كبيراً من معالم الإسلام، فهو بالنسبة لخلفاء بنى عثمان اللواء الذى يرفعونه فوق رءوسهم، ويلبسون تيجانهم فى ظله، ويبدأون خلافتهم فى ساحته، ويأخذون العهد بنصرة الإسلام بمشهد منه، لأنه رمز الجهاد الإسلامى، والتضحية فى سبيل المبدأ والعقيدة، والبداية الصحيحة للفتح الإسلامى الذى حققتهالدولة العثمانية بعد وفاة أبى أيوب بتسعة قرون تقريباً، وحتى بعد قيام الجمهورية فى تركيا، مازال قبر أبى أيوب مزاراً ومشهداً ومفخرة لكل الترك، رغم سيطرة العلمانية، الأتاتركية.

---

(١) سغ: أدخل.
(٢) أسد الغابة ٦ / ٢٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٤١٢.

وقد روى أبو أيوب أحاديث كثيرة عن رسـول اللـه ﷺ، قـال بعض الـرواة: إنها بلغت مائة وخمسة وخمسين حديثاً، وكان رضى الله عنـه لا يرويها إلا مطبقاً للناس ما أخذه من مدرسة رسول الله ﷺ، وسنذكر بعضاً من هذه التعاليم.

روى أثناء حرب الروم قرب القسطنطينية عن أبى عمران التجيبى، قـال: صلى عقبة بن عامر صلاة المغرب، فأخرنا، ومعنا أبو أيوب الأنصـارى، فقال لـه أبو أيوب: أتؤخر صلاة المغرب هذا التأخير، وأنت مـن أصحاب رسول اللـه ﷺ، فيراك من لم يصحبه، فيظن أنه وقتها ؟. فسأل عمران أبا أيوب: فمتى وقتها ؟. فقال: كنا نصليها حين تجب الشمس، نبادر بها طلوع النجوم.(1)

وروى أنه كان فى حرب ضد الروم، وخرج صف عظيم من الروم، وصف المسلمون صفا عظيماً، فحمل رجل من المسلمين على الروم، ثم خرج إلينـا- يقول الراوى- وصاح الناس: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة. فقام أبو أيوب، فقال: أيها الناس، إنكم لتُأَوِّلونَ هذه الآية على هذا التأويل، وإنما أنزلت هـذه الآيـة فينا معشر الأنصار، إنه لما أعز الله دينه، وكثّر ناصريه، قلنا فيمـا بيننا بعضنـا لبعض سراً من دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أنا أقمنا فيها، فأصلحنا ما ضاع منها ؟، فأنزل الله عز وجل في كتابه يرد علينا ما هممنا به: ﴿وَأَنْفِقُوا فِـى سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَـى التَّهْلُكَـةِ﴾[البقرة:١٩٥]، فكـانت التهلكـة أن نقيم فـى الأموال ونصلحَها، فأمرنا بالغزو.(2)

روى أبو أيوب بعض مواقفه فـى حياتـه ﷺ تبين مدى تجاوب الوحـى مع المؤمنين، وتجاوبهم معه، يقول أبو أيوب:- فى بدر- أمرنـا ﷺ أن نتعـادّ، ففعلنا، فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشـر رجـلاً، فأخبرنـا رسول اللـه ﷺ بعدتنـا، فسرّ بذلك، وحمد الله، وقال: عدة أصحاب طالوت.

ثم اجتمعنا مع القوم، فاصطففنا، فبدت منا بادرة، فقال ابن رواحة: يا رسـول الله، إنى أريد أن أشير عليك. ورسول الله أفضل مما يشار عليه، إن الله أجـل مـن أن يشك فى وعده، فقال: يا ابن رواحة، لا تشكن فـى وعد اللـه، إن اللـه لا يخلف الميعاد. وأخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فرمـى بهـا وجـوه القـوم، فـانهزموا،

(1) فتوح مصر ٢٦٩. وتجب الشمس: تختفى.
(2) فتوح مصر ٢٧٠.

فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[الأنفال:١٧]، فقتلنا وأسرنا، فقال عمر بن الخطاب: لا يكون أسرى، إنما نحن داعون. فقلنا معشر الأنصار: إنما حمل عمرَ حسدٌ لنا. فنام ﷺ ثم استيقظ، فقال: ادع لى عمر. فدعى، فقال: إن الله قد أنزل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال:٦٧]. (١)

وقبل أن نختم ترجمتنا لأبى أيوب نذكر أن القرآن الكريم وافقه فيما قاله بمناسبة شيوع قالة الإفك عن السيدة عائشة رضى الله عنها، فقد ذكر ابن حجر ما دار بين أبى أيوب وزوجه، قال: كانت أم أيوب الأنصارية قالت لأبى أيوب: أما سمعت ما يتحدث به الناس؟. وحدثته بقول الإفك، فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك، هذا بهتان عظيم. ونزل قوله تعالى فى [سورة النور:١٦]: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.(٢)

لقد عاش أبو أيوب فارساً غازياً، تصحبه أخلاق الفرسان من أول يوم دخل فيه الإسلام، حتى توفاه الله، ودفن تحت أسوار القسطنطينية عام ٥٠ للهجرة.

(١٧٩) **أبو بردة الظَّفَرى الأوسى الأنصارى**: اسمه كعب بن مالك بن الأوس، قال ابن سعد: شهد العقبة مع السبعين، وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وكان معه راية بنى حارثة يوم فتح مكة، توفى فى خلافة معاوية بن أبى سفيان.(٣)

كان يركب على راحلته ومصحف معلق مقدم الراحلة، وفى فتح مصر كان عمرو بن العاص يقدمه مع بقية الصحابة الأجلاء.

قال ابن الأثير: وفى عين شمس نادى عمرو بأصحاب النبى ﷺ، فأجابوه، فقال: تقدموا، فَبِكُمْ ينصر الله المسلمين. فتقدموا، وفيهم أبو بردة وأبو برزة، وتبعهم الناس.(٤)

---

(١) فتوح مصر ٢٦٩.
(٢) فتح البارى ١٨ / ٧٦.
(٣) الطبقات ٣ / ٤٥٢.
(٤) الكامل ٢ / ٢٠٦.

(١٨٠) **أبو بصرة الغفارى:** اسمه جميل، أو حُمَيْل، قال الأصبهانى: أبو بصرة الغفارى المحدث، واسمه حُميل بن وقاص، هو أبو عزة التى كان ينسب إليها كثيّر.

روى عن رسول الله ﷺ أحاديث بلغت عشرة منها:

قال لنا رسول الله ﷺ- قبل فتح خيبر-: إنا راكبون غداً إن شاء الله إلى يهود، فإذا سلموا عليكم، فقولوا: وعليكم.(١)

وفى صلاة العصر قال أبو بصرة: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة العصر، فلما قضى صلاته، قال: هذه الصلاة عرضت على من كان قبلكم، فتوانوا فيها وتركوها، فمن صلاها منكم ضوعف له من أجرها ضعفين، ولا صلاة بعدها حتى يُرى الشاهد.

وقال ﷺ أيضاً: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد مكة، ومسجدى هذا، ومسجد بيت المقدس.

ومنها أيضاً قوله عليه السلام: إن الله زادكم صلاة، فصلوها بين العشاء إلى صلاة الصبح: الوتر الوتر.(٢)

ومن طرائف حياة أبى بصرة ما قاله ابن سعد:.. صحب النبى ﷺ كل من أبى بصرة وابنه بصرة وحفيده جميل، وعاش ثلاثتهم فى مصر(٣)، وبعد أن شارك أبو بصرة فى فتح مصر، اختط بها، وعاش فيها، حتى توفى، ودفن فى سفح المقطم.(٤)

(١٨١) **أبو ثور الفهمى:** وقال السيوطى: أبونور. قال ابن الأثير: لا يعرف اسمه، ولكن له صحبة.

(١٨٢) **أبو جمعة حبيب بن سباع الأنصارى الكنانى:** وقيل اسمه جنيد، وقيل جُنْبد، شهد فتح مصر، واختط بها، ثم نزل الشام، وعاد إلى مصر.

---

(١) فتوح مصر ٢٨٤.
(٢) فتوح مصر ٢٨٤.
(٣) الطبقات ٧ / ٥٠٠.
(٤) جاء فى بعض الروايات أن أبو بصرة هو جد عزة التى شبب بها كثيّر. وليس أباها.

قال ابن ربيع الجيزى: من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر.[1]

وقال ابن حجر: كان بالشام، ثم تحول إلى مصر.

وكان أبو جمعة قد صحب الرسول ﷺ بعد الأحزاب، وروى عنه قال: تغديت مع رسول الله ﷺ ومعه أبو عبيدة بن الجراح، فقال له: يا رسول الله هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك ؟. قال: نعم قوم يجيئون من بعدى، يؤمنون بى ولم يرونى.[2]

وروى كل من ابن عبد الحكم وابن حجر حديثاً رواه أبو جمعة، قال: أتى بثوب من معافر، فقال أبو سفيان: لعن الله هذا الثوب، ولعن من عمله. فقال ﷺ: لا تلعنهم، فإنهم منى، وأنا منهم.

وقال ﷺ أيضاً عنه: من غلّ إبلاً طوق حملها كما طوق أخفافها.

وقد ذكر أبو جمعة يوم أسلم، قال: قاتلت رسول الله أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً.. وفينا أنزلت: ﴿ **ولولا رجال مؤمنون....** ﴾ [الفتح:٢٥].

ويعلق ابن حجر على قولهم (الأنصارى) لا يصح لأن الأنصار لم يبق منهم من يقاتل المسلمين مع قريش.[3] ونقول: ربما كان أنصارياً بالحلف.

(١٨٣) **أبو الدرداء عويمر بن عامر الأنصارى الخزرجى:** تأخر إسلامه قليلاً، فشهد مع رسول الله ﷺ ما بعد أحد.

كان فقيهاً، عاقلاً، حكيماً، شجاعاً، قال ﷺ عنه: عويمر حكيم أمتى، وقال: نعم الفارس عويمر.

وقال عنه ابن سعد: جمع القرآن فى زمان رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبىّ بن كعب، وأبو أيوب، وأبو الدرداء.[4]

---

(١) الإصابة ٧ / ٦٦.

(٢) فتوح مصر ٢٨٤.

(٣) الإصابة ٧ / ٦٧.

(٤) شارك ثلاثة منهم فى فتح مصر.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ أوصلها صاحب الأعلام إلى تسعة وتسعين حديثاً ومائة حديث.

قال أبو الدرداء يشجع الناس على قراءة شيء من القرآن كل يوم: أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن كل ليلة ؟. قالوا: نحن أعجز من ذلك وأضعف. قال: فإن الله عز وجل جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل (قل هو الله أحد) جزءاً من أجزاء القرآن.(١)

وقد عاش أبو الدرداء فى الشام بعد أن شارك فى فتح مصر، وقد ولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب القضاء على دمشق، فكان أول قاض لها، وذلك عام ٢٣ للهجرة، ولم يقتصر عمله فى دمشق على القضاء فحسب، بل شارك فى الأعمال الحربية، فقد خرج عام ٢٨ للهجرة فى حملة فتح قبرص، وخرج معه عدد كبير من الصحابة منهم أبو أيوب وأبو ذر وعبادة بن الصامت.

وقد عاش أبو الدرداء فى دمشق بعد ذلك حتى توفى عام ٣٢ للهجرة، ودفن بها فى خلافة عثمان بن عفان.

وفى الإسكندرية ضريح ومسجد باسم أبى الدرداء، وتقول د. سعاد ماهر: وبرغم أن مرجعاً لم يذكر أن أبا الدرداء قد دفن فى مصر، إلا أن أهل الإسكندرية يعتقدون اعتقاداً لا يقبل المناقشة أنه مدفون داخل ضريحه، ويبررون ذلك بكثرة الكرامات التى تحدث لهم.. ومهما يكن من أمر الكرامة، فإننا نقطع بأن الصحابى أبا الدرداء غير مدفون بالإسكندرية، وليس ما يمنع أن يكون ضريحه من أضرحة الرؤيا، وهى كثيرة منتشرة فى مصر، وفى كل أنحاء العالم الإسلامى.(٢)

ومع أن أبا الدرداء كان شديد الصلاح والتقوى والإيمان والحكمة، فأنه ساعة وفاته كان خائفاً فزعاً باكياً، حتى سألته أم الدرداء: ألم تخبرنا بأنك تحب الموت ؟. قال: بلى، وعزة ربى، ولكن نفسى لما استيقنت الموت كرهته. ثم بكى، وقال: لقنونى لا إله إلا الله. فلم يزل يرددها حتى مات.

---

(١) أسد الغابة ٦ / ٩٧.
(٢) مساجد مصر وأولياؤها ١ / ٣٣.

ولم ينس وهو يعانى سكرات الموت، وفى اللحظات الأخيرة أن يعظ ابنه بلالاً، ويقول له: اعمل لمثل مصرع أبيك، واذكر مصرعك وساعتك.(١)

(١٨٤) **أبو درة البلوى:** ذكره ابن حجر وابن الأثير عن ابن يونس فيمن لهم صحبة، وشهدوا فتح مصر، ولما اختط فى الفسطاط بيتاً كتب عليه: هذه دار أبى درة البلوى صاحب رسول الله ﷺ.(٢) قاله ابن حجر.

(١٨٥) **أبو ذر الغفارى (جندب بن جنادة):** من كبار الصحابة وفضلائهم، قال عنه ابن حجر: الزاهد المشهور الصادق اللهجة، أسلم قديماً ثم انصرف إلى أهله فى اليمن حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فهاجر أبو ذر إليه، وذلك بعد بدر وأحد والخندق.

وكان أبو ذر لا يعبد الأصنام فى الجاهلية، ويقول لا إله إلا الله، حتى إذا سمع بالنبى ﷺ، أسرع إليه وأعلن إسلامه، وعاش حياته كلها ملتزماً بقول رسول الله ﷺ له: اسمع وأطع ولو لعبد حبشي.

واختلف مرة مع الخليفة عثمان بن عفان، وارتفعت أصواتهما، ثم انصرف مبتسماً، فقال له الناس: مالك وأمير المؤمنين ؟. قال: سامع مطيع، ولو أمرنى أن آتى صنعاء أو عدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت، فأمره عثمان بترك المدينة إلى الربذة على طريق مكة.(٣)

وربما أكثر النبى ﷺ من تنبيه أبى ذر إلى السمع والطاعة للسلطان، لما لاحظ البناء النفسى له، وهو بناء قلق متمرد، فكان ﷺ يَرُوضُ نفسيته، ويحاول أن يخلصها من روح التمرد، وقد التزم أبو ذر بذلك حتى آخر حياته.

وكانﷺ محباً له، معجباً به، قال فيه يوماً: ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبى ذر، وفكر أبو ذر مرة فى الإمارة، فقال: يا رسول الله ألا تستعملنى ؟. قال أبو ذر: فضرب رسول الله ﷺ على منكبى، ثم قال: يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من

(١) أسد الغابة ٤ / ٣١٩.
(٢) الإصابة ٧ / ١٢١.
(٣) الطبقات ٤ / ٢٢٧.

أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها.[1]

لم يكن رسول الله ﷺ يقصد بكلمة (ضعيف) أنه ضعيف البنية، لأن أبا ذر كان طويلاً جسيماً، وإنما قصد بالضعف- فيما نحسب عدم درايته بفنون السياسة، ونظم الحكم والإدارة.

وقد شارك أبو ذر فى فتح مصر، واختط بها، وكانت داره بزقاق القناديل، قرب دار عمرو بن العاص، وسموها دار العُمُد.

وعاش فى الفسطاط حتى رأى مشهداً، فتذكر قولة لرسول الله ﷺ، فتركها إلى الشام، والمشهد الذى رآه هو اختلاف ابنى شرحبيل بن حسنة: عبد الرحمن وربيعة فى جدار لهما، والحديث الذى تراءى له ساعتها قوله ﷺ: ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً، فإذا رأيتم أخوين يقتتلان فى موضع لبنة، فاخرج.

وإن كان الليث بن سعد قد فسر هذا الحديث تفسيراً آخر غير ما رآه أبو ذر، وقال: لا أرى النبى ﷺ قال له ذلك إلا للذى كان من أمر أهل مصر فى عثمان[2]، والله أعلم.

وعاش أبو ذر فى الشام حتى اختلف مع واليها معاوية بن أبى سفيان، فخرج إلى المدينة، ومنها إلى الربذة[3]، وعاش فيها عيشة الكفاف حتى كان شهر ذى الحجة من عام ٣٢ للهجرة، وحضره الموت، وليس معه إلا امرأته وغلام.

ووصف ابن سعد هذا المشهد، فقال: ورأى امرأته تبكى، فقال: ما يبكيك ؟. قالت: أبكى أنه لا يد لى بتغييبك، وليس عندى ثوب يسعك كفناً. فقال: اغسلانى وكفنانى وضعانى على قارعة الطريق، فأول ركب يمر بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه.

فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق عُماراً، فلم يرعهم إلا الجنازة على ظهر الطريق

(١) فتوح مصر ٢٨٦.
(٢) فتوح مصر ١٠٩.
(٣) من ضواحى المدينة.

قد كادت الإبل تطؤها، فقام إليه الغلام، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه. فاستهل عبد الله يبكى، ويقول: صدق رسول الله ﷺ قال: تمشى وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك. ثم نزل هو وأصحابه وواروه.(١)

وزاد ابن حجر: ولما صلى عليه عبد الله بن مسعود، قدم المدينة، فمات بعده بقليل.(٢)

وقال الذهبى: ترك أبو ذر بنتاً له ضمها عثمان لعياله.(٣)

روى أبو ذر أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، بلغت عدتها فى البخارى ومسلم وحدهما ٢٨١ حديثاً.

(١٨٦) أبو رافع القبطى (اسمه أسلم، وقيل إبراهيم، وقيل هرمز، وقيل يسار، وقيل سنان، وقيل صالح، وقيل قزمان): كان مولى للعباس بن عبد المطلب، ووهبه للنبى ﷺ، فأعتقه وزوجه سلمى مولاته، أسلم قبل غزوة بدر ولم يشهدها، وشهد أحداً، وكان سبب عتقه أنه بشر النبى ﷺ بإسلام عمه العباس.

ولا يُعْرَفُ سر تسميته بالقبطى، فربما كان من مصر، ثم بيع فى الحجاز، أو أن له صلة بشىء صنع فى مصر، وإن كان الذهبى يؤكد أنه من قبط مصر.

وقد عاش أبو رافع فى المدينة بعد مشاركته فتح مصر، وكان قد اختط بها بجوار عقبة بن نافع ومسلمة بن مخلد.(٤)

قال الذهبى: مات فى خلافة علىّ، وقيل فى عام ٤٠ للهجرة فى الكوفة، روى أحاديث عدة عن رسول الله ﷺ.

(١٨٧) أبو الربداء البلوى (وقيل ابن الرمداء): يقول ابن الأثير: أهل الحديث يقولونه بالميم، وأهل مصر يقولونه بالباء.(٥)

---

(١) الطبقات ٤ / ٢٣٥.
(٢) الإصابة ٧ / ١٣٠.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٩٣.
(٤) السابق ٢ / ١٦.
(٥) أسد الغابة ٦ / ١١٢.

وسبب هذه التسمية ذكره ابن حجر، قال: إن أبا الرمداء مولى امرأة من بلى، يقال لها الرمداء بنت عمرو.

وقد لقى أبو الرمداء النبى ﷺ، قال ابن حجر: ذكر أن النبى ﷺ مر به وهو يرعى غنم مولاته، وله فيها شاتان، فاستسقاه، فحلب لـه شـاتيه، ثـم راح وقد حفلتا حلباً، فذكر ذلك لمولاته، فقالت: أنت حر. فاكتنى بأبى الربداء.(1)

قال ابن يونس: شهد فتح مصر، وكان ولده بمصر.(2)

روى أبو الربداء أحاديث عن رسول الله ﷺ منها أن رجلاً منهم- من بلـى- شرب خمراً، فأتوا به النبى ﷺ فضربه(3)، ثم شرب الثانية فضربه، ثم شرب الثالثة فأتوا به إليه، فما أدرى أفى الثالثة أو الرابعة أمر بـه، فحمـل علـى العجل، فوضـع عليها، فضرب عنقه.(4)

(188) أبو ريحانة شمعون (أو سمعون) الأزدى (وقيل الدوسى): روى عن صحبته رسول اللـه ﷺ أنـه قـال: أتيت رسول اللـه ﷺ فشكوت إليـه تفلت القرآن ومشقته علىّ، فقال: لا تحمل عليك ما لا تطيق، وعليك بالسجود.(5)

وكان يكثر السجود حتى قيل: إنه رجع من غزوة، فتعشى، ثم توضأ، وقام إلى سجوده، فقرأ سورة، فلـم يـزل فـى مكانـه حتـى أذن المـؤذن. يقول ابن حجر: فقالت له امرأته: يا أبا ريحانة، غزوت فتعبت، ثم قدمت، أفمـا كـان لنـا فيك نصيب ؟. قال: بلى والله لو ذكرتك لكان لك حق علىّ. قـالت: فمـا الـذى شـغلك ؟. قال: التفكير فيما وصف الله فى جنته ولذاتها حتى سمعت المؤذن.(6)

وقد عـاش أبـو ريحانـة فـى بيت المقـدس وعسـقلان بعـد أن شـارك فـى فتح مصر.

---

(1) الإصابة 3 / 361.
(2) السابق.
(3) حد الخمر أربعون جلدة.
(4) الإصابة 6 / 640. والعجل: هى الأنطاع، أى: بساط الأديم يقام عليه الحد.
(5) يقصد بالسجود: الصلاة.
(6) الإصابة 3 / 361.

(١٨٩) **أبو زمعة البلوى عبيد بن أرقم (أو آدم)**: بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة بيعة الرضوان، كان فى فتح مصر، واختط بها، وعاش فيها، حتى خرج معاوية بن خديج لغزو إفريقية عام ٣٤ للهجرة، فخرج معه، وعندما أحس بالموت طلب ممن حوله أن يسووا قبره بالأرض، فدفن بالقرب من القيروان، فى موضع معروف اليوم بالبلوية. روى عن رسول الله ﷺ.

(١٩٠) **أبو الزهراء البلوى (وقيل الزعراء)**: قال ابن يونس: الصحابى أبو الزعراء شهد فتح مصر.(١)

(١٩١) **أبو صرمة مالك بن قيس الأنصارى**: شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، كان شاعراً حسناً، وروى عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قوله ﷺ: من ضارّ، ضارّ الله به، ومن شاقّ، شاقّ الله عليه.

وقوله فى إباحة رسول الله ﷺ منع الحمل: قال أبو صرمة: أصبنا سبايا فى غزوة بنى المصطلق، وكان منا من يريد أن يتخذ أهلاً، ومنا من يريد أن يستمتع ويبيع، فتراجعنا فى العزل، فذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: لا عليكم أن تعزلوا، فإن الله عز وجل قدر ما هو خالق إلى يوم القيامة.(٢)

(١٩٢) **أبو فاطمة عبد الله الضمرى الأزدى (وقيل الليثى)**: اختط بمصر، وعاش فيها، وخرج مع عبد الله بن أبى سرح فى غزوة ذات الصوارى عام ٣٥ للهجرة.

وروى أحاديث عن رسول الله ﷺ منها: قال لى رسول الله ﷺ: يا أبا فاطمة أكثر من السجود، فإنه ليس مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه بها خطيئة.(٣)

وزاد ابن الأثير فى رواية أبى فاطمة، قال: قلت: يا رسول الله، حدثنى بعمل أستقيم عليه وأعمله. قال: عليك بالجهاد فى سبيل الله، فإنه لا مثيل له. قال: قلت: يا رسول الله حدثنى عن عمل أستقيم عليه وأعمله. قال: عليك بالسجود، فإنك

---

(١) أسد الغابة ٦ / ١٢٢.
(٢) أسد الغابة ٦ / ١٧٢.
(٣) فتوح مصر ٣٠٩.

لا تسجد لله سجدة، إلا رفعك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة.(١)

وزاد ابن سعد: أكثر بعدى من السجود.(٢)

وكان أبو فاطمة كثير السجود حتى اسودت جبهته وركبتاه، وروى ابن حجر، قال: عن أبى فاطمة، قال ﷺ: عليك بالصوم، فإنه لا مثل له.(٣)

(١٩٣) **أبو فاطمة كعب بن عاصم الأشعرى (وقيل اسمه عبيد الله، وقيل الحارث الأزدى)**: توفى فى خلافة عمر، وربما كان هو السابق.

(١٩٤) **أبو مسلم الغافقى**: حضر فتح مصر، وبناء المسجد، ثم صار مؤذن عمرو ابن العاص، كان يبخر المسجد، ثم كان على شرطة عمرو، قاله ابن حجر وابن الأثير.

روى حديثاً عن رسول الله ﷺ قال: جاء رجل لرسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ؟. قال: أحية والدتك ؟، فبرها فتكون قريباً منها. فقال: ليس لى والدة. قال: فأطعم الطعام، وأطب الكلام.(٤)

(١٩٥) **أبو مكنف الخولانى**: وفد على النبى ﷺ فى وفد بنى خَوْلان، وكتب له كتاباً إلى معاذ بن جبل فى اليمن، شارك فى فتح مصر، وبعد الفتح عاش فى الإسكندرية.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها قوله ﷺ: من افترى علىّ كذباً، فليتبوأ بيتاً أو مقعداً من النار.

ومنها قوله: أكل رسول الله ﷺ طعاماً، ثم قال: استر على حتى اغتسل. فقلت: أكنت جنباً يا رسول الله ؟. قال: نعم. فأخبرت بذلك عمر بن الخطاب، فجرنى إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن هذا يزعم أنك أكلت وأنت جنب ؟. فقال: نعم إذا توضأت أكلت وشربت ولا أقرأ ولا أصلى حتى أغتسل.(٥) وروى أيضاً: ليس

---

(١) أسد الغابة ٦ / ٢٤٤.
(٢) لطبقات ٧ / ٢٢٠
(٣) الإصابة ٧ / ٣١٩.
(٤) أسد الغابة ٦/٣٢٠
(٥) فتوح مصر ٣٠.

من البر الصيام فى السفر.[1]

(١٩٦) أبو موسى مالك بن عبادة الغافقى (وقيل اسمه عبد الله بن مالك): من حلفاء بنى عبد الدار، بعد مشاركته فى فتح مصر، ابتنى بيتاً ومسجداً سمى باسمه، عاش وتوفى بمصر عام ٥٨ للهجرة. قال عنه ابن إياس: خادم رسول الله ﷺ.



وبعد فهذه رحلتنا معك أيها القارئ الكريم، قدمنا من خلالها صورة شبه كاملة لوقائع الفتح الإسلامى لمصر: معاركه ومعالمه وولاته، وأبطاله، وكان ذلك بمناسبة مرور أربعة عشر قرنا كاملة على دخول نور الإسلام إلى مصر، وتحقق نبوءة النبى ﷺ حين أعلم أصحابه فى المدينة : (ستفتح عليكم مصر)، وكان ﷺ فى تلك اللحظة يرى صورة مصر فى كتاب الغيب قلعة حصينة للاسلام، وأمة عظيمة فى رباط من أجل دعوته إلى يوم القيامة، والحمد لله الذى جعلنا مسلمين من أمة مسلمة.

(١) الإصابة ٥ / ٥٩٨.

المراجـــع

١-أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، الأسحاقى المنوفى، المطبعة العثمانية سنة ١٣٠٤هـ، مصر.

٢-أحكام أهل الذمة، د. سيدة إسماعيل الكاشف، بحث ندوة الموارد، جامعة عين شمس.

٣- إحياء علوم الدين، الإمام الغزالى، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

٤- أسد الغابة، ابن الأثير الجزرى، دار الشعب، مصر.

٥-الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد على، مطبعة دار الكتب مصر.

٦- الإسلام الفاتح، د. حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربى، مصر.

٧-الإصابة فى تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلانى، نهضة مصر، مصر.

٨-أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربى، مصر.

٩-الأعلام، الزريكلى، دار العلم للملايين، لبنان.

١٠-الأغانى، أبو الفرج الأصبهانى، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر.

١١-إفحام اليهود، السموأل المغربى، دار الهداية، مصر.

١٢-الأقباط فى وطن متغير، د. غالى شكرى، دار الشروق، مصر.

١٣-أهم مساجد مصر، مجموعة علماء، مصلحة المساحة المصرية، سنة١٩٤٨هـ.

١٤- الأوائل، أبوهلال العسكرى، دار البشير، مصر.

١٥-أيام العرب، محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى البجاوى، عيسى البابى، مصر.

١٦-البداية والنهاية، ابن كثير، المعارف - بيروت.

١٧-**بدائع الزهور فى وقائع الدهور**، ابن إياس الحنفى، الهيئة العامة للكتاب، مصر

١٨-**البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب**، المقريزى، عالم الكتب، القاهرة.

١٩- **البيان والتبين**، الجاحظ تحقيق عبدالسلام هارون، لجنة التأليف والترجمة، مصر.

٢٠-**التاريخ الإسلامى**، د. إبراهيم الشريقى، رابطة العالم الإسلامى مكة المكرمة.

٢١-**تاريخ الإسلام السياسى والدينى**، د. حسن إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، مصر.

٢٢-**تاريخ الأمم والملوك**، ابن جرير الطبرى، دار المعارف، مصر.

٢٣-**تاريخ اللغة العربية**، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، مصر.

٢٤-**التاريخ السياسى للدولة العربية**، د. عبدالمنعم ماجد، مكتبة الأنجلو، مصر.

٢٥-**تاريخ الأمم الإسلامية**، الشيخ الخضرى، مطبعة الاستقامة، مصر.

٢٦-**تاريخ الخلفاء**، الإمام السيوطى، تحقيق د. رحاب خضر عكاوى، مؤسسة عزالدين، لبنان.

٢٧-**تاريخ سيناء**، نعوم بك شقير، مطبعة سانت كاترين، مصر.

٢٨-**تاريخ تونس**، حسن حسنى عبدالوهاب، الدار التونسية للنشر، تونس.

٢٩-**تاريخ مصر من أقدم العصور**، جيمس هنرى بروستد، ترجمة د. حسن كمال، مكتبة مدبولى، مصر.

٣٠-**تاريخ مصر الحديث**، جورجى زيدان، دار الهلال، مصر.

٣١-تاريخ عمرو بن العاص، د. حسن إبراهيم، مطبعة المعارف سنة ١٩٢٦، مصر.

٣٢-تحفة الأشراف، الإمام المزى، بهبواندى، بونباى، الهند.

٣٣-تاريخ البصروى، علاء الدين البصروى الشافعى، دار المأمون، دمشق.

٣٤-تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، عبدالله الشرقاوى، المطبعة العثمانية، مصر، سنة١٣٠٤هـ.

٣٥-التراتيب الإدارية، عبدالحى الكتانى، دار البيان العربى، بيروت.

٣٦-تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلانى، المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

٣٧-تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلانى، دار صادر، لبنان..

٣٨-الجغرافيا التاريخية الإسلامية، محمد أحمد حسونة بك، مطبعة لجنة البيان العربى، مصر.

٣٩-حسن المحاضرة، جلال الدين السيوطى، وزارة الثقافة، مصر.

٤٠-حضارة العرب، جستاف لبيون، ترجمة عادل زعيتر، عيسى البابى الحلبى، مصر.

٤١-الحضارة الإسلامية، سامى اليافى، العالم العربى، مصر.

٤٢-حوليات الإسلام، أحمد عطية الله، دار التراث، مصر.

٤٣-حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوى، دار التراث الاسلامى، بيروت.

٤٤-الخراج والنظم المالية، د. ضياء الدين الريس، مكتبة الأنجلو، مصر.

٤٥-الخطط التوفيقية، على باشا مبارك، مركز تحقيق التراث، مصر.

٤٦-الخطط والآثار، المقريزى، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

٤٧-**دول العرب وعظماء الإسلام**، أحمد شوقى، مطبعة مصر، سنة ١٩٣٣م، مصر.

٤٨-**الديارات**، أبوالحسن على بن على الشابشتى، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المثنى، بغداد.

٤٩-**الدين والنبوة فى مصر قبل الإسلام**، د. عبدالصبور شاهين وإصلاح الرفاعى، الزهراء للاعلام العربى، مصر.

٥٠-**دير طور سيناء**، أفا نجلوس بايا يواند، إصدار طور سيناء، مصر.

٥١-**ديوان حافظ إبراهيم**، الشاعر حافظ إبراهيم، محمد أمين دمج، بيروت.

٥٢- **ديوان مجد الإسلام**، أحمد محرم، مطبعة المدنى، مصر

٥٣-**الذخائر والتحف**، الرشيد بن الزبير تحقيق محمد حميدالله، دائرة المطبوعات، الكويت.

٥٤-**رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ترجمة د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة العامة للكتاب، مصر.

٥٥-**رحلاتى إلى الديار الإسلامية**، محمد محمود الصواف، دار القرآن الكريم، لبنان.

٥٦- **رسائل الخلفاء الراشدين**، د. محمد سليمان فرج، رسالة دكتوراه، الأزهر.

٥٧-**الروض الأنف**، أبو القاسم السهيلى، مطبعة عباس شقرون، مصر.

٥٨-**سنن أبى داود**، أبوداود السجستانى، دار الفكر، بيروت.

٥٩-**سيرة ابن هشام**، أبو محمد بن هشام، المكتبة المصرية التجارية، سنة١٩٣٧م.

٦٠-**السير والمغازى**، ابن اسحق، تحقيق زهير زكار ، دار الفكر - لبنان.

٦١-**سير أعلام النبلاء**، الذهبى، مؤسسة الرسالة، سوريا.

٦٢-**الشوقيات**، أحمد شوقى، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

٦٣-**شذرات الذهب**، ابن عماد الحنبلى، دار الفكر، لبنان.

٦٤- شرح حماسة أبى تمام للأعلم الشنتمرى، تحقيق د. على المفضل حمودان، دار الفكر المعاصر، لبنان.

٦٥-**شمس العرب تسطع على الغرب**، زيجريد هونكه، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقى، دار الآفاق ، لبنان

٦٦-**صبح الأعشى فى صناعة الانشا**، القلقشندى، وزارة الثقافة، مصر.

٦٧-**ضوء السارى فى معرفة خبرتميم الدارى**، المقريزى تحقيق د. محمد عاشور، دار الاعتصام، مصر.

٦٨-**الطبقات**، ابن سعد، دار صادر، لبنان.

٦٩-**عالم الإسلام**، د. حسين مؤنس، الزهراء للاعلام العربى، مصر.

٧٠-**العبر فى خبر من ذهب**، الحافظ الذهبى، المطبوعات والنشر، الكويت.

٧١-**العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ابن خلدون، دار الكتاب اللبنانى، لبنان.

٧٢-**عجائب الآثار فى التراجم والأخبار**، عبدالرحمن الجبرتى، لجنة البيان العربى، مصر.

٧٣-**عمرو بن العاص**، عباس محمود العقاد، كتاب اليوم، مصر.

٧٤-**عمرو بن العاص بن يدى التاريخ**، عبدالخالق أبورابية، الزهراء للاعلام العربى، مصر.

٧٥-**عمرو بن العاص**، عبدالسلام العشرى، وزارة التعليم، مصر.

٧٦-**عمرو بن العاص**، محمد صبيح عبدالقادر، كتاب الشهر، مصر.

٧٧-**عصر ما قبل الإسلام**، محمد مبروك نافع، مكتبة النهضة المصرية، مصر.

٧٨-العقد الثمين، تقى الدين الفاسى المكى، مؤسسة الرسالة، لبنان.

٧٩-**العقد الفريد**، ابن عبدربه الأندلسى، دار الكتاب العربى، لبنان.

٨٠-**العهد القديم والعهد الجديد**، الجمعية الأمريكية سنة ١٨١٦، نيويورك، ترجم فى لبنان.

٨١-**عيون الأثر**، ابن سيد الناس، دار الجيل، لبنان.

٨٢-**فتح العرب لمصر**، د. بتلر ترجمة محمد فريد أبوحديد، مطبعة دار الكتب، مصر.

٨٣-**فتوح البلدان**، البلاذرى، دار ومكتبة الهلال، لبنان.

٨٤-**فتوح مصر وأخبارها**، ابن عبدالحكم، مكتبة المثنى بغداد.

٨٥-**الفخرى فى الآداب السلطانية**، محمد بن على بن طباطبا، مكتبة عز للتوريدات مصر.

٨٦-**فوات الوفيات**، محمد بن رشاد الكتبى، دار صادر، لبنان.

٨٧-**فى النظام المالى الإسلامى**، د. محمد أحمد سراج، دار العروبة، الكويت.

٨٨-**الفصل فى الملل والنحل**، ابن حزم، مطبعة صبيح، مصر.

٨٩-**القاهرة**، د. جمال حمدان، دار الهلال ، مصر.

٩٠-**قصة الحضارة**، وول ديورانت وزوجته ترجمة محمد بدران، الإدارة التعاونية الثقافية، الرباط.

٩١-**الكامل فى التاريخ**، ابن الأثير، دار الكتب العلمية، لبنان.

٩٢-الكامل فى اللغة والأدب، المبرد، مطبعة الاستقامة، مصر.

٩٣-الكنائس القبطية بالقاهرة، د. رؤوف حبيب، مكتبة المحبة، مصر.

٩٤-كنائس المشرق، د. عزت زكى، دار الثقافة، مصر.

٩٥-كنز العمال، علاء الدين البرهان فورى، مؤسسة الرسالة، لبنان.

٩٦- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت

٩٧-مآثر الخلافة، القلقشندى، وزارة الإرشاد، مصر.

٩٨-مئتا عام على حملة المنافقين الفرنسيين، د. زينب عبدالعزيز، دار النهار، مصر.

٩٩-المُحبّر، أبوجعفر البغدادى، المكتب التجارى، بيروت.

١٠٠- مجمع الزوايد، الحافظ الهيثمى، مكتبة القدس، مصر.

١٠١- مختصر تاريخ الأمم، حسن أفندى فوزى، مطبعة المقتطف، سنة١٨٩٢، مصر.

١٠٢- المدخل الشرقى لمصر، د. عباس عمار، المعهد الفرنسى، مصر.

١٠٣- المدخل الفقهى العام، د. مصطفى الزرقا، وزارة الأوقاف، الكويت.

١٠٤-مروج الذهب، المسعودى، دار الفكر ، بيروت.

١٠٥- مساجد مصر وأولياؤها، د. سعاد ماهر، المجلس الأعلى للثقافة، مصر.

١٠٦-مصر فى ظلال القرآن، عبدالحكيم محمد عوض، المؤلف - مصر.

١٠٧-معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية، د. ناريمان عبدالكريم، الهيئة العامة للكتاب، مصر.

١٠٨-**معاملة غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى**، د. إدوار غالى الذهبى، مكتبة غريب، مصر.

١٠٩-**معجم البلدان**، ياقوت الحموى، دار صادر، بيروت .

١١٠- **المعجم الوسيط**، مجموعة من العلماء، المجمع اللغوى، مصر.

١١١-**الملل والنحل**، الشهرستانى، مطبعة صبيح، مصر.

١١٢- **موسوعة تاريخ مصر**، أحمد حسين، دار الشعب، مصر.

١١٣-**موسوعة التاريخ الإسلامى**، د. أحمد شلبى، مكتبة نهضة مصر، مصر.

١١٤-**الموسوعة العربية المسيرة**، مجموعة علماء، دار الشعب، مصر.

١١٥-**النجوم الزاهرة**، ابن تغرى بردى، وزارة الثقافة، مصر.

١١٦-**نسب قريش**، المصعب الزبيرى علق عليه ليفى بروفنسال، دار المعارف، مصر.

١١٧-**النقود واستبدال العملات**، د. على السالوس، دار الاعتصام، مصر.

١١٨-**النكت الظراف**، ابن حجر العسقلانى، بهواندى، بونباى، الهند.

١١٩-**نهاية الأرب**، شهاب الدين النويرى، دار الكتب، مصر.

١٢٠-**نهر التاريخ الإسلامى**، د. إبراهيم العدوى، دار الفكر العربى، مصر.

١٢١-**النموذج المصرى للوحدة الوطنية**، د. إدوار غالى الذهبى، الهيئة العامة للكتاب، مصر.

١٢٢-**ورقات من الحضارة العربية، بافريقيا**، حسن حسنى عبدالوهاب، مكتبة المنار، مصر.

١٢٣-**وفيات الأعيان**، ابن خلكان، دار الثقافة، لبنان.

١٢٤-**وصف مصر**، علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب، مكتبة مدبولى، مصر.

الفهرس

هذا الكتاب

كان الفتح الإسلامى لمصر بداية تحرك الحضارة الإسلامية خارج قارة آسيا، إذ كانت الدعوة فى الجزيرة العربية التى قادتها إلى ما حولها من البلاد كالشام فى الشمال والعراق، وفارس فى الشرق، واليمن فى الجنوب، ودخلت مصر فى الإسلام بما تمثله من وزن حضارى ودينى ممتد فى أعماق التاريخ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن مصر كانت ولا زالت البوابة الكبرى لإفريقية، وكان دخول مصر فى الإسلام مقدمة لدخول إفريقية فى الإسلام بدأ بالزحف نحو شمال إفريقية وبلاد كثيرة فى غربها ووسطها.

ونظرًا إلى أهمية هذا الفتح الإسلامى لمصر وخطورته، فقد ركز أعداء الإسلام نقدهم بل وتهجمهم على هذا الفتح زاعمين أنه كان هجمة شرسة لفرض العقيدة بالسيف، وهى دعوى قديمة لا تزال أجيال المستشرقين وأشباههم ترددها.

وهذا الكتاب هو الإجابة العلمية والموضوعية على هذه الادعاءات، وهو كما سيرى القارئ - يمثل (بانوراما) الفتح الإسلامى بكل وقائعه وأحداثه وأمجاده، حتى يرى الناس صحابة محمد ﷺ وهم يحملون عقيدتهم فى قلوبهم، ويفيضونها على أرض مصر، علما [illegible]قا وتعاملاً مثاليا ودعوة إلى الله بالأسوة الحسنة والقدو[illegible]لطيبة، والحب، الذى غمر علاقات المصريين بالعقيدة ود[illegible]ا، فلم يلبثوا أن دخلوا فى دين الله أفواجًا، واعتز الإسلام به[illegible] كما بشر بذلك رسول الله ﷺ. فهم - كانوا ومازالوا فى رباط من أجل الإسلام إلى يوم القيامة.

وهذا الكتاب تنشره - دار قباء - بمناسبة مرور أربعة عشر قرنًا كاملة على الفتح الإسلامى لمصر.

أحمد غريب